



كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية

قسم الحضارة الإسلاميّة

الفقهاء والحياة السياسية في المغرب الأوسط خلال القرنين (9-10هـ/15-16م)

مذكّرة مقدّمة لنيل شهادة الماجستير في التّاريخ والحضارة الإسلاميّة

إعداد الطّالب: كرطالي أمين

إشراف: د. محمّد بوركبة

لجنة المناقشة

أعضاء اللجنة	الجامعة	الصفة
أ.د: بن معمّر محمّد	جامعة وهران	رئيسا
د: بوركبة محمّد	جامعة وهران	مقرّرا
د: الحمدي أحمد	جامعة وهران	مناقشا
د: بتغبور عبد القادر	جامعة وهران	مناقشا

السنة الجامعية: 1434-1435هـ/2013-2014م

بسم الله الرحمن الرحيم

عرف المغرب الأوسط في القرنين التّاسع والعاشر الهجريّين (9-10هـ/15-16م) مرحلة حاسمة في تاريخه، وهي المرحلة التي كشفت المصادر التّاريخيّة، - الإسلاميّة منها والمسيحيّة-، الغطاءَ عن جوانبَ هامّةٍ منها؛ وقد أبرزت هذه المصادر الأدوار التي قامت بها النّخب السياسيّة والعسكريّة في الحياة السياسيّة. إلاّ أنّ أدوار نُخب فاعلة أخرى ظلّ يكتنفها الكثير من الغموض؛ إذ أنّها لم تحظ باهتمام خاص، عدا بعض الإشارات المبثوثة هنا وهناك. ومن تلك النّخب طائفة الفقهاء.

يعتبر الفقهاء من أهمّ النّخب الدّينيّة والعلميّة في التّاريخ الإسلامي، وهي النّخبة التي كثيرا ما ساهمت في بناء الحياة السياسيّة؛ بما تراهُ لنفسها من حقّ الرّقابة على السّلطة الحاكمة، وأيضا بسبب ضمّ السّلاطين للفقهاء؛ قصد إضفاء الشرعيّة على حكمهم وسياساتهم، مع ما كان يحظى به الفقهاء من مكانة اجتماعيّة وعلميّة بارزة.

وإذا كان ابن خلدون قد صرّح في مقدّمته بأنّ الفقهاء هم أبعد النّاس عن السّياسة، فإنّ كتبَ التّاريخ الإسلامي حُبلى بأسماءِ فقهاءٍ كُثرٍ كان لهم حُضورٌ قويٌّ في الحياة السياسيّةِ؛ حيثُ أثّروا في الواقع، وتأثّروا بمجرياته، وفي مقابل هؤلاء نجد صنفين من الفقهاء؛ فصنف تركوا أسوأ الأثر ، إذ عبثت بهم أيدي الحكّام، ولم يكن وجودهم في البلاطات إلّا تلميعا لسياسات السّلاطين، وتزيينا لمجالسهم، وهم المعنيّون بقول ابن حزم: ((لا يغرنّكم الفساق المنتسبون إلى الفقه، واللّابسون جلود الضأن على قلوب السّباع، المزينون لأهل الشر شرّهم، الناصرون لهم على فسقهم)). وصنف آخر نأى بنفسه عن الأحداث، واعتزل مجالس السّلاطين، ولم يظهر له أيّ أثر يستحقّ أن يُذكر في صفحات التّاريخ.

أمام هذه الحقائق التّاريخيّة، سيُعالج موضوع الفقهاء والحياة السياسيّة في المغرب الأوسط في القرنين التّاسع والعاشر الهجريّين؛ من خلال الإجابة **على الإشكاليّة الرّئيسة**، وهي:

- كيف كانت مشاركة فقهاء المغرب الأوسط في القرنين التّاسع والعاشر الهجريّين في الحياة السياسيّة؟ و ما هي أهمّ مواقفهم، وأبرز ردود أفعالهم؟ وهل كانت هذه الرّدود والمواقف مشرّفة و متوافقة مع المطلوب؟.

كما سيُحاول الباحث الإجابة على **بعض الإشكالات الفرعيّة** وهي:

-ماهي أهم التّحوّلات السياسيّة والاجتماعية التي عرفتها بلاد المغرب الأوسط في القرنين التّاسع والعاشر الهجريّين؟ وهل تهيّأت لفُقهاء المغرب الأوسط في هذه الفترة الظّروف المساعدة على اتّخاذ مواقف سياسيّة صائبة؟ وهل كانوا يتّصفون بقوّة الشّخصيّة ، ورصانة البناء الفكري؟ أم أنّهم خانتهم الظّروف، وتجاوزتهم الأحداث.

إنّ الدّوافع الموضوعيّة والذاتيّة حاضرة في هذا البحث، **فالدّوافع الموضوعيّة** تمثّلها أهميّة فئة الفقهاء في المجتمع الإسلامي، باعتبارهم أهمّ مرجعيّة دينيّة، وأبرز نُخبة ثقافيّة كان المسلمون ولا يزالون يستفتونهم، ويستشيرونهم، ويقتدون بهم. كما أنّ بلاد المغرب الأوسط في القرنين التّاسع والعاشر الهجريّين شهدت فترة فاصلة ظهرت فيها الكثير من المتغيّرات ؛ ومن ثمّ وجب الإلمامُ بمواقف الفقهاء، و معرفة أهمّ أدوارها السياسيّة في هذه الفترةِ قصْد تفسير الكثير من الظّواهر، والإجابة عن العديد من الإشكالات.

أمّا **الدّوافع الذّاتيّة**؛ فمنها الإعجاب بمثل هذه المواضيع التي لا تزال تُطرح في واقعنا المعاصر. فمسألة الفقهاء والحياة السياسيّة لاتزال غضّةً طريّةً في واقعنا المعاش، بين مرحّب بتدخّل الفقهاء في السّياسة، وبين رافض له بدعوى وجوب فصل الدّين عن الدّولة، ورفض الدّولة الدّينيّة، ولا شكّ أنّ التّاريخ في جَعبته أجوبةٌ شافيةٌ، يمكن الاستفادة منها في الواقع، كما أنّ الإحاطة بتجارب الفقهاء المتقدّمين قد يُساعد على إيجاد رؤيةٍ توافقيّة.

عولج هذا البحث بإتّباع كلٍّ من **المنهج الوصفي**، و**التّحليلي**؛ ويتجلّى المنهجُ الوصفيُّ أثناء سرد الأحداث التّاريخيّة، و التّرجمة لبعض الفُقهاء والأعلام؛ أمّا المنهج التّحليلي فيظهر من خلال تفسير أدوار الفقهاء وتقييمها.

واجهتْ الباحثَ عدّةُ **مُشكلات**؛ منها اتّساع المجال الجغرافي للدّراسة، لخضوع إقليمي المغرب الأوسط، - الشّرقي منه والغربي-، لسُلطتين مختلفتين، ممّا يدفع إلى التّعامل مع مصادر الدّولتين الحفصّية والزيّانيّة. ومن الصّعوبات أيضا ما يتميّز به المجال الزّمني من الشُّمول المستغرق لنهاية الفترة

الوسيطة، وبداية العصر الحديث، والتي جعلت الباحث يرجعُ إلى مختلف مصادر الفترتين. يضاف إلى ذلك ما يتطلّبه هذا البحث من تتبّع دقيق للمصادر التّاريخيّة بشتّى أنواعها، ولملمت الإشارات المبثوثة هنا و هناك.

تمّ تقسيم هذا البحث إلى مقدّمة، وأربعة فصول، وخاتمة ؛ ففي **المقدّمة** تمّ التّعريف بالموضوع، وأسباب اختياره، و طرح أهمّ إشكالات البحث، وتحديد المناهج المتّبع فيه، وأهمّ المشكلا ت التي اعترضت الباحث، وذكرت الهدف من البحث وأهمّ الدّراسات السّابقة، وإبراز أهمّ المصادر والمراجع المعتمد عليها.

ثمّ قام الباحث **بالتّمهيد للموضوع** بتحديد المفهوم الجغرافي للمغرب الأوسط؛ مبيّنا تباين رؤى الجغرافيّين حول حدود هذا الإقليم.

وفي الفصل الأوّل تكلّم الباحثُ عن ملامح شخصيّة فقهاء المغرب الأوسط في القرنين (9-10هـ/15-16م)؛ وذلك بالتّعرّض لأبرز المؤثّرات الفكريّة والدّينيّة والسياسيّة والاجتماعية في هذه الشّخصيّة، وانعكاس هذه المؤثّرات على الفقهاء، ليتطرّق بعدها لمكانة فقهاء المغرب الأوسط العلميّة والاجتماعيّة من خلال استقراء كتب التّراجم والفهارس وغيرها.

وفي **الفصل الثّاني** عولجت قضيّة ممارسة فقهاء المغرب الأوسط للسّلطة في القرنين التّاسع والعاشر الهجريّين، فسعى الباحثُ إلى تحديد أهمّ المقوّمات التي ساهمت في تنامي سلطة الفقهاء. مع الإشارة إلى سلطة فقهاء المغرب الأوسط قبل القرن التّاسع الهجري، وأُعقِب ذلك بالكلام عن مظاهر سلطة فقهاء القرنين التّاسع والعاشر الهجريّين، وخُتم هذا الفصل بالتّرجمة لفقيهين مارسا السّلطة ؛ هما محمّد بن عبد الكريم المغيلي، وأحمد بن يوسف الملياني.

وفي الفصل الثّالث قام الباحثُ برصد أهمّ الأحداث السياسيّة في القرن التّاسع الهجري(9هـ/15م)؛ كمسألة ضعف السّلطة المركزيّة، وما نجم عنها من صراعات داخليّة، وتفشي الظّلم بكلّ أنواعه، وتسلّط شيوخ القبائل، يُضاف إليها قضيّة تهاوي المدن الأندلسيّة، ثمّ سقوط غرناطة آخر معاقل الإسلام بالأندلس. وحاول الباحثُ إبراز مواقف الفقهاء من هذه الأحداث السياسيّة.

أمّا الفصل الرّابع فتناول أهمّ الأحداث السياسيّة في القرن العاشر الهجري، والتي تمّ إجمالُها في الغزو الإسباني لسواحل المغرب الأوسط، ثمّ ظهور إيالة الجزائر العثمانيّة. كما كشف هذا الفصل عن مواقف الفقهاء السياسيّة في هذه الفترة، وأهمّ ردود أفعالهم.

وفي الخاتمة كانت الإشارة إلى أبرز النّتائج التي وصل إليها البحث.

يشار إلى أنّ الدّراسات التي تناولت موضوع "الفقهاء والحياة السياسيّة في المغرب الأوسط"، –خصوصا في القرنين التّاسع والعاشر–، قليلة جدّا، ومن بين هذه الدّراسات : أطروحة دكتوراه لسليمان ولد خسال ، "**جهود فقهاء المغرب العربي في بناء النظام السياسي الإسلامي بين سنة(633 – 922 هـ)**"، و هي دراسة تناولت الموضوع بنظرة فقهية. ورسالة ماجستير لرفيق خليفي بعنوان "**البيوتات الأندلسيّة في المغرب الأوسط من نهاية القرن 3هـ إلى نهاية ق 9هـ**"، أشار فيها المؤلّف باقتضاب إلى بعض الفقهاء من أبناء الأسر الأندلسيّة في القرن التّاسع الهجري. ومن بين هذه الدّراسات نجد مقال ليحي بوعزيز " **علماء أسرة العقباني ودورهم في التّوفيق بين عرشي تونس وتلمسان**"، والذي استفدت منه في قضيّة مساعي الفقهاء في الإصلاح، و اضطلاعهم بمهام سياسيّة رفيعة. ونفس الشّيء يقال عن مقال محمّد بوشنافي " **موقف علماء تلمسان من التّواجد العثماني في الجزائر (ق10–13هـ)**"، الذي أفادني كثيرا في تحديد مو اقف بعض الفقهاء من الحكم العثماني، وأهمّ الأدوار التي مارسوها.

يُضاف إلى ذلك بعض ال دّراسات التي تناولت الموضوع من خلال التّرجمة لفقيه من فقهاء المغرب الأوسط في القرنين التّاسع والعاشر الهجريّين، ومن أهمّها رسالة الماجستير لأحمد الحمدي **التي حملت عنوان الفقيه المصلح محمّد بن عبد الكريم المغيلي –الإطار المعرفي والتّعامل مع المكانيّة**. ورسالة ماجستير أخرى للحاج أحمد نور الدّين بعنوان" **المنهج الدّعوي للإمام المغيلي من خلال الرّسائل التي بعثها للملوك والأمراء والعلماء**" ، وهما الرّسالتان اللّتان استفدت منهما في كشف جوانب كثيرة من حياة محمّد بن عبد الكريم المغيلي وعصره.

وقد استفدت منهجيا من دراسات أخرى تناولت موضوع الفقهاء والحياة السياسيّة في إطار جغرافي مختلف أو في فترة سابقة للقرن التّاسع الهجري كرسالة الماجستير لصابرة خطيف، تحت عنوان "**الفقهاء والحياة السياسيّة بالمغرب الأوسط (633هـ–791هـ)**".و رسالة " **الرّعية والسّلطة في بجاية الحفصيّة**" لبريكة مسعود.

ولإنجاز هذا البحث تمّ الاعتماد على مجموعة من المصادر والمراجع، ككتب الطّبقات والتّراجم، يأتي على رأسها:

نيل الابتهاج بتطريز الدّيباج لأحمد بابا التمبكتي؛ وهو تذييل على كتاب الدّيباج المذهّب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون المالكي (ت799هـ)، و يعدُّ من أبرز كتب التّراجم ، وقد اشتمل على الكثير من تراجم فقهاء المغرب الأوسط في القرنين التّاسع والعاشر الهجريّين، وانفرد بمعلومات قيّمة عن بعض الفقهاء، والتي قد يكون استقاها من الرّواية الشفويّة وغيرها، إلى أنّه في بعض التّراجم يعتمد على النّقل عن بعض الكتب مع الاختصار دون إضافة أيّ جديد.

أمّا كتاب الضوء اللّامع لأهل القرن التّاسع لشمس الدّين السّخاوي ؛ فقد حاول صاحبه أن يستقي أخبار أغلب فقهاء العالم الإسلامي في القرن التّاسع الهجري. وبذلك تناول بالتّرجمة الكثيرَ من فقهاء وعبّاد المغرب الأوسط ؛ من أبناء القرن التّاسع الهجري ، لا سيما الذين نبغوا في البلاد المشرقيّة، وبيّن هجراتهم، ومكانتهم العلميّة والاجتماعية في البلاد التي هاجروا إليها ، و هي التّراجم التي عادة ما تتّسم بالاختصار الشّديد.

كما تمّ الاعتماد على بعض المصادر المناقبيّة ؛ ككتاب **روضة النّسرين في التّعريف بالأشياخ الأربعة المتأخّرين** لابن صعد التّلمساني ؛ وهو كتاب خصّه صاحبه بالتّرجمة لمحمّد بن عمر الهواري، والحسن أبركان، وإبراهيم التّازي، وأحمد الغماري. وهي الشخصيّات التي يغلب عليها التصوّف العملي، ويعطينا الكتاب صورة واضحة المعالم عن المستوى الثّقافي والحياة الاجتماعية لفقهاء هذه الفترة، وعلاقتهم بالسّلاطين، كما يوجد في ثناياه إشارات كثيرة عن الأوضاع السياسيّة في تلمسان أثناء هذه الفترة.

أمّا كتاب **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان** لابن مريم الملّيتي التّلمساني؛ فيشبه كتاب ابن صعد في طرحه، لكنّه يتميّز بتناوله لكثير من فقهاء المغرب الأوسط في هذه الفترة، لا سيما فقهاء تلمسان، وقد اعتمد فيه ابن مريم على الرّواية الشفويّة، ويُلاحظُ أنّ كتاب **البُستان** حافلٌ بمناقب الفقهاء والأولياء وكراماتهم، وهي المناقب التي غالبا ما تشيدُ بالفقيه المحتسب الزاهد الذي لا يداخل السّلطان، ولا يخافه. كما أنّ ابن مريم قد ترجم لبعض المغمورين الذين عُرفوا بالعزوف عن طرق أبواب السّلاطين، وسلوك طريق التقشّف والزّهد.

ومن أهمّ كتب المناقب أيضا، يوجدُ كتاب "**بستان الأزهار في مناقب زمزم الأبرار ومعدن الأنوار** لمحمّد بن محمّد الصبّاغ؛ والذي خصّ فيه صاحبُه أحمدَ بن يوسف الملياني بالتّرجمة، مشيدا بكراماته، ومناقبه؛ و هي التّرجمة التي تحمل في طيّاتها الكثير من المعلومات عن الحياة السياسيّة والاجتماعية والثّقافيّة في الإقليم الغربي لبلاد المغرب الأوسط، وينفرد بمعلومات فريدة عن علاقة العثمانيّين بسكّان قلعة بني راشد، وبأحمد بن يوسف الملياني.

ومن كتب التّراجم المفردة لدينا كتاب؛ **المواهب القدّوسيّة في المناقب السنوسيّة** لمحمّد بن عمر الملّالي: وهو ترجمة خاصّة لمحمّد بن يوسف السنوسي، ولبعض شيوخه ومدرّسيه، ويفيد الكتاب في تصوّر الحياة العلميّة بتلمسان وأهمّ العلوم المدروسة، كما يكشف الكتاب عن علاقة محمّد بن يوسف السنوسي بالمجتمع وبالسّلطة الحاكمة.

أمّا أهمّ كتب التّاريخ التي تمّت الاستفادة منها فنجدُ كتاب **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشّأن الأكبر** لعبد الرّحمن بن خلدون؛ وتمّ الاعتماد فيه على كلٍّ من الجزء الأوّل والسّادس والسّابع، ورغم أنّ هذا الكتاب أُلّف في النّصف الثّاني من القرن الثّامن للهجرة فإنّ أكثر الأحداث التي دوّنها كانت مقدّمات لأحداث القرن التّاسع الهجري، كما أنّ إحاطة ابن خلدون بالقبائل العربيّة ومضاربها، أفاد كثيرا في تصوّر النّسيج الاجتماعي وانعكاساته على الوضع السياسي لبلاد المغرب الأوسط. و لا ننسى أنّ طرح ابن خلدون في المقدّمة يعتبر تشريحا لعصره، وقراءة مُستقبليّة لمصير البلاد المغربيّة، وهو ما ساهم في فهم وتحليل وتعليل الكثير من الظّواهر السياسيّة والاجتماعية والثّقافيّة.

أمّا **الفارسيّة في مبادئ الدّولة الحفصيّة** لابن قنفذ القسنطيني؛ فقد دوّن فيه صاحبه أخبار الدّولة الحفصيّة، مُشيدا في ثناياه بأيّام أبي فارس عزّوز الحفصيّ، إذ تطرّق فيه صاحبه لأيّام أبي فارس، وأعماله، و انفرد بمعلوماتٍ تاريخيّة قيّمة كان أحد شهودها، كإشارته إلى أحوال قسنطينة و موقف فقهائها من الصّراع بين أبناء البيت الحفصي في عهد أبي فارس.

كما اعتمد الباحث على كتاب تاريخ الدّولتين الموحديّة والحفصيّة لأبي عبد الله محمّد الزّركشي؛ وهو أحدُ مصادر الدّولة الحفصيّة، وقد استفدت منه في موضوع الصّراع بين الزيانيين والحفصيّين في

القرن التّاسع الهجري، وتدخّلِ الحفصيّين في شؤون تلمسان ؛ في عهد أبي فارس عزّوز وأبي عمر عثمان، كما تضمّن الكتاب تراجم بعض فقهاء قسنطينة وبجاية.

ومن أهمّ المصادر التّاريخيّة التي تناولت الفترة العثمانيّة **كتاب الغزوات** لمؤلّف مجهول؛ والذي تناول نشأة إيالة الجزائر العثمانيّة، وعرَّف بالإخوة أبناء يعقوب، وأسباب دخولهم أرض المغرب الأوسط، وحروبهم البحريّة والبريّة ضدّ الإسبانيّين وسلاطين فاس وتونس وتلمسان وأمراء تنس وغيرهم. ويوجد إشارات كثيرة عن العلاقة بين الفُقهاء والعثمانيّين.

ونفس الشّيء يمكن قوله عن **مذكّرات خير الدّين بربروس** ؛ والتي أملاها خير الدّين بربروس بطلب من السّلطان العثماني سليمان، وتتّسم بالإشادة بالخلافة العثمانيّة، والإفتخار بإنجازات الإخوة أبناء يعقوب، وتقزيم خصومهم لا سيما في بلاد المغرب الأوسط، وممّا ظهر للباحث أنّ هناك تشابها كبيرا بين ما هو موجود في المذكرات وبين ما هو مذكور في الغزوات، الأمر الذي يوحِي بأنّ صاحبَ الغزوات قد استقى معلومات كثيرة من مذكّرات خير الدّين.

أمّا المصادر الأجنبيّة فأهمّها:

Diego de Haedo: Histoire des rois d'Alger

وهو مصدر مهمّ؛ إذ أنّ المؤلّف عاش في القرن السّادس عشر الميلادي، وقضى مرحلة من حياته في المغرب الأوسط، ونقل معلومات هامّة عن بدايات الحكم العُثماني. كما تطرّق للصّراع بين العثمانيّين والقوى المسيحيّة، ولكنّه يجانب الحقيقة في كثير من المواضع، بسبب تعصّبه ضدّ العثمانيّين، ونزعته المسيحيّة.

Diego de Haedo :Topographie et histoire générale d'Alger ،"la vie à Alger au seizième siècle:

يُعتبر هذا الكتاب مسحا للحياة الاجتماعية في المغرب الأوسط في القرن السّادس عشر الميلادي، ورصدا لأهمّ معطياتها، حيث ذكر هايدو أهمّ العناصر الاجتماعية، وأهمّ العادات والتّقاليد. ومن الملاحظات على هذا الكتاب أنّ المؤلّف يرجع الكثير من العادات والأفكار الخاطئة إلى تعاليم الدّين الإسلامي.

أمّا أهمّ كتب **الجغرافيا والرّحلات**، فيأتي في طليعتها كتاب **وصف إفريقيا** للحسن الوزّان؛ وقد تناول جل أقاليم المغرب الأوسط، وأشار إلى أوضاعها السياسيّة والاجتماعية والدّينيّة، وتطرّق إلى الصّراع بين العثمانيّين والزّعامات المحليّة، و إلى الصّراع بين العثمانيّين والإسبانيّين في أرض المغرب الأوسط، كما أنّ الحسن الوزّان قد قام بتعريف أغلب مدن المغرب الأوسط، وأشار إلى أوائل من أسّسها، والسّلطة الحاكمة بها.

ومنها أيضا كتاب **إفريقيا** لمارمول كربخال؛ والذي يشبه في موضوعه كتاب الحسن الوزّان، كما أنّه يكمّله في بعض الجوانب التي أغفلها صاحب كتاب وصف إفريقيا، غير أنّه يتحامل كثيرا على المسلمين بسبب تعصّبه للمسيحيّة.

أمّا كتاب تمهيد الطّالب ومنتهى الرّاغب إلى أعلى المنازل والمناقب لأبي الحسن علي القلصادي؛ فيحوي عدّة تراجم لفقهاء المغرب الأوسط، لا سيما فقهاء تلمسان، وتبُرز الرّحلة مكانة تلمسان الثّقافيّة. لكنّ القلصادي لم يتطرّق للحياة السياسيّة، و لم يدوّن ملاحظاته عن أهمّ الإنجازات الحضاريّة.

كما استعان الباحث بكتب النّوازل التي ألّفت في القرن التّاسع الهجري، وهي الكتب التي تزخرُ بمادّة علميّة لا يُمكن الاستغناء عنها. فإذا كانت النوازل التي طُرحت على الفقهاء قد سلّطت الضّوء على جوانب مهمّة من الحياة السياسيّة، فإنّ أجوبة الفقهاء قد أبرزت وجهة نظر بعض الفقهاء وحدّدت مواقفهم. وأهمّ هذه الكتب النّوازليّة نجدُ:

كتاب الدّرر المكنونة في نوازل مازونة ليحي المازوني؛ والذي يحوي مادّة علميّة دسمة يمكن استغلالها لرسم صورة حيّة عن الأوضاع السياسيّة والاجتماعية والدّينيّة والفكريّة.

أمّا المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب لأحمد بن يحي الونشريسي؛ فهو أوسع من الدّرر المكنونة، وذلك أنّ الونشريسي نقل فيه عن يحي المازوني، وأبي القاسم البرزلي، وعن فقهاء عصره، وقد تميّز الكتاب بضمّه لفتاوى أحمد بن يحي الونشريسي نفسه ، لا سيما ما تعلّق منها بمسألة التحرّش المسيحي بالسّواحل المغربيّة، وسقوط الأندلس، وغيرها.

ومن بين كتب النّوازل كتاب **جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكّام** لأبي القاسم البرزلي؛ و هو الكتاب الذي أفادني كثيرا في النّوازل التي وردت إلى فقهاء الدّولة الحفصيّة، حيث ساهمت هذه النّوازل في كشف أحوال القسم الشّرقي لبلاد المغرب الأوسط.

هذا البحث يهدف إلى إعطاء صورة حقيقيّة عن تفاعل فقهاء المغرب الأوسط مع الحياة السياسيّة في القرنين التّاسع والعاشر، وأشكال هذا التّفاعل، ثمّ تقييمه، كما يحاول هذا البحث إثارة بعض المواضيع التي تحتاج إلى مزيد من الدّراسة.

الفصل التّمهيدي:

تحديد المفهوم الجغرافي لمصطلح المغرب الأوسط:

إنّ تحديد الإطار الجغرافي للمغرب الأوسط وضبط حدوده خلال القرنين التّاسع والعاشر الهجريّين، أمرٌ مهمّ وعسيرٌ في نفس الوقت، وسيسعى الباحثُ إلى الكشفِ عن رؤى الجغرافيّين، محاولا التّوفيق بينها.

1 – رُؤى الجغرافيّين:

يُعتبر البكري أوّل جغرافيٍ استعمل مصطلح "المغرب الأوسط"، جاعلا من تلمسان قاعدةً له [1]، لكنّ هذا المصطلح لم يعرف حدودا ثابتة متّفقا عليها بين الجغرافيين، بسبب اختلاف معايير تقسيم الأقاليم. حيث ظلّ إقليم بجاية[2] و تلمسان بدرجة أقل مختلفٌ في تبعيّتها لبلاد المغرب الأوسط.

ومرجع هذا الاختلاف يكمن إلى ديمومة الحراك القبلي، خصوصا بعد دخول العرب أرض المغرب ابتداء من سنة 443هـ[3]، يضاف إليه كثرة الاضطرابات السياسيّة، وما نجم عنها من تذبذب في التبعيّة. وهو ما جعل رؤى الجغرافيين تعرف تباينا من حيث المعايير المتّبعة في التّقسيم، خصوصا مع غياب فواصل جغرافيّة حقيقيّة بين أقاليم البلاد المغربيّة.

---

[1]–البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ،دار الكتاب الإسلامي،القاهرة، (د.ت)،ص76، الطاهر بونابي، التصوف في الجزائر خلال القرنين 6و7الهجريين /12–13 الميلاديين، عين مليلة: دار الهدى، الجزائر، 2004، ص ص 29–33؛ مزدور سمية، المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط ، 588–927هـ/1192–1520م ، ماجستير، جامعة منتوري، قسنطينة، 2008–2009 م، ص ص 25–32.

[2] – إقليم عاصمته بجاية، وهي مدينة أسسها الفينيقيون، وسمّوها صلدة، ثمّ احتلّها الرّومان ودعوها صلداي، وخرّبها بعد ذلك الوندال والبربر إلى أن جدّدها النّاصر الحمّادي عام 468هـ/1076، ودعاها النّاصريّة، ثمّ سميت بجاية باسم قبيلة بربريّة تقطن حولها، وتحيط ببجاية أسوار عالية متينة. ينظر:الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمّد حجي ومحمّد الأخضر، ط2، منشورات الجمعيّة المغربيّة للتّأليف والتّرجمة والنّشر ، بيروت: دار الغرب الاسلامي، 1983م، ج2ص50؛ أحمد توفيق المدني،كتاب الجزائر، الجزائر: المكتبة الوطنيّة للكتاب،1984، ص ص196–197.

[3]–عبد الرّحمن ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون"ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشّأن الأكبر "، تحقيق خليل شحادة وسهيل زكار، بيروت:دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، 2001، ج6ص ص17–20؛ النّويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق عبد المجيد ترحيني، ط1، بيروت: دار الكتب العلميّة، 2004،ج24ص117.

فإذا كان البكري قد جعل المغرب الأوسط هو ديار زناتة، و قاعدتها تلمسان التي عرفت أوّل إمارة زناتيّة[1]، فإنّ أبا عبد الله محمّد بن محمّد الإدريسي (ت 560هـ/1164م) قد جعل من بجاية قاعدة للمغرب الأوسط مراعيا في ذلك الواقع السياسي، باعتبار بجاية عاصمة الدّولة الحماديّة فيقول :((مدينة بجاية في وقتنا هذا مدينة المغرب الأوسط وعين بلاد بني حماد))[2]. معتبرا المدن من بجاية إلى تنس تابعة لهذا الإقليم، بينما استثنى تلمسان، والتي كانت خاضعة للدّولة اللّمتونيّة[3].

أمّا عبد الواحد المراكشي (ت647هـ/1249م)، فيرى أنّ بونة[4] هي أوّل حدّ لبلاد أفريقية، وأنّه من بجاية حتّى سويسرات هي الحدّ بين لمتونة وصاحب بجاية الحمّادي[5]. بينما اعتبر ابن سعيد المغربي(ت685 هـ/1286م) إمتداد المغرب الأوسط من بجاية إلى قسنطينة؛ فأخرج مدينة بونة في الشّرق و تلمسان في الغرب من إقليم المغرب الأوسط[6]. وتبعه في ذلك ابن فضل الله العمري (ت1348/749م)؛ فأضاف مملكة تلمسان إلى المغرب الأقصى، مترجما بذلك ما عايشه من سيطرة المرينيين على بلاد المغرب الأوسط[7].

أمّا صاحب الرّوض المعطار، والذي يُعدّ ناقلا عمّن سبقه، فذكر أنّ بجاية هي قاعدة المغرب الأوسط[8]، وأنّ الحدّ ما بين المغرب الأوسط وبلاد المغرب الأقصى هي تازة في الطول وفي العرض البلاد الساحلية مثل وهران ومليلية، معتبرا تلمسان قاعدة أخرى للمغرب الأوسط.[9]

وبالنّسبة لحسن الوزّان(ت بعد 957هـ/1550) فإنّه جعل مدينة الجزائر[1] هي الحدّ الشرقي لمملكة تلمسان، بينما ضمّ مملكة بجاية لحاضرة تونس[2]؛ و جعل مملكة تلمسان تشمل إقليم بني راشد

---

[1] – البكري، المغرب، ص ص76-77.

[2] –محمّد الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، بور سعيد:مكتبة الثّقافة الدينيّة(د.ت)، ص260.

[3] – المصدر نفسه، ص260.

[4] –من أسمائها أيضا عنّابة وبلد العنّاب، وهي مدينة تقعُ بأقصى الشّرق الجزائري، على الحدود التونسيّة.

[5] –عبد الواحد المرّاكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمّد سعيد العريان، الجمهوريّة العربيّة المتّحدة: المجلس الأعلى للشّؤون الإسلاميّة، ص ص272-273.

[6] – ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، ط2، الجزائر: ديوان المطبوعات الجزائريّة، 1982، ص ص140-142.

[7] –مسالك الأبصار وممالك الأمصار، منشورات معهد تاريخ العلوم العربيّة الإسلامية جامعة فرانكفورت :ألمانيا،1988 ،ج4ص ص51 - 68.

[8] –محمّد بن عبد المنعم الحميري، الرّوض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عبّاس، ط2، مكتبة لبنان، 1984، ص80.

[9] – المصدر نفسه، ص ص80 -81، وص ص 135-136.

الذي يبدأ من وهران [3] إلى دلّس ويضمّ شرشال ومليانة [4] وتنس ومازونة ودلس وتنس والجزائر [5]. أمّا مارمول كربخال(ق16م/10هـ) فقال أنّ المغرب الأوسط هو حقيقة عن القسم الممتدّ من تلمسان إلى حدود مملكة بجاية – مدينة القل–، و جعل مدينة القل هي بداية إقليم قسنطينة التّابع جغرافيا لمملكة بجاية[6]. و تعرّض مارمول إلى اختلاف الجغرافيّين حول إقليم بجاية، ثمّ بيّن أنّ إدراجه ضمن أقاليم مملكة تلمسان هو قول خيرة الكُتّاب[7].

و هكذا يظهر أنّ أغلب الجغرافيّين قالوا بتبعيّة تلمسان للمغرب الأوسط، إذ اعتُبرت قاعدة له، بينما كثُر الاختلاف حول بجاية. و التي قال مارمول أنّ إدراجها ضمن أقاليم مملكة تلمسان هو قول خيرة الكتّاب، و ممّا يُعزّز القول بتبعيّة بجاية للمغرب الأوسط، ما أشار إليه الغبريني في كتاب " **عنوان الدّراية**" عند ترجمته لأبي محمّد عبد الحق البجائي بقوله : ((لم يكن في وقته بمغربنا الأوسط مثله)) [8]،

---

[1]–قال حسن الوزان:معناها الجزر ،سميت بذلك لأنّها مجاورة لجزر ميورقة ومنورقة واليابسة، لكن الاسبانيين يسمونها ألجي. والمدينة قديمة من بناء قبيلة إفريقية تدعى مزغنة، فأطلق عليها القدماء هذا الاسم...وفي الضواحي سهول جميلة جدا، لا سيما سهل المتيجة الذي يبلغ طوله حوالي خمسة وأربعين ميلا وعرضه وستّة وثلاثين ميلا. وفي "كتاب الجزائر" أنّ سبب تسميتها بمدينة الجزائر نسبة لجزر صخريّة أمام مركز المدينة، حيث كانت تقيم قبيلة بربريّة تدعى بني مزغنة . ينظر: حسن الوزان، وصف إفريقيا، ج2ص37؛ توفيق المدني، كتاب الجزائر، ص206.

[2]– حسن الوزان، المصدر السابق، ج2ص49.

[3]–مدينة على ساحل البحر، قيل إنّها أسّست في سنة 290، وبناها جماعة من الأندلسيين البحريّين بسبب المرسى، للفتنة مع قبائل البربر المجاورين لها. ويرى أحمد توفيق المدني أنّ الأندلسيين قاموا بتجديدها حيث كانت قرية بربرية ضعيفة اسمها إيفري، أي الكهف، وعلى ميلين منها المرسى الكبير، به ترسو السّفن الكبار وهو يستر من كلّ ريح . ينظر: الحميري ، المصدر السّابق، ص ص612-613؛ توفيق المدني، المرجع السّابق، ص254.

[4]–مليانة مدينة تقع على بعد 130كم غرب عاصمة الجزائر، يحدّها وادي بزّيط شرقا ووادي الرّيحان غربا. ينظر:محمّد حاج صادق، مليانة ووليّها سيدي أحمد بن يوسف، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، 1964، ص20.

[5]–حسن الوزّان، المصدر السابق، ج1ص ص28 -31 و ج2 ص ص7-46.

[6]–مارمول كربخال، إفريقيا، ترجمة محمّد حجي وآخرون ، منشورات الجمعيّة المغربيّة للتّأليف والتّرجمة والنّشر المغرب، الرّباط: مكتبة المعارف، 1984، ج2ص375، وج3ص5.

[7]–المصدر نفسه، ج2ص275.

[8]–الغبريني، عنوان الدّراية فيمن عرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية، تحقيق عادل نويهض، ط2، بيروت: منشورات دار الآفاق الجديدة، 1979، ص88؛ الطّاهر بونابي، التصوّف في الجزائ، ص32.

وهو القول الذي استقرّ عليه بعض المؤرّخين المتأخّرين، كأبي راس النّاصري [1]، وأبي العبّاس أحمد النّاصري[2].

2 – رأي عبد الرّحمن بن خلدون:

يرى عبد الرّحمن بن خلدون أنّ المغرب الأوسط هو تلك المساحة التي تمتدّ من قاعدة تلمسان غربا إلى بونة[3] شرقا، و تنحدر جنوبا من أشير والمسيلة والزّاب [4] وقاعدته بسكرة، وجبل أوراس وتبسة [5]. ويُلاحظ أنّ عبد الرحمن بن خلدون قد اعتمد في ذلك على التّوزيع القبلي، بفضل إلمامه بقبائل المغرب الأوسط، ومضاربها ومجالات تنقّلاتها، وبذلك استطاع أن يُعطينا معنىً أكثرَ وضوحًا عن هذا الإقليم؛ يقول ابن خلدون: ((وأمّا المغرب الأوسط فهو في الأغلب ديار زناتة...ثمّ صار لبني عبد الواد وتوجين من بني مادين وقاعدته تلمسان، ويجاوره من الشّرق بلاد صنهاجة من الجزائر ومتيجة والمدية وما يليها إلى بجاية، وقبائله كلّهم لهذا العهد مغلوبون للعرب من زغبة ... وأمّا بجاية وقسنطينة فهي دار زواوة وكتامة وعجيسة وهوارة ، وهي اليوم ديار للعرب إلاّ ممتنع الجبال، وفيها بقاياهم))[6].

3 – من مصطلح المغرب الأوسط إلى دولة الجزائر الحديثة:

لعلّ تصوّر ابن خلدون لحدود المغرب الأوسط يعدّ متوافقا إلى حدّ بعيد مع حدود ما بات يعرف بالدّولة الجزائريّة ابتداء من النّصف الثّاني من القرن السّادس عشر؛ وذلك بعد أن تجاوزت تسميّة البُلدان المغربيّة تلك التّسميّات المكرّسة لسُلطة القبيلة كمملكة بني عبد الواد، أو المستوحاة من منطلقات إيديولوجية كدولة الموحدين . بل باتت الدّول تأخذ أسماء حواضر الملك، فإفريقية أخذت اسم مملكة تونس، والمغرب الأوسط أخذ اسم مملكة تلمسان، بينما أخذ المغرب الأقصى اسم مملكة

---

[1]–أبو راس النّاصري، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، دراسة وتحقيق :محمّد بوركبة، رسالة دكتوراه، وهران: كليّة العلوم الإنسانيّة والحضارة الإسلاميّة، 2007-2008، ج2ص396.

[2]–أبو العبّاس النّاصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق: أحمد النّاصري وجعفر النّاصري، الدّار البيضاء: دار الكتاب، 1954،ج4ص163.

[3]– هي مدينة عنّابة، تقع بأقصى شرق الجزائر، وهي مدينة ساحليّة.

[4]– قال عنه الحسن الوزّان: ((يقع هذا الإقليم في وسط مفازات نوميديا، ويبتدئ غربا من تخوم مسيلة، ويحدّه شمالا جبال مملكة بجاية، ويمتدّ شرقا إلى بلاد الجريد التي توافق مملكة تونس، وجنوبا إلى القفاز التي تقطعها الطّريق المؤديّة من تقرت إلى وركلة–ورقلة–). وصف إفريقيا، ج2ص138.

[5]– عبد الرّحمن بن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج1ص76.

[6]– المصدر نفسه،ج6ص134.

فاس[1]. فمع تقهقر الدّور الريادي لمملكة تلمسان، وتصاعد اسم مدينة الجزائر التي يقول مارمول أنّها تحوّلت إلى عاصمة للإقليم[2]، أصبحت الدّولة القائمة بالمغرب الأوسط تعرف بدولة الجزائر.

يقول أبو القاسم سعد الله: ((جزء كبير من الشّرق الجزائري بما فيها قسنطينة وعنابة وبجاية وبسكرة وتقرت[3] كانت تحت هيمنة الحفصيين، كما كان يمثّل إقليم الوسط، منطقة عازلة بين الحفصيّين والزيانيّين، أمّا في القرن العاشر فبدأ يظهر مفهوم كلمة الجزائر أثناء الحكم العثماني)) [4]. وقال وقال في موضع آخر: ((هكذا أصبحت مدينة الجزائر منذ سنة 1518م، قاعدة إسلاميّة عثمانيّة، ليس فقط في بلاد المغرب، ولكن في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسّط كلّه، ومنذ ذلك الحين أعطت مدينة الجزائر اسمها للقطر الذي كان يعرف بالمغرب الأوسط كما أصبحت هي عاصمته)).[5]

إنّ كلمة المغرب الأوسط في هذا البحث تعني الإقليم الممتد من حدود مملكة تلمسان مع المغرب الأقصى إلى الحدود الجزائريّة التونسيّة اليوم، وفي الجنوب يمتدّ إلى صحراء توات [6] التي اعتبرها الونشريسي داخلة في المغرب الأوسط[7]، وهي مشابهة لحدود الدّولة الجزائرية الحديثة، وهو المسلك الذي الذي نحاه " **جون .بول. وولف** "عند قوله أنّ المغرب الأوسط هو المنطقة التي تسمّى اليوم الجزائر[8]. الجزائر[8].

---

[1]- مارمول، إفريقيا، ج2ص375وص126؛ حسن الوزان، المصدر السّابق، ج2ص7وص49.

[2]-مارمول، المصدر السابق، ج2ص362.

[3]- تقرت إحدى المدن المهمّة بإقليم ريغ، يحدّها شمالا الزّاب وشرقا سوف وغربا وادي ميزاب، وجنوبا ورقلة، وتحوي مدينة تقرت على واحات كثيرة. ينظر: توفيق المدني، كتاب الجزائر، ص183.

[4]-أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافي، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1998م، ج1ص40.

[5]-أبو القاسم سعد الله، بحوث في التّاريخ العربي الإسلامي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2003م، ص499.

[6]- اختلف الباحثون في تحديد إقليم توات ، فهناك من رجّح وقوعه بالجنوب الغربي للجزائر؛ إذ يحدّه من الشمال العرق الغربي الكبير– وواد مقيدن ، ويحده من الجنوب صحراء تتروفت وواد قاريت وجبال مويدرا ، كما يحده من الشرق العرق الشرقي الكبير المحاذي لواد لماي، ويحده من الغرب وواد الساورة وروافده. ينظر: حاج أحمد نور الدّين، المنهج الدّعوي للإمام المغيلي من خلال الرّسائل التي بعثها للملوك والأمراء والعلماء، جامعة الحاج لخضر– باتنة– : كليّة العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلاميّة، 2010–2011 م، ص22.

[7]-أحمد بن يحيى الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، طبع بإشراف محمّد حجي، بيروت:دار الغرب الإسلامي، 1981، ج2ص232.

[8]-جون.ب.وولف، الجزائر وأوربا 1500–1830، ترجمة وتعليق أبو القاسم سعد الله، ط1 ، الجزائر: عالم المعرفة، 2009، ص24.

الفصل الأوّل

فقهاء المغرب الأوسط في القرين

(9-10هـ/15-16م)

المؤثّرات والمكانة

يعتبر الفقيه إنسانا قبل كلّ شيء، فهو خاضع لقانون التّأثير والتّأثّر، وتختلف هذه المؤثّرات باختلاف المكان والزّمان، كما يختلف وقع هذه المؤثّرات من فقيه إلى آخر. ولتفسير سلوك فقيه المغرب الأوسط خلال القرنين التّاسع والعاشر الهجريين، لا بدّ من التّطرّق قبل ذلك إلى أهمّ المؤثّرات في شخصيّته، ومدى انعكاساتها على نظرته السياسيّة.

سيتناول الباحث في هذا الفصل أهمّ المؤثّرات السياسيّة و الاجتماعية والدّينيّة وأخيرا الفكريّة في شخصيّة الفقيه، ثمّ يقوم بتقديم صورة عامّة عن المكانة العلميّة والاجتماعية التي كان يحتلّها فقهاء المغرب الأوسط خلال هذه الفترة؛ لأنّ تصوّر هذه المكانة، والإلمام بها، يساعد على تفسير نظرة الفقهاء، وأدوارهم السياسيّة، والحكم عليها سلبا أو إيجابا .

أ – المؤثّرات السياسيّة[1]:

عرف العالم عموما، والمغرب الأوسط على وجه الخصوص خلال القرنين التّاسع والعاشر الهجريّين تحوّلات كبرى، جعلت المؤرّخين يجعلونها فترة فاصلة بين العصر الوسيط والحديث. فبرزت على ساحة المغرب الأوسط قوى سياسيّة جديدة، كالإسبانيّين، والعثمانيين، والسّعديّين، و ظهرت تحوّلات فكريّة عميقة، يأتي على رأسها غلبة التيّار الصّوفي. يقول أبو العبّاس النّاصري عن القرن العاشر الهجري(10هـ/16م): ((واعلم أنّه كان في صدر هذه المائة العاشرة أمور عظام، منها ظهور الفرنج بالديار المغربيّة ... ومنها ظهور دولة آل عثمان ملوك التّركمان بالديار المشرقيّة ... وَمِنْهَا ظُهُور الْأَوْلِيَاء وَأهل الصّلاح من الملامتية وأرباب الْأَحْوَال والجذب فِي بِلَاد الشرق والغرب))[2]. و هذه الأحداث التي أشار إليها النّاصري كانت نتيجة تراكمات تاريخيّة، بدأت تظهر بقوّة مع نهاية القرن التّاسع الهجري الذي كان فاتحة لما اصطُلح عليه بالعصر الحديث [3]. وكان ابن خلدون وهو أحد فُقهاء القرن الثّامن الهجري قد تنبّأ بوجود إرهاصات عن دخول عصر جديد؛ فقال في مقدّمته: ((وأمّا لهذا العهد، وهو آخر المائة الثّامنة، فقد انقلبت أحوال المغرب الذي نحن شاهدوه، وتبدّلت بالجملة))[4]إلى أن قال:((... وإذا تبدّلت الأحوال جملة فكأنّما تبدّل الخلق من أصله، وتحوّل العالم بأسره، وكأنّه خلق جديد، ونشأة مستأنفة، وعالم محدث، فاحتاج لهذا العهد من يدوّن أحوال الخليقة، والآفاق وأجياله))[5].

ويمكن تلخيص الوضع السّياسي في القرن التّاسع والعاشر في الحوادث التاليّة:

---

[1]-عن دور المؤثّرات السياسيّة ينظر: بوعمود أحمد، ملامح الفكر السياسي عند أحمد ابن يحيى الونشريسي، رسالة ماجستير، جامعة وهران: قسم التّاريخ، 2009-2010م، ص31.

[2]-أبو العبّاس النّاصري، الاستقصا، ج4ص163.

[3]-لوثروب ستودارد، حاضر العالم الإسلامي، نقله إلى العربيّة عجّاج نويهض، ط 2، لبنان:دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، 1933م، ج1ص20.

[4]-ابن خلدون، التاريخ، ج1ص43.

[5]-المصدر نفسه، ج1ص43.

1- ضعف السّلطة المركزية:

عرف المغرب الأوسط خلال القرن التّاسع الهجري(9هـ/15م) العديد من مظاهر الفوضى، فكان مسرحا لثورات شتّى في شقّيه الشّرقي التّابع سياسيا لحاضرة تونس الحفصيّة، والغربي التّابع لسلاطين بني زيان[1]، و أصبحت بلاد المغرب الأوسط محلّ طمع الحفصيين والمرينيين؛ لتعرف فترة من الهيمنة المرينيّة والحفصيّة[2].

وإذا كان بنو مرين قد استطاعوا أن يُخضعوا بني زيان طوال القرن الثّامن الهجري [3]، وهو الأمر الذي استمرّ إلى بدايات القرن التّاسع للهجرة، فإنّ الحفصيّين ابتداء من عهد السّلطان أبي فارس عزّوز، ثمّ في أيّام ابنه أبي عمرو عثمان(839هـ/1435م)، صارت لهم اليد الطّولى على سائر أقاليم المغرب الأوسط، فأخضعوا سلاطين بني عبد الواد. وبعد وفاة أبي عمرو عثمان الحفصي، ضعُف نفوذ الحفصيّين، والذين انشغلوا بالصّراعات الداخليّة، ومقاومة الحملات النّصرانيّة، وأصبحت كلّ من قسنطينة وبجاية تعرف شبه استقلال عن السّلطنة الحفصيّة[4]، كما ضعُف حال بني زيان؛ بسبب صراع أمرائهم على عرش تلمسان، وهو ما دفع بالمدن البعيدة عن تلمسان إلى التّملّص من التّبعيّة للسّلاطين الزيانيين، فظهرت مدن شبه مستقلة في وهران وتنس ومازونة ومليانة وتقرت وورجلا وجزائر بني مزغنة.

وقد أدّى تدهور الوضع السياسي إلى ازدياد تسلّط القبائل، والتي فرضت نفسها على نطاقات واسعة من أراضي المغرب الأوسط، وكان أغلب شيوخ القبائل ليس لهم اهتمام إلاّ بما ي زيد في ثرائهم،

---

[1]-محمود بو عياد، جوانب من الحياة في المغرب الأوسط، في القرن التّاسع الهجري (9هـ/15م)، الجزائر:الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، 1982م، ص ص13-31.

[2]-عبدالعزيز الفلالي، تلمسان في العهد الزياني ، — دراسة سياسية ، عمرانيّة ، اجتماعيّة، ثقافيّة -، أطروحة دكتوراه، قسنطينة: جامعة الأمير عبد القادر، 1995-1996م، ص59-70.

[3]-ابن الأحمر، تاريخ الدّولة الزيانيّة بتلمسان، تحقيق هاني سلامة، ط 1، بور سعيد:مكتبة الثّقافة الدّينيّة للنّشر والتّوزيع، 2001؛ مؤلّف مجهول، زهرة البستان في دولة بني زيان، ط 1، الجزائر:عالم المعرفة للنّشر والتّوزيع، 2011 ،ص ص 41-132؛ خالد بلعربي، الصّراع العسكري الزياني المريني- أسبابه ونتائجه- مجلّة الحضارة الإسلامية ، جامعة وهران:دار الغرب للنّشر والتّوزيع، ع 14، شعبان 2010/1431، ص ص185-190،-

[4]-أبو عبد الله الباجي المسعودي، الخلاصة النقيّة في أمراء إفريقية، ط2، تونس، 1323 هـ، ص ص82-84.

- C.Fèraud, Conquète de Bougie par les Espagnols, Revue Africaine , N°12 , 1868 ,OPU ، Alger ،1986, p247-249.

وتوطّد سلطانهم، فأثقلوا كواهل السكّان بأنواع المغارم والغصوبات، ووجدت السّلطة المركزيّة نفسها مُرغمةً على الاعتراف بسلطتهم، مقابل التزام شيوخ القبائل بمساعدتها في حروبها ضدّ الم نازعين للسّلاطين من الولاّة والأمراء الطّامعين، وكذا القبائل العدوّة[1].

2 - احتلال الإسبانيّين للسّواحل المغربيّة[2]:

استغلّت إسبانيا أحوال المغرب الأوسط، فراح ت سُفنها تشنُّ الغارة على موانئه، وبذلك استولى الإسبانيّون على المرسى الكبير سنة 911هـ/1505م، ووهران سنة 915هـ/1509 م، وبجاية في 915هـ/1510م، ثمّ صخرة ألبنيون المقابلة لمدينة الجزائر، وميناء هنين[3]. كما حاولوا التوسّع في أرجاء مملكة تلمسان فهاجموا مستغانم سنة917هـ/1511م، ومزغران.

وهكذا سارع كلّ من السّلطانين الزياني والحفصي، وزعماء المدن المستقلّة إلى تقديم فروض الطّاعة لملك إسبانيا، ولحاكم وهران وبجاية[4].

3 - الحكم العثماني:

استاء السكّان والعلماء من فساد أحوال المغرب الأوسط، وتبرّموا من البقاء تحت حكم الإسبانيّين، فشكّلوا رباطات كانت بمثابة مراكز دفاع أماميّة تقوم بحماية الثّغور [5]، وسرعان ما لمع اسم

---

[1]-ابن خلدون، التاريخ، ج6ص46.

[2]-يفسّر الكثير من المستشرقين كبامبريجر وغرامون وشارل أندري جوليان ولوسياني؛ غزو الإمبراطورية الاسبانيّة لسواحل المغرب الأوسط على أنّه ردّ فعل طبيعي ضدّ أعمال الموريسكيين الذين اتّخذوا السّواحل المغربيّة معاقل لممارسة القرصنة، متجاهلين الأطماع التوسعيّة لدى الإمبراطورية الاسبانيّة، وكذا النّزعة الصّليبيّة التي تجلّت من خلال مواقف أساقفة إسبانيا وعلى رأسهم خيمينس أسقف طليطلة، وبابوات روما .ينظر:

-Grammont ,Histoire d 'Alger, p1-1؛ Diego Suarez De Montanes Traduction ، A.Berbrugger, Mers el –Kebir, R. A, t.9,1865 ,p256-263، 337.

[3]-وليم سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب عبد القادر زباديّة، ط 1، الجزائر:المكتبة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، 1980، ص27.

[4]-عمورة عمار، موجز في تاريخ الجزائر، ط 1، الجزائر:دار ريحانة، 2002، ص ص88-89.

Braudel, Les Espagnols et l'Afrique du nord de 1492 à1577, R. A, N°69, 1928, p223.

[5]- عزيز سامح التر، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشماليّة، ترجمة محمود علي عامر، ط1، بيروت:دار النّهضة العربيّة للطّباعة والنّشر، 1989، ص105.

الأتراك والإخوة أبناء يعقوب(بربروسا)، لا سيما عرّوج وخير الدّين[1]، والذين تفانوا في إنقاذ الكثير من مسلمي الأندلس، ونقلهم إلى سواحل المغرب الأوسط، واستطاعوا أن يبثّوا الرّعب في قلوب ملوك أوربا، كما تمكّنوا من الاستيلاء على العديد من سفن النّصارى المحمّلة بالمؤن والسّلع، فسارع سكّان الجزائر إلى الاستنجاد بهم، و بعد وفاة عرّوج حاول خير الدّين تدعيم صفّه بضمّ بلاد الجزائر إلى الخلافة العثمانيّة[2]، وبذلك دخل المغرب الأوسط مرحلة صراع شرس ضدّ القوى النّصرانيّة، كما شهد تنافسا بين العثمانيين و سلاطين المغرب الإسلامي والزّعامات المحليّة، ليحسم هذا الصّراع في الأخير لصالح العثمانيين، ويصبح المغرب الأوسط تابعا سياسيا للخلافة العثمانيّة.

---

[1]-أطلق لقب بربروسا ومعناه ذو اللّحية الشّقراء على عرّوج وخير الدّين من أهل جزيرة ميدلي، عُرفا بشجاعتهما، وحبّهما للجهاد البحري، توجّها إلى تونس حيث باشروا أعمالهم بالبحر المتوسّط، واتّصلا بسلطان تونس، رفقة أخيهم إسحاق والمجاهدين المشارقة، ثمّ انتقلا إلى جيجل، ومنها إلى الجزائر، وبدآ في توسيع نفوذها إلى أن استشهد عرّوج وإسحاق بتلمسان، فرأى خير الدّين أن يربط نشاطه بالسّلطان العثماني سنة 1518م. ينظر: أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792 م، ط 1، الجزائر:الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، ص158

- Diego de Haedo,Histoire des rois d'Alger ,Traduirt de Grammon,Alger:Grand-Alger-livres, 2004،P11-19؛ Grammont، Histoire d'Alger sous la domination Turque(1515-1830), Ernest leroux,1887,p20-28.

[2]- يرجع ظهور الخلافة العثمانيّة إلى أرطغل بن سليمان شاه التّركماني، زعيم إحدى قبائل التّرك التي نزحت من سهول آسيا الغربيّة إلى بلاد آسيا الصّغرى، وقد قام أرطغل بمساندة علاء الدّين السّلجوقي، فجعله على مقدّمة جيشه، وأقطعه الأراضي. وبعد وفاة أرطغرل سنة 687هـ، تمّ تعيين ابنه عثمان خلفا له، والذي استطاع أن يوسّع نفوذه، ويفتح قره حصار سنة 677هـ/1289م، فأصبح يلقّب بعثمان بك، و ضربت باسمه العملة، وبعد مقتل علاء الدّين السّلجوقي صاحب قونية، خلا الجوّ لعثمان بك، فواصل فتوحه في آسيا الصّغرى، حيث فتح مدينة بورصة سنة 717هـ/1317م، ثمّ خلفه أرخان ابن عثمان بك ففتح قرّه سي، سنة 736هـ/1336م، وبدأ العثمانيّون يتوسّعون في أوربا، ليتمّ فتح أنقرة في عهد مراد الأوّل، فأدرنة سنة 1361هـ، إلى أن فتحت القسطنطينيّة سنة 1453م. ينظر: محمّد فريد بك، تاريخ الدّولة العليّة العثمانيّة، تحقيق إحسان حقي، ط 1، بيروت:دار النّفائس، 1981م، ص ص 115-169؛ خليل إينالجيك، تاريخ الدّولة العثمانيّة من النّشوء إلى الانحدار، ترجمة محمّد الأرناؤوط، ط1، بيروت:دار المدار الإسلامي، 2002، ص13.

أثر الأوضاع السياسيّة في شخصيّة فقهاء المغرب الأوسط:

كان لهذه الأوضاع السياسيّة، و ما صحِبها من سوء للأحوال الاقتصادية؛ عاقبةً وخيمة على الحياة الثّقافية، إذْ خربت الحواضر العلميّة، وتعطّلت الحركة الثّقافيّة، لا سيما بعد الغزو الإسباني لسواحل المغرب الأوسط[1]. فهاجر بعض العلماء إلى المشرق والمغرب[2]، فيما فضّل فقهاء آخرون البقاء في المغرب الأوسط، و جنح أكثرهم إلى الانعزال في الرّباطات والخلوات، فرارا من الدّنيا، وإقبالا على الآخرة، مردّدين أشعار التوسّلات، والابتهالات في ظروف تكرّرت فيها مظاهر الظّلم والتّعدي والتّجاوزات[3].

ومع ذلك نلمس بعض المؤثّرات الإيجابيّة في شخصيّة الفقهاء، خصوصا الذين فضّلوا مواجهة الواقع، فقد قوي نفوذهم؛ ويظهر ذلك بقوّة عند علماء تلمسان، والذين بسبب تبعيّة سلاطينهم للمرينيين والحفصيين، صاروا يضطلعون بمهام عظيمة، كعقد الصّلح، وحضور مجالس الشّورى. و ساعدتهم وساطاتهم المتكرّرة بين الأطراف المتصارعة في القرنين التّاسع والعاشر الهجريّين إلى اكتساب الخبرة السياسيّة، والإلمام بالواقع.

و أمّا في المدن المستقلة والبوادي فكان على العلماء تحمّل عبء سياسة الرعيّة، وبذلك ظهرت أنواع من سلطة الفقهاء[4].

---

[1]-عبد القادر فكاير، الغزو الإسباني للسّواحل الجزائريّة وآثاره(910-1206هـ/1505-1792م)، الجزائر:دار هومة، 2012، ص ص365-378.

[2]-سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافي، ج1ص44.

[3]- عبد العزيز فيلالي، مدينة قسنطينة في العصر الوسيط، دراسة سياسيّة عمرانيّة ثقافيّة، قسنطينة:طبع دار البعث، ص87.

[4]- عبد الجليل قربان، السياسة التّعليميّة للدّولة الزيانيّة (633-962هـ/1236-1554 م)، ماجستير، جامعة منتوري، قسنطينة، 2003-2004م، ص46.

يرى أبو القاسم سعد الله أنّ سبب اضطلاع الفقهاء بمهام سياسيّة هو ظهور الحكّام الجهلة؛ فيقول : ((ظهور الحكّام الجهلة هو الذي مهّد الطّريق للعلماء كي يكونوا كمستشارين ومشرّعين ومفسّرين، وأصبح شعار العلماء هو أنّهم حماة الدّين، ومصابيح الظّلام بينما الأمر لم يكن كذلك حين كان الحكّام علماء والعلماء حكّام)). ينظر: سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1ص388.

ب- **المؤثّرات الاجتماعيّة:**

ألقت الأوضاع السياسيّة المتدهورة بظلالها على الأوضاع الاجتماعيّة؛ فعلى المستوى السكّاني عرف المغرب الأوسط بروز عناصر جديدة، و أهمّ هذه العناصر تأثيرا في شخصيّة الفقهاء، هم مسلمو الأندلس واليهود والعثمانيّون.

- **مسلمو الأندلس :**

بعد ضياع المدن الأندلسيّة تزايد عدد الأندلسّيين في المغرب الأوسط، ليشهد أقصى ارتفاع له مع نهاية القرن الخامس عشر الهجري بسبب سقوط غرناطة، ثمّ الاضطهاد الدّيني الذي مارسته الكنيسة الكاثوليكيّة من خلال ما عُرف بمحاكم التّفتيش[1]، فهاجروا بأعداد هائلة[2]..وقام البحّارة الأتراك بعمليّة نقل الأندلسيّين إلى بلاد المغرب الأوسط [3]، ونتيجة لتزايد أعدادهم، شكّلوا مدنا جديدة، كمدينة القل، – مدينة المهاجرين الأندلسيّين من قشتالة والأندلس ومن ثغور بلنسية–، [4] ومدينة البُليدة وغيرها، أمّا تلمسان و وهران فوفدت عليها موجات كبيرة من المهاجرين، قدّرت بمائة وثلاثين ألف مهاجر[5]، و بلغ عددهم في مدينة الجزائر لوحدها سنة 1609م نحو خمسة وعشرين ألف أندلسي[6].

[1]–محاكم التّفتيش أو ديوان التّحقيق، هي محاكم كنسيّة ظهرت في إسبانيا، عملت على تعميد مسلمي الأندلس، مستعملة شتّى أساليب الإكراه، ومارست أبشع صور التّعذيب والقتل، وقد نقل محمّد عبد الله عنان في كتابه "نهاية الأندلس" وثيقة أوردها المؤرّخ الإسباني (لورنتي) مؤرّخ ديوان التّحقيق، تضمّنت طائفة من القواعد التي سار عليها الدّيوان. ينظر:أسعد حومد، محنة العرب في الأندلس، ط 2، بيروت:المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، 1988، ص348.

[2]–عبد الرّحمن الجيلالي، تاريخ المدن الثّلاث"الجزائر–المديّة–مليانة"، ط1، الجزائر:دار الأمّة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، 2007م، ص ص76-77.

[3]– عبد الرّحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، الجزائر :دار الأمّة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، 2010م، ج3ص52.

[4]– مارمول، إفريقيا، ج2ص362.

[5]– مصير الأندلسيين، لمحمّد الطّاهر بن عاشور، ضمن "حاضر العالم الإسلامي"، ج2ص59؛ عبد المجيد قدّور، هجرة الأندلسيين إلى المغرب الأوسط (الجزائر) ونتائجها الحضاريةخلال القرنين السّادس عشر والسّابع عشر الميلاديين ، شهادة ماجستير، قسنطينة: جامعة الأمير عبد القادر، ص ص164-165.

- H.-D-.De Grammont ,Histoire d ‘Alger sous la domination Turque ‹p3.

[6]– ناصر الدّين سعيدوني، دراسات أندلسيّة–مظاهر التّأثير الإيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر–، ط1، بيروت:دار الغرب الإسلامي، 2003م، ص23.

وممّا ينبغي ذكره أنّ العنصر الأندلسي قد أثّر في فقهاء المغرب الأوسط؛ إذ كان ثريا بالعلماء والأدباء والفقهاء، الأمر الذي أثرى الحياة الثقافيّة [1]، كما ساهم هذا العنصر في نشر الوعي السياسي لدى سكّان المغرب الأوسط، فهاهو عبد الرّحمن الثّعالبي ومحمّد التواتي ينبّهان سكّان المغرب الأوسط إلى استعدادات النّصارى لغزو بلادهم [2] وهي المعلومة التي استقياها من قبل بعض الأندلسيّين [3]، كما أنّ هؤلاء الأندلسيين قد جاءوا بنوازل جديدة فتحت باب النّقاش والاجتهاد[4].

- **اليهــود:**

لقد كان أثر مسلمي الأندلس في الغالب إيجابيا، لأنّهم أثْروا الحياة الثّقافيّة والفكريّة، و شاركوا في إيقاظ الشّعور بالمسؤوليّة في نفوس الفقهاء، أمّا اليهود؛ وهم إمّا من السكّان الأصليين، أو يهود الأندلس[5]، والذين توزّعوا في مدن المغرب الأوسط، واندمجوا مع السكّان بسرعة، فإنّهم أشعلوا شرارة التذمّر و السّخط في نفوس الفقهاء؛ وذلك أنّهم قد قوي نفوذهم، و أُسندت إليهم مهام جباية

---

[1] – شكيب أرسلان، ضمن " حاضر العالم الإسلامي "، ج2ص63؛ بوعنيني سهام، أبو عبد الله التنسّي وكتابه-نظم الدرّ والعقيان في بيان شرف بني زيان وذكر ملوكهم الأعيان ومن ملك من أسلافهم فيما مضى من الزّمان، رسالة ماجستير، جامعة وهران: قسم الحضارة الإسلاميّة، 2008-2009م، ص25؛ عبد القادر بوباية ، إسهام العلماء الأندلسيين في الحركة العلميّة بتلمسان خلال القرن السّابع الهجري، مجلّة عصور الجديدة ، مختبر البحث التّاريخي، جامعة وهران ، عدد 2 ، 2011م، - عدد خاص بتلمسان عاصمة الثّقافة الاسلاميّة-، ص159-171.

[2] – رسالة عبد الرّحمان الثّعالبي في الجهاد، نشرها أبو القاسم سعد الله ضمن:أبحاث وآراء، ط 3، عالم المعرفة، 2009م،ج1ص 208-211؛ ابن زرفة، الرّحلة القمريّة، تحقيق مختار حساني، ضمن " تاريخ تحرير وهران من الاحتلال الاسباني خلال القرن الثّامن عشر الميلادي من خلال مخطوطتين"، جامعة الجزائر: مخبر المخطوطات، 2003م ، ص233.

[3] –ينظر: ص ص 150 -151من هذا البحث.

[4] – ملاحظة: لعلّ من سلبيّات تواجد الأندلسيّين بالمغرب الأوسط هو إذعانهم لتيار التصوّف . ينظر: محمّد العروسي المطوي، السّلطنة الحفصيّة تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1986م، ص214.

[5] –يهود المغرب الأوسط الأصليّين يُعرفون بالتّوباشيم؛ وهم الذين توافدوا إلى شمال إفريقيا بعد إنشاء المدن الفينيقيّة على السّواحل، والذين استمرّ نفوذهم خلال العهود الرّومانيّة، والونداليّة، والبيزنطيّة، يضاف إليهم بعض القبائل البربريّة المتهوّدة، و اليهود الذين جاؤوا بعد الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، ويقابلهم اليهود الميغورشيم ؛ وهم من أصول إسبانيّة وبرتغاليّة، هاجروا من شبه الجزيرة الإيبيريّة ، واستقرّوا ببلاد المغرب بعد صدور قرارات الطّرد في كلّ من إسبانيا والبرتغال، خلال سنوات 1391م، 1492م، 1496م، ثمّ استمرّت هجرة اليهود طيلة القرنين السّابع عشر والثّامن عشر الميلاديين، إثر وصول عناصر جديدة من اليهود الأوربيين، عرفوا باليهود الفرنجة. ينظر: نجوى طوبال، طائفة اليهود بمجتمع مدينة الجزائر (1700م-1830م) من خلال سج لات المحاكم الشرعيّة، شهادة ماجستير، جامعة الجزائر: كليّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعية، 2004-2005م، ص ص40-41.

الأموال[1]، وصارت لهم اليد الطّولى على المسلمين[2]، و بدأوا يشكّلون طبقة أرستقراطيّة، وسط دعم من السّلاطين والولّاة[3]؛ فها هو السّلطان عبد الواحد بن محمّد بن تاشفين الزياني [4] قد اتّخذ أعوانا من اليهود لجباية الأموال[5].

دفع هذا الأمر ببعض أهالي المغرب الأوسط إإلى نعت حكم الزيّانيّين بأقذع الأوصاف، كوصف أحد مريدي أحمد بن يوسف الملياني لدولة بني زيان بأنّها سلطة يهود، أمام مرأى ومسمع من شيخه الذي لم ينطق ببنت شفاه [6]. كما تذمّر سكّان تلمسان من تصرّفات اليهود، و هو ما دفع أكثر فقهائها إلى تأييد محمّد بن عبد الكريم المغيلي في نازلة يهود توات لأنّ فساد أمرهم قد عمّت به البلوى. ففي جواب الفقيه أبي عبد الله محمّد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي [7] ما يوحي بهذا الشّعور الشّعور المتذمّر من اليهود؛ إذ قال في معرض جوابه عن نازلة يهود توات: ((إلاّ أنّهم، - أي اليهود -، لما وجدوا السّعة عند من لا ينكر عليهم من جفاة العرب وطغاتهم، تزيّوا بأفخر زيّ المسلمين؛ إذ كانوا لا يفعلون ذلك في الحواضر، جبر الله صدع الإسلام؛ فإنّ قلوب الملوك بيده))[8].

وفي قسنطينة قام أحد اليهود، و يُدعى بالمختاري اليهودي الذي أسلم وخدم في جملة شرط الأمير، بسبّ النّبي محمّدٍ صلّى الله عليه وسلّم فأفتى جدّ عبد الكريم الفكّون بقتله ، وخالفه ابن محجوبة أبو

---

[1]-يشير ابن مرزوق في مسنده إلى ذلك فيقول:((فيتولّى المسلم نصراني ويهوديّ وخارجيّ ويحيطون به فيفتّشونه من رأسه إلى قدمه، ظاهرا وباطنا لما عسى أن يدخل به، من السّلع التي يوظّف عليها مغرم من المغارم، وحتّى النّساء يوكل بهنّ يهوديات يفتّشنهنّ ويدخلن يدّيهن- كذا- إلى لحومهنّ، وفي هذا من الشّناعة والبشاعة ما لا يخفى، وكان هذا العمل في تلمسان وأعمالها)) ينظر: المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق، ماريا خيسوس بيغيرا، الجزائر:الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع،1981م، ص285.

[2]-سناء عطابي، واقع اليهود في المغرب الأوسط من خلال النّصوص الفقهيّة المالكيّة، مجلّة الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر، عدد12، 2011، ص ص171-199.

[3]-حسن الوزّان، وصف إفريقيا، ج2ص20.

[4]- تولّى الحكم سنة 814 هـ، ودامت أيّامه إلى غاية827هـ.

[5]-مزدور سميّة، المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط، ص78، نقلا عن :ابن الأعرج ، زبدة التّاريخ وزهرة الشّماريخ، نسخة مصوّرة عن الخزانة الحسينيّة بالرّباط، رقم 96/170,3أ.

[6]-محمّد بن محمّد الصبّاغ، بستان الأزهار في مناقب زمزم الأبرار ومعدن الأنوار، الصبّاغ، ورقة 7، مخطوط رقم1708، المكتبة الوطنيّة؛ مختار حساني، تاريخ الدّولة الزيانيّة، منشورات الحضارة، الجزائر:بئر توتة، 2009م، ج1ص34.

[7]- في المعيار المعرّب مكتوبة الشسي، وهو تصحيف. ينظر: الونشريسي، المعيار، ج2ص ص235-249.

[8]- المصدر نفسه، ج2ص ص235-249.

زكريا بإيعاز من الوالي والشُّرط الذين قالوا بعدم قتله، وأصرّ الشّيخ على قتله ثمّ نُفّذ قوله بعد طول جدل وصخب[1].

وهكذا تزايد نفوذ نفوذ اليهود والذي لم يكن مقتصرا على بلاد المغرب الأوسط فحسب، بل شمل أغلب مدن المغرب الإسلامي كفاس وغيرها؛ فقد قامت ثورة أهالي فاس على السّلطان المريني أبي محمّد عبد الحقّ بن أبي سعيد[2]، بعد قيامه بتوليّة اليهوديين هارون وشاويل، واستعلاء هاذين اليهوديّين على أهالي فاس، وانتهاكهما حُرمة المسلمين، وكانت هذه الثّورة سببا في إسقاط دولته سنة(896 هـ- 1464م)[3].

ولما توطّدت أقدام العثمانيّين في المغرب الأوسط في منتصف القرن السّادس عشر الميلادي(10هـ/16م) قاموا باستعمال اليهود في صكّ العملة، و تنشيط الحركة التّجاريّة[4]، ولعلّ استعمال العثمانيين لليهود هو راجعٌ إلى خبرتهم، وأيضا نظيرا لمحالفة يهود المغرب الأوسط للعثمانيّين في حربهم ضدّ إسبانيا، بدافع الانتقام من مذابح محاكم التّفتيش[5].

- **العثمانيّـون[6]** :

---

[1] -عبد الكريم الفكون، منشور الهداية في كشف حال من ادّعى العلم والولاية، تحقيق: أبو القاسم سعد الله، ط1، بيروت:دار الغرب الإسلامي،1987م، ص64.

[2] - قال أبو العباس النّاصري: ((هذا السّلْطان هُوَ آخر مُلُوك بني عبد الْحق من بني مرين وَهُوَ أطولهم مُدَة وأعظمهم محنة وَشدّة وَهُوَ أَبُو مُحَمَّد عبد الْحق بن أبي سعيد عُثْمَان ابْن أبي الْعَبَّاس أَحْمد بن أبي سَالم إِبْرَاهِيم بن أبي الْحسن عليّ بن أبي سعيد عُثْمان بن أبي يوسف يَعقوب بن عبد الْحق الزناتي المريني، أمه علجة إصبنيولية على مَا ذكره منويل، وَفِي أَيَّامه ضعف أمر بني مرين جدا وتداعى إِلَى الانحلال وَكَانَ التَّصَرُّف للوزراء والحجاب))، وقد توفي قتيلا سنة 869هـ، بعد أن ثارت عليه الرعية. أبو العباس الناصري، الإستقصا، ج4ص95.

[3] -أحمد الحمدي، الفقيه المصلح محمّد بن عبد الكريم المغيلي –الإطار المعرفي والتّعامل مع المكانيّة-، ط1، مكتبة الرّشاد للطّباعة والنّشر والتّوزيع، الجزائر، 2012م، ص126.

[4] - نجوى طوبال، طائفة اليهود بمجتمع مدينة الجزائر، ص45.

-Diego de Haedo,Topographie et histoire générale d'Alger ,"la vie à Alger au seizième siècle,Traduir par Berbrugger et Monnereau ,Alger: Grand-Alger -livres , 2004,p123-127 .

[5] - سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافي، ج1ص ص16-17.

[6] - يطلق عليهم هايدو و مارمول وغيرهم من الكتّاب المسيحيين لقب الأتراك، بينما يرى أبو القاسم سعد الله أنّهم ليسوا مختصّين بالعنصر التّركي حيث يقول: :((من الخطأ إطلاق اسم الأتراك على الوجق وأهل السّلطة خلال العهد العثماني في الجزائر،ذلك أنّ الوجق

مع نهاية القرن التّاسع وبداية القرن العاشر الهجريّين قدِم العديدُ من المشارقة الموالين للخلافة العثمانيّة إلى بلاد المغرب الأوسط قصد ممارسة الجهاد البحري ضدّ السّفن الأوربيّة ، خصوصا بعد ضمّ الخلافة العثمانيّة لمصر، وقضائها على دولة المماليك[1].

وهكذا مارس هؤلاء العثمانيّون الجهاد البحري ضدّ النّصارى، مُكوّنين بذلك قوّة كبحت أطماع إسبانيا، خصوصا بعد سنة(920 هـ/1516م).

لقد كان هؤلاء العثمانيون أحناف المذهب، ويسلكون الطّريقة القادريّة، ويبالغون في الاعتقاد في المتصوّفة، و في تعظيم رجال التصوّف، وهو ما جعل الفقهاء ينفتحون على المذهب الحنفي، ويخضعون لسلطة المتصوّفة[2].

الفقهاء وتشكيلة مجتمع المغرب الأوسط:

كانت تلمسان باعتبارها حاضرة ملك بني زيان تحظى بإشرافٍ مباشر من قبل السّلطان الزياني، أمّا المدن الأخرى فكانت تدار من طرف الولاّة الزيانيين الذين هم في غالب الأمر ليسوا من أبناء البيت الزياني، وذلك أنّ الزيّانيّين كانوا يتحاشون توليّة أبناء هذا البيت فرقاً من أطماع الأمراء. أمّا

= كان يتكوّن من عثمانيّين، وهو بهذه الصّفة كان يضمّ أجناسا مختلفة اللّسان والعرق والجغرافية، ولكنّها جميعا تتّفق في الولاء للإسلام والسّلطان)).ينظرُ: سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1ص139.

-Diego de Haedo,Topographie et histoire générale d'Alger, Op cit ، p55-57

[1] - يقول أبو القاسم سعد الله :((فمن الخطأ أن نّبدأ تاريخ الجزائر العثماني سنة (920 هـ-1516م) كما تذهب معظم كتب التّاريخ؛ فهو يعود في الحقيقة إلى أواخر القرن التّاسع، ولا سيما منذ سقوط غرناطة سنة 897هـ، وإذا عدنا إلى " **رحلة بيري رايس** " العثماني وبعض النّصوص المحليّة، وجدنا العثمانيين كانوا على صلة بأهل المدن السّاحليّة الجزائريّة، ولا سيما رجال الدّين، يتعاملون معهم، ويُحاربون معهم العدوّ المشترك)). ينظر:سعد الله، المرجع السّابق، ج1ص137 .

[2] - كان العثمانيّون يحترمون أصحاب الرّباطات، كرباط سيدي محمّد التواتي، الذي كان كمال رايس وبيري رايس يقدّسانه.ينظر:

- عزيز سامح التر، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشماليّة، ص ص105-108.

- Mantran Robert. La description des côtes de l'Algérie dans le Kitab-i Bahriye de Pirî Reis, Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, N°15-16, 1973 ,P163-164.

المناطق التّابعة للدّولة الحفصيّة مثل بجاية وقسنطينة فكانت تُدارُ من طرف الأمراء الحفصيّين، والتي كانت كثيرا ما تشهد محاولات الانقلاب على سلطان تونس.

كما كان هناك مدن تعيش حالة من الاستقلال، ويديرها أحد الزّعماء المحليّين كإمارة الثّعالبة [1] وإمارة تنس وإمارة كوكو [2] بإقليم مجانة. وقد تزايد هذا النّوع من المدن في أواخر القرن التّاسع الهجري بسبب ضعف الحفصيّين والزيانيين [3]. ليستمرّ إلى النّصف الثّاني من القرن العاشر الهجري، حيثُ تمّ توحيد المغرب الأوسط، وتشكلّت إيالة الجزائر.

هكذا كان حال مدن المغرب الأوسط ؛ وأمّا الأرياف فكانت تخضع لشيوخ القبائل، أو لرجال الطّرق، و كان السكّان مُلزمون بخدمة شيوخ القبائل، أمّا رجال الطّرق فكانوا يخدمونهم طواعيّة [4]. وفي أواخر القرن التّاسع الهجري صار الحفصيّون والزيّانيون يتغاضون عن تصرّفات شيوخ القبائل، خصوصا إذا علمنا أنّ قتال هذه القبائل كان مكلّفا لخزينة الدّولة، ومنهكا لجيوشها النّظاميّة، ومستنزفا لقوّتها، ولا يكون إلاّ بمحالفة قبائل أخرى سرعان ما ستعمل على بسْط نفوذها على حساب الدّولة[5].

وكان سكّان المغرب الأوسط منقسمون بين سكّان الرّيف" **البدو**" وسكّان المدينة" **الحضر**"، وكانت الهوّة بين سكّان الرّيف وسكّان المدينة كبيرة، وبقي الأمر على حاله أيّام الحكم العثماني، و أثّر

[1]- الثّعالبة بطن من بطون قبائل المعقل العربيّة، التي بسطت نفوذها على سهل متيجة وجزائر بني مزغنة . ينظر:ابن خلدون، التاريخ، ج6ص85؛ مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، بيروت:دار الغرب الاسلامي، ج3ص43.
- Grammont ,Histoire d 'Alger ,p43.

[2]-تأسّست هذه الإمارة إثر احتلال الإسبان يّين لمدينة بجاية سنة 1510م، حيث توجّه أحمدبن القاضي إلى قرية الأربعاء نايت إيراثن بقبيلة آيت يحيى أورير، ومنها انتقل إلى القرية كوكو التي تبعد بمسافة 8كيلومترات عن عين الحمام بقبيلة آيت يحى، وقد تذبذب موقف أمرائها من العثمانيّين، فمرّة يحالفونهم، ومرّة يقاتلونهم. ينظر: عبد القادر فكاير، الغزو الإسباني للسّواحل الجزائريّة، ص134.

[3]- وهو الأمر الذي دفع بشارل أندري جوليان إلى وصف التّركيبة السياسيّة في بلاد المغرب الأوسط آنذاك بالفسيفساء التي يستشفّ الملاحظ تنوّعها دون أن يقدر على التّدقيق في شأنها . ينظر: شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشّمالية، تعريب محمّد مزّالي والبشير بن سلامة، ط2، تونس:الدّار التّونسيّة للنّشر، 1983، ص321.

[4]-سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافي، ج1ص157.

[5]-رشيد بورويبة وآخرون، الجزائر في التّاريخ -العهد الإسلامي من الفتح إلى بداية الحكم العثماني- ، الجزائر:المؤسّسة الوطنيّة للكتاب،1984م ، ص467-471.

هذا النّسيج الاجتماعي في شخصيّة الفقهاء، وجعلهم يتذبذبون في ولاءاتهم بحسب نظرتهم و اجتهاداتهم، وما يراعونه من مصالح[1]، وبذلك أضحى الفقهاء محلّ تجاذبات اجتماعيّة.

كما شهدت الحياة الاجتماعية في القرنين التّاسع والعاشر الهجريّين العديد من مظاهر الانحطاط، كالاعتقاد في الأموات، وذيوع البدع والعادات الفاسدة، وهو الأمر الذي أنتج بيئة تحمل بذور الانحطاط الفكري[2]، والذي تغلغل إلى أعماق شخصيّة الفقهاء.

الفقهاء والأزمات الاجتماعية

عرف المغرب الأوسط عدّة أزماتٍ اجتماعيّة كالمجاعات والأوبئة خلال القرنين (9-10هـ)، والتي كانت تشغل بال الفُقهاء [3]، وهو ما دفعهم إلى البحث عن مخارج فقهيّة، وتقديم بعض الرّخص؛ كترخيصهم بيع بعض الأراضي المحبّسة على الفقراء، وصرف ثمنها عليهم زمن الشدّة خوفا عليهم من الهلاك جوعا، كما أفتوا بحرمة الاحتكار زمن المجاعات، وأجازوا التّسعير إذا تجاوز التجّار حدودهم في رفع الأسعار[4].

ومع ذلك فإنّ شخصيّة فقهاء القرنين التّاسع والعاشر، كانت لا ترقى إلى تقديم حلول طبيّة، فلم تشهد هذه الفترة أيّ تأليف في الطبّ عدا كتاب **شرح رجز ابن سينا** لمحمّد بن يوسف السنوسي،

---

[1]- يشير أبو القاسم سعد الله إلى تذبذب مواقف الفقهاء اتّجاه أصحاب السّلطة بحسب المصالح، ودخول الفقهاء في الصّراع بين الرّيف والمدينة في مقدّمة منشور الهداية، ص ص16-17.

[2]- حول هذا الموضوع ينظر:

- DIEGO DE HAEDO,TPOGRAPHIE ET HISTOIRE GéNéRALE D'ALGER "LA VIE à ALGER AU SEIZIèME SIéCLE",TRADUIR PAR BERBBRUGGER ET MONNEREAU, 3éd، Grand-Alger-livres, Alger, 2004 ،P112-123.

[3]-يقول محمّد الرصّاع: ((ولما كنت عام ثلاثة وسبعين (873هـ/1468) بالمحلّة المظفّرة وبلغني ما كان بالحضرة العليّة من الدّاء، فتصاغرت نفسي فكنت في كرب شديد)) . ينظر :الأجوبة التونسيّة على الأسئلة الغرناطيّة (886هـ/1481) طبع بعنوان نصّ جديد حول الأندلس وإفريقية قبيل سقوط غرناطة، تحقيق ودراسة محمّد حسن، ط1، بيروت: دار المدار الإسلامي،2007م، ص117.

[4]-مزدور سميّة، المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط، ص ص147-148.

بل بات بعض الفقهاء يُساهمون في تفشّي الخرافات، فمحمّد الرصّاع يذكر دون أدنى انتقاد عن ابن عرفة أنّه كان يتداوى بألفاظ "إنومي دومي مر بطري كنا سندام مموا بنطاس "، وقال أنّها من أسماء الله[1].

[1]-محمّد الرصّاع، الأجوبة التونسيّة، ص119.

ج- المؤثّرات الدّينيّة والفكريّة:

من بين أبرز المؤثّرات وقعا على شخصيّة الفقهاء؛ المؤثّرات الدّينيّة والفكريّة، فالمرجعيّة الدّينيّة لفقهاء المغرب الأوسط خلال القرنين التّاسع والعاشر الهجريّين قد تلخّصت في الفقه المالكي والعقد الأشعري على طريقة الجنيد السّالك، وهي التي يعبّر عنها ابن عاشر في متن **"المرشد المعين على الضّروري من علوم الدّين"** بقوله:

في عقد الأشعري وفي فقه مالك

وفي طريقة الجنيد السّالك[1]

[1]-عبد الصّمد كنّون، مورد الشّارعين في قراءة المرشد المعين، ط1، مصر:مطبعة الكمال، 1347هـ، ص4.

- **مذهب الإمام مالك:**

تشبّث فقهاء المغرب الإسلامي عموما بمذهب الإمام مالك[1]، وهو المذهب الذي تعدّ أصوله أحد الأسباب الرّئيسة في صموده أمام المذاهب الفقهيّة وحتّى العقديّة التي حاولت أن تُزاحمه في مناطق نفوذه[2]. فاستطاع المذهب المالكي أن يفرض نفسه أيّام دولة العبيديّين رغم تأييد هؤلاء للمذهب الحنفي، كما استطاع أن ينتصر على المذهب الظّاهري[3] رغم تأييد السّلطة الموحديّة لهذا الأخير[4]، ليعود المذهب المالكي إلى سالف نشاطه عقب انهيار دولة الموحدين[5].

ولكنّ فقهاء المغرب الأوسط ؛ ومنذ عهد طويل كانوا قد جنحوا إلى الرّأي القاضي بغلق باب الاجتهاد، وهو ما يصرّح به ابن مرزوق بقوله:((لم يكن في مغربنا هذا كلّه في القرن الخامس فضلا عن الثّامن مجتهد في الأحكام الشرعيّة مستقلّ فيها برأيه)) [6]. ويعقّب المازوني بقوله: ((هذه مسألة فرضها أهل الأصول فقالوا اختلف هل يخلو الزّمان عن مجتهد أم لا)).[7]

إنّ الرّكون إلى التّقليد أثّر سلبا على شخصيّة الفقهاء العلميّة [8]، فعكف الكثير منهم على كتب الفروع[9].

---

[1]-حول المدرسة المالكيّة بالمغرب ينظر: المذهب المالكي- مدارسه ومؤلّفاته خصائصه وسماته- ؛ محمّد المختار محمّد المامي، ط1، العين- الإمارات العربيّة المتّحدة-:مركز زايد للتّراث والتّاريخ، 2002م، ص93-127.

[2]-عبد الرّحمن بن عبد الله الشّعلان، أصول فقه الإمام مالك – أدلّته النّقليّة-، ط1، جامعة الإمام محمّد بن سعود، 2002م، ج2.

[3]-هو مذهب يقوم على إنكار القياس، وإتباع ظواهر النّصوص، ظهر في القرن الثّالث الهجري بالمشرق على يد داود الظاهري (ت 270هـ) والذي عاش ببغداد، ثم أحياه بالأندلس إمام الظاهريّة ابن حزم الأندلسي، (ت456هـ)، وانتصر له وصار له أتباع . ينظر:أحمد بكير محمود، المدرسة الظّاهريّة بالمشرق والمغرب، ط1، بيروت:دار قتيبة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، 1990.

[4]-محمّد المنوني، حضارة الموحّدين، ط1، الدّار البيضاء: دار توبقال للنّشر، 1989، ص37.

[5]-محمّد بوشقيف، العلوم الدينيّة في بلاد المغرب الأوسط خلال القرن التّاسع الهجري الخامس عشر ميلادي، رسالة ماجستير، جامعة تلمسان:كليّة الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعيّة، 2003-2004م، ص14-19.

[6]- يحيى المازوني، الدّرر المكنونة في نوازل مازونة، تحقيق حساني مختار، جامعة الجزائر:مخبر المخطوطات، 2004،ج3ص312.

[7]-المصدر نفسه،ج3ص ص312 -313.

[8]-قال الفقيه أبو العباس أحمد بن زكري: ((وإن كان من ذُكِر من أهل التّقليد كما هو الغالب من حال أهل العصر ...)). ينظر: الونشريسي، المعيار، ج12ص8.

[9]- يقول حسين مؤنس :((العلم وقف إذ ذاك عند مستوى الجمع والحفظ والتّكرار ولا زيادة، كما كان الحال في المشرق إذ ذاك، وقد ذهبت مع أمس الدّابر أيّام العلماء المجتهدين المبتكرين، ولم تعد في دوائر العلماء هذه الشخصيّات الجليلة العامرة التي جعلت للفقه في

كانت المرجعيّة المالكيّة هي المتحكّمة في فتاوى الفقهاء السياسيّة وسلوكيّاتهم خلال القرنين التّاسع والعاشر الهجريّين، ويظهر ذلك مثلا من خلال رأي فقهاء المغرب الأوسط في مسألة المحاربين [1]، ومسائل الإمامة والعلاقة بين الرّاعي والرعيّة، وفتاويهم القاضية بوجوب اعتزال الفتن، وطاعة وُلاة الأمور في المعروف، وعدم إعانة الخارجين على السّلاطين[2].

ومن بين هذه النّصوص ما ورد عن ابن القاسم أنّه : ((سئل مالك عن الوالي إذ قام عليه قائم، طلب إزالة ما بيده هل يجب علينا الدّفع عنه))، وكان جواب الإمام مالك:((أمّا مثل عمر بن عبد العزيز فنعم وأمّا غيره فلا، ودعه وما يريد، ينتقم الله من ظالم بظالم، ثمّ ينتقم من كليهما))، كما ثبت عن يحيى بن يحي قوله عمّا يصحب القيام على السّلاطين من الفتن :((الصّواب في الفتنة أن لا يعان فيها بشيء ولا يخرج فيها، ومن أتي في بيته تراد نفسه وماله فليدفع عنهما)) [3]، ومثل هذه النّصوص، والاعتماد عليها في الفتاوى و النّوازل، يفسّر مسالك هؤلاء الفقهاء أمام السّلاطين، والتي كانت في الغالب لا تخرج عن رأي أحمد زرّوق المتمثّل في قوله :((حقوق الأمراء علينا خمسة :الاحترام عند ذكرهم، والتّعظيم والإكرام عند لقائهم، والسّمع والطّاعة لأمرهم، والدّعاء لهم بما يصلحهم ويصلح الأمّة من شأنهم، والنّصيحة لهم بقدر الإمكان في عين نصحهم))[4].

الغرب دولة تضارع دول السّلاطين...ولم يعد أمامنا إلاّ علماء فروعيّون مقلّون، أو مصنّفون جمّاعون يأخذون من هنا ويضعون هناك، ويقيسون نوازل أيّامهم على سوابق وقعت في القرون الأولى، ويخطئون في القياس أو يتعسّفونه، ويلقون الأحكام جزافا دون نظر إلى ظرف طارئ أو حال متغيّرة)). ينظر:حسين مؤنس، مقدّمة تحقيق "أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النّصارى ولم يهاجر "، بور سعيد:مكتبة الثّقافة الدّينيّة، 1996م، ص ص 7-10.

[1]-أبو القاسم البرزلي، نوازل البرزلي" جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكّام "، تحقيق محمّد الحبيب هيلة، ط1، بيروت:دار الغرب الاسلامي،2002 ، ج6ص178.

[2]- أحمد زرّوق البرنسي، الإعانة، تحقيق علي خشيم، ليبيا-تونس:الدّار العربيّ للكتاب، 1399 هـ-1979م.

[3]-البرزلي، المصدر السابق، ج4ص23.

[4]-أحمد زرّوق، كنّاشة زرّوق " فوائد من كنّاش العارف بالله الشّيخ أحمد زرّوق "، تحقيق: محمّد إدريس طيّب، ط 1، بيروت:دار الكتب العلميّة، 2011، ص135.

و كانت الكثير من النّصوص المرجعيّة للمذهب المالكي، تحضّ على التجافي عن خدمة السّلاطين، وتنهى عن قبول هداياهم، فقد قال سحنون أحد أقطاب المذهب المالكي :((من قبل جائزة عامل أمير المؤمنين فهي جرحة في حقّه، وكذا الإدمان في أكل طعامهم بخلاف الذلة والغلبة)).[1]

وهكذا وجدت هذه التّعاليم أثرها في فقهاء المغرب الأوسط، فهاهو أحمد بن يحي الونشريسي يقول: ((واعلم أنّ شرّ العلماء علماء السّلاطين، وللعلماء معهم أحوال، فكان الصدر الأوّل يفرّون منهم وهم يطلبونهم)).[2]

وبهذا رسم المذهب المالكي لفقهاء المغرب الأوسط صورة عن التّعامل مع النّوازل السياسيّة والسّلاطين.

و بعد دخول العثمانيين إلى أراضي المغرب الأوسط قاموا بإدخال المذهب الحنفي[3]، ومع ذلك فقد ظلّ مذهب الإمام مالك، هو المذهب السّائد خلال القرنين التّاسع و العاشر الهجريين[4].

- عقيدة أهل السنّة والجماعة[5]:

ثبت المغاربة على عقيدة أهل السنّة والجماعة، رافضين غيرها من العقائد التي حاولت أن تفرض نفسها، كعقائد الشّيعة والمعتزلة والخوارج، بيد أنّه ومع قيام دولة الموحّدين التي انتصرت لتعاليم ابن

---

[1]- البرزلي ، النوازل، ج5ص134.

[2]- الونشريسي، المعيار ،ج2ص480-481.

[3]- ابن المفتي، تقييدات ابن المفتي في تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها، جمع: فارس كعوان، ط1، العلمة-الجزائر: بيت الحكمة، 2009، ص ص81-82وص86.

[4]-طيلة القرن العاشر، لم يعثّر الباحث سوى على تأليف واحد حول الفقه الحنفي، تحت عنوان" **رسالة في الوقف على المذهب الحنفي** "، لمصطفى بن عبد الرّحمن باش ترزي ت980هـ، وهو ما يعكس عزوف فقهاء القرن العاشر عن الفقه الحنفي.

[5]-عقيدة أهل السنّة والجماعة في الأصل هي عقيد أهل الحديث دون المتكلّمين، يقول الحافظ أبو بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي في كتابه "**إعتقاد أهل السنّة** ":((اعلموا رحمنا الله وإيّاكم أنّ مذهب أهل الحديث- أهل السنّة والجماعة-الإقرار بالله وملائكته وكتبه ورسله، وقبول ما نطق به كتاب الله تعالى، وما نصّت به الرّواية عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، لا معدل عمّا وردا به، ولا سبيل إلى ردّه)). أبو بكر الإسماعيلي، إعتقاد أهل السنّة، تحقيق: جمال عزّون، ط1، الرياض:مكتبة دار ابن حزم، 1420هـ-1999م، ص14.

تومرت(ت 524هـ) تمكّنت العقيدة الأشعرية[1] في بلاد المغرب[2]. وتحوّل غالبيّة الفقهاء إلى هذه العقيدة، فاصلين بين المذهب الفقهي، والمذهب العقائدي[3].

وممّن نعى على الفقهاء المالكيّة في بلاد المغرب إتّباعهم للمذهب الأشعري، وإقبالهم عليه، وابتعادهم عن عقيدة الإمام مالك رحمه الله؛ الفقيه أبو الحسن محمد بن عبد المالك الكرجي الشّافعي(ت532هـ)، إذ قال : ((و قد افتُتن أيضا خلق من المالكية بمذاهب الأشعرية، و هذا و الله سُبّةٌ و عار، و فلتة تعود بالوبال و النّكال و سوء الدّار، على منتحل مذاهب هؤلاء الأئمة الكبار))[4].

وتُعدّ العقيدة الأشعريّة من العقائد التي تتبنّى مذهب المتكلّمين في باب الصّفات خلافا لمذهب أهل الحديث، إذ تنحى منحى تأويل المعاني أو تفويضها [5]، كما أنّها تقول في باب أعمال الخلق

---

[1]-عقيدة نسبت إلى أبي الحسن الأشعري الذي ترك الاعتزال ومذهب ابن كلاّب، و حاول نصر عقيدة أهل السنّة بالحجج العقليّة الكلاميّة، فأوّل الصّفات الفعليّة، و تأثّر به أبو الحسن الباهلي، والقاضي أبو بكر الباقلاّني، وأبو بكر بن فورك، وأبو اسحاق الاسفرائيني، وتوسّعوا في التّأويل. ينظر:علي عبد الفتّاح المغربي، الفرق الكلاميّة الإسلامي – مدخل ودراسة –، ط2، القاهرة:مكتبة وهبة، القاهرة، 1995م، ص ص267-274.

[2]-شمس الدّين الذّهبي، سير أعلام النّبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمّد نعيم العرقسوسي، ط 1، بيروت: مؤسّسة الرّسالة، 1985م، ج19ص539-541؛ إبراهيم التهامي، الأشعرية في المغرب "دخولها رجالها تطوّرها ومقف النّاس منها"، ط1، الجزائر:دار قرطبة للنّشر والتّوزيع، 2006م،ص5؛ خالد كبير علال، الأزمة العقيديّة بين الأشاعرة وأهل الحديث خلال القرنين (5-6هـ)، ط1، البليدة:دار الإمام مالك، 2005،ص9- وص138.10؛ الناصري ، الإستقصا، ج 1ص ص 196- 197 .

[3]-بعد دخول العقيدة الأشعريّة بلاد المغرب، طُرحت إشكاليّة "ماهيّة العلاقة بين المذهب المالكي والعقيدة الأشعريّة "، فبين من رأى أنّها علاقة انسجام، ومن يرى أنّها علاقة تناقض . وقد سئل ابن رُشد الجدّ هل يكون الرّجل مالكيا وأشعريّا في نفس الوقت، فـرجّح أنّه لا غرابة في أن يكون الفرد أشعريا في الأصول و مالكيا في الفروع. ينظر:أبو الوليد محمّد بن أحمد بن رشد (520هـ-1126م)، فتاوى ابن رشد، تحقيق: المختار بن الطّاهر التّليلي، ط1، بيروت:دار الغرب الإسلامي، 1987،ج2ص ص1060-1061؛ رضوان مبارك، حول بعض القضايا المذهبيّة والعقيديّة في العصر المرابطي من خلال فتاوى ابن رشد، "ضمن تاريخ وأدب النّوازل"، ط1، الرّباط:منشورات كليّة الآداب والعلوم الإنسانية بالرّباط، 1995م، ص73.

[4]- تقيّ الدّين بن تيمية، مجموع الفتاوى، ط1، تحقيق ابن القاسم، ط1 ، الرياض، 1381 هـ ، ج4 ص177.

[5]-يقول أبو يعلى الفرّاء:((واعلم أنّه لا يجوز ردّ هذه الأخبار على ما ذهب إليه جماعة من المعتزلة، ولا التّشاغل بتأويلها على ما ذهب إليه الأشعريّة))، ينظر: أبو يعلى الفرّاء، إبطال التّأويلات لأخبار الصّفات، تحقيق أبي عبد الله محمّد بن حمد الحمود النّجدي، الكويت:دار إيلاف الدوليّة للنّشر والتّوزيع، ص43.

بالكسب المفضي إلى عقيدة الجبر، وهو ما كان له بالغ الأثر على شخصيّة الفقهاء [1]، ووافق الأشاعرةُ المرجئة في مسائل الإيمان، فقالوا بتأخير العمل عن مسمّى الإيمان [2]. وأمّا مسألة الإمامة ومعاملة الأمراء والسّلاطين، فلا تكادُ تخرج تعاليم العقيدة الأشعريّة عن عقيدة أهل السنّة والجماعة، فهي تنهى عن الخروج على الحكّام وإن جاروا، وتحضّ على الطّاعة بالمعروف، وتدعو إلى اعتزال الفتن، ولزوم بيعة المتغلّب. لقد جعلت عقيدة أهل السنّة والجماعة الفُقهاء يلزمون طاعة السّلاطين ؛ رغم ما كان يبدر من بعضهم من تصرّفات مخالفة لتعاليم الإسلام ترجيحا منهم للمصلحة [3]، وهو ما يعبّر عنه أبو العباس أحمد بن عبد الله الجزائري الزواوي[4] في عقيدته حيث يقول:

ولا يكون بطاوي الفسق منعزلا

إلاّ بكفر فلا بدّ من بدل

بمثل هذا أتانا غير ما خبر إذ

---

[1]- أراد الأشاعرة أن يوفّقوا بين مذهب القدريّة والجبريّة، فقالوا بالكسب، وهو ما يلزم منه القول بالجبر، ومعناه تعطيل المخلوق عن الإرادة والفعل، ونفي تأثير الأسباب . ولهذا قال الرّازي أن الإنسان مجبور في صورة مخيّر، وقد اضطربوا في إعطاء معنى الكسب عندهم حتّى قيل :

ممّا يقال ولا حقيقة تحته معقولة تدنوا إلى الأفهام
الكسب عند الأشعري والحال عند البهشمي وطفرة النظّام

ينظر:تقي الدّين ابن تيميّة، مجموع الفتاوى، ط3، تحقيق:عامر الجزار وأنور الباز، المنصورة- مصر:دار الوفاء للطّباعة والنّشر والتّوزيع، 2005، ج8ص80-81؛ علي عبد الفتّاح المغربي، الفرق الكلاميّة الإسلامية، ص308.

[2]- قا ابن زكري: **لا تدخل الأعمال في الإيمان لعطفها عليه في القرآن**

ينظر: أبو العبّاس أحمد بن زكري، محصّل المقاصد ممّا به تُختبر العقائد، ورقة 71.

[3]- يقول ابن الأزرق: ((القائمون بتغيير الْمُنكر على أُمَرَاء الْجور من الْفُقَهَاء والمتعبدين اغْتِرَارًا بِمن تَبِعَهُمْ من الغوغاء والدهماء فيهلكون فِي سَبِيل ذَلِك مأزورين غير مَأْجُورِينَ لِأَن الْأَمر بِهِ مَشْرُوط بِالْقُدْرَةِ عَلَيْهِ وَالْملك الراسخ الْبناء لَا يهدمه إِلَّا الْمُطَالبَة بالعصبية الْغَالِبَة)). محمّد بن علي بن الأزرق، بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق:علي سامي النشار، العراق:وزارة الإعلام، ط1، ج1ص120.

[4]-أحمد بن عبد **الله** الجزائري الزواوي فقيه متكلّم ، من تصانيفه كتاب"**كفاية المريد في علم الكلام** ". ينظر:عمر رضا كحالة، معجم المؤلّفين، ط1، بيروت:مؤسّسة الرّسالة، 1993، ج1ص179

في الخروج مزيد الفسق والزلل

ويرى أحمد بن الحاج البيدري المنّاوي أنّ الخروج على الأمراء لا يكون إلا بعد ثبوت كُفرهم، مستشهدا حول المسألة بقول الفقيه أبي العبّاس أحمد البجائي الشّريف:

وطاعة من إليه الأمر فالزم

وإن جاروا وكانوا مسلمين

وإن كفروا ككفر بني عبيد

فلا تسكن ديار الكافرين

فربّما يقوم الحقّ يوما

فتهلك في غمار الهالكين

- **التصوّف**: يعتبر التصوّف [2] الإسلامي سلوكا دينيّا، برز كظاهرة في المائة الثانيّة من الهجرة، كردّة فعل على حياة التّرف التي عرفها المسلمون في بداية العهد الأموي. حيث يُعنى أصحابه بمعالجة الباطن، وتطهير القلب من العوائق قصد تحقيق صدق التوجّه[1].

[1]- جمال قنان، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث 1500-1830م، الجزائر: المؤسّسة الجزائريّة للطّباعة، 1987م، ص31 .نقلا عن: عقيدة أبي العبّاس الجزائري لأبي العبّاس الجزائري، مخطوط بالمكتبة الوطنية، رقم 4585.

[2]- أُختلف حول أصل التّسميّة؛ فقيل نسبةٌ إلى لُبْس الصّوف، وقيل نسبة إلى أصحاب الصفّة من فقراء الصّحابة ، وقيل نسبة إلى الصّفاء. ويرى القشيري أنّ اسم الصوفي اشتهر قريب من المئتين من الهجرة . ينظر: عبد الرّحمن ابن خلدون، شفاء السّائل وتهذيب المسائل، تحقيق: محمّد مطيع الحافظ، ط1، دمشق-لبنان:دار الفكر- دار الفكر المعاصر، 1996، ص ص 44-54؛ الموسوعة المفضّلة في الفرق

و يرى عبد الرحمن بن خلدون أنّ التصوّف والذي معناه العكوف على العبادة، والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدّنيا وزينتها ، فشا في الأمّة في القرن الثّاني وما بعدهُ كردّة فعل على ظاهرة الإقبال على الدّنيا، فحين جنح النّاس إلى التّرف؛ اختصّ المقبلون على العبادة باسم الصّوفيّة والمتصوّفة. و يُضيف أنّه لما كتبت العلوم، ودُوّنت وألّف الفقهاء في الفقه وأصوله والكلام والتّفسير، كتب رجال من أهل هذه الطّريقة في طريقهم كالقشيري **صاحب الرّسالة** والسّهروردي الذي كتب **عوارف المعارف**، و الغزالي صاحب كتاب "**إحياء علوم الدّين**" فدوّن فيه أحكام الورع والإقتداء[2].

وإن كان التصوّف سلوكٌ دينيّ يستمدّ ثقافته من تعاليم الدّين الإسلامي، فإنّ بعض الباحثين يرون أنّه لم يسلم من بعض المؤثّرات غير الإسلاميّة كالفكر الكهنوتي النّاسك والذي هو وليد المسيحيّة الشرقية[3]، و الفكر الغنوصي المشْبع بالتّعاليم الفارسيّة في الفكر الصّوفي[4].

والأديان والملل والمذاهب والحركات القديمة والمعاصرة، إعداد مكتب الدّراسات العربيّة وتحقيق التّراث لصاحبه أبي عيسى محمّد بن حسين المصري، ط1، القاهرة: دار ابن الجوزي، 2011م، ج1ص ص867-881.

[1] - تعدّدت تعريفات التصوّف، ويمكن الاقتصار على تعريف عبد الرّحمن بن خلدون حيث يقول: ((هو رعاية حسن الآداب مع الله في الأعمال الباطنة والظّاهرة بالوقوف عند حدوده، مقدّما الاهتمام بأفعال القلوب، مراقبا خفاياها، حريصا بذلك على النّجاة)) . ابن خلدون، شفاء السائل، ص54.

[2] -ابن خلدون، التّاريخ، ج1ص611-613.

[3] - سبنسر ترمنجهام، الفرق الصّوفيّة في الإسلام، ترجمة وتحقيق وتعليق : عبد القادر البحراوي، ط1، دار النّهضة العربيّة للطّباعة والنّشر،1997م، ص24.

[4] -كلمة يونانيّة أطلقت على نوع من المعرفة ولكنّها عندهم تطوّرت حتّى أخذت معنى اصطلاحيا يعبّر عن الكشف إلى المعارف العليا بطريقة تقوم على تذوّق المعارف تذوّقا مباشرا، ولا ترجع إلى استدلال أو برهان. ينظر: صابر طعيمة، الصوفيّة معتقدا ومسلكا، ط 2 ، الرياض:دار عالم الكتب للنّشر والتّوزيع، 1985 م، ص125.

- **عوامل ظهور الفكر الصّوفي في بلاد المغرب الأوسط:**

إنّ التّصوّف في صورته الزّهديّة ظلّ موجودا منذ الفتوحات الإسلاميّة، أمّا التصوّف بمفهومه الدّقيق فقد انتقل مع المعابر الأربعة [1]؛ وهي الحج ، طلب العلم، الكتب والتجارة [2]. ومن أبرز عوامل ظهوره الأزمات بمختلف أشكالها[3].

فالأزمة السياسيّة ساهمت في ذيوع صيت المتصوّفة، خصوصا بعد سقوط الدّولة الموحدية، وما أعقبها من انتشار الخوف والهلع؛ حيث لم يجد النّاس عزاءً ا إلا عند الصوفيّة في حماية أنفسهم وأموالهم، و تزايد التجاء النّاس إلى المتصوّفة بعد سقوط الأندلس، وما أعقبه من غزو إسبانيٍّ للسواحل المغربيّة.

أمّا الأزمة الفكريّة والتي كانت بدايتها مع محاربة المرابطين للمتصوّفة ؛ فقد أدّت إلى ظهور ردّة فعل تجلّت في الانفتاح على كتب التصوّف في عهد الموحّدين، فأكبر أساطين التصوّف ظهروا في عهد الموحّدين مثل أبي مدين شعيب [4]، ومولاي عبد السّلام بن مشيش، وأبي الحسن الشّاذلي [1]، والذين أثّروا الأوساط الشّعبيّة، كما طغت تعاليمهم الصّوفيّة على الحياة الفكريّة في القرن التّاسع[2].

---

[1]-من خلال هذه المعابر إنتقلت من بلاد المشرق إلى بلاد المغرب الدّروشة، والانحراف العقدي، حيث كانت البلاد المشرقيّة أسوأ حالا من بلاد المغرب بشهادة أحد فقهاء القرن العاشر، وهو علي بن ميمون المغربي (ت917 هـ) الذي يقول :((ووجه تخصيص أهل مصر والشّام وبلاد الأعاجم دون سائر بلاد الإسلام ،وذلك لأنّ البلاد التي رأيتها من المغرب الأقصى إلى الشّام ما رأيت من أهلها من أهل الفقه والفقر ما علمته من أمور هؤلاء المذكورين هنا ما-كذا في الأصل ولعلّه مع- انتهاك حرم قواعد الإسلام، وإماتة معالم السنّة، ودرس الشّريعة المحمّديّة.)). ينظر: بيان غربة الإسلام بواسطة صنفين من المتفقّهة والمتفقّرة من أهل مصر والشّام وما يليها من بلاد الأعاجم، تحقيق حكيمة شامي، ط1، بيروت:دار الكتب العلميّة، 1428 هـ/2007م، ص 44.

[2]- عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوّف في الجزائر، ط1، الميسلة- الجزائر-:دار الخليل القاسمي،1427 هـ، ص24.

[3]- حيث يرى القادري بوتشيش أنّ التصوّف:((يترسّخ ويشتدّ عوده إبّان الأزمات، حين يدبّ الضّعف والوهن في كيان الدّولة المركزيّة، وتستشري الفتن، وتحدث المجاعات والأوبئة والكوارث، فيصبح تدخّل الأولياء آنذاك بديلا ضروريا لإعادة التّوازن السياسي والاجتماعي)). ينظر: إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين " المجتمع-الذهنيّات –الأولياء،" ط1، بيروت:دار الطّليعة للطّباعة والنّشر، 1993، ص125.

[4]-شعيب بن حسين الأنصاري الأندلسي الأصل من أحواز إشبيلية ، كان زاهدا في الدّنيا عارفا بالله تعالى، نزل بطنجة ثمّ قصد سبتة، ثمّ مراكش، ففاس حيث لقي بها الأخيار والأشياخ والفضلاء، وأخيرا مكث ببجاية، وكثر تلامذته ، وظهرت بركاته عليهم، ويُقال أنّه خرج على يده ألف تلميذ. ينظر:ابن قنفذ، أنس الفقير وعزّ الحقير، نشره محمّد الفاسي وأدولف فور، الرّباط:منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، 1965م،ص13؛ عبد الحليم محمود، أبو مدين الغوث، القاهرة:دار المعارف، 1985م، ص ص21-60؛ عبد القادر الخلادي، أبو مدين الغوث دفين تلمسان (520 هـ -594هـ) ،الأصالة ، ع26، السنة 4، جويلية - أوت،1975 ، عدد خاص عن تلمسان وحاضرتها ،248-296

هذا وقد شهد عصر الموحّدين انفتاحا كبيرا على كتب التّصوّف [3] ، **كالرّعاية** للمحاسبي، و **قوت القلوب** لأبي طالب المكي، وكتاب **إحياء علوم الدّين** لأبي حامد الغزالي [4] الذي كثُر الاستمداد منه، إذ جعله ابن عاشر [5] بين عينيه واتّبع ما فيه بجد واجتهاد، وصدق وانقياد [6]، وكذلك عبد الرّحمن الثّعالبي الذي كان الفكر الغزالي بارزا في شخصيّته [7].

و من الأسباب الاجتماعيّة ما عرفه الولاة والفقهاء منذ أيام المرابطين من بذخ ، وتراجع القيم الأخلاقية، وهو ما أسفر عن روح غريبة في المجتمع، نافرة من الواقع مُغرقة في التصوّف [8] .

ويضاف إلى جملة الأسباب أيضا تلك المجاعات والأوبئة التي ألمت بالمغرب الأوسط، والتي ساهمت بدورها في تنامي ظاهرة التصوّف، والاعتقاد في الأولياء [1]، خصوصا بعد الوباء الذي اكتسح البلاد، وتحيّف الأمم مع منتصف القرن الثّامن [2].

---

[1]-هو أبو الحسن علي بن عبد الله الشاذلي ت 1258/656، من شاذله قرية بإفريقية، نزل الإسكندرية،كان شيخ الصوفية في زمانه، وإليه تنسب الطّريقة الشاذليّة ،كما أنّه كان فقيها عالما، له كلام في التصوّف تُكلّف في الاعتذار له منه . ينظر: يوسف ابن تغري، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، تحقيق:محمّد محمّد أمين، القاهرة:مطبعة دار الكتب والوثائق القوميّة- مركز تحقيق التّراث-، 1999م، ج8 ص ص98-91.

[2]-محمود بوعياد، جوانب من الحياة في المغرب الأوسط، ص ص49-52.

[3]-عبد السلام غرميني، المدارس الصوفيّة المغربيّة والأندلسيّة في القرن السّادس هجري، ط1، الدّار البيضاء-المغرب-:دار الرّشيد الحديثة، 2000م، ص368.

[4]-حول آثار دخول كتاب الإحياء في المغرب الإسلامي يُنظر إلى :عمر بلبشير، مرجعيّة الإحياء وإشكاليّة الحكم في تاريخ المغرب الإسلامي من بداية ق 6هـ إلى نهاية ق 8هـ/12-14م، جامعة وهران: كليّة العلوم الإنسانيّة والحضارة الإسلاميّة، قسم التّاريخ والآثار، 2001-2002م، ص ص113-119.

[5]-هو أحمد بن عاشر الجزيري السّلوي، أحد كبار العلماء والعبّاد الزهّاد، توفي بسلا سنة 765هـ، اشتهر بامتناعه عن لقاء سلاطين زمانه، واحتجابه عنهم، وزاره السّلطان أبو عنان في بيته فلم يأذن له بالدّخول . ينظر: ابن صعد ، النّجم الثّاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب، محمّد أحمد الدّيباجي، ط1، بيروت:دار صادر، 2011 م،ج1 ص ص156-164.

[6]-ابن قنفذ ، أنس الفقير وعزّ الحقير، ص9.

[7]-عبد الرزّاق قسّوم ، عبد الرّحمن الثّعالبي والتصوّف، مجلّة الثّقافة ، السّنة 2، العدد 8-9 ماي -جويلية، 1972م ، ص ص 152-160.

[8]- عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر، ص ص26-31؛ يحي هويدي :تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الإفريقية، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1965م، ج1ص ص543.

وهكذا أدّت الأوضاع الاقتصاديّة المتأزّمة والسياسيّة المتدهورة، و الفكريّة والاجتماعية، يُضافُ إليها الصّلات الثّقافيّة إلى تشكّل المدارس الصوفيّة في بلاد المغرب الأوسط وتنوّعها. [3]

- **مظاهر التصـوّف:**

تعدّدت المظاهر التي عكست غلبةالتيّار الصّوفي على الحياة ومن أهمّ هذه المظاهر:

أ- تأصيل الطّرق الصوفيّة:

بدأ تأصيل الطّرق الصّوفية في التّارخ الإسلامي منذ القرن الخامس الهجري، عندما وضع أبو سعيد محمّد أحمد الميهمي الصّوفي الإيراني تلميذ أبي عبد الرّحمن السّلمي ؛ أوّلَ هيكل تنظيمي للطّرق الصّوفيّة، ويُعدّ مِن أوّل مَن كتب في طريقة التربيّة الصّوفية[4]، وفي القرن السّادس للهجرة انتقلت الطّرق الصوفيّة من إيران إلى المشرق؛ فظهرت القادريّة والرّفاعيّة، ثمّ في القرن السّابع للهجرة ظهرت الطّريقة الشّاذليّة[5].

وفي بلاد المغرب استمرّ التصوّف بطابعه الفردي حتّى نهاية القرن الخامس الهجري، ثمّ دخل التصوّف مرحلة النّظام المؤسّساتي في إطاره الجماعي المنظّم والمعروف اصطلاحا بـ: (الطّرق الصّوفيّة)، والتي عرفت تطوّرا ملحوظا خلال القرنين التّاسع والعاشر الهجريّين (9-10هـ/15-16م)، وقد انصبّ اهتمامها على التصوّف العملي، وهو الأمر الذي فتح الباب أمام كافّة أطياف المجتمع إلى ممارسة

---

[1] - عبد الهادي البياض، الكوارث الطّبيعيّة وأثرها في سلوك وذهنيّات الإنسان في المغرب والأندلس(ق6-8هـ/12-14م)، ط1، بيروت- لبنان-:دار الطّليعة، 2008، ص278؛ مزدور سميّة، المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط، ص ص149-155.

[2] - ابن خلدون، التاريخ، ج1ص43.

[3] -آمال لدرع، الحركة الصوفيّة في بلاد المغرب الأوسط خلال العصر الزياني (633- 962هـ /1236- 1555م)، ماجستير، 2005-2006، ص ص2-52 .

[4] - يقول ترمنجهام :((كان الشّيوخ الأوائل أكثر إهتماما بالتّجربة أو الممارسة عنهم بوضع النّظريّات الثيوصوفيّة والأوائل قاموا بالإرشاد أمّا المتأخّرين فجعلوا من التصوّف علما)).يُنظر: ترمنجهام، الفرق الصّوفيّة في الإسلام، ص25.

[5] -الموسوعة المفصّلة في الفرق والملل والمذاهب والأديان، ص888.

التصّوف، لتبدأ مرحلة التصّوف الشّعبوي على حساب التصوّف النّخبوي [1]. و هو ما ساهم في تبسيط المعارف الصوفيّة، لينطلق عهد التصوف العملي على حساب التصوّف النّظري[2].

وتعتبر الطّريقة القادريّة نسبة إلى عبد القادر الجيلاني [3]، والطّريقة الشّاذليّة نسبة إلى أبي الحسن الشّاذلي أهم الطّرق اتّباعا في بلاد المغرب الأوسط خلال القرن التّاسع والعاشر.

ب - ظهور الزّوايا والرّباطات[4]:

من بين المظاهر التي أفرزها تيار التصوّف في بلاد المغرب الأوسط؛ ظهور الزّوايا والرّباطات ويعرّف ابن مرزوق الرّباط فيقول :((الرّباط في اصطلاح الفقهاء عبارة عن احتباس النفس في الجهاد والحراسة، وعند المتصوّفة عبارة عن الموضع الذي يلتزم فيه العبادة، وشرائط ساكن الرباط قطع المعاملة مع الخلق، وفتح المعاملة مع الحق، وترك الاكتساب اكتفاء بكفاية مسبب الأسباب)). [5]

---

[1]-بومدين أولاجي، قراءة تحليليّة في الواقع الاجتماعي للطّرق الصوفيّة ودورها في حركة التّواصل (الجزائر العثمانيّة)، رسالة ماستر، جامعة سيدي بلعبّاس: كليّة الآداب والعلوم الإنسانية، 2011 -2012م، ص46.

[22]- التصوف النّظري يتطلّب مستوى معينا من الثقافة والعلم، وأن يكون صاحبه على اطّلاع واسع بأحكام الشريعة الإسلامية، أمّا التصوف العملي فيركز فيه المريد على بعض الممارسات الفردية أو الجماعية مثل حلقات الذكر ،الرقص والإنشاد، ينظر:عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر،ص25. عبيد بوداود، قراءة في العلاقة بين صوفيّة وفقهاء المغرب الأوسط ما بين القرنين السّابع والتّاسع الهجريين (ق13-15م)، عصور الجديدة، وهران: مختبرالبحث التّاريخي، ع1، سنة2011 م، ص ص57-62.

[3]-عبد القادر بن أبي صالح موسى جنكي دوست الجيلاني البغدادي، ولد سنة 470 هـ، دخل بغداد فسمع الحديث وتفقّه،كان له سمت حسن، اشتهر بالأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وسلوك طريق الزّهد والورع، والذبّ عن عقيدة أهل السنّة والجماعة، توفي سنة 562هـ. ينظر:أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، غبطة النّاظر في ترجمة الشّيخ عبد القادر ضمن السّفينة القادريّة، ط1، بيروت-لبنان-:دار الكتب العلميّة، 2002؛ سعيد بن مسفر، الشّيخ عبد القادر الجيلاني وآراؤه الاعتقاديّة والصّوفيّة، ط1، الرياض:مكتبة الملك فهد الوطنيّة،1418هـ/1997م.

[4]-يقول ابن رقيّة عن الرّباط: ((هو القيام على جهاد العدو بالحرب ويسمّى القائم على الرّباط مرابط وهو من يلزم الثّغر مدّة لحراسة المسلمين وذلك من المطالب الشّرعيّة التي عيّن الملك الوهّاب للقائم بها أكبر أجر. فقد وردت في ذلك عدّة أحاديث نبويّة منها قوله صلّى الله عليه وسلّم :عينان لا تمسّهما النّار ،عين بكت من خشية الله ،وعين باتت تحرس في سبيل الله ،وعن سلمان رضي الله عنه قال سمعت رسول الله يقول :رباط يوم في سبيل =الله وليلة خير من صيام شهر وقيامه- رواه مسلم- . ينظر: محمّد بن رقيّة التّلمساني، الزّهرة النّائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، نشره سليم بابا عمر، مجلّة تاريخ وحضارة المغرب ،كليّة الآداب، عدد3، يوليو،1967، ص3 ؛ الثّغر الجماني في ابتسام الثّغر الوهراني، لأحمد بن محمّد بن سحنون الرّاشدي، تحقيق وتقديم المهدي البوعبدلي، منشورات وزارة التّعليم الأهلي والشّؤون الدّينيّة، سلسلة التّراث، ص195؛ المدخل لابن الحاج،القاهرة: مكتبة دار التّراث، (د.ت)مج2 ، ج3 ص18.

[5]- ابن مرزوق، المسند الصّحيح، ص409-413؛ عبد الجليل قربان، ، السياسية التّعليميّة للدّولة الزيانيّة، ص ص117-120.

أمّا الزّوايا فيعرّفها ابن مرزوق بأنّها : ((المواضع المعدّة لإرفاق الواردين ، وإطعام المحتاجين من القاصدين)) [1].

ويرى المهدي بوعبدلي أنّ الرّباط غير الزّاوية، فإذا وجدنا الرّباط مُرتبطا بعهد الفتوحات الإسلاميّة، فإنّ الزّوايا عُرفت في أوائل القرن الثّامن الهجري، فكانت تُطلق على المكان المُعدّ للعبادة[2]. ولعلّه يمكن التّفريق بين الزاوية والرّباط باعتبار أنّ المقصد الأوّل من تشكيل الرُّبط هو الجهاد، أمّا الزّوايا فالمقصد الرّئيس منها هو العِبادة، ومُمارسة التصوّف العملي، وتقديم بعض العلوم الدّينيّة بدرجة أقلّ من التّعليم المدرسي والمسجدي.

لقد ذاعت عقيدة المرابط في بلاد المغرب الإسلامي في القرن التّاسع الهجري، ولعلّ ذلك راجع إلى دعم السّلطة وتأهيل الفقهاء لمؤسّسة الرباط [3]، ونفس الشّيء يمكن ملاحظته فيما يخصّ الزوايا حيث تُعتبر المئتان الثامنة والتاسعة للهجرة بمثابة العصر الذهبي لها، وهو العهد الذي ظهرت فيه الزوايا الرّسمية، وتَضاعف فيه عدد الزوايا، بسبب محاولات السّلطة احتواء الفقهاء والمتصوفة[4].

وهكذا توزّعت الزّوايا عبر ربوع المغرب الأوسط ؛ في تلمسان ووهران وتنس وشلف وقسنطينة وبجاية وبونة وتقرت ووالحضنة وجبال الونشريس جزائر بني مزغنة والحضنة [5]، ومن أبرز الزّوايا زاوية العبّاد وزاوية سيدي أبي الحسن التي شيّدها السّلطان أبو سعيد عثمان الزياني، وزاوية الحلوي بجانب مسجد الحلوي، وزاوية أبي عبد الله وزاوية أبي زيد عبد الرّحمن بن يعقوب بن علي وزاوية الحسن بن مخلوف الشّهير بأبركان، وزاوية ابن البنّاء وزاوية أبي يعقوب العشاشي بشلف . وفي القرن التّاسع اشتهرت زاوية الثّعالبي، وضريح محمّد الهوّاري ، وزاوية محمّد بن يوسف السنوسي [6] بتلمسان، والزاوية الملاريّة وزاوية أبي هادي مصباح بن سعيد الصّنهاجي، وزوايا أخرى في قسنطينة[1].

---

[1]- ابن مرزوق، المسند الصّحيح، ص ص409-413.

[2]-المهدي بوعبدلّي، الرّباط والفداء في وهران والقبائل، الأصالة ، عدد13، السنة الثّالثة، مارس- أفريل، 1973م، ص ص 19-39.

[3]- نللي سلامة ، الولاية والمجتمع، ط2، بيروت-لبنان-:دار الفرابي، 2006م، ص111.

[4]-المرجع نفسه، ص161.

[5]-بوداود عبيد، ظاهرة التصّوّف في المغرب الأوسط ما بين القرنين السّابع والتّاسع الهجريين، 13-15م، ماجستير، جامعة وهران: كليّة العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، السّنة الجامعيّة، 1999-2000م، ص70.

[6]- محمّد بن يوسف السنوسي، أخذ عن نصر الزواوي فنّ العربيّة، وعن محمّد بن تونزرت، وعن أبي الحسن القلصادي أصول علم الحساب ، والفرائض، وعن أبي عبد الله محمّد الحبّاك علم الإسطرلاب وعن محمّد بن العبّاس العبادي ، كما أخذ علم الفروع عن علي بن

صورة عن مؤسّسة الزاوية:

يشرف على الزّاوية الشّيخ، الذي يعتبر محلّ تقديس وتعظيم، ويكون هذا الشّيخ معروف بالعلم والصّلاح والزّهد، يلتفّ حول الشّيخ المريدون، والذين ينتسبون إلى الزّاوية عن طريق لبس الخرقة بعد أخذ العهد[2] والمصافحة وتلقين الذّكر، أو عن طريق الصّحبة والاقتداء، ومن صور الانتساب أيضا؛ الانتساب عن طريق أخذ الرواية والإجازة[3]. يقوم الشّيخ بتلقين مريديه الأوراد والأذكار، وتعاليم الطّريقة، ويرشدهم إلى أصناف المجاهدات، ويأخذ بأيديهم إلى الحقيقة. يلتفّ النّاس حول رباط أو زاوية الشّيخ، ويقصده النّاس من أماكن بعيدة، قصد التبرّك [4] والتزوّد بالحكمة والمعرفة أو أخذ الإجازة، كما يقصده شيوخ القبائل، وأحيانا أرباب الوقت من السّلاطين والأمراء. وبعد موت الشّيخ يصبح ضريحه مكانا مقدّسا يقصده النّاس، ويعتقدون فيه .

كانت موارد الزّوايا والرّبط تأتي من عطايا السّلاطين، والأمراء، وصدقات النّاس، وأموال العشور والأوقاف[5]. و ساهم التّصوّف في تنامي ظاهرة الوقف، فتمّ تحبيس الرّباع والأراضي والكتب وآلات

محمّد التّالوتي ، وعلم =الحديث عن عبد الرّحمن الثّعالبي، والتصوّف عن الحسن بن مخلوف أبركان وإبراهيم التّازي . توفي سنة 895هـ.ينظر:محمّد بن عمر، المواهب القدّوسيّة في المناقب السنوسيّة، تحقيق :علاّل بوربيق، الجزائر:دار كردادة للنّشر والتّوزيع، 2011 م، ص ص43-553.

[1]-علال بن عمر، الحركة العلميّة وبيوتات العلماء في مدينة قسنطينة من القرن 7هـ-10هـ، ماجستير، قسنطينة:جامعة الأمير عبد القادر، 2010-2011م، ص ص104-114.

[2]- يكون أخذ العهد بأن يذكر الشّيخ آداب التّوبة وحقيقتها .ثمّ يضع يده اليمنى من فوق يد التّائب اليمنى، ثمّ يلقّن المريد بعض الكلمات ، ثمّ يسند له الشّيخ طريقته إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم.ينظر: أحمد زرّوق ، الكنّاشة، ص104.

[3]- آمال لردع، الحركة الصوفيّة في بلاد المغرب الأوسط، ص ص237-243.

[4]-من بين أهمّ أسباب زيارة الزّاوية هو الرّغبة في رؤية الشّيخ، أو رؤية من رآه لأنّ هـ من بين الكرامات التي كانت تُنسب إلى شيوخ الطّرق كرامة تحريم النّار على من رآهم، أو رأى من رآهم، وقد ورد في **"مناقب الملياني"** أنّهم قالوا : ((سيدي عبد الرّحمن قال من رأى من رآني إلى ثلاثة لا تأكله النّار، فقال الشّيخ سيدي أحمد بن يوسف من رأى من رآني لا تأكله النّار إلى عشرة)). ينظر: مجهول، مناقب المليانى، الرّباط، الخزانة العامّة، 1457، ورقة18.

[5]-كمال السيّد أبو مصطفى، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدّينيّة والعلميّة في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للونشريسي، الإسكندرية، 1996م، ص30؛ محمّد حجي، نظرات في النّوازل الفقهية، ط1، الرّباط:منشورات الجمعيّة المغربيّة للتّأليف والتّرجمة والنّشر، 1420 -1999م، ص ص 100-103

الجهاد وغيرها[1]، كما ساهم الوقف في تدعيم التصوّف فكانت الرّباطات والزّوايا من أكبر المستفيدين من الوقف[2].

ويُشارُ إلى أنّ بعض الزّوايا تحوّلت إلى مراكز تعليميّة، وكانت تُعنى بتحفيظ القرآن، وتلقين الأذكار، وممارسة الشّعائر، كما ساهمت في جمع أفراد المجتمع وإيواء الوافدين، وتأمين الخائفين والفارّين، وتقديم خدمات اجتماعية جمّة، خصوصا الزّاوية في الرّيف[3].

و تحوّلت بعض الزوايا و الرباطات إلى نقاط أمامية ضدّ الأعداء، فكان المرابطون يقودون أتباعهم في الجهاد، وينصرون المجاهدين، ويطعمونهم في زواياهم، ويتحالفون مع الأمراء المجاهدين، وكان على السّلطة أن تؤيّد المرابطين بالعطايا السخيّة، والإعفاءات من الضّرائب؛ حتّى لا تضعف الرّابطة بينهما.

وهكذا استطاعت الزّاوية أن تفرض نفسها في بلاد المغرب الأوسط لتنافس المدرسة، وتقضي على التّعليم النّوعي، لتساهم بذلك في تبسيط المعرفة .

د- الفكر الكرامي:

تعتبر الكرامة[4] من الأمور التي أثبتها عُلماء أهل السنّة والجماعة، غير أنّهم فرّقوا بينها وبين سائر الخوارق الأخرى، كخوارق السّحرة والمشعوذين. ويرى أهل السنّة أنّ الوليّ الحقيقي هو الذي يسعى إلى إخفاء الكرامة؛ مبالغةً منه في الإخلاص، وإخفاء العبادة، كما يحثّ علماء الإسلام وحتّى رجال

---

[1]-عبيد بوداود، انتشار ظاهرة الأوقاف في المغرب الإسلامي ما بين القرنين السّابع والتّاسع الهجريّين (ق13-15م) ودورها في الحياة الاقتصاديّة و الاجتماعية، أطروحة دكتوراه في التّاريخ الوسيط، جامعة وهران: كليّة العلوم الإنسانية والحضارة الإسلاميّة، 2005-2006م، ص125وص ص158-196.

[2]-المرجع نفسه، ص ص204-241.

[3]- يقول أبو القاسم سعد الله: ((ويظهر الدّور الإيجابي للزّوايا الرّيفيّة أيضا في التّعليم، وكانت الزّاوية الرّيفيّة تشتمل أيضا على مسجد وقبّة الشّيخ المرابط ومبيتا للطّلبة الدّاخلين ومساكن الغرباء والفقراء...وكانت بعض الزّوايا ملجأ للهاربين من العقاب والقتل، مهما كانت جرائمهم، فقد كان الولاة يعتقدون في حمى الزّاوية والضّريح، ويكفي الجاني أن يهرب إلى هذا الحمى فلا يلحق به أحد ولا يمسّه سلطان)) . ينظر: سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافي، ج1 ص ص269-271.

[4]- الكرامة عند أهل السنّة والجماعة أمر خارق للعادة يؤيّد الله به أولياءه، ويرى ابن قنفذ أنّ الكرامة ليست خاصّة بالأولياء ، فقد تحصل الكرامة دون ولاية، لكن إن وقعت لولي فهي دالّة على صدق عبادته، وعلوّ مكانته، بشرط إتباعه لحقيقة ما أمر به النبي عليه السّلام. ينظر: ابن تيميّة، الفرقان بين أولياء الرّحمن وأولياء الشّيطان، تحقيق: عبد الرّحمن بن عبد الكريم اليحي، دار الفضيلة، ص ص128-175؛ ابن قنفذ، أنس الفقير، ص3.

التصوّف على طلب الاستقامة بدل طلب الكرامة، وقد نقل الونشريسي كلام أبي عبد الله بن العبّاس: ((إن كان ممّن جرى على نهج الشّرع القويم فينبغي له أن يزيد في إخفائها، –أي الكرامة–.[1])).

لكنّ الفكر الكرامي في بلاد المغرب الأوسط قد أخذ أبعادا خطيرة، وصارت الكرامة تحمل مدلولا واضحا وبرهانا قويا على قداسة الشّيخ، الأمر الذي يجعل المخيّلة الشّعبيّة تعتقد في الشّيخ الكثير من الاعتقادات، لتضفي عليه هالة من الصّفات الأسطوريّة [2]، وكثيرا ما يحدث هذا بعد وفاة الشّيخ، كضريح محمّد بن عمر الهواري[3] الذي كان العامّة وحتّى العلماء يعتقدون أنّه يحمي وهران من النّصارى[4]، وسُرعان ما تحوّلت الكرامة إلى وسيلة لتفعيل وتنامي سلطة المتصوّفة، و أضحت بابا يلجُ من خلاله الأدعياء، وبذلك ركب موجة التصوّف الكثير من أصحاب الدّجل والمنحرفين[5].

ومن يتصفّح كتابي ابن صعد التّلمساني؛ "**النّجم الثّاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب**" و "**روضة النّسرين**" ، و "**البستان**" لابن مريم، وكذا "**نيل الإبتهاج**" لأحمد بابا التنبكتي، يجد من كرامات بعض الأولياء أنّ الدّعاء عند ضريحه مستجاب، وما زاره ذو عاهة إلا برئ، ولا ذو حاجة إلا قضيت [6]، وأنّه ممّن تطوى له الأرض [7]، ويصيّر الحجر ترابا [1]، وأنّه ممّن يحجبه الله عن العامّة والسّلاطين [2]، وأنّ من من تعرّض له حلّت به أصناف العقوبات[3].

---

[1]–الونشريسي، المعيار، ج2ص389.

[2]- من ذلك كتاب مناقب الملياني الذي حشاه صاحبه بالكثير من الأساطير، كعلاقة الملياني الجنّ، وقضائه حوائج أتباعه رغم بعد المسافة...إلى غير ذلك من أنواع الخُرافات التي تتلقّاها العامّة، على أساس أنّها كرامات.

[3]- محمّد بن عمر الهواري، ولد سنة 751 هـ، وتوفي سنة 843هـ، من أعلام مدينة وهران، ورجال التتصوّف بها ، نسجت حول شخصيّته الأساطير، وأضيفت إلى جملة مناقبه دعاؤه على وهران. ينظر ابن صعد، روضة النّسرين في التّعريف بالأشياخ الأربعة المتأخّرين، تحقيق : يحي بوعزيز، ط1، الجزائر:منشورات ANEP، ص ص48-55 ؛ عبدالقادر بوباية، الشّيخ محمّد بن عمر الهواري من خلال كتاب روضة النّسرين لابن صعد التّلمساني، جامعة وهران: مجلّة الحضارة الإسلامية، عدد14، شعبان ،2010/1431م، ص ص133-142.

[4]–أحمد بن قاسم البوني، الدرّة المصونة في علماء وصلحاء بونة، تحقيق سعد بوفلاقة، ط1، عنّابة:منشورات بونة للبحوث والدّراسات، 2007، ص ص142-143.

[5]–آمال لردع، الحركة الصوفيّة في بلاد المغرب الأوسط، ص ص69-71.

[6]–أسهب ابن مريم في ذكر كرامات من هذا النّوع للحسن ابن مخلوف أبركان كاستغاثة الوزير أحمد بن يعقوب به . ينظر:ابن مريم، البستان، ص ص151-159.

[7]- جاء في ترجمة حدّوش العبد الوادي أنّه صاحب طي الأرض. ينظر: المصدر نفسه، ص178.

تأثير التصوّف على شخصيّة فقهاء المغرب الأوسط:

عرفت العلاقة بين المتصوّفة والفقهاء منذ نشأة التصوّف نوعا من الفتور والتّشاحن [4]، فكان غالبيّة فقهاء الإسلام يُنكرون على المتصوّفة كثيرا من السلوكيّات والعقائد. وإن كان الظّاهر من هذا الصّراع أنّه عقديّ بالدّرجة الأولى، فذلك لا يمنع أن يكون الصّراع حول الهيمنة، ومُجاوزة بعض المتصوّفة لصلاحيّاتهم من بين العوامل المغذيّة لهذا الصّراع والمؤجّجة له[5].

و لكنّ الموقف المتصلّب من التّصوّف سُرعان ما بدأ يلين ويفتر، وصار الفقهاء مضطرّين إلى تأهيل الصّوفيّة بواسطة السُّلمي، وتلميذه القشيري؛ وأخيرا أبي حامد الغزالي [6]، بل إنّ فئة المتصوّفة قد حظيت بالتّشجيع من قبل السّلاطين[7]. ويُعتبر السرّاج الطّوسي المتوفّى سنة 378هـ، أوّل من سعى إلى توحيد الفقه والتصوّف واعتبارهما علما واحدا[8].

---

[1]-ذكر الصبّاغ أنّ أحمد بن يوسف الملياني عرض له أعراب سويد أرادوا أن يتعرّضوا لأحمد بن يوسف الملياني، فأمسك حجرين صلدين أملسين في يديه وقال للأعراب الذين أضمروا له الخديعة والسّوء ، انظروا لهذين الحجرين، فحكّهما فصارتا ترابا كالدّقيق المغربل فنفخ فيه الشّيخ والأعراب ينظرون فقال هكذا يفعل بكلّ من أضمر لنا سوءا. ينظر: بستان الأزهار، ورقة 20 و21.

[2]-ذكر أحمد بابا التنبكتي أنّ ابن عاشر كان يحتجب عن السّلطان أبي عنان فلا يراه رغم إلحاح أبي عنان للقائه. ينظر: أحمد بابا التمبكتي، نيل الإبتهاج بتطريز الدّيباج، تحقيق بإشراف عبد الحميد عبد الله الهرامة،ط 1، طرابلس:منشورات كليّة الدّعوة الإسلاميّة، 1989م ، ص ص96-97.

[3]- قال ابن مريم :((وذكر لي الشّيخ عبد السّلام ،شيخ بني ورنيد مكناسة ،فقال لي ثلاثة قبائل من بني ورنيد من تعدّى عليهم في مال أو أرض أو زرع أو غير ذلك ،أو نقص حرمتهم أصابته عقوبة عاجلة ،وهم أولاد سيدي حمزة المغراوي وأولاد عدّو وأولاد بليسع)) . ينظر:ابن مريم، البُستان، ص180.

[4]-عمر بلبشير، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكريّة في المغربين الأوسط والأقصى من القرن 6 إلى 9هـ/12-15م من خلال كتاب المعيار للونشريسي، أطروحة دكتوراه، جامعة وهران: كليّة العلوم الإنسانيّة والحضارة الإسلاميّة، قسم التّاريخ والآثار، 2009 -2010م، ص303.

[5]- نللي سلامة، الولاية والمجتمع، ص ص429-430.

[6]-حول دور الغزالي في التّوفيق بين الفقه والتصوّف ينظر: عمر بلبشير، مرجعيّة الإحياء وإشكاليّة الحكم، ص ص99-112.

[7]-سبنسر ترمنجهام، الفرق الصوفيّة في الإسلام، ص22.

[8]-محمّد جلال شرف، دراسات في التصوّف الإسلامي- شخصيّات ومذاهب- ، بيروت:دار النّهضة العربيّة 1984م، ص18.

و في المغرب تمكّن الفقهاء في عصر دولة المرابطين من تهميش رجال التصوّف، فشهدت دولتهم ثورة المريدين[1]، والتي تعكس مدى سلطويّة الفكر الصّوفي في تلك الفترة. بيد أنّ المتصوّفة استطاعوا أن يظهروا بقوّة ابتداء من عصر الموحّدين، و كانت الدّولة الموحديّة تتعامل مع رجال التصوّف بتسامح يتخلّله الحذر والرّيبة، وتظهر سياسة الموحّدين اتّجاه رجال التصوّف من خلال قول محمّد بن عبد الملك المرّاكشي:((وكان دأب عبد المومن وبنيه التّنقير عمّن هذه حاله، والكشف عن باطن أمره متخوّفين من ثورته، وخروجه عليهم))[2]، و كان الفقهاء يحذرون السّلاطين الموحّدين من رجال التصوّف كما حدث مع شعيب أبي مدين الذي مات في طريقه إلى سلطان الموحّدين بعد أن وشى به بعض الفقهاء [3]، كما ضايق الفقهاء في بجاية ابن سبعين وتلميذه الشّشتري[4].

إلى أنّ سلطة الموحدين وبعد تضعضعها عقب هزيمة العقاب فقدت جلّ مقوّماتها الدّفاعيّة، و هكذا عجزت عن مضايقة رجال التصوّف. وأصبحت الظّاهرة الصوفيّة تتنامى، و تزايد نفوذ المتصوّفة على حساب الفقهاء، إلى أن اكتست الظّاهرة الصّوفيّة السّاحة؛ ونافس الصّوفيُّ الفقيهَ في المكانة، و حظي المتصوّفة باحترام الجميع، وأثّروا حتّى على شيوخ القبائل، والذين اندمجوا داخل المنظومة الصوفيّة[5].

1-تزعّم هذه الثّورة سنة 539هـ-1144م أحمد بن قسي أحد رجال التصوّف، صاحب كتاب "**خلع النّعلين**"، وقد وصفه عبد الواحد المرّاكشي بصاحب حيل وربّ شعوذة، و ساهمت ثورته في تقهقر السيادة المرابطيّة في الأندلس. ينظر: عبد الواحد المرّاكشي، المعجب، ص281؛ بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص ص163-172.

2-محمّد بن عبد الملك المرّاكشي، الذيل والتكملة، السفر الثامن، تحقيق محمّد بن شريفة، مطبوعات أكاديميّة المملكة المغربيّة، 1984م، ص250؛ محمّد القبلي، مراجعات حول المجتمع والثقافة بالعصر الوسيط بالمغرب، ط1، الدّار البيضاء:دار توبقال للنّشر، 1987م،ص ص26- 25.

3-التنبكتي، النيل، ص198.

4- علي بن عبد الله النميري أبو الحسن الشّهير بالششتري أحد الصوفيّة، ونسبته لششترى قرية من الأندلس. دخل بجاية وأقام بها هو وشيخه ابن سبعين و قد اختلف فيه كشيخه ابن سبعين من التّكفير إلى القطبانيّة بسبب بعض الكلمات التي يقتضي ظاهرها الكفر. ينظر:التنبكتي، المصدر نفسه، ص321-322؛ علي سامي النشّار، أبو الحسن الششتري الصّوفي الأندلسي الزجّال وأثره في العالم الإسلامي، مجلّة المعهد المصري للدّراسات الإسلاميّة، عدد1 ، سنة1 ،1953، مدريد، ص129-160.

5- ابن خلدون، التّاريخ، ج6ص35.

أسباب ظهور المتصوّف على الفقيه :

لا شكّ أنّ ظهور رجال التصوف على الفقهاء له عدّة أسباب ، فمن ذلك ظهور طائفة من الفقهاء الذين لا همّ لهم إلاّ طلب المال والجاه، وهو الأمر الذي دفع بالعامّة إلى الوثوق بالمتصوّفة، والرّكون إليهم[1]. فكان بعضُ الفقهاء يطلبون بعلمهم الجاه والمال والرّياسة[2]؛ في الوقت الذي كان رجال التصوّف يسلكون طريق الزّهد والورع ومجانبة السّلاطين.

و أدّى استمرار تواجد هذا النّوع من الفقهاء إلى الإجهاز على سمعة الفقيه في الوقت الذي كانت مكانة المتصوّفة تفرض نفسها قلبا وقالبا. يقول ابن صعد عن هذه الطّائفة من الفقهاء: ((واحذر أن تقلّد فيما اشتبه عليك بعض هؤلاء الفقهاء؛ الذين نصّبوا أنفسهم للفتوى طلبا للرياسة، والظّهور الدّنيوي، وحرصا على جمع حطام هذه الفانية))[3]. وفي القرن العاشر الهجري (10هـ/16م) لاحظ التمكروتي أنّ طلبة العلم بمدينة الجزائر:((لا بأس بهم، إلى أنّ حبّ الدّنيا وإيثار العاجلة والافتتان بها غلب عليهم كثيرا))[4].

ومن أسباب ظهور المتصوّفة على الفقهاء ؛ مبالغة سلاطين المغرب الأوسط بعد نهاية الدّولة الموحديّة في رجال التصوّف ، وإضفاء الشرعيّة عليهم. فهاهو واضح بن عاصم أحد أولياء البلاد الشّلفاوية بالمائة السّابعة، كان يعظّمه أمراء الوقت، وجُباة الأموال، ويخشون تغيّر خاطره عليهم، و كان ينادي السّلطان الزياني يغمراسن باسمه، وصار يغمراسن يستشيره[5].

أمام هذا الوضع خضع الفقهاء لسُلطة رجال التصوّف[6]، وركدت ريح الصّراع بين الفئتين، و بات التعايش والتّقدير المتبادل يسودُ العلاقة بين صوفيّة وفقهاء المغرب الأوسط طوال القرون الثّلاثة

---

[1]-بوتشيش، المغرب والأندلس في عهد المرابطين، ص126.

[2]- عن سلوكيات بعض الفقهاء، وتوسّعهم في طلب الجاه ينظر:الونشريسي، المعيار، ج5ص120؛كمال السيّد أبو مصطفى، جوانب من الحياة الإجتماعيّة والإقتصاديّة والدّينيّة والعلميّة في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للونشريسي، ص34.

[3]-ابن صعد، روضة النّسرين، ص62 وص65.

[4]-علي بن محمّد التّمكروتي، النّفحة المسكيّة في السّفارة التّركيّة، تقديم وتحقيق: عبد اللّطيف الشّاذلي، الرّباط:المطبعة الملكيّة، 1423هـ-2002، ص129.

[5]-ابن صعد، النّجم الثّاقب، ج2ص402-405.

[6]-نللي سلامة، الولاية والمجتمع، ص443.

الأخيرة من العصر الوسيط تقريبا، على الرّغم من الأحداث المبثوثة هنا وهناك[1]. فصار الفقهاء هم الذين يؤهّلون المتصوّفة، ويتتلمذون عليهم، بما فيهم أولئك الذين تزعّموا التيار المقاوم لانحرافات المتصوّفة[2].

وهكذا شهد القرن التّاسع الهجري وما بعده إغراق الفقهاء في التصوّف ، والذي أصبح علما يُدرَّس، بل وحظي مُدرّسوه بإقبال كبير، وشعبيّة في أوساط العامّة؛ وهو ما فتح الباب على مصراعيه أمام أدعياء التصوّف، وظهرت تآليف لعلماء المغرب الأوسط في التصوّف كإقامة **المريد للمقرّي**، و**نور اليقين** لابن مرزوق، إضافة إلى الكتب المناقبيّة و كتب الرقائق والحكم[3].

وعندما جاء العثمانيّون إلى أرض المغرب الأوسط، ساندوا رجال التصّوف، متأثّرين بروح العصر ومستسلمين لثقافته.[4]

وأدّى التصوّف و المبالغة في الاعتقاد في الشّيخ وانتشار الزّوايا والأضرحة إلى نتيجتين خطيرتين أوّلهما تبسيط المعرفة، وثانيهما غلق باب الاجتهاد، كما أصبح النّاس يلتفّون في زاوية حول شيخ أو مقدّم قد تغلب على عقله الخرافة، وعلى أحواله الزّهد بدل الالتفاف حول العلماء المتنوّرين[5].

---

[1]-روبار برنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ترجمة حمّادي السّاحلي، ط1، بيروت:دار الغرب الإسلامي، 1988، ج2ص345؛ عبيد بوداود، قراءة في العلاقة بين صوفيّة وفقهاء المغرب الأوسط، ص ص57-62.

[2]-من جملتهم أحمد زروق الذي اشتهر بالردّ على المبتدعة ومقاومة انحرافات المتصوّفة، والذي يرى أنّ الفقه والتصوّف أخوان في الدّلالة على أحكام الله. ينظر: أحمد زرّوق، عدّة المريد الصّادق، تحقيق: الصّادق بن عبد الرّحمن الغرياني، ط1، بيروت:دار ابن حزم، 2006، ص51.

[3]-بوداود عبيد، ظاهرة التصوّف، ص ص62-64.

[4]- يقول أبو القاسم سعد الله:((لكن المبالغة في الاعتقاد في الشّيخ، وابتداع الحضرة والأوراد وغيرها، والالتحاف حول زاوية ذلك الشّيخ أو ضريحه؛ كلّ هذه الأمور تكاد تكون وليدة القرن التّاسع وما بعده، وقد جاء العهد العثماني ليزيدها حماية وتعهّدا ولتزداد هي بدورها في ظلّه ازدهارا أو تفريقا)). ينظر: سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافي، ج1ص19وص ص48-49.

[5]- قال أبو القاسم سعد الله : ((أنّ هذه المنافسة بين العالم والمرابط أو الجامع والزاوية، قد أجبرت أيضا علماء المساجد والمدارس على تبسط آرائهم وطرقهم في التّعليم، ولذلك لا نستغرب أنّه عندما كانت شمس المعرفة في أوربا تطلّ من وراء السّحاب كانت شمس المعرفة في الجزائر تفرّ ضاربة وسط ضباب كثيف)). ينظر: المرجع نفسه، ج1ص19و ص ص48-49.

صورة عن محاربة الفقهاء لانحرافات بعض المتصوّفة:

إذا كان أكثر الفقهاء قد أهّلوا المتصوّفة، وأضفوا عليهم الشّرعيّة، فإنّ البعض منهم قد وقفوا أمام انحرافاتهم وشنّعوا عليهم [1]، و قاموا بكشف حال أدعياء التصوّف، والتي يُجمل أحمد زرّوق أسباب ظهورهم في: (نقص الإيمان عندهم، والجهل بأصول الطّريقة، وحبّ الرياسة) [2]. و يأتي في طليعة هؤلاء الفقهاء محمّد بن أحمد بن مرزوق الحفيد العجيسي [3] (ت842 هـ) والذي لقّبه صاحب **نيل الابتهاج** بـ:(حامل لواء السنّة، وداحض شُبه البدعة، سيف الله المسلول على أهل البدع، والأهواء الذّائعة) [4]. وقد ألّف كتاب« **النّصح الخالص في الردّ على مدّعي رُتبة الكامل للنّاقص** » في الردّ على عصريّه وبلديّه قاسم العقباني في فتواه حول مسألة الفقراء الصوفيّة، حيث ردّ عليه أشياء صوّب العقباني صنيعهم فيها فخالفه ابن مرزوق [5]. ومن هؤلاء الفقهاء نجدُ أحمد زرّوق البرنسي، الذي ألّف كتبا في ذلك منها كتاب« **الجنّة للمعتصم من البدع بالسنّة**» ، وكتاب« **عدّة المريد الصّدّيق من أسباب المقت في بيان الطّريق**» ، و«**ذكر حوادث الوقت**»، وقد تخرّج على يديه الكثير من الفقهاء الذين حاربوا بدع المتصوّفة كمحمّد بن علي الخرّوبي [6] (ت963هـ) الذي عُرف بالإنكار على المبتدعة، و أنكر على أبي عمرو القسطلي دفين رياض العروس من مرّاكش في مسألة حلق شعر التّائب الذي يريد الدّخول في

---

[1]-ناصر الدّين سعيدوني والمهدي بوعبدلي، الجزائر في التّاريخ العهد العثماني، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، ص128.

[2]-أحمد زروق، عُدّة المريد الصّادق، ص ص 46-47.

[3]- أبو العبّاس أحمد بن أحمد البرنسي الفاسي المعروف بزرّوق البرنسي نسبة إلى قبيلة البرانس بين فاس وتازا، رحل في طلب العلم إلى تلمسان ثمّ رحل إلى المشرق لأداء شعيرة الحجّ حيث زار القاهرة ومكّة والمدينة، و التقى ببعض مشايخ الصوفيّة، ومشاهير العلماء أمثال أحمد بن حجر ومحمّد السّخاوي، توفي سنة 899، له كتاب "عدّة المريد الصّادق" وكتاب "البدع "، وغيرها من الكتب في الفقه والتصوّف، ينظر: أحمد زروق ، كنّاشة زرّوق، ص25-151، فهمي خشيم، أحمد زروق والزرّوقيّة، ط3، بيروت:دار المدار الاسلامي، 2002 م، ص ص45-143؛ خير الدّين الزّركلي، الأعلام، بيروت:دار العلم للملايين، ط15، ماي 2002، ج1 ص91.

[4]-التنبكتي، النيل، ص500.

[5]- المصدر نفسه، ص ص500-507.

[6]-هو محمّد بن علي الخروبي، ولد بسفاقس وتوفي بمدينة الجزائر، أخذ عن الشّيخ زرّوق، والسنوسي، وإبراهيم التّازي، له قدم بارع في التصوّف، والمعارف الرّوحانيّة، مع تفنّنه في علم الفقه والحديث، من مؤلّفاته كفاية المريد، ورسالة الإفلاس، اشتهر بدخوله سفيرا إلى فاس مرّتين. ينظر:محمّد بن الطيّب القادري، الإكليل والتّاج في تذييل كفاية المحتاج، دراسة وتحقيق مارية دادي، الرّباط: الجمعيّة المغربيّة للتّأليف والتّرجمة والنّشر، 2009 ، ص ص287-288

طريق القوم، وقال إنّه بدعة [1]، وممّن ألّف في الردّ على أدعياء التصوّف؛ محمّد بن عبد الكريم المغيلي التّلمساني ، حيث ألّف كتاب« **تنبيه الغافلين عن مكر الملبّسين بدعوى مقامات العارفين** » [2].
كما عرف محمّد بن الحاج المنّاوي بالردّ على بدع المتصوّفة، وممّا قال عنه ابن مريم أثناء ترجمته له أنّه كان متّبعا لسنّة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، قوّالا بالحقّ، فظا غليظا على كلّ مبتدع، لا تأخذه في الله لومة لائم[3].

ومن المواقف المعارضة لبعض انحرافات المتصوّفة موقف قاضي القُضاة وإمام جامع الزيتونة أبي القاسم القسنطيني، الذي اعتزم حوالي سنة 1440م اعتقال ابن عروس، رغم ما كان يتمتّع به ابن عروس من تقديس واعتقاد من قبل الحكّام، وكثير من الفقهاء [4]. وقد قام عمر القسنطيني الأنصاري المعروف بالوزّان (ت 950هـ) بالردّ على الشبوبيّة[5].

وهكذا قام هؤلاء الفقهاء بالردّ على بعض المعتقدات والسلوكيات التي ظهرت في الزوايا؛ لا سيما الحضرة، واجتماع الفقراء لها، وإعطاء العهد، وهي الأمور التي يرى أحمد زرّوق: ((أنّها أمر طُوي بساطه منذ زمن يزيد على مائتي سنة))، ونقل أحمد زروق عن بعض المشايخ أنّ هذا الأمر ظهر في سنة 824هـ وقد جاء في رسالة زرّوق إلى الموعفاوي وابن سعيد عبارة: ((وإيّاكم ثمّ إياكم ومخالطة الفقراء والطّلبة)) [6].

وقد كانت الحضرة تشهد انحرافات كثيرة كالرّقص والتّصفيق، فقد سئل فقيه بجاية وصالحها أبو زيد سيدي عبد الرّحمان الوغليسي عن هذه المناكر فأجاب ببدعيّة الرقص والتّصفيق وعوائد الفقراء في الزوايا[7]، أمّا الحفّار فقال: ((والفقراء في الوقت أحسن أحوالهم، وما فيها حسن أن يكونوا مجتمعين، فيأكلون أموال النّاس، ويغنّون ويرقصون، ويوهمون الجهال أنّ ما يفعلونه من ذلك قربة إلى الله تعالى، وأنّ

---

[1] -النّاصري، الاستقصا، ج5ص27.
[2] -العبّاس بن إبراهيم السّملالي، الإعلام بمن حلّ مرّاكش وأغمات من الأعلام، راجعه عبد الوهاب ابن منصور، ط2، الرّباط:المطبعة الملكيّة، 1993، ج5ص108.
[3] -ابن مريم، البستان، ص113- 114.
[4] - برنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ج2ص ص 361-362.
[5] -أحمد ابن القاضي، درّة الحجال في أسماء الرّجال، تحقيق محمّد الأحمدي أبو النّور، القاهرة:مكتبة دار التّراث، ج3ص205.
[6] -عبد الكريم الفكّون، منشور الهداية، ص ص143-144 وص196.
[7] -الونشريسي، المعيار، ج11ص34.

ذلك طريق الصّالحين والأولياء)). بل نقل الونشريسي فتوى أبي إسحاق إبراهيم [1] عن زاوية محبّسة على فقراء الوقت فقال أنّ التّحبيس على فقراء الوقت باطل[2].

وممّن انتقد أحوال المتصوّفة المخالفة لتعاليم الشّريعة، موسى بن عيسى المازوني، حيث قال عنهم:((ثمّ يضيفون لهذه المكاره الشّطح والقفز والصياح كأنّهم مجانين))، ثمّ ذكر أبياتا في ذمّهم فقال :

ليس التّصوّف لبس الصّوف تلبسه

ولا بكاؤك إن غنّى المغنّونا

ولا صياح ورقص ولا طرب

ولا تغاش كأن صرت مجنونا

بل التّصوّف أن تصفو بلا كدر

وتتبع الحقّ والبرهان والدّينا[3]

و أسهب عبد الرّحمن الأخضري [4] في ردّه على انحرافات أصحاب الطّرق والفقراء في منظومته **القدسيّة**[1]، منكرا عليهم أمور الحضرة وما يصحبها من الرّقص والبدع وقال فيها:

---

[1]- هو: أَبُو إِسْحَاق إِبْرَاهِيم بن عبد القاهر بن فتوح بن شنيع الأشبوني روى عَنهُ أَبُو طَاهِر السلَفِي حكايات وأشعارا فِي تعاليقه. ينظر: محمد بن عبد الغني بن نقطة الحنبلي البغدادي (المتوفى: 629هـ)، إكمال الإكمال، تحقيق: د. عبد القيوم عبد رب النبي، مكّة :جامعة أم القرى، ط1، 1410هـ، ج1ص187.

[2]- الونشريسي، المعيار، ج7ص ص117-118.

[3]- موسى بن عيسى المازوني، مخطوط في صلحاء وادي شلف لموسى بن عيسى المازوني، الخزانة العامّة، الرّباط، ك2343، ص ص172-173 .

[4]- هو أبو زيد عبد الرّحمن ابن محمّد الأخضري، ينسب هو نفسه إلى العبّاس بن مرداس السّلمي، ولد بقرية بنطيوس بالزّاب الغربي وعاش بين سنتي 920-953 هـ، أنجز قرابة الثّلاثين من المتون وشروحها، وله منظومة السّراج في الفلك، وأزهار المطالب في الإسطرلاب، والسلّم المنورق في المنطق، والقدسيّة في التصوّف، والجوهر المكنون في البلاغة .ينظر: بوزياني الدّراجي، عبد الرّحمن الأخضري العالم الصّوفي الذي تفوّق في عصره، ط2، الجزائر: BLED EDITION،2009، ص ص10-16.

وقال بعض السّادة المتّبعه ....

.... في رجز يهجو به المبتدعه

.... ويذكرون الله بالتّغبير ....

.... ويشطحون الشّطح كالحمير[2]

[1]-المهدي بوعبدلي، عبد الرّحمن الأخضري وأطوار السلفيّة في الجزائر، مجلّة الأصالة، عدد 53، السّنة السّابعة، 1978 جانفي، ص ص21-36.

[2]-عبد الرّحمن الأخضري، منظومة الأخضري في التصوّف، مجموعة الرّسائل المنيريّة، ط1، إدارة المطبعة المنيريّة، 1343هـ، ج 4ص ص46-49.

الفصل الأول: فقهاء المغرب الأوسط في ق(9-10هـ/15-16م)

المؤثرات والمكانة

المكانة العلميّة لفقهاء المغرب الأوسط في القرن(9- 10هـ/15-16م):

صحب تدهور الحياة السياسيّة التي شهدتها بلاد المغرب الأوسط انحطاطا في الحياة العلميّة، يقول جورج مارسي في كتابه "**إفريقيا الشمالية المسلمة**": ((ذلك اللّمعان الذي عرفه التّلمسانيون في مختلف المجالات، وخاصّة في علوم العقل أخذ يضعف ويتقلّص ابتدءا من القرن الخامس عشر الميلادي، مع انتشار الطرقيّة، وسوف تفقد المصنّفات في التّفسير أو الفقه الكثير من قرّائها لصالح التّأليفات الصّوفيّة، وكتب المناقب حيث يحرص المؤلّفون على التّنويه بفضل الزهّاد، وذكر كراماتهم من غير أدنى نقد أو جدال)).[1]

ويشيرُ أبو القاسم سعد الله إلى أنّه في هذه الفترة اتّسمت مؤلّفات فقهاء المغرب الأوسط بكثرة الشّروح والحواشي والمختصرات، كما اتّسم الفقهاء بالثّقافة الموسوعيّة والحفظ، وغلبة التصوّف[2].

فهاهو محمّد بن محمّد المقرّي الجدّ (ت759هـ-1359م) يُظهر تذمّره من ظاهرة كثرة الحواشي والتّقييدات فيقول: ((ثمّ كلَّ أهلُ هذه المائة عن حال من قبلهم من حفظ المختصرات، وشقّ الشّروح والأصول الكبار؛ فاقتصروا على حفظ ما قلّ لفظه، ونزر حظّه، وأفنوا عمرهم في حلّ لغوزه، وفهم رموزه، ولم يصلوا لردّ ما فيه إلى أصوله بالتّصحيح فضلا عن معرفة الضّعيف والصّحيح، بل حلّ مقفل، وفهم أمر مجمل، ومطالعة تقييدات زعموا أنّها تستنهض النّفوس، فبينما نستكثر العدول عن كتب الأئمّة إلى كتب الشيوخ أتيحت لنا تقييدات للجهلة بل مسوّدات المنسوخ فإنّا لله وإنّا إليه راجعون [3])). ومع ذلك فإنّ القرنين التّاسع والعاشر الهجريين لم يبخلا علينا بفقهاء أجلاّء يعتبرون استمرارا لنهضة القرن الثّامن الهجري[4]. ففي القرن التّاسع ظهر يحي بن أبي عمران المازوني [5] وأحمد بن يحي الونشريسي وأحمد

---

[1]- جمال الدّين بوقلي حسن، ابن يوسف السنوسي في الذّاكرة الشعبيّة وفي الواقع، الجزائر: منشورات ANEP، 2003، ص371.

[2]-سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافي، ج1ص20.

[3]-أحمد بابا التمبكتي، النيل، ص415.

[4]-محمّد بوشقيف، العلوم الدينيّة في بلاد المغرب الأوسط، ص19.

[5]- قاضي مازونة ومفتيها، أخذ عن ابن مرزوق الحفيد وقاسم العقباني وابن زاغو، توفي سنة 883هـ. ينظر: الحفناوي، تعريف الخلف، ج1ص677.

زرّوق ومحمّد بن يوسف السنوسي، وأحمد بن محمّد بن زكري [1]، وأحمد بن محمّد بن زاغو [2]، والرصّاع، وناصر بن أحمد بن مزني[3]، وعبدالرّحمن الثّعالبي، ومحمّد بن عبد الكريم المغيلي. أمّا القرن العاشر الهجري فبرز فيه عبد الرّحمن الأخضري، وأبو جمعة الوهراني، وعلي الخرّوبي.

- أهمّ مؤلّفـات القرنين التّاسع والعاشر الهجريّين(9-10هـ/15-16م):

كان إنتاج القرن التّاسع الهجري خاتمة لمرحلة امتدّت ثلاثة قرون مبتدئة بعهد الموحّدين، وهو إنتاج عاش في ظلّ إمارات محليّة ضعيفة، أو إنتاج عاش في ظلّ حكم بني زيان أو بني مرين وبني حفص، ويعدّ القرن التّاسع من أخصب القرون وأوفرها إنتاجا [4]، فعدد العلماء والمؤلّفات في القرن التّاسع أكثر منها في القرون الموالية، لاسيما القرن العاشر الذي عرف نقصا في العلماء وأيضا في المؤلّفات، بل إنّ اعتناء علماء القرن العاشر فمن بعدهم ظلّ متّصلا بإنتاج علماء القرن التّاسع، كما تميّز القرنين التّاسع والعاشر بالاعتناء بالفروع الفقهية[5].

ففي الفقه شهد القرن التّاسع كتب الشّروح والمختصرات والتّقاييد، لا سيما شرح **مختصر خليل،** ورسالة **ابن أبي زيد القيرواني،** إضافة إلى بعض كتب النّوازل **كالدّرر المكنونة في نوازل مازونة** ليحيى بن أبي عمران المازوني، **والمعيار المعرّب** لأحمد بن يحيى الونشريسي، ولم يكن في القرن العاشر كتب نوازل خلا **كتاب الجيش والكمين** الذي كتبه صاحبه للردّ على من كفّر عوام المسلمين [6]، أمّا كتب العقيدة فاشتهرت عقائد محمّد بن يوسف السنوسي في علم الكلام **كالسنوسيّة الكبرى والوسطى والصّغرى الموسومة بأمّ البراهين** ، وأيضا شهد القرن التّاسع بعض كتب الرّدود **كردّ أبي القاسم بن**

---

[1]- هو أحمد ابن زكري الفقيه الأصولي البياني المنطقي، وإمام المسجد الكبير، درس بالعبّاد على الشّيخ محمّد بن العبّاس، توفي سنة 900هـ. ينظر:ابن مريم، البستان، ص ص99-103.

[2]- هوأبو العبّاس أحمد بن عبد الرّحمن عرف بابن زاغو التّلمساني، أخذ عن سعيد العقباني، وأبي يحي الشّريف التّلمساني، وجماعة ، وأخذ عنه أبو زكريا يحي المازوني، والحافظ التنسي والقلصادي ت 845هـ، ينظر :محمّد بن محمّد مخلوف، شجرة نور الزكيّة في طبقات المالكيّة، القاهرة:المطبعة السلفيّة-ومكتبتها، 1349هـ، ج1ص254.

[3]- شمس الدّين السّخاوي، الضوء اللاّمع لأهل القرن التّاسع، ط1، بيروت:دار الجيل ، 1992،ج10ص 195.

[4]-محمّد بوشقيف، محمّد بن عبد الله التنسي الفقيه التّاريخي، مجلّة عصور الجديدة ، جامعة وهران ، الجزائر ، العدد3-4، السنة2011-2012 ، صص 40 -53- ، ص40.

[5]-بوزياني الدرّاجي، عبد الرّحمن الأخضري العالم الصّوفي، ص21.

[6]-محمّد شقرون الوهراني، الجيش والكمين لقتال من كفّر عامّة المسلمين، ط1، طنطا:دار الصّحابة للتّراث، 1992.

سلطان القسنطيني على طائفة العكّازين ، أمّا علم المنطق فكان قليلا، ولعلّ كتابات الأخضري والسنوسي هي التي حفظت ماء الوجه، خصوصا كتابه **السّلم المنورق**، أمّا كتب التّراجم فنجد كتاب "**النّجم الثّاقب فيما لأولياء الله من المناقب**" و"**روضة النّسرين في أخبار الأئمّة الأربعة المتأخّرين**" و اللّذين حشاها صاحبها بأنواع من الكرامات والأساطير، والمبالغة في الاعتقاد في الشّيوخ، ومن كتب التّراجم" **فلك الكواكب وسلّم الرّقيا إلى المراتب لأبي عبد الله محمّد المغوفل**" [1]، وبخصوص علم التّفسير نجد تفسير عبد الرّحمن الثّعالبي (ت 875 هـ) [2]، كما برز محمّد بن يوسف السنوسي وعبد الرّحمن الثّعالبي في علم الحديث[3].

أمّا العلوم والفنون فقليلة في القرنين التّاسع والعاشر عدا الإعتماد على كتابات الحبّاك والسنوسي وابن قنفذ[4]، وفي مجال السياسة والنّظم نجد كتاب " **الولايات ومناصب الحكومة الإسلاميّة والخطط الشّرعيّة**" لأحمد بن يحي الونشريسي، وكتاب " **تاج الدّين فيما يجب على الملوك والسّلاطين**" و"**أجوبة الأسقيا**" ، "**وأحكام أهل الذمّة**" كلّها لمحمّد بن عبد الكريم المغيلي، أمّا العلوم اللّسانيّة و الاجتماعيّة والعقليّة، ففقدت في القرن التّاسع وتيرة تطوّرها التي عرفتها خلال القرن الثّامن[5].

و قد سعى الباحث إلى عمل تقييم كمّي لكتابات فقهاء القرنين التّاسع والعاشر، وتصنيفها حسب العلوم والفنون [6]؛ فتمّ إحصاء أكثر من ثلاثمائة وسبعة وسبعين مؤلّفا، منها أكثر من ثلاثة

[1] - حمدادو بن عمر، محمّد أبو عبد الله المغوفل (828-923هـ) دفين وادي شلف والتّعريف بتأليفه فلك الكواكب وسلّم الرّقيا إلى المراتب، المجلّة الجزائريّة للمخطوطات، جامعة وهران: مخبر مخطوطات الحضارة الإسلاميّة في شمال إفريقيا، عدد5 ، 2008، ص ص183-195 .

[2] -محمّد بن أحمد الحضيكي، طبقات الحظيكي، تحقيق :أحمد بومزكو، ط1، الدّار البيضاء:مطبعة النّجاح الجديدة، 2006 ،ج2ص288.

[3] -عبد العزيز صغير دخان، محمّد بن يوسف السنوسي وجهوده في خدمة الحديث، ط1، الجزائر:دار كردادة للنّشر والتّوزيع.

[4] -سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافي،ج1ص ص39-47 ، و ج2 ص ص81-134، وج2ص ص149-151، وج2ص404.

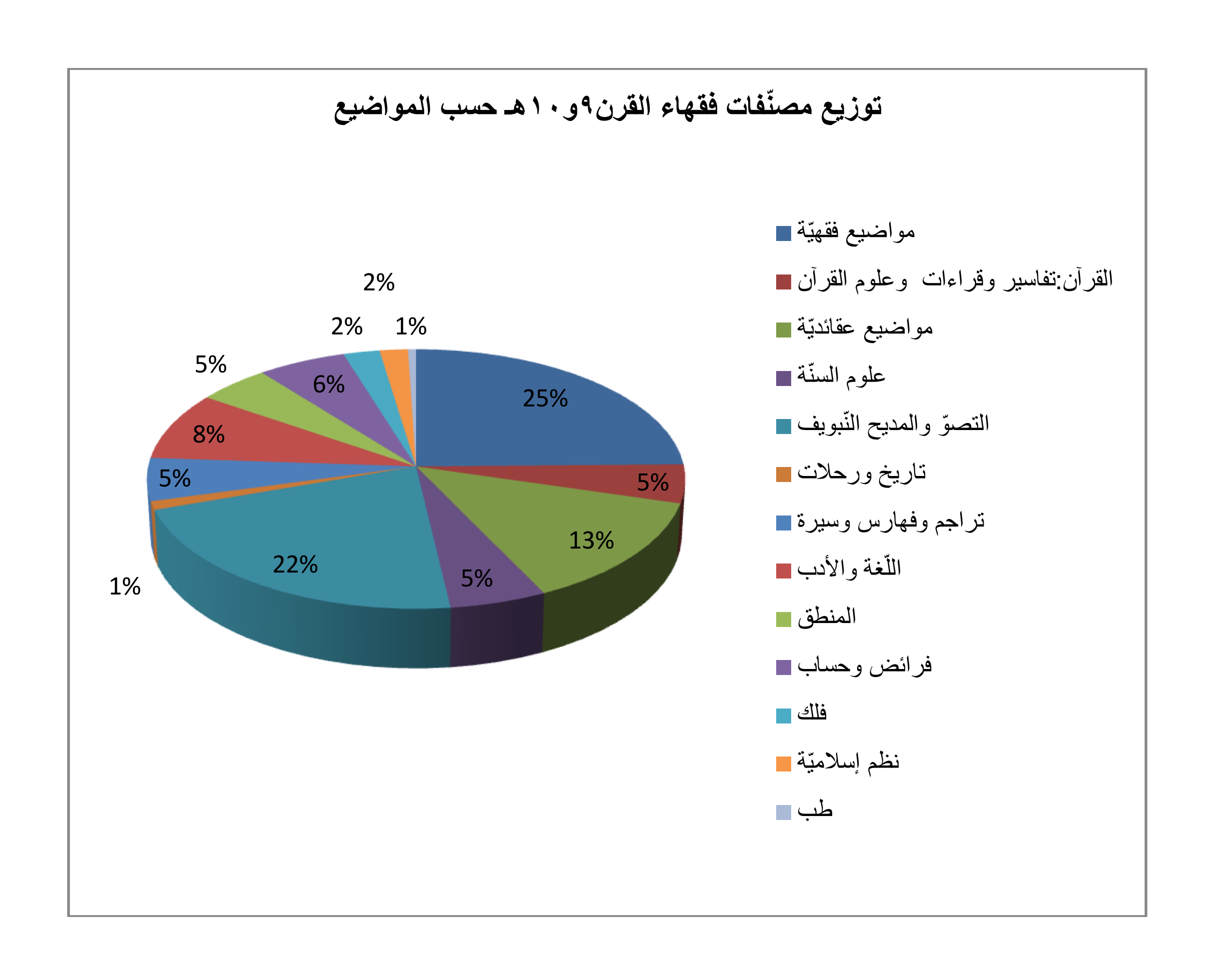
[5] -محمّد بوشقيف، العلوم الدينيّة في بلاد المغرب الاوسط، ص19.

[6] -تمّ الاستعانة في عمل هذا الإحصاء بكتب: الضّوء اللّامع لأهل القرن التّاسع لشمس الدّين السّخاوي ، وإنباء الغمر بأبناء العمر لابن حجر العسقلاني، ونظم العقيان في أعيان الأعيان للسيوطي، والأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل لمجير الدّين الحنبلي، و تاريخ قضاة دمشق لابن طولون، وروضة النّسرين والنّجم الثّاقب لابن صعد، والبستان لابن مريم، ونيل الابتهاج لأحمد بابا التنبكتي، وتوشيح الدّيباج لبدر الدّين القرافي، وطبقات الحضيكي، ودوحة النّاشر لابن عسكر الشفشاوني، وموسوعة أعلام المغرب لمجموعة من المؤلّفين، ودرّة الحجال لابن =

وتسعين مؤلّفا فقهيا، وثمانية عشر مؤلّفا حول علوم القرآن والقراءات، وخمسين مؤلّفا حول العقيدة، و عشرين مؤلّفا حول مصطلح الحديث وشروح السنّة، أمّا كتب التصوّف فتجاوزت الواحد والثّمانين مؤلّفا، وبالنّسبة لكتب التّاريخ والرّحلات فلم تتجاوز أربع مؤلّفات، بينما تجاوزت كتب التّراجم الواحد والعشرين مؤلّفا، فيما بلغت كتب اللّغة والأدب اثنين وعشرين مؤلّفا، وثمانية عشر كتابا في المنطق، واثنين وعشري مؤلّفا حول الفرائض والحساب، أمّا الفلك فتمّ إحصاء تسعة مؤلّفات، وسبع مؤلّفات في النّظم، ومؤلّفين في الطب[1].

القاض، ومعجم أعلام الجزائر لعادل نويهض، وتعريف الخلف برجال السّلف للحفناوي، ومعجم المؤلّفين لعمر كحالة، وغيرها من كتب التّراجم.

[1]- ينظر: الملحق رقم 1، ص ص201-212.



يظهر من خلال هذه الدّائرة النّسبيّة ارتفاع نسبة المؤلّفات الفقهيّة حيث بلغت 25%، وهي في الغالب إمّا شروح أو مختصرات، أو تعليقات، ثمّ تأتي كتب التصوّف في الدّرجة الثانيّة بما فيها كتب الوعظ والمناقب، وتعقبها المؤلّفات اللّغويّة، وتأتي في الأخير المؤلّفات العقليّة بنسبة 5 % للمنطق، و 5 % للحساب ثمّ العلوم التّجريبيّة –الطب- بنسبة ضئيلة 1%.

-منزلة فقهاء المغرب الأوسط في العالم الإسلامي:

تكشف كتب التّاريخ والتّراجم بشتّى أنواعها عن منزلة فقهاء المغرب الأوسط في مختلف أقاليم العالم الإسلامي، والتي يمكن الإشارة إليها كالآتي:

أ - في المغرب الأوسط:

ساهم فقهاء تلمسان وبجاية في جعل بلاد المغرب الأوسط مركزا علميا مقصودا ؛ خصوصا في القرن التّاسع الهجري، حيث توافد عليها طلاب العلم من بلدان بعيدة، فهاهو القلصادي ينوّه بمركز تلمسان الثّقافي فيقول :((تشوّقت النّفس إلى الخروج من الوطن، وتحرّك الخاطر إلى النّقلة والارتحال إلى برّ العدوة، والقصد تلمسان، وذلك لما كنت أسمع من ثناء الشّيخ عليها وتشويقه إليها)). ولما وصل تلمسان قال: ((وأدركت فيها كثيرا من العلماء والصّلحاء والعبّاد والزهّاد، وسوق العلم يومئذ نافقة)).[1] وممّن أشاد بعلماء المغرب الأوسط المنجور في فهرسته، ومن ذلك ثناؤه على المفتي الخطيب أبي الحسن علي بن موسى بن هارون المطغري[2]، وأبي العبّاس أحمد بن يحيى الونشريسي ومحمّد بن يوسف السنوسي و أبي القاسم الزمّوري ت 911هـ[3].

ومن أسباب تألّق فقهاء المغرب الأوسط في هذه الفترة عناية السّلاطين الحفصيّين والزيّانيين بالعلم ومشاهير العلماء[4]، فكان الزيانيون والحفصيّون يظهرون حفاوة بالغة بالعلماء، سواءٌ البلديّين منهم أو الوافدين عليهم، فينظمونهم في مجالسهم، ويحضرون جنائزهم، كما دأب السّلاطين على وقف المكتبات عليهم، وبناء المدارس لهم، وتوليتهم المناصب [5]، و ظلّ هذا السّلوك متّبعا، حتّى في أيّام الفتن التي تفاقمت في أغلب القرن التّاسع[6].

---

[1]-أبو الحسن علي القلصادي، رحلة القلصادي "تمهيد الطّالب ومنتهى الرّاغب إلى أعلى المنازل والمناقب"، تحقيق: محمّد أبو الأجفان، تونس:الشّركة التّونسيّة للتّوزيع، 1978، ص ص89-95.

[2]-نسبة إلى جبل مطغرة، وهو جبل شاهق شديد البرودة، يقع على نحو ستة أميال من ندرومة . ينظر: الحسن الوزان، وصف إفريقيا ، ص43.

[3]-أحمد المنجور، فهرسة المنجور، تحقيق :محمّد حجّي، الرّباط:دار الغرب للتّأليف والتّرجمة والنّشر، 1976م، ص ص12-31.

[4]-محمود بوعياد، جوانب من الحياة في المغرب الأوسط، ص ص45-85.

[5]-المرجع نفسه، ص54.

[6]-محمّد الطمّار، تلمسان عبر العصور (دورها في سياسة وحضارة الجزائر)، الجزائر:ديوان المطبوعات الجامعيّة ، ط1، 2003، ص225.

ب - **في المغرب الأقصى وتونس:**

تبوّأ فقهاء المغرب الأوسط مكانة اجتماعية مرموقة في البلاد التي هاجروا إليها ، وشغلوا الكثير من المناصب، ففي بلاد المغرب الأقصى ذاع صيت أحمد بن يحي الونشريسي (ت914هـ) والذي قال عنه صاحب **نيل الابتهاج** :((العالم العلاّمة حامل لواء المذهب على رأس المائة التّاسعة)) [1]. وهكذا بدأ تألّق عائلة الونشريسي ببلاد المغرب الأقصى، واستمرّ إلى القرن العاشر .

ومن فقهاء المغرب الأوسط الذين تركوا أثرا بارزا بالمغرب الأقصى محمّد بن إبراهيم بن الإمام أبي الفضل التّلمساني (ت845هـ)، و الذي يعتبر أوّل من أدخل شامل بهرام و شرح المختصر وغيرها من الكتب إلى فاس[2]، أمّا محمّد بن الفتوح التّلمساني (ت 818هـ) فيعدّ أوّل من أدخل كتاب خليل إلى المغرب، و اعتبره ابن غازي من شيوخ مكناسة الزيتون [3]، كما أنّ علي بن عيسى الرّاشدي التّلمساني (ت980هـ) قد أُسند إليه كرسي الشّاطبيّة الكبرى بمسجد الشُّرَفاء. وولي محمّد بن عبد الرّحمن بن جلال (ت981هـ) منصب حضرتي تلمسان وفاس [4].

أمّا بتونس فقد لمع اسم مفتيها و قاضي الجماعة بها أبو القاسم بن سالم الوشتاتي (ت847 هـ)، وقاضي الأنكحة الفقيه أبو العبّاس أحمد القسنطيني [5]. و جلس الفقيه أبو القاسم القسنطيني للتّدريس بمدرسة الشمّاعين[6]، أمّا محمّد بن القاسم الرصّاع 894هـ فتولّى قضاء الجماعة بتونس وولي الإفتاء والخطابة بجامع الزّيتونة[7].

---

[1]- التنبكتي، النيل، ص136.

[2]- المصدر نفسه، ص ص521-522..

[3]-أبو عبد الله محمّد بن غازي، الفهرس، تحقيق: محمّد الزّاهري، تونس:دار بوسلامة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، ص 75؛ أحمد ابن القاضي، لقط الفرائد من لفاظة حُقَقِ الفوائد، ضمن "موسوعة أعلام المغرب "، تنسيق وتحقيق محمّد حجي، ط1، بيروت:دار الغرب الإسلامي، 1996، ج2ص733.

[4]-عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ط2، بيروت:مؤسّسة نويهض للطّباعة والتّرجمة والنّشر، 1980م، ص72 وص78.

[5]-أبو عبد الله محمّد الزّركشي، تاريخ الدّولتين الموحديّة والحفصيّة، تحقيق: محمّد ماضور، ط2، تونس:المكتبة العتيقة، 1966م، ص135.

[6]-المصدر نفسه، ص137.

[7]-عادل نويهض، المرجع السّابق، ص151.

ج- في بلاد المشرق:

لم يقتصر نبوغ فقهاء المغرب الأوسط على المغربين بل تعدّى إلى بلاد المشرق، فخليفة بن عبد الرّحمن بن خليفة بن سلامة المتناني ثمّ البجائي من أهل القرن التّاسع الهجري، لما رحل إلى المشرق، ولقي السّخاوي وأخذ عنه، تمسّك به بنو جبر، واصطحبوه معهم ليقيم عندهم مدرّسا أو قاضيا [1]. كما نال إبراهيم بن منصور التّلمساني (ت بعد858 هـ) منصب قضاء بيت المقدس [2] ، أمّا أبو العبّاس أحمد بن سعيد بن عثمان التّلمساني (ت 874هـ) فقد ولي قضاء الإسكندرية ودمشق، وذكره ابن طولون في كتابه **قضاة دمشق** [3]. يضاف إليهم يحيى بن أحمد بن عبد السّلام العَلْمي [4]، والذي ولي التّدريس بالمنصوريّة، وتصدّر للتّدريس بجامع الأزهر وغيره، وانتفع به الفُضلاء سيما في الفقه [5].

كما اشتَهر بمصر محمّد بن محمّد بن أبي القاسم المشذالي البجائي (ت بعد 860هـ)، إذ اعتبره السيوطي أحد أذكياء العالم؛ اشتغل بالمغرب وأقرأ بمصر وغيرها[6].

د- في بلاد السّودان الغربي[7]:

من البلاد التي برز فيها فقهاء المغرب الأوسط بلاد السّودان الغربي، وممّن ذاع صيته بها محمّد بن عبد الكريم المغيلي (ت 909هـ) الذي قام على يهود توات، ودخل بلاد أهر ، و بلاد تكدة ، واجتمع

1-السّخاوي، الضوء، ص35.

2- مجير الدّين الحنبلي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، طبعة حجريّة، مصر ، ص64؛ عادل نويهض، المرجع السّابق، ص64.

3-ابن طولون، مفاكهة الخلّان في حوادث الزّمان،وضع حواشيه خليل المنصور، ط1، بيروت:دار الكتب العلميّة، 1998م، ج1ص256.

4-هو يحيى بن أحمد بن عبد السّلام العلمي بضمّ العين وفتح اللاّم، نزيل القاهرة ثمّ مكّة ، أخذ الحديث عن ابن حجر، ولما ولي الحسام بن حريز القضاء استنابه في تدريس المنصوريّة، وتصدّر للتّدريس بجامع الأزهر وغيره وانتفع به الفضلاء لا سيما في الفقه، توفي سنة 888هـ.ينظر :التنبكتي، النيل، ص ص 636-637.

5-المصدر نفسه، ص ص636-637.

6-المصدر نفسه ، ص541؛ يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثّقافة في الجزائر المحروسة، ط1، بيروت:دار الغرب الإسلامي، 1995م ، ص293.

7- يُقصد ببلاد السّودان تلك البلاد الواقعة في الصّحراء الكُبرى بإفريقيا، وأمّا السّودان الغربي أو بلاد التّكرور، فيشمل حوض السنغال وغامبيا وفولتا العليا والنّيجر الأوسط. ينظر: حاج أحمد نور الدّين، المنهج الدّعوي للإمام المغيلي، ص ص14-17.

بصاحبها، وأقرأ أهلها، وانتفعوا به، ثمّ دخل بلاد كنو وكشن من بلاد السّودان، واجتمع بصاحب كنو واستفاد عليه، وكتب رسالة في أمور السّلطنة؛ يحضّه على إتباع الشّرع، وأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر ، وقرّر لهم أحكام الشّرع وقواعده [1]، وقد وقع بينه وبين السيوطي مراسلة بشأن علم المنطق [2]. أمّا سالم بن محمّد بن أبي بكر العصنوني (ت 968هـ) الفقيه القاضي بتوات، فوُصِفَ أنّه من أهل الحقّ في حكمه، حيث حمدت سيرته، وصلحت سريرته، وأسلم على يده خلق كثير من أهل كانى ، وسلطانها من بلاد السّودان[3]، وممّن اشتهر بالسّودان عبد الله بن أحمد بن سعيد بن يحيى بن معاوية بن عبد الله الزمّوري ؛ حيث وصل إلى بلاد ولاتن المتّصلة بالسّودان، واقرأ أهلها، ولقي هناك فقهاءها[4].

---

[1] -التمبكتي، النّيل ، ص577.

[2] -كانت المراسلة عبارة عن أبيات كتبها المغيلي يردّ فيها على السّيوطي الذي حرّم علم المنطق، وقد أجابه السّيوطي بأبيات على نفس الوزن والقافية، بيّن فيها خطأ المغيلي ؛ مع إقراره بفضل هذا الأخير ونبله وأنّه حبر وإمام. ينظر:مقدّمة تحقيق لبّ اللّباب في ردّ الفكر إلى الصّواب ،لمحمّد بن عبد الكريم المغيلي، تحقيق أبي بكر ضيف الجزائري، ط1، بيروت:دار ابن حزم، 2006م، ص9.

[3] -ابن القاضي، درّة الحجال ، ج3ص ص313-314.

[4] -التمبكتي، المصدر السّابق، ص ص 234-235.

المكانة الاجتماعية لفقهاء المغرب الأوسط في القرنين التّاسع والعاشر الهجريّين (9-10هـ/15-16م)

يلمس المتصفّح لكتب التّراجم أنّ الفقهاء على وجه العموم كانوا يحتلّون مركزا مرموقا في مجتمع المغرب الأوسط، ولا سيما صنفين من الفقهان، وهما الفقهاء المنتمين إلى الأسر علميّة، والفقهاء المتصوّفة.

أ – الفقهاء المنتمون إلى أسر علميّة:

وعلى رأسهم الفقهاء المنتم ون إلى الأسر العلميّة، فابن خلدون يقول عن أسرة ابني الإمام [1]: ((وبقي أعقابهما بتلمسان دارجين في مسالك تلك الكرامة، موقّرين فيها طبقا على طبق إلى هذا العهد)) [2]، وقد استمرّ نفوذ الكثير من هذه الأسر إلى ما بعد القرن العاشر، ففي كلّ مدينة اشتهرت عائلات بالعلم والتّأليف كعائلة المقرّي والعقباني [3] والمرازقة [4] بتلمسان والقنفذ وآل باديس في قسنطينة والمشدالي [5]

---

[1] - إبني الإمام لقب أطلق على أبي زيد عبد الرّحمن 741/1340م، وأبي موسى عيسى 749هـ/1349م، الّلذين اشتهرا بالإمامة والرياسة. نشآ بمدينة برشك بالسّاحل الغربي الجزائري، ما بين مدينة شرشال وتنس، ارتحلا بعد مقتل أبيهما نحو تونس أواخر القرن السّابع الهجري، وطافا بمجامع العلم، ونهلا من فطاحل الشيوخ، عادا إلى مدينة الجزائر، وذاع صيتهما، ثمّ حلّا بتلمسان، واتّصلا بأبي حمو موسى الأوّل، وابتنى لهما مدرسة، اشتهرت بمدرسة ابني الإمام، وأخذ عنهما الكثير من العلماء في المغرب والمشرق. ينظر: عبد الرّحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج2ص ص231-232.

[2] -عبد الرّحمن بن خلدون، رحلة ابن خلدون، تحقيق محمّد بن تاويت الطّنجي، ط1، بيروت: دار الكتب العلميّة، 2004م، ص48.

[3] -من أشهرهم سعيد العقباني ت 811هـ، وقاسم العقباني ت 845، ومحمّد بن أحمد بن قاسم العقباني ت 871هـ. ينظر: يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثّقافة في الجزائر المحروسة، ج 2ص11، رفيق خليفي، البيوتات الأندلسيّة في المغرب الأوسط من نهاية القرن 3هـ إلى نهاية ق9هـ، 2007- 2008م، ماجستير، قسنطينة: جامعة الأمير عبد القادر، ص ص236-243.

[4] -تعتبر أسرة المرازقة من الأسر التلمسانيّة العريقة، نبغ منها أحمد بن مرزوق (ت 741هـ)، ومحمّد بن مرزوق الجد(ته 781 هـ)، ومحمّد بن مرزوق الحفيد (ت 842هـ)، ومحمّد بن مرزوق الكفيف (ت 901 هـ)، وأحمد بن مرزوق حفيد الحفيد . حول نسبهم ومكانتهم ينظر: محمّد بن مرزوق، المناقب المرزوقية، تحقيق سلوى الزّاهري، ط 1، منشورات وزارة الأوقاف والشّؤون الدّينيّة –المملكة المغربيّة، الدّار البيضاء: مطبعة النّجاح الجديدة، 2008 ، ص ص145-311؛ يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثّقافة في الجزائر المحروسة، ج2ص10.

[5] -برز من أسرة المشذالي خلال القرن التّاسع : محمّد بن محمّد المشذالي (ت 865هـ)، حيث حظي بمكانة مرموقة بعنتاب شمال سورية ، ومحمّد بن أبي القاسم المشذالي المتوفى سنة(866 هـ) الذي قال عنه السيوطي أنّه أحد أذكياء العالم، حيث اشتغل بالمغرب، وأقرأ بمصر وغيرها، ومات بحلب في نيف وستين وثمانمائة، وبلقاسم بن محمّد المشذالي، وقد تبوّأ المشاذلة مكانة علميّة هامّة .ينظر: التنبكتي، النيل،

والمنجلاتي في بجاية وابن السكّات بالجزائر، وفي بسكرة اشتهر العالم أبو زيان ناصر بن مزني [1]، كما نال الفقهاء من أبناء القبائل كعبد الرّحمن الثّعالبي، وناصر بن مزني احترام وتقدير السلاطين وشيوخ القبائل، حيثُ كانوا يشترون ودّهم بالهدايا والعطاءات، ويقبلون شفاعاتهم، ويُقطعونهم الأراضي والرّباعات، ويسندون إليهم الوظائف؛ فعلى سبيل المثال نجدُ التنسي الذي يقول في مقدّمة كتابه **نظم الدرّ والعقيان** "أنّه من جملة من غمرته آلاء المتوكّل الزياني، وتواترت عليه نعماؤه، وألبسته منها حللا ضافيه، وأورد منها مشارع صافية"[2].

أمّا العامّة فكانوا يُقدّرون هؤلاء الفقهاء لأنّهم ورثة الأنبياء، ولأنّهم كانوا يجيبونهم على مسائلهم [3]، ويعلّمونهم أمور دينهم، ويشفعون لهم عند السّلاطين وشيوخ القبائل.

ومن مظاهر تقدير العامّة للفقهاء حفاوة استقبالهم لهم [4]، ومن مظاهر هذا الإجلال أيضا ما كانت تشهده جنائز الكثير من الفقهاء من كثرة الحاضرين [5]. ومن ذلك ما ذكرهالقلصادي أنّ أبا عبد الله محمّد بن أحمد بن مرزوق (ت842هـ)، قد أسف النّاس لفقده[6].

ب – الفقهاء المتصوّفة:

ص541؛ سلطاني الجيلالي ، مشاهير فقهاء مشذالة تراجمهم ومكانتهم العلميّة، وهران: مجلّة الحضارة الإسلامية ،عدد13، 9ديسمبر،2007، ص ص171-182.

[1]- سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافي ،ج1ص45.

[2]-محمّد بن عبد الله التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان" نظم الدرّ والعقيان في بيان شرف بني زيان"، تحقيق محمود بوعياد، مؤسسة الوطنيّة للكتاب والمكتبة الوطنيّة الجزائريّة، الجزائر،1985م، ص ص107-108.

[3]- من هؤلاء الفقهاء الحسن بن مخلوف أبركان، حيث ذكر التّنبكتي أنّه كان له قبول عظيم من العامّة والخاصّة، التّنبكتي، المصدر السّابق، ص162.

[4]- جاء في ترجمة أبي الفضل محمّد ابن الإمام التّلمساني(ت845هـ)، أنّه لما رحل إلى المشرق تزاحم النّاس عليه بدمشق حين علموا فضله وأجلّوه. ينظر:ابن مريم، البستان، ص 353.

[5]- من ذلك جنازة عبد الرّحمن الوجديدي (ت1011هـ) الفقيه العلّامة الحجّة النظّار، الذي لم يبق أحد من تلمسان وأجادير والعبّاد والتّرك وغيرهم إلّا حضر جنازته. المصدر نفسه، ص ص232-233 .

[6]- القلصادي، الرحلة، ص97.

من الفقهاء الذين عاشوا حياة اجتماعيّة مروموقةً "الفقهاءُ المتصوّفةُ" من أمثال محمّد بن يوسف السنوسي، وعبد الرّحمن الثّعالبي، وأحمد زرّوق ، ومحمّد بن عمر الهواري، وإبراهيم التّازي، والحسن بن مخلوف أبركان، و أضحى هؤلاء الفقهاء روّادا للتّيار الصّوفي[1] .

-مكانة الفقيه الصّوفي:

بات الفقيه الصّوفي في بلاد المغرب الأوسط يحتلّ مرتبة المقدّس في مخيّلة سائر أطياف مجتمع المغرب الأوسط بسبب وقوفه بأخلاقه إلى جانب العامة [2]، وهكذا تُنسج حول شخصيّاتهم الأساطير، وتتبارى الأقلام بذكر كراماتهم، وتعطّر المجالس باستنشاق عبير سيرهم، عكس فقهاء آخرين، ممّن انغمسوا في حياة اللّهو والتّرف، وعاشوا في بيئة ضيّقة، وهم الذين أشار إليه البرزلي عندما سأل أحد شيوخه قائلا :((رأيت علماء الظاهر مثل القضاة والمفتين للأحكام يشتهرون في حياتهم الاشتهار الكلّي، فإذا ماتوا خمدت هذه الشّهرة، ولم يبق للنّاس تلك الفكرة منهم، والصّلحاء يكون ذكرهم في الدّنيا إمّا خامدا أو متوسّطا أو مشهورا، فإذا ماتوا زادت شهرتهم ، وتوالى ذكرهم)) [3]. وبهذا استطاع الفقيه المتصوّف أن يلطّف الجوّ بين المتصوّفة والفقهاء، و صار أصحاب الرّباطات يحترمون هذا النّوع من الفقهاء، ويدعمونهم، كما تُشير إلى ذلك نازلة سئل عنها الوغليسي، ومفادُها أنّ: ((مرابطين يُقتدى بهم، وعندهم في محلّتهم من يستحقّ الزّكاة، وعلى بعضهم ديون كثيرة، وفيهم شخص فقيه يعتقدون فيه، ويستفتونه في المسائل، وهو مستحق للزكاة، لكنّهم يؤثرونه في إعطاء الزّكاة، وهو أيضا يأخذ من غيرهم ويطلبون له بوجوههم، ويرعونه غاية الرعاية))[4].وتكشف هذه النّازلة مكانة الفقيه في الزّاوية وإيثاره بالزّكاة بالزّكاة بسبب الحاجة المتبادلة بين المتصوّفة و الفقهاء[5].

وتلخّص لنا نازلة أخرى أوردها المازوني في **درره المكنونة** الرّابطة بين الفقيه والمرابط والتي تطوّرت إلى حدّ المصاهرة والمناصرة، فقد سئل أبو عبد الله محمّد العقباني:((عن رجل من كبار بلدته ، وذوي

---

[1]- عبيد بوداود، قراءة في العلاقة بين صوفيّة وفقهاء المغرب الأوسط ، ص ص58-59.

[2]-محمّد حلمي عبد الوهّاب، ولاة وأولياء "السّلطة والمتصوّفة في إسلام العصر الوسيط"، ط 1، بيروت:الشّركة العربيّة للأبحاث والنّشر، 2009م، ص322.

[3]-البرزلي، النّوازل، ج6 ص403.

[4]-الونشريسي، المعيار، ج1ص394.

[5]-نللي سلامة، الولاية والمجتمع، ص ص449-451.

شرفها، وابن قاضيها ، خطب ابنة رجل من مرابطي بلده ممن له وجاهة وحرمة)) [1]، ويظهر من خلال السّؤال أيضا ما جرت عليه العادة من مخالفة أعراس الفقهاء والمرابطين لأعراس غيرهم، حيث جاء في تتمّة السّؤال: ((فلمّا كانت ليلة البناء؛ عمل لها الزوج في نقدها ما يليق به من حلي وثياب وغير ذلك، وعمل أيضا الأب لابنته في شورتها **ما يليق أيضا بمنصبه** وهمّته ويساره، وما يظّن به أن يفعله))، فقوله "**يليق أيضا بمنصبه**" يؤكّد مخالفة حياة الفقهاء لحياة العامّة، وأمّا عبارة وما يُظّن به أن يفعله تدلّ على أنّ هذا الأمر كان عرفا شائعا.

و تكشف المصادر التّاريخيّة لا سيما كتب التّراجم، الحياة الإجتماعيّة التي كان يحظى بها الفقهاء، فقد كان الفقهاء يمارسون عدّة وظائف[2]، خصوصا الدّينيّة منها، كالإمامة والقضاء والخطابة والتّدريس. والإداريّة كالكتابة، والمناصب السياسيّة كالسِّفارة والحِجابة. ومن الفقهاء من بلغ رتبة مستشار [3]، كما يتجلّى من خلال هذه المصادر ما تميّز به بعض الفقهاء من الثّراء والجاه. فجاء في أخبار الوادي آشي أنّه لما حلّ بتلمسان بعد أخذ غرناطة، حصلت له بها مصاهرة مع ابن مرزوق، ثمّ آلت إلى مقاطعة ممّا جعل النّاس يلومونه عندما طلّق ابنة ابن مرزوق، وكأنّهم ذكروا له ما سيفقده من الوجاهة والمال بسبب هذه القطيعة فأجابهم الوادي آشي:

يلومني الأقوام من بعد ما سطا

عليّ ابن مرزوق ومنّ بانفاق

قلت لهم كفّوا الملام فإنّني

---

[1]-المازوني، الدّرر المكنونة، ج2ص490.

[2]- سيتطرق لها في الفصل الثاني في مبحث "الفقهاء والوظائف السّلطانيّة".

[3]- جاء في ترجمة عبد العزيز النّفاتي أنّه كان كاتبا لدار إمارة قسنطينة ، وصاحب رأي ومشورة ، وقد مات في السّجن بقسنطينة في مغرم لواليها، طلبه فيه فشحّ بإعطائه . ينظر:عبد الكريم الفكّون، منشور الهداية، ص ص60-61.

تركت ابن مرزوق وأمّمت رزّاقي [1]

و كانت جنائز كثير من الفقهاء مهيبة، و يحضرها السّلطان فمن دونه، كجنازة أبي عبد الله محمّد بن مرزوق العجيسي(ت842هـ)[2].

الفقهاء الذين تعرّضوا للظّلم الإجتماعي

إذا كان أغلب فقهاء المغرب الأوسط عاشوا حياةً اجتماعيةً رفيعة، فإنّ البعض منهم تعرّضوا لكثير من المضايقات؛ إمّا من قبل السّلاطين و شيوخ القبائل، أو من طرف العامّة، وهو الشيء الذي دفع محمّد بن يوسف السنوسي إلى القول في معرض حديثه عن فوائد الاهتمام بتراجم المتأخّرين من الفقهاء والصّالحين:((أنّ فيه تخلّصا ممّا عليه أهل الزّمن من القدح في معاصريهم من الصّالحين أو من عاصرهم من بعض ذريّتهم والقرابة إليهم، وهذا خلق ذميم جدا، وقد نال منه أهل المغرب خصوصا، وأهل بلدنا حظا أوفر ممّا نال غيرهم، ولهذا لا يجد أكثرنا اعتناءً بمشايخنا، ولا يحسن الأدب معهم ويرحم الله المشارقة ما أكثر اعتنائهم بمشايخهم وبالصّالحين منهم خصوصا)).[3] وجاء في ترجمة أحمد الغماري، أنّه آذاه بعض النّاس، فخرج من البلد يريد السّفر عنها، إلى أن بعث السّلطان إليه من ردّه إلى موضعه [4]. ومن الفقهاء الذين نالهم الظّلم الاجتماعي بعد الظّلم السياسي أحمد بن يحي الونشريسي ؛ الذي حصلت له كائنة من جهة السّلطان عام أربعة وسبعين وثمانمائة؛ وانتهبت داره، ففرّ على إثرها نحو مدينة فاس واستوطنها[5].

أمّا محمّد بن عمر الهواري فقد آذاه أهل وهران وقتلوا إبنه، فدعا عليهم وعلى مدينتهم ، وإليك هذا النصّ الذي أورده المزاري في **"طلوع سعد السّعود"** حيث يقول:((وذلك أنّ أهل وهران بغوا على ولده سيدي أحمد الهايج، وقتلوه ظلما وعدوانا فسأل أهل وهران عن سبب قتل ولده فقالوا له الشّريعة

---

[1]- أحمد بن محمّد المقري، أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق :مصطفى السقّا وآخرين، القاهرة:مطبعة لجنة التّأليف والطّباعة والنّشر، 1939، ج3 ص ص305-306.

[2]- القلصادي، الرّحلة، ص ص97-98.

[3]-ابن مريم، البستان، ص ص59-60.

[4]-المصدر نفسه، ص92.

[5]-المصدر نفسه، ص120.

قتلته، فقال منْ مِنَ العلماء حكم بقتله، فقالوا لا نحتاج؛ فأسلم مدينة وهران للنّصارى لأنّه سلطان مصرها، ومتولي أمرها ... ونصّ دعائه :روحي يا وهران الفاسقة، يا كثيرة الجور والبغي والطّارقة، يا ذات الأهل الباغية السّارقة؛ إنّي بعتك بالبيعة الموافقة، لنصارى مالقة والجالقة، إلى يوم البعث والتالقة، مهما كذا ترجعي فأنت الطّالقة)) [1]، ولا شكّ أنّ دعاءه هذا يعبّرُ عن شدّة غضبه بسبب الظّلم التي تعرّض له.

وربّما يكون سبب ثورة بعض الفئات الاجتماعية على هؤلاء الفقهاء، هو تبرّم هذه الفئات من شخصيّة الفقيه المحتسب، أي الفقيه الذي يضايقهم، ويحرجهم بالأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، ويحاول مقاومة ماهم عليه من المنكرات.

ومع دخول العثمانيين إلى المغرب الأوسط زادت حفاوتهم بالفقهاء، فجعلوهم يتربّعون على قمّة الهرم الاجتماعي، وذلك نظير إسهاماتهم في ترسيخ أقدامهم في البلاد، وإضفاء الشّرعيّة عليهم ممّا دفع بعض الباحثين من أمثال **ليباير** و **هاميلتون** و **جيب باون** يعتبرون فئة العلماء في الجزائر العثمانية هي القسم الثّاني بعد النّظم السياسيّة [2]. وهو ما صرّح به حسن الوزّان، الذي ذكر أنّ طلبة العلم يتغيّر مستواهم المعيشي بمجرّد وصولهم إلى درجة فقهاء، حيث يعيّنون كقضاة ومدرّسين، وعدول، ويصبح لباسهم محترما[3]. وفي المقابل لم يجد الفقهاء الذين عارضوا الوجود العثماني مناصا من الهجرة أو العيش في مرتبة اجتماعية دونيّة كعائلة ابن عبد المومن بقسنطينة.

---

[1] - بن عودة المزاري، طلوع سعد السّعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا، تحقيق :يحي بوعزيز، ط1، بيروت:دار الغرب الإسلامي، 1990، ج1ص73.

[2] - سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافي، ج1ص387.

[3] -حسن الوزّان، وصف إفريقيا، ج2ص ص20-21.

المؤثرات والمكانة

عالج هذا الفصل أبرز المؤثّرات في شخصيّة الفقيه في المغرب الأوسط، فالأوضاع السياسيّة والاجتماعيّة المترديّة دفعت البعض إلى الهجرة . بينما اختار البعض الآخر إمّا مواجهة الواقع، أو اعتزال المجتمع. أمّا المؤثّرات الدّينيّة ؛ والتي تمثّلت في المذهب المالكي، و عقيدة أهل السنّة والجماعة المشبعة بالمبادئ الأشعريّة، كلّها قد تركت بصمتها في شخصيّة الفقهاء، يضاف إليها ظهور عقيدة المرابط وافتتاح عصر التصوّف العملي بطابعه الشّعبوي، والذي أثّر على الحياة الفكريّة. كما تمّ إعطاء صورة عن المكانة العلميّة التي حظي بها فقهاء المغرب الأوسط خصوصا في القرن التّاسع و الذي يعتبر خاتمة لمرحلةِ التألّق العلمي على الصّعيدين المشرقي والمغربي، ليعيش المغرب الأوسط بعدها مرحلة من الرّكود في الحياة العلميّة والتي تأثّرت بتيّار التصوّف. أمّا المكانة الاجتماعية للفقهاء، فعلى العموم كانت مكانة محترمة؛ فقد حظي الفقهاء بتقدير وعناية من قبل السّلاطين وعمّاله م وحتّى بعض شيوخ القبائل وشيوخ الطّرق، كما كان العامّة يحترمونهم، لا سيما الفقهاء المتصوّفة فإنّهم كانوا مقدّسين لدى كافّة أفراد المجتمع، أمّا الفقهاء الذين وقفوا في وجه الظّلم السياسي والانحراف الدّيني والفكري، فنالهم الأذى، وتعرّضوا لكثير من المضايقات، أدّت إلى ارتحال الكثير منهم.

الفصل الثّاني

فقهاء المغرب الأوسط وممارسة السّلطة في القرنين

(9-10هـ/15-16م)

إذا كان الفصل الأوّل قد سلّط الضّوء على شخصيّة الفقهاء في القرنين التّاسع والعاشر؛ وأشار إلى أهمّ المؤثّرات في هذه الشخصيّة، مع تبيين مكانة هؤلاء الفقهاء العلميّة، ومنزلتهم الاجتماعيّة.

فإنّ هذا الفصل سيتطرّق إلى قضيّة ممارسة الفقهاء للسّلطة؛ من خلال رصد أهمّ المقوّمات التي ساهمت في نشأة هذه السّلطة، و أدّت إلى تبلورها. كما يحاول الباحث الكشف عن امتداد هذه الظّاهرة من خلال استعراض تاريخيّتها في بلاد المغرب عموما، وفي المغرب الأوسط على وجه الخصوص، لا سيما في القرن الثّامن . و سيسعى الباحث أيضا إلى إبراز مظاهر سلطة فقهاء القرنين التّاسع والعاشر الهجريين، وأهمّ أدوارهم السياسيّة، ليُختَم هذا الفصل بالتّرجمة للشّيخ محمّد بن عبد الكريم المغيلي من فقهاء القرن التّاسع، وأحمد بن يوسف الملياني من فقهاء القرن العاشر، و استعراض تجربة هاذين الفقيهين مع السّلطة.

فقهاء المغرب الأوسط في القرنين 9-10هـ/15-16م

(مقوّمات السّلطة وأهمّ الأدوار السّياسيّة)

مارست الكثير من الفئات الإجتماعيّة السّلطة [1] عبر التّاريخ الإسلامي، واستندت كلّ فئة إلى مقوّمات تختلف عن مقوّمات فئات أخرى. ومن الفئات التي مارست السّلطة في المغرب الأوسط في القرنين التّاسع والعاشر الهجريّين، فئة الفقهاء التي أتيحت لها عدّة مقوّمات، وهي كالتّالي:

أ - المقوّمات الدّينيّة والإجتماعيّة:

أولى الإسلام أهميّة كبيرة للفقهاء، لأنّهم يعلّمون النّاس دينهم، ويرشدونهم إلى طريق الجنّة [2]. وقد نصّت الكثير من الآيات القرآنية على مكانة الفقيه وأفضليّته، يقول الله تعالى:((إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾)) [3].ويقول عزّ شأنه في سورة ءال عمران:((شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ [4])). وقد ورد في الأحاديث الصّحيحة قوله صلّى الله عليه وسلّم:((من يرد الله به خيرا يفقّهه في الدّين)) [5]، وقوله صلّى الله عليه وسلّم :((**العلماء ورثة**

---

[1] - إنّ السّلطة لغة هي اسم للتسلط والقهر، والسّلاطة هي القهر أمّا اصطلاحا : فهي الحقّ في الأمر وهي تستلزم آمرا ومأمورا وأمرا، وثمة من يعرّفها بأنّها قوّة يُرتكز عليها في مجال النفوذ. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، القاهرة: دار المعارف، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرون، 1119م ، مج3ص2065؛ محمّد حلمي، ولاة وأولياء، ص ص 35-39.

[2] - يراجع على سبيل المثال كتاب جامع بيان العلم وفضله، أبو عمر يوسف بن عبد البر، تحقيق :أبي الأشبال الزهيري، ط 1، الدمّام- السعوديّة- :دار ابن الجوزي، 1994 ؛ ابن الخطيب البغدادي، الفقيه والمتفقّه، تحقيق : عادل بن يوسف العزّازي، ط 1، المملكة العربيّة السعوديّة: ابن الجوزي للنّشر والتّوزيع، 1417هـ-1996م، ج1ص ص69-136.

[3] -سورة فاطر، آية28 .

[4] -سورة ءال عمران، آية18.

[5] - متّفق عليه، رواه البخاري في باب :من يرد الله به خيرا يفقّهه في الدّين، (رقم 71)، محمّد ابن إسماعيل البخاري، الجامع المسند الصّحيح، تحقيق محمّد بن ناصر النّاصر، ط 1، دار طوق النّجاة، 1422هـ، ج1ص25؛ ورواه مسلم في باب : فضل الرّمي والحثّ عليه

الأنبياء، وإنّ الأنبياء لم يورّثوا دينارا ولا درهما، وأورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر [1])).

منحت مثل هذه النّصوص المقدّسة الفقهاء سلطة روحيّة وعلميّة عارمة، وهو ما أهّلهم لممارسة السّلطة السياسيّة[2]. ولهذا يقول الإمام أبو حامد الغزالي : ((الفقيه هو العالم بقانون السياسة، وطريق التوسّط بين الخلق إذا تنازعوا بحكم الشّهوات، فكان الفقيه معلّم السّلطان ومرشده إلى طريق سياسة الخلق وضبطهم، لينتظم باستقامتهم أمورهم في الدّنيا)). [3] ويقول ابن القيّم عن مكانة الفقهاء في الإسلام :((حاجة النّاس إليهم أعظم من حاجتهم إلى الطّعام والشّراب، وطاعتهم أفرض عليهم من طاعة الأمّهات))[4].

ب - **المقوّمات السياسيّة:**

كثيرا ما كانت الأوضاع السياسيّة أحد أهمّ مقوّمات السّلطة لدى النّخب العلميّة والسياسيّة، وهي المقوّمات التي يمكن اختزالها في مقوّمين رئيسين هما كالتّالي:

1 - ضعف السّلاطين:

نتج عن ضعف السّلاطين، تنامي سلطة الفقهاء، حيث أسندت إليهم مهام رفيعة. يقول أبو القاسم سعد الله:((أنّ ظهور الحكّام الجهلة هو الذي مهّد الطّريق للعلماء كي يكونوا كمستشارين ومشرّعين ومفسّرين، وأصبح شعار العلماء هو أنّهم حماة الدّين ومصابيح الظّلام، بينما الأمر لم يكن كذلك حين كان الحكّام علماء، والعلماء حكّام.)) [5]. ففي مملكة تلمسان وبسبب تبعيّة سلاطينها للمرينيين والحفصيين قوي نفوذ الفقهاء، وهرع السّلاطين إلى الاستعانة بهم في تسيير شؤون الدّولة. و

= وذمّ من علمه ثمّ نسيه، حديث رقم(1037)، مسلم بن الحجّاج، **صحيح مسلم**، تحقيق محمّد فؤاد عبد الباقي، بيروت:دار إحياء التّراث، ج3ص1524،.

[1]-أخرجه أبو داود وصحّحه الألباني، باب الحث على طلب العلم،رقم 3641 ، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني، **سنن أبي داود**، تحقيق محمّد محيي الدّين عبد الحميد، دمشق:دار الفكر، ج3ص317.

[2]-علي أومليل، السّلطة الثّقافيّة والسّلطة السياسيّة، ط2، بيروت:مركز دراسات الوحدة العربيّة، 1998، ص ص10-15.

[3]-أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدّين، القاهرة:دار الشّعب، (د.ت) ، مج1ص31.

[4]-ابن قيم الجوزيّة، إعلام الموقّعين عن ربّ العالمين، تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان، ط 1، المملكة العربيّة السّعوديّة :دار ابن الجوزي للنّشر والتّوزيع، 1423هـ، ج2 ص14.

[5]-سعدالله، تاريخ الجزائر الثّقافي، ج1ص388.

تباهى السّلاطين بالفقهاء لأنّ وجودهم يضفي عليهم طابع الحقّ والعدل والقوّة المعنويّة، ويدعّم مركزهم السياسي[1].

ونفس الشّيء يمكن ملاحظته في الجهة الشرقيّة لبلاد المغرب الأوسط، والتي قوي فيها نفوذ الفقهاء بعد ضعف السّلطنة الحفصية[2].

2 - الفراغات السياسيّة :

بسبب ضعف السّلطة المركزيّة، وتفاقم ظاهرة الصّراع على السّلطة، ظهرت الفراغات السياسيّة في نطاقات واسعة من بلاد المغرب الأوسط، حيث لم يعد لسلاطين المغرب الأوسط خلال القرن التّاسع الهجري أيّ نفوذٍ حقيقيٍّ على نطاقات واسعة تابعةٍ لممالكهم، فالأرياف والمناطق الجبليّة كانت تحت وطأة شيوخ القبائل، أو تحت إشراف رجال الطّرق، أمّا المدن فأصبح الكثير منها يعرف شبه استقلال عن مراكز الحكم. ويعدّ عبث رجال القبائل بأرجاء المغرب الأوسط، و احتلال النّصارى للسّواحل دون وجود قوّة إسلاميّة تدافع عن المدن وساكنيها، أحد نتائج هذه الفراغات، والتي دفعت بالكثير من الفقهاء إلى أخذ زمام الأمور.

ففي ظلّ هذه الفراغات السياسيّة كان على الفقهاء أن يلعبوا أدوارهم لحفظ النّظام العام [3]، فقد أورد المازوني نصا يبيّن فيه أنّ العالم قد يقوم مقام ولي الأمر في سياسة الرعيّة أثناء الفراغات السياسية، حيث نقل كلام عمرو بن موسى الفقيه الجزائري الذي قال:((أنّ النّظر في مسائل الرعيّة يرجع إلى من ولاّه الله تعالى أمر المسلمين، ومن يقوم مقامه من علمائهم))[4].

فمدينة الجزائر كان يتنازعها الحفصيّون والزيانيّون، ثمّ تغلّب عليها المستعين حفيد أبي تاشفين سنة 842 هـ/1438م، واستقلّ بها عن تلمسان، إلى أن قتله أهلها سنة 843 هـ/1439م، لتشهد فراغا سياسيا جعل أهلها يديرون شؤونها بأنفسهم، وقد ترأسهم الشّيخ عبد الرّحمن الثّعالبي إلى أن توفي

---

[1]-عبد الجليل قربان، السياسية التّعليميّة للدّولة الزيانيّة، ص ص47-58.

[2]-جميلة معاشي، الأسر المحليّة الحاكمة في بايلك الشّرق الجزائري من القرن 10هـ-16م إلى 13هـ19م، دراسة اجتماعيّة –سياسيّة، ماجستير، قسنطينة: جامعة الأمير عبد القادر، قسم التّاريخ 1990-1991م، ص ص223-224.

[3]-قال أبو القاسم سعد الله:((وهكذا أصبح العلماء والقضاة حسب نوازل المازوني هم الذين يقومون بالسّهر على تنفيذ القانون))، ينظر: تاريخ الجزائر الثّقافي، ج1ص43.

[4]-المازوني، الدّرر المكنونة ،ج3ص171.

سنة 875 هـ [1]. ونفس الشّيء يمكن ملاحظته بالنّسبة لتلمسان، والتي أدّى بها الفقهاء أدوارا كبيرة في ظروف حرجةٍ، ففي سنة 866 هـ /1462م؛ حين استحوذ على أمر الدّولة الزيانيّة محمّد بن محمّد بن أبي ثابت المتوكّل، وأخرج عنها صاحبها السّلطان أحمد بن أبي حمّو، سار إليه السّلطان أبو عمرو عثمان الحفصي ليقاتلهُ[2]، ولما وبقى بينه وبين تلمسان نحو يومين، دخلت في طاعته عرب سويد وبنو يعقوب والذواودة وبنو عامر ، إلى أن قدِم عليه أبو العبّاس أحمد بن الحسن والفقيه أبو عبد الله محمّد قاسم العقباني، وأتوا بعقد شهود على صاحب تلمسان بأنّ جميع ما يفعلونه جائز عليه، وأخذوا له بيعة السّلطان الزياني[3]، ليرجع السّلطان الحفصي إلى تونس[4].

وحين سقطت بجاية في أيدي الإسبانيّين، تمكّن الفقيه أحمد بن القاضي من بسط نفوذه على شرق المغرب الأوسط. و أثناء الصّراع بين العثمانيين والمتحالفين مع الإسبانيّين من ملوك بني زيان والسّعديّين في الغرب، برز دور الفقهاء في ظلّ غياب سلطة حقيقيّة بتلمسان، فقد جاء في ترجمة الفقيه أحمد بن أحمد العبّادي[5] (ت بعد 985 هـ) أنّه قدم فاس عام 968 هـ في جملة فقهاء تلمسان الذين تزعّموا المعارضة ضدّ العثمانيين، واستنجدوا بالغالب السّعدي، حيث رحّلهم السّلطان الغالب من

---

[1] - مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج 2ص444؛ رابح بونار ،مدينة الجزائر تاريخها وحياتها الثّقافيّة ، الأصالة العدد 8، السّنة الثّانية ،ماي جوان 1972 ، ص ص77-91.

[2] -نسبة إلى جبل بني راشد، وهو جبل عظيم ، وأحد سلسلتي جبل درن أي الأطلس ببلاد الجزائر ممّا يلي الصّحراء، وفي ضمنه جبال تعرف بأسماء لها، كجبل العمور والسّرسو، ووانشريس، ومن مدنه مليانة وتيارت، والقلعة ومستغانم، ومازونة، ومعسكر وغيرها، وهو موطن زناتة قبل الإسلام، وقد بقي من بطونهم بنو راشد وبنو توجين، ومن جهة الغرب مغراوة، ومن جهة الصّحراء بنو كحل، ومن جهة الشّمال صنهاجة. ينظر:محمّد أحمد الغريسي، شرح منظومة بغية الطّالب، نشره بلهاشمي بن بكارة ضمن كتاب"مجموع النّسب والحسب والفضائل والتّاريخ والأدب، تلمسان:مطبعة ابن خلدون، 1961م، ص 371.

[3] -استمرّت البيعة لأبي عمرو عثمان برهة من الزّمن، وقد كان ابن الأزرق أحدَ الشّهودِ عليها، حيث يقول :((وشاهدت بتلمسان وَبَعض أعمالها لهَذَا الْعَهْد تَصْرِيح الْخَطِيب بأسم السُّلْطَان أبي عَمْرو عُثْمَان صَاحب تونس مقدما فِي الذّكر على اسْم صَاحب تلمسان السُّلْطَان أبي عبد الله من أعقاب بني زيان لما بَينهمَا من الشُّرُوط فِي ذَلِك)). ابن الأزرق، بدائع السّلك في طبائع الملك، ج2ص243.

[4] -الزركشي، تاريخ الدّولتين، ص153.

[5] -نسبة إلى العبُّاد، بضمّ العين وفتح الباء وتشديدها، وهي مدينة صغيرة شبه ربض، تقع في الجبل على بعد نحو ميل جنوب تلمسان، بها مدرسة العبّاد، وضريح سيدي بومدين. ينظر: الحسن الوزان، وصف إفريقيا ، ج2ص24.

تلمسان فأمدّهم بالأجناد ونقلهم إلى فاس [1] . وفي قسنطينة برز نفوذ عائلة الفكون المؤيّدة للعثمانيّين، وأسرة عبد المومن المؤيّدة للحفصيّين، وصار لكلّ من العائلتين أنصار وأتباع[2].

ت - **الوظائف الدّينيّة :**

كانت الوظائف الدّينيّة التي اضطلع بها الفقهاء من إمامة الصّلوات والخطابة والقضاء، تضفي عليهم شعبيّة كبيرة، فجعلت منهم ملهبي مشاعر النّاس، ومحرّكي عواطفهم. فالخطابة قد أهّلت محمّد بن مرزوق إلى أن يشغل مناصب هامّة في بلاطات السّلاطين، و جاء في ترجمته أنّه خطب في ثمانية وأربعين منبرا من منابر الإسلام[3].

أمّا منصب القضاء [4] فكان سببا في تزايد نفوذ الفقهاء، ولهذا عمل السّلاطين على شراء ودّ القضاة، قصد ضمان بيعتهم لهم، وعدم التّشويش عليهم، وذلك بمنحهم المناصب والألقاب التّشريفيّة، كمنصب شيخ الإسلام الذي مُنح لعائلة عبد المومن والفكّون بقسنطينة وأسرة العقباني [5] بتلمسان، وهو المنصب الذي أعطاهم حقّ اتّخاذ القرار أثناء الصّراع بين العثمانيين وخصومهم الزيانيّين والحفصيّين، في قسنطينة وتلمسان، حيث صار للفقهاء الكثير من الأنصار [6]. و بعد استقرار العثمانيّين العثمانيّين بأرض المغرب الأوسط خضعوا لسلطة الفقهاء، حيث عملوا على احتوائهم بإعطاء منصب شيخ الإسلام للأسر العلميّة؛ كأسرة الفكون. و هو اللّقب الذي يمثّل الوزن السياسي والثّقافي[7].

ث - **ملكيّة حقّ الفتوى:**

[1]- عبد الكريم بن المجدوب، تذكرة المحسنين بوفاة الأعيان وحوادث السّنين، تحقيق محمّد حجي، مطبوع ضمن موسوعة أعلام المغرب ، ص934؛ الحظيكي ، المصدر السّابق، ج1ص126.

[2]-أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعيّة السلفيّة، ط1 بيروت:دار الغرب الإسلامي، 1986، ص23.

[3]-ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، ص65.

[4]- لم تقتصر سلطة متولّي القضاء في العهد الزياني على الأعمال القضائيّة الصّرفة وحدها، وإنّما امتدّت إلى الأمور الدّينيّة، وأخذ البيعة، ومصاحبة الجيش، وولاية الحج، ومراقبة المكاييل. رشيد بورويبة وآخرون، الجزائر في التّاريخ، ص469.

[5]- رفيق خليفي، البيوتات الأندلسيّة، ص236-243.

[6]- عبد العزيز فيلالي، مدينة قسنطينة في العصر الوسيط، ص 79؛ محمّد بوشنافي، موقف علماء تلمسان من التّواجد العثماني في الجزائر (ق10-13هـ)، مجلّة عصور الجديدة، ع2، ص ص 203-215، ص203.

[7]-جميلة معاشي، الأسر المحليّة الحاكمة في بايلك الشّرق الجزائري، ص ص223-224.

إنّ المتصفّح لمصادر التّاريخ الإسلامي يجد وبشكل بارز أنّ فتاوى الفقهاء في ظروف مختلفة قد أربكت الحكّام، ففتوى الإمام مالك حول عدم نفاذ بيعة المكره، والتي قضّت مضاجع العبّاسيين أيام أبي جعفر المنصور[1]، وفتوى أبي حامد الغزالي و فقهاء الأندلس وعلى رأسهم أبي بكر الطّرطوشي حول وجوب نصرة المرابطين على حساب ملوك الطّوائف ؛ والتي دعمت صفّ المرابطين في الأندلس[2]، كلّها نماذج حيّة تبرز أهميّة الفتوى. وكان الفقهاء يضايقون السّلاطين ب بعض الفتاوي، كفتوى أبي فارس عبد العزيز بن موسى الورياكلي خطيب القرويين حول وجوب خلع سلطان فاس عبد الحق بن أبي سعيد المريني ، الذي ولّى اليهوديين هارون وشاويل على أمور المسلمين ، حيث استعلى هاذان اليهوديّان على أهالي فاس وانتهكوا حرمة المسلمين[3] . وكانت هذه الفتوى هي سببُ الإطاحة به، إذ إذ توفي مقتولا سنة 869 هـ بعد أن ثارت عليه العامّة.

وأمّا فتاوى فقهاء المغرب الأوسط القاضية بحرمة مخالفة النّصارى، ف قد عجّلت بزوال دولة بني عبد الواد، في الوقت الذي عزّزت جانب العثمانيين ودعمت وجودهم، ولهذا قال مارمول: ((يتخوّف ملوك إفريقيا كثيرا من الالتجاء إلى الأمراء المسيحيّين ليمدّوهم في حروبهم ضدّ المسلمين، لأنّهم يصيرون بذلك مكروهين من رعاياهم، ويتيّحون الفرصة للمشوّشين في العمل على اغتيالهم...وقد اغتنم بربروس هذه الفرصة لينتزع مملكة تلمسان من أبي حمّو الذي كان يقدّم للملك الكاثوليكي شبه اعتراف وخضوع في مقابل مساعدة جنود اسبانيا إيّاه ضدّ ابن أخيه، فكان رعاياه يكرهونه لذلك لا سيما الفقهاء الذين كانوا يتمنّون أن يعتلي العرش ابن أخيه))[4]. ومن الحوادث التّاريخيّة التي تشهدُ لكلام مارمول، هو ما أفتى به فقهاء المغرب الأوسط بقتل حاكم تلمسان، وهدر دمه، وإباحة ماله؛ ثمّ كتبوا

---

[1]-كان الإمام مالك يحدّث بحديث:((ليس على مستكره يمين))، ويستدلّ به على بطلان بيعة المنصور وعدم لزومها، وهو ما زاد في عدد أنصار محمّد النّفس الزكيّة العلوي. ينظر: محمّد أبو زهرة، محاضرات في تاريخ المذاهب الفقهيّة، مصر:مطبعة المدني، (د.ت)، ص222.

[2]-حول هذه الفتوى وما يشبهها من الفتاوى السياسيّة في عهد الدّولة المرابطيّة ينظر: ابن خلدون، التّاريخ، ج6ص249؛ عمر بنميرة، الثّقافة والفقه والمجتمع نماذج من المغرب الوسيط، ط، الرّباط: جذور للنّشر، 2006م، ص ص29-53.

[3]-الزّركشي، تاريخ الدّولتين، ص156؛ النّاصري، الاستقصا، ج4ص ص98-100.

[4]-مارمول، إفريقيا، ج2ص306.

هذه الفتوى وسلّموها لعرّوج، وذلك حين اجتمع الأعراب وأهالي تنس مع ابن أخ سلطان تلمسان، وحالفوا الإسبانيّين[1].

ج – سُلطة الرّباط:

يُعتبرُ الرّباط أحد أهمّ المقوّمات الدّينيّة لدى كثير من فقهاء القرنين التّاسع والعاشر الهجريّين ، وقد تعدّى حقيقته الشرعيّة، والتي هي حراسة ثغور الإسلام، وتحوّل إلى مكان تُمارس فيه طقوس العبادات والحضرة وتلقّن فيه الأوراد.

وقد شكّلت الرّبُط محطّات للمسافرين [2]. فأضحى للرّباط أبعادا اجتماعية، وسياسية، وأيضا اقتصادية.

– البعد الاجتماعي للرّباط:

يتجلّى هذا البعدُ في رباط إبراهيم التّازي(ت 866هـ)[3] الذي قام بإدخال الماء إلى وهران، وهو الإنجاز الذي عجز عنهُ حتّى بعض السّلاطين، وهو ما يؤكّدُ عليه ابن صعد عند قوله:((وقد رامه– أي إدخال الماء– قديما من نزل وهران من الملوك، وأهل جباية الأموال فلم يهتدوا إليه وأعوزهم سبيله)) [4]. ومن أعمال إبراهيم التّازي أيضا أنّهُ كان : ((إذا شرع في بناء شيء من الأماكن المعدّة لمنافع المسلمين ومرافقهم المعينة لهم على عبادة ربّهم استدان ديونا كثيرة لذلك ، فيتحيّر أرباب الأموال في كيفيّة خلاص ذلك الدّين...فما تمرّ عليهم أيام قليلة حتّى يفتح الله في خلاصه)) [5]. كما تَمثَّل الدّورُ الاجتماعي للرّباط في الإصلاح بين أفراد المجتمع كرباط عبد الرحمن بن عبد الله اليعقوب (ق10هـ) الذي كان يسعى في الصّلح بين الناس وفكّ الخصومات؛ ومن ذلك قيامه بالإ صلاح بين أولاد طلحة

---

[1]–خير الدّين بن يعقوب، المذكّرات، ترجمة محمّد درّاج، ط 1، الجزائر:شركة الأصالة للنّشر والتّوزيع، 2010م، ص83؛ محمّد بوشنافي، موقف علماء تلمسان من التواجد العثماني، ص205.

[2]–نللي سلامة، الولاية والمجتمع، ص ص100-105.

[3]–قال عنه في النّيل: ((إبراهيم العالم العلّامة النّاظم البليغ الورع الزّاهد الوليّ الصّالح العارف القطب، صاحب الكرامات والأحوال البديعة والقصائد الرّائقة الأنيقة، كان يشرح خليل دون الرّجوع إلى شروح، وقد لبس الخرقة من شرف الدّين الدّاعي، ولبسها من الشّيخ صالح بن محمّد الزواوي بسنده إلى أبي مدين، وأخذ عنه حديث المشابكة وقد أخذ عنه جماعة من الأئمّة كالحافظ التنسّي، والإمام السنوسي وأخيه سيدي علي التّالوتي، والإمام أحمد زرّوق وغيرهم ت 866هـ)). ينظر:التمبكتي، نيل الإبتهاج، ص ص 59-64؛ أبو راس، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، ج1ص241.

[4]–ابن صعد، روضة النّسرين، ص155.

[5]–المصدر نفسه، ص160.

وأولاد يعقوب بترارة.[1] وعندما كان الصّراع على أوجه بين خيضر باشا عام 1590م ، وأحمد أمقران أمير بني العبّاس[2]، جاء أحد المرابطين ودعا المتقاتلين إلى الصّلح والتّوجّه نحو النّصارى[3].

-البُعْد الاقتصادي للرّباط :

يتجلّى هذا البُعدُ في موارد الرّباط الكثيرة ؛ من أقطاعات وزكوات وصدقات، وهبات أرباب الوقت؛ من سلاطين وولاة وشيوخ القبائل، يضاف إليها عوائد الأوقاف وغيرها [4]. فزاوية إبراهيم التّازي كانت الصّدقات والنّذور ترد عليها من الآفاق [5]. وقد تعدّت سمعة بعض الرّباطات حدود المغرب الأوسط، بل بلغت إلى بلاد السّودان وغيرها فورد في ترجمة الحسن بن مخلوف أبركان [6] أنّ النّاس كانوا يقصدونه بالصّدقات والنّذور من بلاد السّودان وغيرها[7].

---

[1] - عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف، ص196.

[2] - تقع قلعة بني العبّاس في أعالي جبال الونوغة التي أصبح الجزء الشّمالي منها يعرف بجبال البيبان، يحدّها منطقة بني عيدل من الشّمال، وقبيلة أولاد بليل وسهل مجانة من الشّرق والجنوب الشّرقي، وجبال مزيتة من الجنوب ومنطقتي تازمالت وبني منصور من جهة الغرب، وتبعد عن مدينة برج بوعريريج بحوالي 49كم، وهي تابعة حاليا لبلديّة إيغيل علي بولاية بجاية، وقد اختلف في نسب أمراء بني العبّاس، فيرى فيرو أنّهم من أبناء العبّاس آخر أبناء الأمير عبد العزيز الحفصي، الذي قتل أثناء مدافعة النّصارى، من قبل الشّيخ أحمد أمقران، وقد كانت في خصام شديد مع أمير كوكو، قتل أثناء مدافعة النّصارى، ويؤيّده مبارك الميلي، بينما يؤكّد الورتلاني على أنّهم أشراف، ويرجع عبد القادر فكاير تأسيس هذه السّلطنة إلى سنة 1500م، من قبل الشّيخ أحمد أمقران، و كانت إمارة بني العبّاس في خصام شديد مع أمير كوكو، وتذبذب موقفها من العثمانيّين بسبب صراعها مع أمير كوكو، وهو الموقف الذي تجلّى بعد حملة صالح رايس على ورقلة وتقرت سنة 1552م، حيث نشب الخلاف بين صالح رايس وأمير كوكو من جهة، وأمير بني العبّاس من جهة أخرى بسبب الغنائم. ينظر:
الحسين بن محمّد الورتيلاني، نزهة الأنظار في فضل علم التّاريخ والأخبار، تحقيق :محمّد بن أبي شنب، الجزائر:مطبعة فونتانا، 1908، ص36؛ عبد القادر فكاير، الغزو الأسباني للسواحل الجزائريّة، ص ص 137-139؛ بوطبّة لخضر، أسرة أولاد مقران خلال العهد العثماني (1518-1837)، رسالة ماجستير، قسم التّاريخ، قسنطينة: جامعة الأمير عبد القادر، 2005-2006، ص18.
-C.Fèraud, Conquète de Bougie ،p339-338.

[3] -يوسف بنو جيت، قلعة بني عبّاس إبّان القرن السّادس عشر للميلاد، ترجمة سامية سعيد عمّار، الجزائر:دار دحلب للنّشر، 2009 م، ص ص183-184.

[4] -نللي سلامة، الولاية والمجتمع، ص108.

[5] -ابن صعد، روضة النّسرين، ص160.

[6] -الحسن بن مخلوف بن مسعود بن سعيد المزيلي الرّاشدي أبو علي الشهر بأبركان الشّيخ الفقيه العالم العلم الولي الصّالح القطب الغوث الشّهير الكبيرأخذ عن الحفيد ابن مرزوق والحافظ التنسي و الإمام السنوسي، كان لا يخاف في الله لومة لائم، وكان له قبول عظيم من العامّة والخاصّة، ت857هـ. ينظر :ابن صعد، روضة النّسرين، ص125؛ التنبكتي، النيل، ص ص161-162.

[7] -ابن صعد، المصدر السّابق، ص129.

البُعد السياسي للرّباط:

يمكن ملاحظة هذا البُعد في رباط أحمد بن يوسف الملياني برأس الماء غير البعيدة عن مقرّ قائد وطن بني راشد، والذي أصبح لرباطه اليد الطّولى على قادة الدّولة، وقضاتها بإقليم بني راشد، فلا يردّ له القائد طلبا ولا يخالف له القاضي أمرا، كما كانت تعتبر زاويته حرما لا تصله أيديهم ولا يتعقّبون من يتّجه إليها من بطشهم [1]، و تولّى الملياني مسؤوليّة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر بمضارب بني راشد، وكان الملياني ومريدوه يعارضون سلطة بني زيان. بل بلغ الأمر بأحد مريديه إلى الطّعن في سلطة بني زيان أمام أحد عمّالهم[2].

وأيضا لعب الفقيه دورا هاما بواسطة الرّباط أثناء الهجمات النّصرانيّة على سواحل المغرب الأوسط، وساهم في توطيد سلطة العثمانيين في الجزائر. يقول عزيز سامح التر:((تصدّى العلماء للغارات الاسبانيّة وتمثّل ذلك أوّلا بظهور المرابطين))[3].

ولم يتنكّر العثمانيون للعلماء والمرابطين[4]، فسارع خير الدّين إلى الارتباط بهم، كما قرّبهم إليه إلى إلى درجة أن غدوا كمستشارين له فيما يتعلّق بالأوضاع الداخليّة للبلاد[5].

ح - **دور الشّفاعة في سلطة الفقيه:**

كان الفقهاء بحكم احتكاكهم بكافّة أطياف المجتمع، يشكّلون همزة وصل بين الرّاعي والرعيّة من خلال شفاعاتهم المتكرّرة، وكان السّلاطين في العادة يقبلون هذه الشّفاعة، و هو ما أعان على تنامي أدوارهم السّلطويّة؛ فابن مرزوق(ت781هـ) الذي فال عنه عبد الرحمن بن خلدون:((إن غاب تردّدت

---

[1]-محمّد حاج صادق، مليانة ووليّها سيدي أحمد بن يوسف، ص 101.

[2]- الصبّاغ، بستان الأزهار، ورقة 7؛ مختار حساني، الدّولة الزيانيّة، ص ص33-34.

[3]-عزيز سامح التر، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشماليّة، ص 105. وقال أيضا عن المرابطين : ((وحصلوا على احترام الجميع، وخاصّة في المناطق الخاضعة للسيطرة الاسبانيّة بسبب فقدان الحكومات القائمة، وفقدان المفسدين للدّعم. وممّا زاد سكّان تلك المناطق في التمسّك بالرّباط الدّيني، استخدام الإسبانيّين الظّلم، والاضطهاد ضدّ أهالي المسلمين عامّة، ورجال الدّين من شيوخ وعلماء خاصّة، إضافة إلى الدّعم المادي والمعنوي الذي قدّمه أصحاب الطّريقة القادريّة لهم ، واعتبار الجهادِ الوسيلةَ الرئيسيّة والأساسيّة للمسلم المؤمن. وباتّباع القادريّين لهذا الأسلوب وهذا النّهج تمكّنوا من توجيه الأحداث لصالحهم، فأسّسوا حكومات شبه مستقلّة، وهي حكومات مخالفة لحكومة المركز)). المرجع نفسه، ص108.

[4] - Mantran Robert. La description des côtes de l'Algérie dans le Kitab-i Bahriye de Pirî Reis, Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, N°15-16, 1973 ,P163-164.

[5]-عزيز سامح التر، المرجع السابق، ص105.

إليه الرّقاع، واختلفت الرّسل إليه))، قد غشي بابه أعيان الدّولة من الحجّاب والوزراء والأعيان وحتّى الفقهاء؛ التماس شفاعته لهم عند السّلطان[1].

وغالبا ما يكون سبب الشّفاعة رفع مظلمة، ودفع بغي، ولهذا كانوا يبادرون إليها، حتّى أولئك الذين اشتهروا باستنكافهم عن طرق أبواب السّلاطين، كأحمد بن محمد المناوي بن الحاج (ت 930 هـ-1524م)، الذي و رغم أنّه كان زاهدا في الدنيا لا تساوي عنده مثقال ذرّة، و لا يخشى في الله لومة لائم، فإنّه كان يسعى في قضاء حوائج الناس [2]. وتُظهر إحدى النّوازل التي وردت على أبي زيد وموسى ابني الإمام، أنّ الفقهاء كانوا يشفعون للرعيّة حتّى عند الظّلمة من عمّال السّلطان وشيوخ القبائل، فقد سئل الشيخان عن :((سلطان ظالم وعامله أو شيخ على قبيلة يفرض فريضة على بلده أو على بعض رعيّته...واستشفع بعض الرعيّة المطلوب منهم ذلك لدي **وجاهة من علم** أو ديانة أو نحوه))[3]. وممّن اشتهر من الفقهاء بصفة الشّفاعة ؛ الفقيهُ محمّد بن يوسف السنوسي الذي كان يسَخِّر وقته للشّفاعة عند السّلطان لصالح أهالي تلمسان، و كان سببا في قضاء حوائج كثير من النّاس[4].

ومع أنّ الأصل في الشّفاعة أن يُلتمس فيها الثّواب عند الله، وأن تكون لرفع مظلمة عن الرعيّة، كما فعل أبو عبد الله محمّد بن عبد الجليل، والذي جاء في ترجمته أنّه قدم على بعض مصالح العامّة إلى أمير المؤمنين أبي فارس الحفصي، فوصله بصلة فلم يقبلها [5]. فإنّ بعض الفقهاء قد اتّخذوا من الشّفاعة سلّما للاسترزاق، ووسيلة لتسخير النّاس لخدمتهم، وهو ما تكشفه عبارة أبي القاسم البرزلي :((لقد كانت الرعيّة تنقطع إلى العلماء والمتعلّقين بالسّلطان لرفع الظّلم عنهم، فيهادونهم ويخدمونهم)).[6]

هذه هي أبرز مقوّمات سلطة الفقيه، رغم أنّ فقهاء آخرين وفي حالات استثنائيّة قد حابتهم الظّروف، وجادت عليهم بمقوّمات أخرى، ساهمت في تنامي سلطتهم، كانتمائهم لأسر متنفّذة، أو

---

[1]- ابن خلدون، الرّحلة، ص 60-64؛ أحمد بن محمّد المقري، نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب، تحقيق إحسان عبّاس، بيروت:دار صادر،1408 - 1988م، ج5ص ص390-414.

[2]-عبد المنعم القاسمي، أعلام التتصوف، ص107.

[3]- المصدر نفسه، ص107.

[4]- التمبكتي، النيل، ص 568.

[5]- أحمد البوني، الدرّة المصونة، ص147.

[6]- البرزلي، جامع مسائل الأحكام، ج3ص633.

قبائل غالبة[1]، أو حيازتهم النّسب الشّريف [2]كأحمد الشّريف التّلمساني (ت 832هـ) الذي ولي قضاء تلمسان[3].

[1]-كعبد الرّحمن الثّعالبي المنتمي لقبيلة الثّعالبة، وهي القبيلة الغالبة بسهل متيجة ومدينة الجزائر ، و ناصر بن أحمد بن يوسف بن مزني البسكري، المنتمي لأسرة ابن مزني وهي الأسرة التي كانت تحكم بسكرة وبلاد الجنوب .

[2]-حول مكانة الأشراف ينظر: عبد الرّحمن التّوجيني، عقد الجمان النفيس في ذكر الأعيان من أشراف غريس، ط 1، المسيلة-الجزائر- :دار الخليل القاسمي، 2005.

[3]-محمّد بن محمّد مخلوف، شجرة النّور الزكيّة، ج 1ص252.

تجربة فقهاء المغرب الأوسط قبل القرن 9هـ/15م:

لا يمكن إغفال الخلفيّة التّاريخيّة، ودورها في نشأة سلطة الفقيه بالمغرب الأوسط خلال القرنين التّاسع والعاشر الهجريّين، ففي أيّام المرابطين استطاع فقهاء المغرب الإسلامي أن يوسّعوا من سلطاتهم.

-سلطة الفقهاء أيام االمرابطين:

يمثّل الفقيه عبد الله بن ياسين خير نموذج على ذلك؛ وذلك أنّه تمكّن من قيادة جموع الملثّمين، ليصبح هو الآمر النّاهي فيهم. وقد خضع له كبار لمتونة ومسوفة وجدالة وغيرها من القبائل الصنهاجيّة[1].

و استطاع الفقهاء بعد وفاة عبد الله بن ياسين أن يضمنوا مكانة أساسيّة في قمّة هرم الدّولة المرابطيّة[2]، و صار أمراء المرابطين لا يقضون بأمر، ولا يبرمون عقدا، ولا يعزمون على غاية، إلاّ إذا تمّ عرضها على الفقهاء، ونالت مباركتهم[3].

وفي الأندلس مكّن الفقهاء وعلى رأسهم ابن رشد الجدّ وأب و بكر بن العربي وفتوى أبي حامد الغزالي؛ المرابطين من الاستقرار والقضاء على ملوك الطّوائف، ونظير ذلك صار الفقهاء يمارسون

---

[1]-ذكر البكري أنّ يحيى بن عمر اللّمتوني كان شديد الانقياد لعبد الله، وامتثالا لأمره، وقد روى البكري عن جماعة أنّ عبد الله بن ياسين قال ليحيى بن عمر في بعض الحروب:((أيّها الأمير إنّ عليك حقا أدبا فقال له يحيى وما الذي أوجبه عليّ، قال له عبد الله إنّي لا أخبرك به حتّى أؤدّبك، وآخذ حقّ الله منك فطاع له الأمير بذلك وحكمه في بشرته ، فضربه الفقيه ضربات بالسّوط)) .ينظر: البكري، المسالك والممالك، ص ص166-167.

[2]-ابن عذارى المرّاكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج 3، تحقيق ، ج.س.كولان وليفي بروفنسال، بيروت:دار الثّقافة، 1929، ص242، وج4، تحقيق : إحسان عباس، بيروت:دار الثّقافة، 1967 م، ص ص7-9؛ عبد الرّحمن علي الحجي، التّاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتّى سقوط غرناطة(92-897هـ)، ط2، بيروت-دمشق:دار القلم، 1981 م،ص ص 419-421؛ فاطمة الزّهرة جدو، السّلطة والمتصوّفة في الأندلس عهد المرابطين والموحّدين (479-635هـ/1086-1238م)، قسنطينة: جامعة منتوري، 2007 -2008 م، ص 99.

[3]-ابن خلدون، التّاريخ، ج6ص242.

سلطتهم بمباركة أمراء المرابطين [1]. الذين كانوا يعظّمونهم[2]، فعظُم أمر الفقهاء، وسمت هممهم، حيث وصل الحدّ بفقهاء قرطبة إلى الثّورة ضدّ الدّولة اللّمتونيّة سنة 515هـ/1121م[3].

-سلطة الفقهاء أيام دولة الموحّدين:

سقطت دولة المرابطين وقامت دولة الموحّدين على أنقاضها، وبسطت نفوذها على سائر بلاد المغرب الإسلامي سنة555هـ، و شهدت دولتهم في عزّ قيامها ثورة القاضي عياض [4] بسبتة .

وقد مثّل عهد الموحّدين، مرحلة إشعاع علمي وفكري، و عهد انفتاح على كتب التصوّف، ومذهب أهل الظّاهر[5]، والعقيدة الأشعرية، وكتب الكلام والمنطق [1]، وهو الانفتاح الذي يعتبر بحدّ ذاته

---

[1]-قال عبد الواحد المراكشي عن علي بن يوسف بن تاشفين:((ولم يزل الفقهاء على ذلك، وأمور المسلمين راجعة إليهم، وأحكامهم صغيرها وكبيرها موقوفة عليهم، طول مدّته، فعظم أمر الفقهاء كما ذكرنا، وانصرفت وجوه النّاس إليهم)). ينظر: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص 235، حسين مؤنس، سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيّامهم في الأندلس، ط 1، بور سعيد: مكتبة الثّقافة الدّينيّة للنّشر والتّوزيع، 1420 هـ/2000م، ص ص22-27.

[2]- جاء في سيرة يوسف بن تاشفين أنّه: ((كان يفضّل الفقهاء ويعظّم العلماء، ويصرف الأمور إليهم، ويأخذ فيها برأيهم، ويقضي على نفسه بفتياهم))، أمّ ا علي بن يوسف، فجاء في ترجمته أنّه كان: ((مكرما لأهل العلم، يقلّد الأمور للفقهاء)). ابن سماك العاملي، الحلل الموشيّ في ذكر الأخبار المرّاكشيّة، تحقيق:عبد القادر بوباية، ط1، بيروت:دار الكتب العلميّة، 2010، ص145و ص 149.

[3]-ذكر ابن الأثير أنّ علي بن يوسف ولّى على أهل قرطبة أبا بكر يحيى بن رواد، فمدّ أحد عبيده يده إلى امرأة من أهل قرطبة يوم الأضحى، فاستغاثت المرأة فنشبت الفتنة بين العبيد وأهالي قرطبة، فنصح الفقهاء أبا بكر بن رواد بقتل أحد العبيد حتّى تهدأ العامّة، فأبى أبو بكر واستعدّ للقتال فتجهّز أهالي قرطبة وقد انحاز إليهم الفقهاء والأعيان، ففرّ أبو بكر وانتهبت دور المرابطين، وفشل عليّ بن يوسف في القضاء على الفتنة، إلى أن توسّط بين الطّرفين السّفراء. ينظر:ابن الأثير، الكامل في التّاريخ ، راجعه محمّد يوسف الدقاق، ط 4، بيروت:دار الكتب العلميّة،2003 م، ج9ص187-188؛ ابن سماك العاملي، المصدر السّابق، ص ص 150-152؛ عبد الله عنان، دولة الإسلام في لأندلس، ط2، القاهرة:مكتبة الخانجي، 1990،ج2 ص ص82-85.

[4]-أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض اليحصبي الأندلسي، ثمّ السبتي المالكي، ولد سنة 476هـ، رحل إلى الأندلس، واستبحر في العلوم، وجمع وألّف، وسارت بتصانيفه الرّكبان، واشتهر اسمه في الآفاق، ولي القضاء وعمره 35 سنة، وقد كان صليبا في الحقّ، وله تواليف نفيسة، أجلّها الشفا، قد دخل في طاعة الموحّدين حين دخلوا سبتة ثمّ ثار عليهم، إلى أن عاود طاعتهم، فعفا عنه عبد المومن بن علي، وتوفي سنة 544 هـ. ينظر :البيذق أبو بكر بن علي الصّنهاجي، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحّدين، الرّباط:دار المنصور للطّباعة والوراقة، 1971م، ص68؛ الذّهبي، سير أعلام النّبلاء، ج 20ص212-219؛ ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمّد عبد الله عنان، ط 1، القاهرة:مكتبة الخانجي،1984، ج4 ص222-230؛ عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ج2ص ص272-274.

[5]-عرف زعماء دولة الموحّدين بنزعتهم إلى المذهب الظّاهري، فابن تومرت كان شديد النّفور من كتب الفروع، وتبعه عبد المومن الموحّدي، وفي أيّام أبي يوسف المنصور الذي أمر بحرق كتب الفروع كمدوّنة سحنون، ووكتاب ابن يونس ونوادر ابن أبي زيد. ينظر: عبد الواحد المرّاكشي، المعجب، ص354؛ المنوني، حضارة الموحّدين، ص ص37-38.

ثورة على السياسة الدّينيّة لدولة المرابطين، وما نجم عنها من تسلّط فقهاء الفروع الذين أفتوا بحرق كتاب **إحياء علوم الدّين** للغزالي سنة 503هـ[2]، ومنعوا تدريس علم المنطق وعلم الكلام [3]، وانصبّ جلّ اهتمامهم على الفروع الفقهيّة. ثمّ بدأت دول الموحّدين تفقد قوّتها بعد موقعة العقاب سنة 609هـ[4]، واستقلّ بنو حفص بحكم تونس، وبنو عبد الواد بحكم تلمسان، لتنتهي أيّام دولة الموحّدين باستيلاء بني مرين على بلاد المغرب الأقصى. و أمام هذا الوضع تهافت سلاطين بني مرين وبني حفص وبني زيان على شيوخ القبائل والفقهاء وشيوخ الطّرق، يسترضونهم ويشترون ودّهم، قصْد توسيع نفوذهم على حساب جيرانهم .

-سلطة الفقهاء بعد ضعف انهيار دولة الموحّدين:

بعد سقوط دولة الموحّدين، وظهور الدّولة الحفصيّة، والزيّانيّة وكذا المرينيّة، سعى كلّ واحد من سلاطين الدّول الثّلاث إلى حشد الأتباع و تجميع أكبر عدد من الفقهاء، و صاحَب ذلك تكالب النّصارى على الممالك الأندلسيّة، ممّا دفع بالكثير من الأندلسيّين إلى التوجّه صوب العدوة المغاربيّة، وكان من بين هؤلاء الأندلسيين مشاهير العلماء كالآبلي [5]وابن الأبّار [6]، والذين أدّوا دورهم على الصّعيدين السياسي والثّقافي.

---

[1]- المرجع نفسه، ص82-85.

[2]- يقول أبو يعقوب يوسف بن يحيى التّادلي:((وما طعن عليه إلاّ علماء الدّنيا الّذين أظهر عوارهم))، ينظر التشوّف إلى رجال التصوّف وأخبار أبي العبّاس السّبتي، تحقيق أحمد التّوفيق، ط 2، منشورات كليّة الآداب بالرّباط، مطبعة النّجاح الجديدة، الدّار البيضاء،1997م؛ وحول إحراق كتاب الإحياء ينظر: ابن القطان، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزّمان، تحقيق محمود علي = مكّي، ط2، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1990م، ص70؛ إسماعيل ابن الأحمروآخرون، بيوتات فاس الكبرى، الرّباط: دار المنصورة للطباعة والوراقة، 1972م، ص ص33-34؛ محمّد المنوني ، حضارة الموحدين، ص ص191- 200.

[3]-ابن القطّان، نظم الجمان، ص73.

[4]-عبد الواحد المرّاكشي، المعجب، ص 401-403؛ محمّد العروسي المطوي، الحروب الصّليبيّة في المشرق والمغرب، ط 2، لبنان:دار الغرب الإسلامي، 1982، ص ص229-230.

[5]- محمّد بن إبراهيم ، منشؤه بتلمسان، وأصله من جاليّة الأندلس من أهل آبلة، أكرمه السّلطان أبو الحسن المريني، ونظمه في طبقة العلماء بمجلسه، توفي بفاس سنة 681هـ. ينظر: ابن خلدون، الرّحلة ، ص ص49-53.

[6]- الحافظ أبو عبد الله الأبّار، من مشيخة أهل بلنسيّة، وفد على أبي زكريا الحفصي حين دلف الطّاغية إلى بلنسية، فحضر مجلس السّلطان وأنشد قصيدته السّينيّة يستصرخه فيها لانقاذ بلنسية، ولما سقطت بلنسيّة رجع ابن الأبار إلى تونس بأهله، وصار كاتب العلامة ، ثمّ صرف عنها فسخط ابن الأبّار إنفة من إيثار غيره عليه، فامتحنه السّلطان، ثمّ عفى عنه بعد أن كتب كتابه "**إعتاب الكتّاب**"، وحين تولّى المستنصر الحفصي، حقد على ابن الأبار إلى أن أمر بقتله سنة 658هـ. ابن خلدون، التاريخ، ج6ص ص418-419.

– سلطة فقهاء المغرب الأوسط في القرن الثّامن الهجري (8هـ/14م):

صار المغرب الأوسط في القرن الثّامن والهجري عرضة لتدخّلات المرينيين والحفصيّين، و استطاع أبو الحسن المريني وابنه أبو عنان أن يدخلا تلمسان، بل وأخضعا حاضرة تونس مرّتين [1]، وحاول كلّ منهما تحسين علاقته بالفقهاء، فراحوا ينظمون الفقهاء في بلاطهم، ويوقفون عليهم المدارس، ويسندون إليهم الوظائف. وهو ما جعل فقهاء المغرب الأوسط أمام تجاذبات سياسيّة فرضتها القوى الثّلاث، وكان عليهم تحمّل عواقب اختياراتهم، ولا بأس باستعراض أهمّ الفقهاء الذين مارسوا السّلطة قبل القرن التّاسع الهجري.

- محمّد بن مرزوق العجيسي التّلمساني (ت781هـ):

يعتبر محمّد بن أحمد بن محمّد بن مرزوق العجيسي من أعلام المغرب الأوسط الذين نبغوا بالمغرب والمشرق[2]، وقد بدأ تجربته في ممارسة السّلطة أيّام أبي الحسن المريني، حين ولّاه خطابة مسجد العبّاد[3]، و كان ابن مرزوق دَرِبًا على صحبة الملوك والأشراف [4]، فاشتمل عليه السّلطان أبو الحسن المريني :((فخلطه بنفسه، وجعله مفضى سرّه، وإمام جمعه وخطيب منبره وأمين رسالته)) [5]. ولما ملك أبو عنان عنان قام بتقريبه من بلاطه إلى أن تغيّر خاطره عليه فأمر بسجنه[6]، ولما تولّى أبو سالم المسمّى بالسّعيد، بالسّعيد، كان ابن مرزوق ممّن دانت له الطّاعة، وأناخ راحلة الملك، وحلب ضرع الدّولة، فاستولى على أمره، وخلط ابن مرزوق بنفسه، ولهذا قال ابن الخطيب: ((ولم يستأثر عنه ببثّه، بحيث لا يقطع شيء إلا به وعن رأيه، ولا يمحو ويثبت إلاّ واقفا عند حدّه، فغشيت باب ابن مرزوق الوفود، وصرفت إليه الوجوه، ووقفت عليه الآمال، وخدمته الأشراف، وجلبت إلى سدّته بضائع العقول والأموال، وهادته الملوك))[7]، ويضيف ابن الخطيب قائلا:((صارت الحداة لا تحدو إلا إليه، ولا تحطّ الرّحال إلاّ لديه، إن

---

[1] -Mercier ,Histoire de l'Afrique septentrionale(berèrie)depuis les temps les plus reculés jusqu'a la conquête Française ,paris: Ernest Leroux èditeur, 1868,T2، p281-400.

[2] -أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، الدّرر الكامنة في أعيان المائة الثّامنة، بيروت:دار الجيل، 1993م، ج3 ص ص360-362

[3] - ابن خلدون، الرّحلة، ص61.

[4] -المقري، نفح الطّيب، ج5ص391.

[5] -المصدر نفسه، ج5 ص391.

[6] -ابن خلدون، المصدر السابق، ص62.

[7] -المقري، المصدر السّابق، ج5ص404.

إن حضر أجرى الرّسم وأنفذ الأمر والنّهي ... وإن غاب تردّدت الرّقاع، واختلفت الرّسل)) [1]، وهكذا غشي باب ابن مرزوق أعيان الدّولة من الحجّاب والوزراء والأعيان[2].

محنة ابن مرزوق مع السّلاطين:

تعرّض ابن مرزوق في حياته لأكثر من محنة، فمحنته الأولى كانت مع أمراء تلمسان حين خرج إلى سلطان المغرب أبي الحسن ساعيا في الصّلح بينه وبين صاحب تلمسان السّلطان أبي سعيد، حيث سجنه أبو ثابت بعد تنكّر أبي سعيد له، وانتهبت رحله، وانتهكت حرمته [3]. أمّا محنته الثّانية ففي أيّام أبي عنان، الذي سجنه ثمّ عفى عنه، وأمّا الثّالثة فكانت أشدّ وقعا على نفسيّته، وذلك بعد مهلك أبي سالم السّعيد المريني إذ رام الثّائرون قتله [4]. وبعدها ارتحل ابن مرزوق إلى تونس سنة 765هـ، فلقي بها من المبرّة والكرامة والوجاهة الشّيء الكثير، ثمّ قلب له سلطانها ظهر المجن، فارتحل إلى القاهرة عند سلطانها الأشرف[5].

- **محمّد بن محمّد المقرّي التّلمساني 759هـ-1359م[6]**

كان محمّد المقرّي أحد أبرز علماء القرن الثّامن بالعُدْوة المغربيّة، و جعله ابن الخطيب ممّن بلغ درجة الاجتهاد[7]. بدأ مسيرته السياسيّة أيّام أبي عنان المريني، حين ندبه لكتابة بيعته لما نقض بيعة أبيه، أبيه، فكتبها وقرأها على النّاس في يوم مشهود، وارتحل معه لفاس فعزل قاضيها الشّيخ المعمّر بن عبد الرزّاق، وولاّه منصب القضاء، وقرّبه إليه.

محنة محمّد المقرّي مع أبي عنان المريني:

---

[1]-المصدر نفسه، ج5ص404.

[2]- ابن خلدون ، الرحلة، ص ص60-64؛ المقرّي، نفح الطيب ،ج5 ص ص390-414.

[3]-التنبكتي، النيل، ص452.

[4]-يشير ابن مرزوق إلى ذلك فيقول:((ثمّ انتقلت إلى ما لابدّ منه بحسب العادة المظهرة في صدق الخبر الصّحيح من الاستفال بعد العلوّ، والهبوط بعد الطّلوع، والبعد بعد الدنوّ، فحلّت النّكبة...فتقبّضت النّفوس بعد كمال الهشاشة، وتبهشرت الوجوه بعد طلاقة البشاشة، وحضر هلاكي لولا منّ الله مولاي بلطفه الجميل)). ابن مرزوق، المناقب المرزوقيّة، ص140.

[5]-ابن مرزوق، المصدر نفسه، ص ص298-313؛ المقرّي، المصدر السابق ،ج5ص ص390-414.

[6]-أبو الحسن النّباهي الأندلسي، تاريخ قضاة الأندلس، تحقيق : مريم قاسم طويل، ط 1، بيروت:دار الكتب العلميّة، 1415هـ/ 1995، ص207؛ عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص 313.

[7]-ابن الخطيب، الإحاطة، ج2ص194.

بقي محمّد المقرّي قاضيا ومقرّبا إلى أن سخطه أبو عنان لبعض النّزعة الملوكيّة فعزله، وولّى الفقيه أبا عبد الله القشتالي، ثمّ بعثه السّلطان أبو عنان سفيرا إلى الأندلس فامتنع من الرّجوع، غير أنّ ملك غرناطة أوفده مع جماعة من شيوخ العلم إلى أبي عنان شافعا فيه، فقبلت شفاعته، وأنجعت الوسيلة، ولكنّ السّلطان أبا عنان حاول امتحانه، فتركه عطلا عن الولاية و الجراية، ثمّ امتحنه بعد ذلك بسبب خصومة، إلى أن ولاّه بعد ذلك قضاء العساكر في دولته عند ارتحاله إلى قسنطينة، ولا شكّ أنّ هذا المنصب قد أضفى على المقرّي مزيدا من النّفوذ [1].

- عبد الرّحمن بن خلدون (ت808هـ):

يعدّ عبد الرّحمن بن خلدون أحد الشخصيّات التي كانت تحمل طموحا سياسيا، وقد دشّن تجربته بتولّي كتابة العلامة عند أبي محمّد بن تافراكين المستبدّ على الدّولة الحفصيّة يومئذ بتونس [2]، ثمّ اتّصل بابن أبي عمرو حاجب أبي عنان المريني، فقرّبه من أبي عنان؛ وهو شاب لم يطرّ شاربه، ثمّ نظمه أبو عنان في مجلسه سنة 756هـ، و استعمله في الكتابة والتّوقيع إلى أن سجنه سنة 758هـ[3]. وقد أسهم ابن خلدون في توطيد سلطان أبي سالم المريني، رفقة ابن مرزوق، فولاّه كتابة سرّه، وإنشاء مخاطباته ومراسمه، ثمّ خطّة المظالم.

التحديّات التي واجهت ابن خلدون:

ساءت علاقة ابن خلدون بابن مرزوق. و انتظر إلى أن ثار الوزير عمر على السّلطان أبي سالم المريني، واستتبّ له الأمر، فزاد في جراية ابن خلدون، غير أنّ ابن خلدون كان يصبوا إلى أكثر من ذلك، فعزم على الرّحلة إلى الأندلس، وحين وصلها ساهم ابن الخطيب في تقريبه من صاحبها، لكنّ ابن الخطيب لم يبق على سالف ودّه مع ابن خلدون بسبب الوشاية، فترك ابن خلدون غرناطة، ومضى إلى صاحب بجاية الذي ولاّه الحجابة، وهي التي يقول هو عنها : ((ومعنى الحجابة في دولنا بالمغرب الاستقلال بالدّولة، والوساطة بين السّلطان وبين أهل الدّولة))[4]. فلمّا قدم بجاية احتفل السّلطان بقدومه، وأركب للقائه، وتهافت أهل البلد عليه من كلّ أوب يمسحون أعطافه، ويقبّلون يده، واستقلّ

---

[1]-المصدر نفسه، ج2ص ص191-226؛ التنبكتي، المصدر السابق، ص ص425-426.

[2]-ابن خلدون، الرحلة، ص64.

[3]- المصدر نفسه، ص ص72-73.

[4]-المصدر نفسه، ص ص94-95.

ابن خلدون بأمر الملك، واستفرغ جهده في سياسة أموره، وتدبير سلطانه . ولما حدثت الفتنة بين صاحب بجاية و ابن عمّه صاحب قسنطينة، ونشبت الحرب ؛ هُزِمَ صاحب بجاية، ورجع مفلولا، فسار ابن خلدون بنفسه إلى قبائل البربر الممتنعين عن أداء المغارم بالجبال؛ فدخل بلادهم واستباح حماهم، وأخذ رهنهم على الطّاعة، حتّى استوفى منهم الجباية، ثمّ استولى أبو العبّاس صاحب قسنطينة على بجاية، ففرّ ابن خلدون، فبعث إليه السّلطان أبو حمّو من تلمسان يستقدمه، ففضّل الارتحال إلى بسكرة[1].

وقد انتهى المطاف بابن خلدون بمصر، فنال بها حظوة ومكانة رفيعة، فتقلّد منصب القضاء والتّدريس بالأزهر، في جو محشود بالتنافس والوشاية، إلى أن توفي بمصر سنة808هـ [2].

- سعادة القائم بأمر السنيّة:

من الفقهاء الذين استقلّوا بالسّلطة ، وكانت سيرتهم مشابهة لسيرة عبد الله بن ياسين زعيم المرابطين، سعادة السّني من قبيلة رياح، فقد نشأ منتحلا للعبادة والزّهد، وارتحل إلى المغرب فلقي أبا اسحق التّسولي، وأخذ عنه ولزمه، وتفقّه عليه، ورجع إلى وطن رياح بفقه صحيح، وورع وافر، ثمّ نزل طولقة[3] من بلاد الزّاب، وشرع في تغيير المنكر على أقاربه وعشيرته ومن عرفه أو صحبه، فاشتهر بذلك، وكثرت غاشيته لذلك من قومه وغيرهم، و كان أتباعه من قبائل الذواودة، و زغبة وغيرهم يسمّون بالسنيّة، فاشتدّ على قاطع الطّريق من شرار البوادي. و طالب عامل الزّاب وهو يومئذ منصور بن فضل بن مزني بإعفاء الرّعايا من المكوس والمظالم، الأمر الذي جعل ابن مزني يعمل على القضاء عليه في بداية القرن الثّامن، وقد قام أتباعه بالأمر من بعده، ونصّبوا عليهم فقيها يُدعى أبو عبد الله محمّد بن الأزرق[4].

- القاسم بن مرّا من الكعوب القائم بأمر الجنّادة:

شهد مطلع القرن الثّامن أيضا ثورة القاسم بن مرا من الكعوب القائم بالسنّة في قبائل سليم، وقد نشأ بين أبناء قبيلته منتحلا للعبادة، ثمّ سافر إلى القيروان، فلقي بها أبا يوسف الدّهماني، وأخذ عنه

---

[1]-المصدر نفسه،ص ص83-186.

[2]-ابن خلدون، الرحلة، ص199؛ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، إنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق حسن حبشي، القاهرة:لجنة إحياء التّراث الإسلامي، 1969، ج2ص ص 338-340.

[3]- قال حسن الوزّان :((مدينة بناها الرّوميديّون، يحيط بها سور حقير، ويمرّ قربها جدول ماء ساخن)). وصف إفريقيا، ج2ص140.

[4]-ابن خلدون، التاريخ، ج6ص ص51-53.

ولزمه، ثمّ خرج إلى قومه مقتفيا طريقة شيخه في التزام الورع، والأخذ بالسنّة ما استطاع، ورأى ما العرب عليه من إفساد السّابلة، والخروج عن الجادّة، فأخذ على نفسه بتغيير المنكر فيهم، وإقامة السنّة؛ وقد حالفه أولاد أبي ليل، وكان أتباعه يسمّون بالجناده، فأصلح السّابلة وعلت كلمته فأجمع عداوته بنو مهلهل بإيعاز من السّلطان أبي حفص .[1]

وبذلك يكون بعض فقهاء المغرب الأوسط في القرن الثّامن الهجري قد خاضوا تجربتهم السياسيّة، ومارسوا بعض أشكال السّلطة، وسيسعى الباحث إلى تتبّع هذه الظّاهرة خلال القرنين التّاسع والعاشر، مبرزا أهم مظاهر هذه السّلطة.

---

[1]-المصدر نفسه، ج6 ص106.

مظاهر سلطة فقهاء القرن التّاسع والعاشر

تُظهر كتب التّراجم والتّاريخ والفهارس و النّوازل بعض مظاهر السّلطة عند فقهاء القرن التّاسع والعاشر، والتي يمكن تناولها كالآتي:

أ - سلطة الأسر العلميّة:

ساهمت سياسية الحفصيين والزيانيين و المرينيّين في بلاد المغرب الأوسط، والقائمة على كسب ولاءات العلماء وشيوخ القبائل؛ في عمليّة تشكّل الأسر والبيوتات العلميّة، فبات أفراد هذه الأسر يتولّون عدّة وظائف سلطانيّة، ويتوارثونها فيما بينهم كالخطابة والإمامة والقضاء، وحضور مجالس الشّورى، وشهود عقود الصّلح. وساهم هذا التّقارب بين النّخبة الحاكمة الممثّلة في السّلاطين، والنّخبة العلميّة الممثّلة من طرف أفراد البيوتات العلميّة، في تنفّذ هذه الأسر، واتّساع جاهها [1]. ففي كلّ مدينة اشتهرت عائلات بالعلم والتّأليف؛ كعائلة المقرّي والعقباني في تلمسان، والمشدالي والمنجلاتي في بجاية، وابن السكّات بالجزائر، وفي بسكرة اشتهر العالم أبو زيان ناصر بن مزني[2].

- الأسر العلميّة بقسنطينة:

اشتهرت بقسنطينة أسرة آل باديس وآل فكون وآل المقراني [3] وآل ابن قنفذ وأنصارهم؛ لا سيما الحنانشة والنمامشة والحراكتة والدواودة في شرق البلاد، بالإضافة إلى آل عبد المومن الذين كانوا يتمتّعون بنفوذ واسع، و استقرّ آل عبد المومن في أوّل الأمر في بسكرة في القرن التّاسع، ثمّ انتقلوا إلى مدينة قسنطينة[4].

---

[1]-عن دور السّلطة في تشكّل وتنفّذ البيوتات العلميّة ينظر: رفيق خليفي، البيوتات الأندلسيّة في المغرب الأوسط، ص ص20-23.

[2]- هو ناصر بن أحمد بن يوسف بن مزني البسكري، ولد سنة 781هـ ، وقدم القاهرة فنهبت العربان ماله وكتبه، وقدّر الله بنكبة أبيه وأهل بيته ببلادهم، وقد كان من أعرف النّاس بالتّراجم، توفي سنة 823هـ.ينظر: تقيّ الدّين أحمد بن علي المقريزي، درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، تحقيق محمود الجليلي، ط 1، بيروت:دار الغرب الإسلامي، 1423هـ -2002م، ج3ص502 ؛ سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافي، ج1ص45.

[3]-نسبة إلى جدّهم أحمد بن عبد الرّحمن العبّاسي، أحد الأولياء الصّلحين، وهم أمراء قلعة بني العبّاس. ينظر: الحفناوي، تعريف الخلف، ج2ص65.

[4]-عبد العزيز فيلالي، مدينة قسنطينة في العصر الوسيط، ص79.

و تدرّج آل عبد المومن في سلك العلماء و تولّوا الوظائف الدينيّة إلى أن صارت لهم شهرة كبيرة، و أصبح عبد المومن أواخر العهد الحفصي شيخا للإسلام.[1]

وقد إستمرّ نفوذ هذه الأسر إلى أيّام دخول العثمانيّين حيث انقسم زعماء قسنطينة بين ثلاثة أسر متنفّذة هي؛ آل عبد المومن الحزب الموالي للحفصيّين و حالفهم أولاد صولة بأسفل المدينة في حي باب الجابية[2]، أمّا عائلة آل الفكون فقد انحاز إليهم زواوة وناصروا الأتراك، وكانوا بأعلى المدينة، وأمّا عائلة آل باديس [3] فلم تتّخذ موقفا واضحا، وكانوا بالناحيّة الغربيّة من حيّ الطابيّة [4]، و تجلّى هذا الموقف في شخصيّة الشيخ عمر الوزّان (906- 965 هـ)[5].

حاول آل عبد المومن مع شيوخ قبيلة أولاد صولة استرجاع نفوذهم بنواحي قسنطينة والزّيبان، فحاصروا الحامية التّركيّة بقسنطينة، وقتلوا العديد من أفرادها، وعندها تدخّل الباشا أحمد وأنزل العقاب بالمتمرّدين، واضطرهم إلى التّسليم بعد يومين من القتال في980 هـ -1572م. لقد أدّى هذا العصيان إلى القضاء النّهائي على عائلة عبد المومن، فقُتل زعيمها الشّيخ محمّد بن عبد المومن، وتحوّل بعض أفرادها عن قسنطينة نحو بسكرة، ونزع منها لقب أمير الحجّ، ومُنح لشيوخ عائلة الفكون الذين أصبحوا يلقّبون بشيوخ الإسلام لدى الأهالي، كما تمّ إرغام عائلة ابن باديس التي ظلّ موقفها متقلبا إزاء الحكم العثماني، ممّا جعل أفرادها يتولّون الوظائف السامية في بعض الأحيان، وقد يتعرّضون إلى السّجن والتّغريم في أحيان أخرى [6]. وهكذا تزايد نفوذ عائلة الفكون أيّام أبي الفضل الفكّون وأخيه أبي محمّد عبد الكريم الفكون (ت988هـ) والذي كان إماما بالجامع الأعظم وخطيبه، وكان ممّن لا تأخذه في الله لومة لائم، وظهر نفوذه حين وجّهه أهل البلد إلى مدينة الجزائر متكلّما باسمهم سنة 975هـ، عندما

---

[1]- عبد العزيز فيلالي، مدينة قسنطينة في العصر الوسيط، ص79.

[2]- ينفتح هذا الباب على الطريق الممتد من جنوب باب الواد إلى سيدي راشد، كانت النسوة تدخل من هذا الباب لزيارة مقام الولي الصالح سيدي راشد.

[3]- من عائلة ابن باديس حميدة بن باديس (ت 969هـ) القاضي الخطيب ممّن له الرياسة والقضاء والإمامة بجامع قصبة قسنطينة وقد حازت عائلته المناصب الشرعيّة والمخزنيّة. ينظر:عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، ص57.

[4]- حي عتيق لا يزال موجودا وعروفا بهذا الإسم، ويقع جنوب سوق القصبة.

[5]-ناصر الدّين سعيدوني، ورقات جزائريّة-دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني-، ط 1، بيروت:دار الغرب الإسلامي، 2000، ص109.

[6]-المرجع نفسه، ص 113.

قام أهالي قسنطينة بالخروج على واليها، وصحبه أبو محمّد عبد اللّطيف المسبّح [1]. وقد ساهمت عائلة الفكون في تثبيت أقدام العثمانيين في قسنطينة، وهو الأمر الذي منحها إمارة ركب الحجّ، ولقب شيخ الإسلام، ومنصب القضاء.[2]

- أُسَر تلمسان:

ذاع بتلمسان في هذه الحقبة صيتُ البيت العقباني، والذي ترجع أصوله إلى الأندلس، وأوّل من برز منهم سعيد العقباني [3] أيّام السّلطان المريني أبي عنان الذي ولاّه قضاء بجاية بعد سنة 753هـ، و العلماء يومئذ متوافرون، و كان يتقرّب إلى سلاطين زمانه، حيث جعله السّخاوي أوّل من أدخل عادة تقبيل يد السّلاطين[4]، ومن الباحثين من يرى أنّ بني مرين أرادوا من خلال توليته استيعاب الكفاءات المعوّل عليها وتعزيز شرعيّة المستقبل لهم، وتقوية صفّهم به[5].

وممّن نال منصب القضاء من أبناء هذا البيت؛ أبو القاسم العقباني (ت 854 هـ) أحد الشيوخ الذين ذكرهم القلصادي في رحلته، ووصفه بالمرتقي لدرجة الاجتهاد بالدّليل والبرهان [6]. وقد تعدّت شهرته بلاد المغرب، و كتب للحافظ بن حجر وغيره بالإجازة سنة 830 هـ[7]. كما برز من أبناء هذا هذا البيت في البلاط الزياني محمّد الحفيد بن أحمد بن القاسم القاضي كرجل سياسي في عهد أبو عبد الله محمّد المتوكّل (866 - 873 هـ)، فعلى إثر مبايعة المتوكّل سلطانا على المملكة الزيانيّة خرج السّلطان الحفصي أبو عمرو عثمان يروم تلمسان، فسعى القاضي محمّد العقباني مع خال أبي ثابت في

---

[1]-الفكون، المصدر السابق، ص ص47-48؛ سعيدوني، المرجع السّابق، ص112.

[2]-محمّد الصّالح العنتري، تاريخ قسنطينة"فريدة منسيّة في حال دخول التّرك بلد قسنطينة واستيلائهم عليها تاريخ قسنطينة "، تحقيق: يحي بوعزيز، حسين داي-الجزائر-:دار البصائر للنّشر والتّوزيع، 2009، ص45.

[3]-الفقيه القاضي أبو عثمان سعيد بن محمّد العقباني، أوّل نجباء بيته، ذو نبل ونباهة ودراية وتفنّن في العلوم، ومعرفة بالحساب والهندسة، ولي الخطابة بجامع تلمسان الأعظم، و قضاء الجماعة بتلمسان المحروسة، وبجاية ومراكش وسلا ووهران وهنين فحمدت في جميعها سيره.ينظر: أبوزكريا يحيى بن خلدون، بغية الروّاد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق : عبد الحميد حاجيات، الجزائر: المكتبة الوطنيّة، 1980، ج1 ص123.

[4]-السخاوي، الضوء، ج1ص117.

[5]- رفيق خليفي، البيوتات الأندلسيّة، ص235.

[6]-القلصادي، الرّحلة، ص106؛ أحمد بن يحيى الونشريسي، وفيات الونشريسي، تحقيق :محمّد حجي ، مطبوع ضمن موسوعة أعلام المغرب، ج1ص760.

[7]-محمّد بن يحيى القرافي، توشيح الدّيباج وحلية الابتهاج، تحقيق: علي عمر، ط1، القاهرة:مكتبة الثّقافة الدّينيّة، 2004، ص152.

الصّلح. كما كُلّف بالسّفارة إلى تونس حاملا هديّة للسّلطان الحفصي، وخرج للسّلطان الحفصي يطلب العفو لسلطانه. وحين دخل العثمانيّون تلمسان، قام أبو العبّاس العقباني بتحريض النّاس عليهم[1]، لكنّ الجيل الثّاني للعقبانيّين قد رضوا بسلطة الأتراك، وتولّوا وظائف القضاء، ووظائف أخرى كالكتابة وبذلك استمرّت مكانة العقبانيّين المرموقة في العهد العثماني.[2]

ولما احتلّ النّصارى المرسى الكبير ثمّ وهران، ساهم أبو يحيى العقباني في عقد الصّلح معهم؛ وممّا جاء في ترجمته في لقط الفرائد أنّه دخل مع النّصارى إلى تلمسان لأجل الصّلح[3].

أمّا البيت العبّادي فاشتهر برفضه لحكم العثمانيّين، ومساندة السّعديّين، وعلى رأسهم الفقيه أحمد بن أحمد العبّادي[4](ت بعد 985 هـ) حيث جاء في ترجمته أنّه قدم فاس عام 968 هـ، في جملة جملة فقهاء تلمسان الذين تزعّموا المعارضة ضدّ العثمانيين، واستنجدوا بالغالب السّعدي، حيث رحّلهم السّلطان الغالب من تلمسان فأمدّهم بالأجناد ونقلهم إلى فاس[5].

ب - تولّي الوظائف السّلطانيّة:

عادة ما تكون الوظائف السّلطانيّة أحد عوامل النّفوذ، إذ تنوّعت الوظائف التي شغلها فقهاء المغرب الأوسط خلال القرنين التّاسع والعاشر، ولا بأس باستعراض أهمّها :

- الوظائف الدينيّة :

تولّى فقهاء المغرب الأوسط في هذه الفترة العديد من الوظائف الدّينيّة كالخطابة والإمامة والتّدريس والفُتيا، وهي مناصب عادة ما تُسند إلى الفقهاء الذين بلغوا درجة معتبرة من العلم، وغالبا ما يشغل فقيه واحد كلّ هذه المناصب، ومن الشّائع أن تسند مثل هذه الوظائف إلى القضاة، فالرصّاع

1-سيُتطرّق الباحث في الفصل الرّابع إلى أسباب مناهضة بعض فقهاء تلمسان للوجود العثماني.

2-رفيق خليفي، البيوتات الأندلسيّة، ص ص236-243.

3-أحمد ابن القاضي، لقط الفرائد، ضمن موسوعة أعلام المغرب،ج1ص827.

4-نسبة إلى العبُّاد ، بضمّ العين وفتح الباء وتشديدها، مدينة صغيرة شبه ربض، تقع في الجبل على بعد نحو ميل جنوب تلمسان، بها مدرسة العبّاد، وضريح سيدي بومدين.ينظر:حسن الوزّان، وصف إفريقيا ،ج2ص24.

5-عبد الكريم بن المجدوب، تذكرة المحسنين بوفاة الأعيان وحوادث السّنين، تحقيق : محمّد حجي، مطبوع ضمن موسوعة أعلام المغرب، ص934؛ الحظيكي، الطّبقات، ج1ص126.

(ت 864 هـ/1459 م) تولّى بتونس قضاء المحلّة وبعده قضاء الأنكحة، فقضاء الجماعة، ثمّ اقتصر على الفتيا وإمامة الجامع وخطبته[1].

- **الإمامة والخطابة وخطّة الإفتاء والتّدريس**

كانت الوظائف الدّينيّة التي اضطلع بها الفقهاء من إمامة الصّلوات والخطابة و خطّة الإفتاء والتّدريس بالجوامع الكبرى، والمدارس السّلطانيّة، تضفي عليهم شعبيّة كبيرة، حيث باتوا أكثر احتكاكا بالمجتمع، بل تحوّل البعض مرهم إلى ملهبي مشاعر النّاس، ومحرّكي عواطفهم.

فمنصب الخطابة قد أهّل محمّد بن مرزوق إلى أن يشغل مناصب هامّة في بلاطات السّلاطين، و جاء في ترجمته أنّه خطب في ثمانية وأربعين منبرا من منابر الإسلام[2].

أمّا محمّد بن عبد الله التنسّي فقد أسند إليه مجلس الأشياخ بالمدرسة اليعقوبيّة [3]. كما حظي أبو الحسن علي بن موسى المطغري بمنصب الخطابة والفتيا [4]. و تقلّد عبد الكريم الفكّون الجد منصب القضاء و إمامةَ جامع قسنطينة الأعظم، وخطّة الإفتاء[5].

-**وظيفة القضاء**[6]:

يعتبر القضاء منصبا دينيا وإداريا وسياسيا في نفس الوقت [7]، و كان منصب القضاء بتونس الحفصيّة متطوّرا، إذ عرف هذا المنصب أنواعا متعدّدة من القضاة، وأهمّها قاضي الجماعة، وقاضي المحلّة، وقاضي الأنكحة.

---

[1] - أحمد بن أبي الضياف، إتحاف أهل الزّمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تونس:الدّار العربيّة للكتاب، 1999، مجلّد 4، ج7، ص65.

[2] -ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، ص65.

[3] -ابن صعد، روضة النّسرين، ص140.

[4] -المنجور، الفهرسة، ص41.

[5] - الفكون، منشور الهداية ، ص47-48.

[6] -قال عنها أحمد بن يحيى الونشريسي: ((هي الولاية الثّالثة من الولايات المتقدّمة ،ولا خفاء في جلالتها، وكونها أعظم قدرا وأعلاها ذكرا، وأجلّها خطرا، لا سيما إذا جمعت له الصّلاة...وأمّا حكمته فرفع التّهارج وردّ التّواثب وقمع المظالم، ونصر المظلوم، وقطع الخصومات والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر)). ينظر: كتاب الولايات ومناصب الحكومة الإسلاميّة والخطط الشرعيّة، نشر وتعليق محمّد الأمين بلغيث، مطبعة لافوميك ، الجزائر، (د.ت)، ص ص 38-40.

[7] -بريكة مسعود، النّخبة والسّلطة في بجاية الحفصيّة، رسالة ماجستير، قسنطينة: جامعة الأمير عبد القادر، 2008-2009، ص152.

1 - قاضي الجماعة:

يُعتبر منصب قاضي القُضاة منصبا رفيعا، فهو يوازي منصب قاضي القضاة في المشرق، و يرجع استعماله إلى عهد الأمويين في الأندلس [1]. ويذكر برنشفيك أنّ الفقهاء الذين عُرض عليهم رسميا منصب قاضي الجماعة لم يُذكر عنهم أنّهم رفضوا هذا الشّرف الكبير، بل بالعكس، فإنّ ذلك كان يُعتبر تتويجا لحياة إداريّة ناجحة [2]. وقد أصبح قاضي الجماعة في تونس منذ عهد السلطان أبي بكر الحفصي لا يتعرّض للعزل من قبل السّلطان، ولهذا لم يصدّق النّاس حادثة عزل قاضي الجماعة أحمد القلشاني من قبل عثمان الحفصي سنة (859 هـ/1455 م)[3].

و يؤكّد برنشفيك أهميّة منصب قاضي الجماعة حيث يذكر أنّه كان يمثّل أعلى سلطة دينيّة في كامل البلاد، والذي يمكن أن يكون لتدخّله في كثير من القضايا شأن عظيم، فقد كان يمسك بمقاليد مصلحة القضاء والشّعائر الدينيّة ، بالنّسبة إلى الدّولة بأكملها. كما كان يحتلّ مكانة مرموقة سواء كان مهابا أو محبوبا، وهي المكانة التي يمكن أن تكون سببا في ازدياد نفوذه، وكان بإمكانه تسليط العقوبة على الموظّفين المدنيّين، كما كانت النزاعات بين القايد والقاضي ترفع إلى قاضي الجماعة[4]. ومن فقهاء فقهاء المغرب الأوسط الذين تولّوا هذا المنصب بتونس الرصّاع (ت 864 هـ/1459م)[5]، وأحمد القسنطيني (ت 864 هـ)[6]. وممّن تولّى خطّة قضاء الجماعة بحاضرة فاس محمّد عبد الله الواحد بن أحمد أحمد الونشريسي[7]. وأمّا أبو عبد الله محمّد الكمّاد فقد نال هذا المنصب بقسنطينة مثله مثل عبد المومن المومن القسنطيني وعبد الكريم الفكّون الجد[8].

2 - قاضي الأنكحة:

1- برنشفيك، تاريخ إفريقيّة في العهد الحفصي، ج2ص114.

2- المرجع نفسه، ج2ص116

3- المرجع نفسه، ج2ص118.

4- المرجع نفسه، ج2ص ص133-134.

5- ابن أبي الضياف، إتحاف أهل الزّمان، ج7ص65.

6- أحد شيوخ أبي عبد الله الزّركشي، توفي سنة 864هـ. ينظر: الزّركشي، تاريخ الدّولتين، ص152.

7- النّاصري، الاستقصا، ج4ص163.

8- الفكون، منشور الهداية، ص44.

هو منصب مساعد لقاضي الجماعة ظهر حوالي سنة 660 هـ، وفي عهد السلطان أبي بكر الحفصي استطاع قاضي الأنكحة أن يفرض استقلاليّته مستغلا نفوذه في البلاط الحفصي [1]. وممّن شَغل هذا المنصب الرصّاع [2]، وأبو العبّاس أحمد القسنطيني.[3]

3 - قاضي المحلّة :

يكلّف قاضي المحلّة بإصدار الأحكام والإشراف على الشّعائر الدّينيّة، ضمن الجيش السّلطاني [4]، السّلطاني[4]، وقد تولاّه محمّد الرصّاع[5].

و بخلاف تونس لم تشهد تلمسان خلال القرن التّاسع هذا التنوّع في منصب القضاء، وممّن نال منصب القضاء بها؛ أبوالقاسم العقباني ت854 هـ[6] .

وفي العهد العثماني، نال وظيفة القضاء عدد لا بأس به من فقهاء المغرب الأوسط ، خصوصا أولئك الذين آزروا العثمانيّين، كأبناء أسرة الفكون، كما تدعّمت مؤسّسة القضاء في العهد العثماني، بالقاضي الحنفي[7]، والذي كان يوفد من طرف الباب العالي في أوائل العهد العثماني[8].

منصب القضاء في المدن و الأرياف الخاضعة لشيوخ القبائل:

تولّى فقهاء المغرب الأوسط منصب القضاء في الأقاليم التي باتت تحت سيطرة شيوخ القبائل، فعيّن هؤلاء الشّيوخ القضاة لتطبيق الأحكام [9]. و كان شيوخ القبائل والجبابرة في الغالب لا ينقادون لأحكام القاضي، وهو الوصف الذي نستشفّه من خلال نازلة سئل عنها أبو الفضل العُقباني، حيث ذكر السّائل حال بلاد المغرب الأوسط وكثرة فسادها، وعدم جريان الأحكام الشّرعية فيها، وأضاف

---

[1]-برنشفيك، المرجع السابق، ج2 ص ص119-120

[2]- ابن أبي الضياف، المصدر السابق، ج7ص65.

[3]-الزّركشي، تاريخ الدّولتين، ص136و ص152؛ محمّد بن محمّد مخلوف، شجرة النّور الزكيّة، ج1ص259.

[4]-برنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد، ج2ص124.

[5]- ابن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان، ج7ص65.

[6]-القلصادي، الرّحلة، ص106؛ الونشريسي، الوفيات" ضمن موسوعة أعلام المغرب"، ج1ص760.

[7]-مع استقرار العثمانيين بالمغرب الأوسط صار يأخذ الأوامر القضائيّة قاضيان :الأوّل قاضي المالكيّة ، وأصبح زمن الترّك يتولّى الخطّة تحت إمرتهم، والثّاني قاضي الحنفيّة . ينظر: بوشنافي محمّد، القضاء والقضاة في الجزائر خلال العهد العثماني(10-13هـ/16-19م)، جامعة وهران: قسم التّاريخ وعلوم الآثار، 2007-2008، ص105.

[8]-ابن المفتي، تقييدات ابن المفتي، ص81؛ بوشنافي محمّد، المرجع السّابق، ص105.

[9]-مختار حساني، تاريخ الدّولة الزيانيّة، ج1ص29.

السّائل :((أنّ القاضي إذا حكم في مسألة بالتّحريم قولا يعتدّ بحكمه ويمضي الحانث لصاحبه من الأمراء العرب، ويشتكي له، فيأخذه صاحبه المذكور، ويساعده على عدم الانقياد لحكم القاضي))[1].

وتُظهرُ هذه النّازلة مدى الاستخفاف بالقضاء، و هو ما توضّحهُ أيضا إحدى نوازل أبي القاسم البرزلي والتي تحكي تصرّف بعض القضاة الذين كانوا يقدّمون من يعرفون جرحته شرعا للشّهادة بين النّاس في الدّماء والفروج، ويعتذرون بالخوف من مولّيهم القضاء، مع أنّ السّبب الحقيقي وراء تقديمهم لأمثال هؤلاء هو الخوف من العزل عن هذا المنصب. وهو ما جعل أبا القاسم البرزلي يقول في معرض كلامه عن مثل هؤلاء القضاة : ((ولله درّ الشّيخ الصّالح أبي زكريا الصّعري – صالح بجاية – فقد روي عنه بسند صحيح أنّه كان يقول :اللهمّ العن الشّيعة وصغيري الشّريعة)).[2]

- المناصب السياسيّة والإداريّة

إتولّى فقهاء المغرب الأوسط إضافة إلى المناصب الدّينيّة بعض المناصب السياسيّة والإداريّة كمنصب السّفارة، والذي اضطلع به القاضي محمّد بن أحمد العقباني سنة 867هـ أثناء سفارته إلى تونس، حيث خرج حاملا هدية صاحب تلمسان إلى أبي عمرو عثمان [3]. كما اشتهر محمّد بن علي الخرّوبي (ت963هـ) بسفارته إلى فاس مرّتين؛ الأولى في أيّام السّلطان أبي عبد الله محمّد الشّريف سنة 959هـ في معرض الرّسالة عن السّلطان سليمان العثماني بشأن ترسيم الحدود [4]. و تولّى بعض فقهاء المغرب الأوسط منصب الكتابة وممّن تولّى هذا المنصب من الفقهاء؛ الفقيه محمّد البوني الذي تولّى كتابة العلامة بتونس[5]، والفقيه أبو القاسم محمّد بن عبد الرّحمن القسنطيني (ت 859هـ) الذي ورد في ترجمته أنّه كتب لصاحب المغرب [6]، وأيضا جاء في ترجمة أحمد بن عبد الرّحمن بن محمّد الخلوف (ت 899هـ بتونس)– أنّ المولى المسعود بن عثمان حفيد أبي فارس قام باستكتابه. ومن بين المناصب التي عُرضت

---

[1]–المازوني، الدّرر مكنونة، ج1ص392.

[2]–البرزلي، النّوازل، ج3ص47.

[3]–الزّركشي، تاريخ الدّولتين، ص155.

[4]–محمّد بن عسكر الشّفشاوني، دوحة النّاشر، تحقيق: محمّد حجي، الرّباط:مطبوعات دار المغرب للتّأليف والتّرجمة والنّشر، 1977م، ص ص124-125.

[5]–الزّركشي، المصدر السّابق، ص159.

[6]–السّخاوي، الضّوء، ج8ص36.

على بعض الفقهاء منصب مستشار السّلطان، حيث ذكر أحمد بن يحي الونشريسي أنّ المتوكّل الزياني قام بعرضه على أبي يحيى المازوني[1].

الفقهاء واعتزال الوظائف السّلطانيّة:

دفعت الأوضاع السياسيّة المتدهورة، وتفشّي الظّلم و المنكرات في مجتمع المغرب الأوسط، مع ما عرفته الحياة الفكريّة من غلبة المؤثّرات والتّعاليم الصّوفيّة الانعزاليّة، أضف إلى ذلك المحن التي خُتمت بها تجارب فقهاء القرن الثّامن الهجري، كالشّريف التّلمساني، ومحمّد بن مرزوق، وعبد الرّحمن بن خلدون، والمقرّي الجدّ، ومأساة ابن الخطيب[2]؛ إلى ظهور تيار انعزالي بين شريحة الفقهاء .

وقد استجاب إلى هذا التيار ودعا إليه عدد لا بأس به من فقهاء هذه الفترة، كأحمد زروق الذي كان يتحاشى السّلاطين[3]. وهو الذي قال: ((العلماء ورثة الأنبياء، وأمناء الرّسل ما لم يميلوا إلى الدنيا، أو يداخلوا السّلاطين، فإذا مالوا إلى الدّنيا، أو داخلوا السّلاطين، فاخشوهم في دينكم)).[4]
وممّن عرف باعتزاله للأمراء وعدم تولّي وظائفهم محمّد بن يوسف السنوسي، الذي دعا إلى اعتزال سائر المجتمع في مقدّمة عقيدته الوسطى حيث قال: ((وإنّما الذكي اليوم مبتلى في الغالب بحبّ الدّنيا والسّعي لها، وعدم الابتهال بالآخرة ، ومثل هذا ليس أهلا لأن يستفيد أو يفاد شيئا من نفائس الآخرة؛ لأنّه على تقدير أن يحصل له شيئ منها إنّما يتّخذه حبالة لحظوظه العاجلة، وسلّما لصُحبة الظّلمة، وأن يكون ردء ا لهم في كل فتنة نازلة)) .[5] كما صرّح السنوسي في موطن آخر بوجوب العزلة حيث قال بعد ذكره لتبرّم العلماء المتقدّمين من زمانهم :((فكيف لو رأوا زماننا هذا أواخر القرن التّاسع...والواجب فيه قطعا لمن أراد النّجاة بعد تحصيل ما يلزم من العلم أن يعتزل النّاس جملة، ويكون جليس بيته، ويبكي على نفسه ويدعو دعاء الغريق لعل الله سبحانه يخرق له العادة، ويحفظه بين هذه

---

[1] - المهدي البوعبدلي، الجوانب المجهولة من ترجمة حياة الإمام أحمد بن يحي الونشريسي، مجلّة الأصالة، وزارة الشّؤون الدّينيّ، عدد 13 ،1973، ص26.

[2] -ابن خلدون، التاريخ، ج7ص ص452-454؛ المقرّي، نفح الطّيب، ج5ص ص104-112.

[3] -أحمد زرّوق، الكنّاشة، ص78.

[4] - أحمد زرّوق، عدّة المريد الصّادق، ص ص274-275.

[5] -محمّد بن يوسف السنوسي، العقيدة الوسطى وشرحها، تحقيق السيّد يوسف أحمد، بيروت:دار الكتب العلميّة، (د.ت)،ص ص 17-18.

الفتن المتراكمة))[1]. وممّن أذعن لهذا التيار واتّخذ من العزلة سلوكا متّبعا، ابن زاغو حيث يقول:

أنست بوحدتي ولزمت بيتي .... فدام الأنس ونمى السّرور

وأدّبني الزّمان فما أبالي .... هجرت فلا أزار ولا أزور

ولست بسائل ما دمت حيا .... أسار الجند أم ركب الأمير[2]

وتكشف هذه الأبيات، لا سيما البيت الأخير أنّ ابن زاغوا كان لا يهتمّ بالأحداث السياسيّة، وأنّه كان يعتبرُ ذلك سبب أنسه، ودوام السّرور على قلبه، وهو ما يُنمي بفساد الواقع، ويُشعرُ بتردّي الأوضاع السياسيّة، وقناعة ابن زاغوا بعجزه عن التّغيير، ومُجابهة الواقع .

وهكذا جنح الكثير من الفقهاء إلى العزلة، ومجانبة السّلاطين، ومن هؤلاء نجد الفقيه أحمد بن يحي الونشريسي الذي استدلّ لهذا الرّأي بعبارة المقرّي الجدّ التي نعى فيها طريقة المتأخّرين في التّهافت على الوظائف السّلطانيّة[3]، و التي قال فيها :((واعلم أنّ شرّ العلماء علماء السّلاطين))[4]. وقد سار فقهاء آخرون على هذا المنوال، فهاهو أحمد بن يحيى الونشريسي يشيرُ إلى ظاهرة عزوف الفقهاء من تولّي منصب القضاء حيث قال:((وقد بالغ أكثر المؤلّفين من أصحابنا وغيرهم في التّرهيب والتّحذير من الدّخول في ولاية القضاء، وشدّدوا في كراهة السّعي فيها، ورغّبوا في الإعراض عنها، والنّفور والهرب منها، حتّى تقرّر في أذهان كثير من الفقهاء والصّلحاء أنّ من ولي القضاء فقد سهل عليه دينه ، وألقى بيده إلى التّهلكة))[5]. وبسبب إعراض الفقهاء عن منصب القضاء لجأ السّلاطين إلى

---

[1]- المصدر نفسه، ص19.

[2]-أحمد بابا التنبكتي، كفاية المحتاج، ص ص60-61.

[3]-الونشريسي، المعيار ، ج2ص481.

[4]-المصدر نفسه، ج2ص481.

[5]-الونشريسي، الولايات ومناصب الحكومة الإسلامية، ص40.

إكراههم عليه، فقد جاء في ترجمة الفقيه سليمان ين يوسف بن إبراهيم الحسناوي البجائي(ت877هـ) أنّه أُكْرِهَ على قضاء الجماعة[1].

ويمكن القول أنّ اعتزال الفقهاء للسّلاطين، وعدم تولّي الوظائف كان سلوكا متوارثا، فعبد الرّحمن الثّعالبي الذي وصف شيوخه ببجاية بأنّهم:((لا يعرفون الملوك ولا يتردّدون على أبواب قصورهم)) [2]. قد حذا حذوهم، فعندما عُرِض عليه منصب القضاء بادر إلى رفضه، ولم يقبله إلاّ مضطرا[3].

وقد يكون من الآثار السلبيّة التي خلّفها إعراض الفقهاء عن الوظائف السّلطانيّة، توليّة السّلاطين للجهّال، وأصحاب الكفاءات المحدودة، في ظلّ استمرار عزوف الفقهاء النّابهين عن تولّي هذه الوظائف، وممّن ترجم لهذه الظّاهرة صاحبُ المعيار المعرّب عند قوله:((ومن تصرّفاتهم أيضا-أي السّلاطين- تقديم الجهَّال على العلماء في تولية المناصب الشرعية من القضاء والفتوى والشهادة والتوثيق والخطابة والحسبة)) [4].

وفي العهد العثماني، رفض الشّيخ عمر الوزّان منصب القضاء، و أرسل رسالة إلى حسن أغا يشرح له فيها ما يكتنف هذه الوظيفة من المخاطر، بسبب وشاية النّاس بالقاضي إن عدل، خصوصا مع انقسام أهالي قسنطينة[5].

---

[1]-التنبكتي، النيل، ص ص185-186.

[2]-المهدي البوعبدلي ، الجوانب المجهولة من ترجمة حياة الإمام أحمد بن يحي الونشريسي، ص25.

[3]-المرجع نفسه، نفس الصّفحة.

[4]-الونشريسي، العيار، ج2ص492.

[5]-سعيدوني والمهدي بوعبدلي، الجزائر في التّاريخ -العهد العثماني- ،ص 109.

عبد الكريم المغيلي وأحمد بن يوسف الملياني وممارستهما للسّلطة السياسيّة

إنّ ممارسة السّلطة السياسيّة عند فقهاء المغرب الأوسط في القرنين التّاسع والعاشر الهجريين، لا يمكن مقارنتها بتجربة الفقهاء في فترات متقدّمة، لا سيما القرن الثّامن الهجري، والذي تمّ تناول بعض أعلامه كعبد الرّحمن بن خلدون، ومحمّد بن مرزوق، و محمّد المقرّي الجد .

-أسباب تقهقر الدّور السّلطوي لفقهاء القرنين(9-10هـ/15-16م):

يمكن عزو تقهقر الدّور السّلطوي لفقهاء ذلك إلى اضطراب الوضع السياسي خلال هذه الفترة، وغموض المشهد السياسي وضبابيّته، يُضاف إليه ضعف شخصيّة فقهاء هذه الفترة بسبب المؤثّرات التي تمّ التطرّق إليها في الفصل الأوّل.

كان بإمكان هؤلاء الفُقهاء أن يستغلّوا ضعف السّلاطين، وانهيار صرح دويلاتهم، والتي قضى على رمقها الأخير الهجوم الإسباني الكاسح. كما أنّ الظّروف كانت مواتيةً لتكرار تجربة عبد الله بن ياسين[1]، خصوصا مع تفشّي ظاهرة الرّباطات، وظهور عناصر متحمّسة للجهاد كالأندلسيين والعُثمانيين. ومع ذلك كان الدّور الذي لعبه الفقهاء في هذا الصّدد باهتا، لا يرقى إلى أن يقارن بأدوار من سبقهم. ولعلّ أحد أسباب هذا التّراجع في المستوى، والتّخلّف عن أداء الأدوار، هو ظهور الفكر الصّوفي الانعزالي في صورته الجبريّة المبالغة في الاستسلام للقدر [2]، وهو أحد مخلّفات العقيدة الأشعريّة [3].

---

[1]-ينظر حول تجربة عبد الله بن ياسين:البكري، المسالك والممالك، ص ص 164-168؛ حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين "صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى"، القاهرة:دار الفكر العربي، (د.ت)، ص ص 117-122.

[2]-نستشف ذلك من خلال بعض المؤلّفات التي صرّح مؤلّفوها بنفي تأثير الأسباب ك عقيدة محمّد بن يوسف السنوسي في الردّ على من أثبت تأثير الأسباب العاديّة ، ولا شكّ أنّ عقائد السنوسي كانت هي مرجع فقهاء تلك الفترة، كما ساهمت أبيات إبراهيم التّازي في قصيدته المراديّة التي اعتنى بشرحها وتدريسها الكثير ممّن جاء بعده كالصبّاغ في رسوخ هذا الفكر ، وقد قال فيها بعد أن ذكر مراده من المولى:

وإسقاط تدبيري وحولي وقوتي ...... وصدقي في الأحوال والفعل والقال

فقد جعل أعظم مطالبه من المولى أن تسقط إرادته، وتدبيره.ينظر: الوادي آشي، ثبت الوادي آشي، دار الغرب الإسلامي، تحقيق: عبد الله العمراني، منشورات الجمعيّة المغربيّة للتّأليف والتّرجمة والنّشر، 1983م، ص327؛ تاريخ الجزائر الثقافي، ج2ص115.

[3]-ابن تيميّة، مجموع الفتاوى، ، ج8 ص ص80-81؛ علي عبد الفتّاح المغربي، الفرق الكلاميّة الإسلامية، ص308.

يضاف إلى ذلك خوف فقهاء المغرب الأوسط من تكرار تجربة من سبقهم من الفقهاء، لا سيما فقهاء القرن الثّامن الهجري.

ومع ذلك نجد أنّ بعض الفُقهاء قد عاكسوا التيار، وحاولوا فرض أنفسهم، وقد اقتصرنا على اثنين من هؤلاء الفُقهاء؛ وهما محمّد بن عبد الكريم المغيلي، وأحمد بن يوسف الملياني، إذ أنّهما قد مارسا السّلطة وثارا على الواقع. فالأوّل هو فقيه بالدّرجة الأولى، قد أثبت كفاءته العلميّة. أمّا الثّاني فهو صوفيٌّ بامتياز، له مشاركة في الفقه، وقد قيل أنّه جمع بين الشّريعة والحقيقة. وإذا كان اسم عبد الكريم المغيلي قد ارتبط مع يهود توات، فإنّ الملياني قد ارتبط اسمه مع العثمانيّين. ولا بأس بذكر أهم معالم التجربة السياسية لهاذين الفقيهين.

محمّد بن عبد الكريم المغيلي ت909 هـ

يعتبر محمّد بن عبد الكريم المغيلي، أحد فقهاء القرن التّاسع البارزين، نشأ بتلمسان، وبرع في تحصيل العلوم، فأخذ عن محمّد بن أحمد الجلاّب بتلمسان، ثمّ رحل إلى بجاية، و اتّصل بالشّيخ عبد الرّحمن الثّعالبي، فأخذ عنه التصوّف والقراءات والتّفسير، وأخيرا انتقل إلى توات واستقرّ بها[1]، فلزم الشّيخ يحيى بن يدّير، حتّى تمكّن من الفقه المالكي، وعلوم اللّغة، وعلوم الحديث، وهكذا ساهمت رحلاته العلميّة المتكرّرة، في اتّساع مداركه العلميّة، ومشاربه الفكريّة [2]. ويرى ناصر الدّين سعيدوني أنّ خروجه من تلمسان له علاقة مباشرة بمحنة الإمام أحمد بن يحيى الونشريسي الذي اتّهمه المتوكّل بالتّآمر عليه 874هـ/1469م، وهو الحادث الذي كان ذا تأثير عميق في شخصيّته[3].

هكذا تكوّنت شخصيّة محمّد بن عبد الكريم المغيلي، والذي تصفه معظم كتب التّراجم إضافة إلى العلم والصّلاح والدّيانة بالشّجاعة والإقدام، فالتّنبكتي يقول عنه: ((وكان رحمه الله مقداما على الأمور، جسورا، جريء القلب، فصيح اللّسان، محبّا في السنّة، جدليّا نظّارا محقّقا)) [4].أمّا ابن مريم في **البستان** فيذكر أنّه :((كان لا يخاف في الله لومة لائم)). [5] إضافة إلى ذلك كان المغيلي، يسعى إلى إصلاح المنظومة الصوفيّة في عصره، وقد ألّف كتابه « **تنبيه الغافلين عن مكر الملبّسين بدعوى مقامات العارفين**» ، وهو الكتاب الذي لا يزال مفقودا، ويظهر من عنوانه أنّه أُلّف للردّ على أدعياء الولاية، والذين اتّخذوها سلّما للوصول إلى الجاه والثّراء[6].

ثورته الأولى على يهود توات:

استقرّ عبد الكريم المغيلي ببلاد توات، والتي كانت أوضاعها تشهد تدهورا كبيرا بسبب عيث العرب في وديان السّاحل الشّمالي، وازدياد نفوذ اليهود الذين أحدثوا بها البيع، وعظُم أمرهم، بسبب

---

[1]-الحفناوي، تعريف الخلف، ج1ص ص657-661.

[2]-أحمد الحمدي، الفقيه المصلح محمّد بن عبد الكريم المغيلي، ص ص18-40؛ حاج أحمد نور الدّين، المنهج الدّعوي للإمام المغيلي ، ص ص 26 -28.

[3]-ناصر الدّين سعيدوني، من التّراث التّاريخي والجغرافي للمغرب الإسلامي –تراجم مؤرّخين ورحّالة وجغرافيّين–، ط 1، بيروت:دار الغرب الإسلامي ، 1999م، ص ص266-267.

[4]-التنبكتي، النيل، ص577.

[5]-ابن مريم، البستان،397.

[6]-السّملالي، الإعلام، ج5ص108.

مساندة شيوخ القبائل، ف لم يلتزموا بما يوجبه عقد الذمّة، وامتلكوا الرّقيق، وشاركوا في تأجيج الصّراعات بين القبائل، ولم تكن لهم علامة تميّزهم عن باقي المسلمين [1]، ممّا جعل الفقيه محمّد بن عبد الكريم المغيلي يعلن الثّورة عليهم، ويُفتي بوجوب هدم كنائسهم، و خالفه الفقيه عبد الله العصنوني، الذي رأى عدم جواز هدم كنائسهم، وهكذا انقسم فقهاء المغرب الإسلامي إلى فريقين؛ فريق يؤيّد المغيلي وآخر يقف في صفّ عبد الله العصنوني، إلّا أنّ محمّد بن عبد الكريم المغيلي قد حظي بأكبر عدد من المؤيّدين، ومن بين المؤيّدين للمغيلي الشّيخ إبراهيم الفجيجي [2]، والفقيه التنسي[3]، و محمّد الرصّاع[4]، ومحمّد بن يوسف السنوسي[5].

أمّا التيار المخالف للمغيلي فيمثّله الشّيخ ابن زكري[6]، والشّيخ أبو زكرياء بن أبي البركات .[7] وحتّى يشرح المغيلي موقفه، ويضفي على جهاده ضدّ اليهود صبغة شرعيّة، توجّه إلى فاس عند السّلطان السّعدي محمّد الشّيخ الوطّاسي، لكنّه لم يستطع كسب تأييده، و لا تأييد حاشية السّلطان من الفقهاء.

وفي عام (882هـ/1477م) أعلن المغيلي ثورته الأولى ضدّ يهود توات، مستغلا حادثة اليهودي المهاجري الذي ادّعى الإسلام، وجعل يستهين بشعائر الله، فاكتشف المغيلي أمره، وقضى عليه، ليحرّك جموع سكّان توات، ويشرع في هدم بِيع اليهود، ملزما لهم الذلّة والصّغار. و أجلاهم عن بلاد توات، وقضى على نفوذ القبائل المتواطئة معهم، وأصبح هو مدبّر شؤون بلاد توات، وأسند إلى ابنه عبد الجبّار مهمّة تأمين البلاد، غير أنّ إجلاء اليهود قد أدّى إلى ضرب الحركة التّجاريّة بتوات، لتعيش البلاد مرحلة ركود اقتصادي[8].

---

[1] - الونشريسي، المعيار، ج2ص ص235-249.
[2] - المصدر نفسه، ج2ص243.
[3] -المصدرنفسه، ج2ص216.
[4] -المصدر نفسه، ج2 ص ص229-231؛ سناء عطابي واقع اليهود في المغرب الأوسط، المرجع السّابق، ص ص171-199.
[5] -المصدر نفسه، ج2ص252.
[6] -المصدر نفسه، ج2ص219.
[7] - المصدرنفسه، ج2ص231.
[8] -أحمد الحمدي، الفقيه المصلح، ص ص112-132.

جولة المغيلي في بلاد السّودان الغربي:

دخل المغيلي بلاد أهر ودخل بلاد تكدة واجتمع بصاحبها، وكان ينصح ولاة الأمور، ويأمرهم بالعدل، كما كان ملوك إفريقيا يستفتونه، ويحترمونه، وقد استغلّ المغيلي تواجده بالسّودان الغربي حيث أقرأ أهل تكدة، وانتفعوا به ثمّ دخل بلاد كنو وكشن من بلاد السّودان واجتمع بصاحب كنو واستفاد عليه، وكتب رسالة في أمور السّلطنة يحضّه على اتّباع الشّرع، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقرّر لهم أحكام الشّرع وقواعده، ثمّ رحل لبلاد التّكرور؛ فوصل إلى بلدة كاغو، واجتمع بسلطانها ساسكي محمّد الحاج[1]، وجرى على طريقته من الأمر بالمعروف[2]، وألّف له تأليفا أجابه فيه عن مسائله[3].

رجوعه إلى بلاد توات :

عندما كان المغيلي بكاغو بلغه نبأ مقتل ابنه عبد الجبّارعلى أيدي اليهود، والذين عادوا إلى توات، ولقوا مساندة شيوخ القبائل. انزعج المغيلي من هذا الخبر، وطلب من السّلطان القبض على أهل توات الذين بكاغو، فقبض عليهم، وأنكر عليه الشّيخ أبو المحاسن محمود بن عمر إذ أنّهم لم يفعلوا شيئا، فرجع عن ذلك، وأمر بإطلاقهم، ثمّ رحل إلى بلاد توات[4].

ثورة المغيلي الثّانية على يهود توات:

أعلن المغيلي الثّورة على اليهود من جديد، لكنّ بلاد توات كانت قد شهدت الكثير من المتغيّرات، والتي أضحت في غير صالح المغيلي، فاليهود عادوا إلى توات، وأتباع المغيلي قد ضعفت عزيمتهم، وتراخت هممهم، بعد أن تعطّلت التّجارة ببلادهم، كما أنّ الأُمراء المعادين للمغيلي قد نالوا تأييد الوطّاسيين، وبهذا انتهت الثّورة الثّانية دون ما كان يطمح إليه المغيلي، فلم يكن منه إلاّ إنهاء الصّراع[5].

---

[1] -الأسقيا محمّد الأوّل، سراكولي الأصل، سكنت عائلته حول النّيجر الأوسط وامتزجت في قبيلة صنغاي، وأصبح الأسقيا محمّد أحد الضبّاط البارزين في جيش الأمير سني علي ، إلى أن استولى الأسقيا محمّد على العرش سنة 1493م لتبدأ مرحلة الأسقيين، وقد حاول إضفاء الشرعيّة على سلطانه بكسب تأييد الفقهاء، إلى أن خلع من الحكم سنة 1528 م. ينظر :عبد القادر زباديّة، الحضارة العربيّة والتّأثير الأوربي في إفريقيا الغربيّة جنوب الصّحراء، دراسات ونصوص، الجزائر:المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، 1989م، ص ص154 -159.

[2] -عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص308.

[3] -عبد القادر زباديّة، المرجع السّابق ، ص ص160-191.

[4] -التنبكتي، النيل، ص577.

[5] -الحاج أحمد نور، المنهج الدعوي عند محمد بن عبد الكريم المغيلي ، ص ص59-60.

وبعد مقتل ولد المغيلي، وعودة اليهود إلى توات وانقلاب أهلها عليه، نزع الشّيخ إلى حياة العزلة بزاويته في وادي البرامكة، والتي توفي بها سنة (909 هـ/1497 م)[1].

تراث المغيلي في مجال السياسة[2]:

خلّف لنا عبد الكريم المغيلي كتاب **تاج الدّين فيما يجب على الملوك والسّلاطين** ، وهي رسالة كتبها إلى سلطان كنو، يحضّه فيها على العدل واجتناب الظّلم، ويصوّر له خطورة الإمارة بقوله :((إن عدل الأمير ذبحته التّقوى، بقطع أوداج الهوى، وإن جار ذبحه الهوى بقطع أوداج التّقوى)) [3]، وقد كتبها بأسلوب وعظي. وختم كلّ فصل بعبارة :((**وأصل كلّ بليّة احتجاب السّلطان عن الرعيّة**)).[4] وأمّا **أسئلة الأسقيا محمّد، وأجوبة المغيلي عليها** ، فهي تكشف أحوال دولة سنغاي خلال النّصف الثّاني من القرن التّاسع ، وأهمّ الأمور التي كانت تشغل بال الأسقيا، ويلاحظ من خلال أجوبة المغيلي مدى اطّلاعه على أوضاع السّودان الغربي، كما يظهر أنّه كان متحفّظا في أجوبته، خشية أن يتّخذها الأسقيا وسيلة لتحقيق أهدافه ومآربه التوسعيّة [5]. ويمكن اعتبار كتاب تاج الدّين، وأجوبة المغيلي على أسئلة الأسقيا من الكتب النّفيسة في مجال السياسة الشرعيّة، حيث أنّها تعكس نظرة فقيه، قد صقل معارفه بتجربة سياسيّة طويلة[6].

---

[1]-أحمد الحمدي، الفقيه المصلح، ص136.

[2]- حاج أحمد نور الدّين، المنهج الدّعوي عند محمّد بن عبد الكريم المغيلي ، ص ص62-122.

[3]-محمّد بن عبد الكريم المغيلي، تاج الدّين فيما يجب على الملوك والسّلاطين، تحقيق محمّد خير رمضان يوسف، ط 1، بيروت:دار ابن حزم،1994 م، ص16.

[4]-تردّد المحقّق محمّد خير رمضان يوسف بين كون هذه العبارة من زيادات النّاشر أو أنّها ممّا خطّته يد المؤلّف، محمّد بن عبد الكريم المغيلي ،تاج الدّين، ص ص16- 18.

[5]-عبد القادر زبادية، الحضارة العربيّة والتّأثير الأوربي، ص ص59-191.

[6]-ياسين شبايبي، الفكر السياسي عند الشّيخ المغيلي ودعوته الإصلاحيّة بتوات والسّودان الغربي(870-909هـ/1465-1503م)، رسالة ماجستير، جامعة وهران: كليّة العلوم الإنسانيّة والحضارة الإسلاميّة، 2007، ص ص41-87.

أحمد بن يوسف الملياني (ت927 هـ.)[1]

هو أحمد بن يوسف الرّاشدي نسبا ودارا، دفين مليانة، أخذ عن أحمد بن زرّوق وأعلام تلمسان[2]، ثمّ أقام زاوية برأس الماء في قلعة بني راشد، وقد أخذ عنه الكثير من الفقهاء تعاليم طريقته، والتي هي امتداد للطّريقة الشّاذليّة [3]، وممّن أخذ عنه أحمد بن موسى الجزولي؛ الرّجل الصّالح المشهور بالسّوس الأقصى. وقد قصد زاويته الزوّار من كلّ حدب وصوب، كما تاب على يديه خلق كثير [4]. وهكذا ذاع صيته، حتّى بلغت شهرته بلاد المغرب الأقصى، و نسبت إليه فرقة اليوسفيّة[5].

ولما كثر أتباعه، وعظمت غاشيته، أصبح لزاويته اليد الطّولى على قادة الدّولة وقضاتها بإقليم بني راشد، فلا يردّ له القائد طلبا، ولا يخالف له القائد أمرا، كما أضحت زاويته حرما آمنا لا تصله أيدي اللّصوص، ولا يُتعقّب بها من لجأ إليها فارا من الجناة والمظلومين [6]. و قام الشّيخ بمحاربة المنكرات بقلعة بقلعة بني راشد، لا سيما مظاهر الظّلم المسلّطة على رقاب السكّان، ويأتي على رأسها المغارم

---

[1]- من بين المؤلّفات التي خصّت أحمد بن يوسف الملياني بالترجمة: كتاب بستان الأزهار للصبّاغ، وربح التّجارة ومغنم السّعادة فيما يتعلّق بأحكام الزّيارة إلى ضريح الولي الصّالح سيدي أحمد بن يوسف دخيل مليانة، توجد نسخة منه بالخزانة الوطنيّة بالجزائر، تحت رقم 928، وكتاب مناقب سيدي أحمد بن يوسف الرّاشدي الملياني، لمؤلّف مجهول، توجد نسخة منه بالخزانة العامّة بالرّباط، رقم 1427، وكتاب مليانة ووليّها سيدي أحمد بن يوسف، لمحمّد حاج صادق.

[2]-محمّد بن جعفر الكتاني، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصّلحاء بفاس، تحقيق محمّد حمزة الكتاني، الموسوعة الكتانيّة لتاريخ فاس، ج 2ص13؛ أحمد ابن القاضي، لقط الفرائد، ج 2ص842، عبد الرّحمن الجيلالي، تاريخ المدن الثّلاث، ص ص302-305.

[3]-الطّريقة الشّاذليّة تتطلّب من أتباعها السياحة عملا بحديث "سيحو تصحّو"، وبالقول المأثور" لا خير في رجل لم يجل"، وقد ساح أحمد بن يوسف الملياني أكثر من خمسة عشر سنة. ينظر:محمّد حاج صادق، مليانة ووليّها سيدي أحمد بن يوسف، ص 85؛ الطّاهر بونابي، طريقة أحمد بن يوسف الملياني الرّاشدي بين ثنائيّة التصوّف العرفاني السنّي والطّريقة الصوفيّة الإصلاحيّة ق 9-10هـ/15-16م، المواقف، مجلّة الدّراسات والبحوث في المجتمع والتّاريخ، العدد 6، جامعة معسكر، 06 ديسمبر 2011، ص ص391-400 .

[4]-الصبّاغ، بستان الأزهار، ورقة5 ، 6.

[5]- اليوسفيّة أو الشراقة فرقة ظهرت بالمغرب الأقصى، قالت بنبوّة أحمد بن يوسف الملياني، وتزعّمها رجل يقال له أحمد بن عبد الله المنزولي، فاتّبعه كثير من الغوغاء، وأجلاف العرب وأهل الأهواء من الحواضر، وقد أشار الفقهاء على السّلطان الغالب باللّه السّعدي بحسم مادّة فساد هذه الطّائفة، فسجن جماعة منهم، وقتل آخرين . ينظر: ابن القاضي، درّة الحجال، ج 1ص165؛ ابن عسكر، دوحة النّاشر، ص ص124-125؛ الاستقصا ، ج5ص50.

[6]-مختار حساني ، تاريخ الدّولة الزيانية، ج1،ص ص33-34.

السّلطانيّة، والمكوس، إلى غير ذلك من التصرفات التي جعلت أحد مريدي الشّيخ وفي حضور قائد وهران يقول عن سلطة بني زيان أنّها سلطة يهود [1].

لم تعجب تصرّفات الملياني، سلاطين بني زيان، ولا قادة مدينة وهران، وبذلك تعرّض الشّيخ في حياته لكثير من المضايقات. ومع ذلك فقد كان السّلطان الزياني وعمّاله يخشون من أحمد بن يوسف الملياني، حيث كتب قائد وهران للأمير أبي عبد الله الزياني: ((آه رجل بأرض هوارة يخشى منه الملك)). وعلى إثر هذا الخطاب كتب الأمير إلى القائد :((ابعثه إليّ أو اقتله)).[2]

تعرّض الملياني للسّجن أيّام أبي عبد الله الثّابتي [3]، ثمّ سجن ثانيا في عهد السّلطان أبي حمو، والذي أراد أن ينزل به أشدّ العقوبة، إلى أن دخل المسعود حاركا على أخيه، وهرب أبو حمو إلى وهران، فخرج الشّيخ من السّجن[4]. وقد أورد الصبّاغ نصا يصوّر مدى النّفرة التي كانت بين الملياني وسلطة بني زيان فيقول: ((أنّ الشّيخ ذهب لوهران مع الفقراء، فقدِم قائدها يسلّم على الشّيخ، فقال سعيد أغراب وهو أحد مريدي الشّيخ:« هذه السّلطنة ليست بسلطنة أو نحو هذا الكلام »)). غضب قائد وهران من هذه الكلمة، فكتب للأمير أبي عبد الله الزياني في تلمسان يحرّضه على الملياني، وبذلك صدر الأمر إلى قايد بني راشد وهو أحمد بن أبي غانم بأن ينزل بالشّيخ أشدّ العقوبة، غير أنّ ابن أبي غانم أطلع الشّيخ على أمر أبي عبد الله الزياني، وقال له :((ارتحل من وطنهم)). لقد كان وقع هذا الخبر صادما لنفسيّة الملياني، ويتجلّى ذلك من خلال دعائه على وهران حيث قال في دعائه عليها :((شوّشونا شوشهم الله من البرّ والبحر))[5].

علاقة أحمد بن يوسف الملياني بالعثمانيّين:

لما دخل العثمانيون أرض المغرب الأوسط، كان الملياني ومريدوه يقفون معهم موقف المساند [6]، المساند[6]، ويذكر الصبّاغ نصا يبيّن بدايات العلاقة بين العثمانيين وزاوية الملياني، والتي شهدت ميلادها ميلادها منذ أيّام الشّيخ أحمد بن يوسف الملياني نفسِه؛ يقول الصبّاغ:((أنّ الشّيخ كان بكرشتل قبل

[1]-الصبّاغ، بستان الأزهار، ورقة20 ؛ مختار حساني ، تاريخ الدّولة الزياني، ص ص33-34.

[2]-المزاري، طلوع سعد السعود ،ج1ص74.

[3]-محمّد حاج صادق، مليانة ووليّها سيدي أحمد بن يوسف، ص102.

[4]-الصبّاغ، بستان الأزهار، ورقة 11.

[5]- المصدر نفسه، ورقة 20؛ ابن زرفة، الرّحلة القمريّة، ص ص235-236.

[6]-أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافي، ج1ص461.

أخذ النّصارى وهران أعادها للمسلمين، وأنّ عرّاجا [1] التّركي قدم في سفينة في البحر ورسا بالقرب من كرشتل، وكان مع عرّاج رجل مرّاكشي قد حبسه معه في البحر لشجاعته، فقال المرّاكشي لعراج :"سر بنا لهذا الشّيخ نتبرّك به لأنّ له بركة عظيمة". فقال عرّاج :"إن أخرج على ما في ضميري فأنا أتبرّك به" .فذهب عرّاج وأصحابه فسلّموا على الشّيخ، ففرح بهم وقال لعرّاج قبل أن يتكلّم :"أنت عزمت على الغدر بأصحابك". فعقد عرّاج يديه وقبّل رجلي الشّيخ...وطلب عرّاج الدّعاء من الشّيخ فدعا له))[2].

كانت زاوية الملياني تحظى باحترام كبير من قبل العثمانيين، فقد قال بعض أصحاب الملياني لشيخهم حين قدم عروج والإسكندر [3] لوطن هوارة: ((إنّا نخاف)) فقال:((لا تخافوهم، فإنّ التّرك إذا رأونا يذوبون كما يذوب الملح في الماء))[4].

وهكذا توطّدت علاقة زاوية الملياني بالعثمانيين، ويتجلّى ذلك في مساهمة أتباعه في الجهاد معهم، حيث استشهد الكثير منهم في إحدى الملاحم التي وقعت في قلعة بني راشد، بين الأتراك والنّصارى وقت حلول إسحاق الكورسيكي بالقلعة المذكورة، وممّن استشهد يومها والد الصبّاغ صاحب "**بستان الأزهار"**، وبعد استشهاد عرّوج ، بادر خير الدّين بإرسال هديّة إلى أحمد بن يوسف الملياني، والذي كان يراسل خير الدّين ويدعو له ، و جاء في أحد رسائله إلى خير الدّين: (إنّ حكمك لا يجري علينا، ولا على نسلنا، ولا على من تعلّق بنا، ولا على نسلهم، فإن رهبتم أحسنتم، وإن خالفتم عوقبتم)[5].

لم يتنكّر العثمانيّون لحليفهم فقاموا ببناء ضريح له، وجعلوا أبناءه يتوارثون منصب إمارة ركب الحاج، ومنحوا أحد تلامذته منصب نقيب أشراف الجزائر[6] .

---

[1] - يقصد به عرّوج.

[2] -الصبّاغ ، بستان الأزهار، ورقة 19.

Jacques Berque ، L'Intérieur Du Maghreb–XV-XIX siécle، paris: Gallimard ، 1978، P75.

[3] -الإسكندر هو أحد خواصّ إسحاق بن يعقوب أخو عرّوج وخير الدّين، خلف الإسكندر إسحاق بعد استشهاده في قلعة بني راشد ليلقى نفس مصير اسحاق. مجهول، غزوات عرّوج وخير الدّين، المكتبة الوطنيّة، رقم2603، ورقة109ظ.

[4] - الصبّاغ، المصدر السّابق، ورقة36.

[5] -محمّد حاج صادق، مليانة ووليّها سيدي أحمد بن يوسف، ص105.

[6] -المهدي بوعبدلي، أضواء على تاريخ الجزائر في العهد التّركي من خلال مخطوط الثّغر الجماني في ابتسام الثّغر الوهراني، الأصالة، عدد 8، سنة 2، ماي-جوان، 1972، ص ص273-293، ص278.

سلّط الباحث الضّوء على ظاهرة ممارسة فقهاء المغرب الأوسط للسّلطة، فتمّ التطرّق لأهمّ مقوّمات سلطة الفقهاء في القرن التّاسع والعاشر، والتي يمكن إجمالها في مكانة الفقهاء الدينيّة والاجتماعية، وضعف سلاطين المغرب الأوسط، وبروز الفراغات السياسيّة، يضاف إليها سلطة الرّباط والشّفاعة. أمّا عن مظاهر سلطة الفقهاء في هذه الحقبة، فيمكن تلخيصها، في ممارسة السّلطة عن طريق الأسر العلميّة؛ كأسرة العقباني بتلمسان، وأسرة الفكون وآل عبد المومن وآل باديس بقسنطينة، ومن المظاهر أيضا ممارسة السّلطة من خلال تولّي الوظائف السّلطانيّة، والتي من الفقهاء من اعتزلها، ودعا إلى اعتزالها. وقد أبرز الباحث الخلفيّة التّاريخيّة لظاهرة ممارسة الفقيه للسّلطة، حيث قام بتتبّع امتدادها التاريخي، وأشار إلى بعض الفقهاء الذين مارسوا السّلطة في القرن الثّامن كابن مرزوق الخطيب، وسعادة السنّي، والمقرّي الجدّ، وعبد الرّحمن بن خلدون.

وفي الأخير وبالرّغم من تقلّص دور الفقهاء السياسي في الفترة المدروسة، فقد كشف الباحث في خضم التّرجمة لمحمّد بن عبد الكريم المغيلي، وأحمد بن يوسف الملياني عن الدّور السّلطوي الذي مارسه هاذين الفقيهين.

الفصل الثّالث

موقف الفقهاء من أهمّ النّوازل السياسيّة (ق9هـ/15م)

شهد المغرب الأوسط في القرن التّاسع الهجري (الخامس عشر ميلادي) العديد من القضايا والنّوازل السياسيّة، والتي ألقت بظلالها على سائر نواحي الحياة، كما اكتوت بحرّها فئات المجتمع المختلفة.

ويُعتبر رجال الدّين، وبالأخصّ الفقهاء من أهمّ شرائح مجتمع المغرب الأوسط، والذين من المفترض أن يكون لهم موقف من الأحداث السياسيّة، وأدوار بارزة في مجابهة الواقع.

يحاول الباحث في هذا الفصل أن يسبُر من خلال أهمّ المصادر التاريخيّة الأصيلة منها والدّفينة على حدّ سواء؛ أهمّ الأحداث السياسيّة لهذه الفترة، و يُبرز مواقف الفقهاء منها، وأهمّ الأدوار التي اضطلعوا بها.

إذا كان من الصّعب الحديث عن الحياة السياسيّة في قرن بِرُمّته، فإنّ ذلك لا يمنع من التطرّق إلى أهمّ الحوادث السياسيّة فيه، وقد حاول الباحث تناول القرن التّاسع الهجري، حيث أجمل أهمّ الأحداث والظّواهر السياسيّة فيما يلي:

1 - ضعف السّلطة المركزيّة :

عرف المغرب الأوسط في ظلّ الدّولتين الزيانيّة والحفصيّة خلال القرن التّاسع الهجري(الخامس عشر ميلادي) الكثير من الصّراعات الداخليّة والخارجيّة، ممّا أدّى إلى ضعف هاتين الدّولتين.

أ - ضعف الدّولة الزيانيّة633هـ:

كانت الدّولة الزيانيّة منذ قيامها سنة 633هـ/1236م تفتقر إلى دعائم الاستقرار، حيث بلغت حروب مؤسّسها يغمراسن بن زيان [1] مع العرب حوالي 72 موقعة[2]. كما شهدت تلمسان حصار يوسف بن يعقوب المريني سنة 698هـ أيّام عثمان بن يغمراسن الزياني، وقد ضاقت أحوال أهالي تلمسان، حتّى أكلوا الجيف [3]، وهلك عثمان بن يغمراسن أثناء الحصار، وبويع ابنه أبو زيان سنة 703هـ[4] ، وفور انتهاء الحصار سنة 706هـ[5]، حاول أبو زيان سنة 707هـ-1307م استرجاع سلطان الدّولة، وهيبتها من وادي ملوية إلى ضواحي الجزائر، ثمّ توفي في نفس السّنة، و خلفه أخوه أبو

[1]-هو يغمراسن بن زيان بن ثابت بن محمّد العبد الوادي، أوّل من استقلّ بتلمسان من سلاطين بني عبد الواد، بويع سنة 633هـ، وتوفي في طريقه إلى تلمسان عائدا من تونس سنة 681هـ. ينظر: يحيى بن خلدون، بغية الروّاد، ج 1ص204؛ عبد الرّحمن بن خلدون، التّاريخ، ج7ص ص105-122؛ الزّركلي، الأعلام، ج8ص ص206-207 .

[2]-التنسي، نظم الدرّ والعقيان، ص128؛ الميلي، تاريخ الجزائر، ج2ص454.

[3]-ابن خلدون، التّاريخ، ج7ص ص126-127.

[4]-المصدر نفسه، ج7ص127؛ التنسي، المصدر السّابق، ص131.

[5]-روى التنسّي قصّة رفع الحصار عن تلمسان فقال: ((كان يوسف بن يعقوب قتل الفقيه العالم أبا عليّ الملياني، واستصفى أمواله، ومن جملة ما أخذ له خصيّ اسمه سعادا، كان ربّاه أبو عليّ الملياني يقول له: أنت أخي فلمّا أخذه يوسف بن يعقوب، صيّره من جملة الخصيان المتصرّفين بين يديه، فلمّا كان يوم الأربعاء السّابع من ذي قعدة من عام ستّة بعد سبعمائة، دخل الخصيّ المذكور على يوسف بن يعقوب وهو نائم، فألقى الله في قلبه طلب ثأر مولاه، فوجأه بسكّين في بطنه، فكان ذلك له الحتف، ولأهل تلمسان اللّطف، فلمّا وصل الهزميري فاسا، ونزل بجامع الصّابرين بلغهم الخبر، فدخل عليه خديمه وقال له: السّلطان أبو يعقوب مات، وفرّج الله على أهل تلمسان، فبسم الله نرجع إلى بلادنا)).ينظر: التنسي، المصدر نفسه، ص133-134.

حمو موسى الأوّل[1] سنة 707 هـ، فاستطاع خلال عشر سنين أن يوسّع نفوذه، لكنّ ابنه أبا تاشفين ثار عليه وطرده سنة 718هـ[2].

وفي القرن التاسع الهجري تفاقم ضعف الدّولة الزيانيّة. فشهدت تلمسان تدهورا كبيرا في الأوضاع السياسيّة، وذلك بسبب الصّراعات الدّاخليّة بين أبناء الأسرة الحاكمة، والتي ساهم الحفصيّون والمرينيّون في تأجيجها، لأنّ تدخّل هاتين الأخيرتين في شؤون الدّولة الزيانيّة، جعلها تخضع لأهوائهم في اختيار السّلاطين، فلم تضبط قضيّة ولاية العهد، وبذلك تزايد عدد الطّامحين إلى الاستيلاء على السّلطة، مُستعملين أساليب الوشاية، واستجلاب المرينيّين والحفصيّين، وشيوخ القبائل[3].

- **التدخّل المريني في الدّولة الزيانيّة:**

تعرّضت الدّولة الزيانيّة لغزو المرينيّين أيّام أبي الحسن المريني سنة 737هـ، وابنه أبي عنان سنة 753هـ[4]. ثمّ استطاع السّلطان الزياني أبو حمو موسى الثّاني[5] أن يسترجع سيادته على الدّولة فأحيى رسمها، و أرسل جيشا لاسترجاع وهران سنة 766هـ، لكنّه فشل[6]؛ ثمّ عاد المرينيون وتدخّلوا في شؤون الدّولة الزيانيّة، واستمرّ ذلك إلى سنة 801 هـ، حيث نصّب السّلطان عبد العزيز المريني على تلمسان أبا محمّد عبد الله بن أبي حمو الثاني، إلى أن قامت الدّولة المرينيّة بعزله سنة 804هـ بعدما رأت منه إتّباع سياسة حازمة[7]، و نصّبت محمّد بن خولة على عرش تلمسان، فكان عهده عهد استقرار، واستمرّ من

---

[1]-هو أبو حمّو موسى الأوّل بويع سنة 707هـ، وقد قال عبد الرّحمن بن خلدون أنّه : ((كان صارما يقظا حازما داهية، قوي الشّكيمة صعب العريكة، شرس الأخلاق مفرط الدّهاء، وهو أوّل ملوك زناتة، رتّب مراسم الملك وهذّب قواعده)). ثار عليه ابنه أبو تاشفين، فتوفي مقتولا سنة718هـ.ينظر: ابن خلدون، التّاريخ، ج7 ص ص131-142.

[2]-المصدر نفسه، ج7ص ص139-142؛ التنسي، نظم الدرّ والعقيان، ص139.

[3]-النّاصري، الاستقصا، ج4ص161-163؛ مختار حساني، الدّولة الزيانيّة، ص ص19-21.

[4]- عبد الرّحمن بن خلدون، التّاريخ، ج7ص ص148-161؛ التنسي، ص146، 154؛ رشيد بورويبة وآخرون، الجزائر في التّاريخ، ص ص 384-389.

[5]-أبو حمو موسى بن يوسف، ولي الحكم سنة 760هـ، أظهر الحزم، وأحيى رسم الدّولة بعد أن عفّ، واهتمّ بالفقهاء والصّلحاء، وأقام الموالد. ينظر حول أيّام حكمه: أبو زكرياء يحي ابن خلدون، بغية الروّاد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تقديم وتحقيق وتعليق وبوزياني الدراجي، الجزائر:دار الأمل للدراسات والنّشر والتّوزيع ،2007 ،ج2.

[6]-رشيد بورويبة وآخرون، المرجع السّابق، ص402.

[7]-التنسي، المصدر السّابق، ص229.

من 804هـ إلى غاية 813هـ، وخلفه ابنه عبد الرّحمن الذي بقي شهرين، ثمّ خلفه السّعيد بن أبي حمّو سنة 814هـ، فأسرف في البذل والعطاء حتّى أخرج له السّلطانُ المريني أبا مالك عبد الواحد، أحد أبناء أبي حمّو الثّاني فطرد عنها السّعيد بعد خمسة أشهر من ولايته [1]، وأرجع إلى الدّولة هيبتها، وأخضع سائر أنحاء المغرب الأوسط، و مختلف القبائل، وتدخّل في مملكة فاس، وانتزع مدينة الجزائر من أيدي الحفصيين[2].

-التدخّل الحفصيّ في الدّولة الزيانيّة في ق9هـ/15م:

ما فتئ نفوذ المرينيّين يخفّ على الدّولة الزيانيّة، حتّى ظهر نفوذ الدّولة الحفصيّة، و ذلك في عهد أبي فارس عزّوز الحفصي وابنه أبي عمر عثمان.

- **تدخّل أبي فارس عزّوز في شؤون تلمسان:**

ثار أبو تاشفين محمّد المدعو -ابن الحمراء- على أخيه أبي مالك عبد الواحد واستعان بالحفصيّين، وسلطانهم أبي فارس عزّوز [3] الذي نهض في جموعه، ودخل تلمسان سنة 827هـ[4]، ونصّب ابن الحمراء. وعاد أبو فارس إلى تونس وحاول عبد الواحد استرجاع ملكه، فأرسل ابنه المستنصر إلى أبي فارس عزّوز، غير أنّ عيون ابن الحمراء قبضت على المستنصر وقتلته، وقطع ابن الحمراء الخطبة لأبي فارس عزوز، ولحق عبد الواحد بتونس، وعاد منها بجيش زوّده به أبو فارس غير أنّه مني بالهزيمة، فخرج أبو فارس بنفسه إلى تلمسان، ودخلها سنة 831 هـ، وأعاد عبد الواحد إلى ملكه[5].

- J.-J.-L. Bargès, Complément de l'histoire des Beni-Zeiyan, rois deTlemcen : ouvrage du cheikh Mohammed Abd'al-Djalil al-Tenessy, paris: Ernest leroux , Libraire-éditeur, 1887, p265.

[1] -التنسّي، نظم الدرّ والعقيان، ص234

[2] -المصدر نفسه، ص ص235- 241؛ مبارك الميلي، تاريخ الجزائر، ج2ص461.

[3] - برنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ج1ص241.

-Bargès, op cit, p278.

[4] -التنسي، المصدر السّابق، ص241؛ برنشفيك، المرجع السّابق، ج1ص256.

[5] -المصدر نفسه، ص245؛ الزّركشي، تاريخ الدّولتين، ص129؛ مبارك الميلي، المرجع السّابق، ج2ص461.

خرج ابن الحمراء إلى جبال بني يزناسن [1]، ثمّ انتقل إلى جبال برشك وتنس، ثمّ دخل تلمسان سنة 833 هـ، وقتل عمّه عبد الواحد، فنهض إليه أبو فارس. وخرج ابن الحمراء ليصالحه لكنّ أبا فارس قبض عليه، واصطحبه معه إلى تونس، واعتقله بقصبتها إلى أن مات سنة 840هـ[2]، وقام أبو فارس بتنصيب أحمد العاقل بن أبي حمو [3] على عرش تلمسان سنة 834هـ، وكما ثار عليه أحد قرابته، وانتزع منه وهران والجزائر، وحاول أحمد العاقل الاستقلال عن السّلطنة الحفصيّة، فخرج إليه أبو فارس، ولكنّه باغته الأجل في طريقه، وبذلك عاد الجيش الحفصي إلى تونس[4].

- **تدخّل أبي عمر عثمان الحفصي في شؤون تلمسان:**

عندما تولّى أبو عمر عثمان شؤون الدّولة الحفصيّة، وقضى على الفتن الدّاخليّة التي أحدقت بدولته، بدأ يفكّر في عزل أحمد العاقل، لكنّ أحمد العاقل بادر إلى تلطيف الجوّ مع الحفصيّين، فبعث بهديّة إلى أبي عمر عثمان سنة 862هـ[5]، فقام سلطان تونس بمكافأته، إلى أنّ أبناء البيت الزيّاني ظلّوا يشغّبون على أحمد العاقل لغاية أن تغلّب عليه محمّد بن محمّد المتوكّل سنة 866 هـ [6]، وأجاز أحمد العاقل إلى الأندلس[7]، فخرج إليه أبو عمر عثمان، فبادر المتوكّل إلى إرسال الوجهاء والأعيان، والذين تعهّدوا لأبي عمر عثمان الحفصي ببيعة المتوكّل له، وكان على رأس الوفد الفقيه محمّد بن أحمد بن قاسم العقباني[8]، فرضي أبو عمر عثمان، ورجع إلى تونس بعد أن ضمن بيعة المتوكّل.

---

[1]-يقع جبل بني يزناسن على بعد نحو خمسين ميلا غربي تلمسان. ينظر: حسن الوزّان، وصف إفريقيا ، ج2ص43.

[2]-التنسي، نظم الدرّ والعقيان، ص245؛ الزركشي، تاريخ الدّولتين، ص129.

[3]-هو أبو العبّاس أحمد بن أبي حمو، تولّى أمور الدّولة الزيانيّة سنة 834هـ/1430م إلى أن ثار عليه محمّد المتوكّل سنة 866هـ/1462م. ينظر: التنسّي، المصدر السّابق، ص255.

[4]- الزّركشي، المصدر السّابق، ص131.

[5]-المصدر نفسه، ص150.

[6]-التنسي، المصدر السّابق، ص254.

[7]- عاد أحمد العاقل إلى تلمسان سنة 867 هـ للمطالبة بملكه، ليلقى حتفه بأحوازها في نفس السّنة ودفن بالعبّاد. ينظر: التنسي، المصدر نفسه، ص257؛ مبارك الميلي، تاريخ الجزائر، ج2ص262.

[8]-الزركشي، المصدر السّابق، ص153.

حاول المتوكّل جمع آل زيّان المشتّتين شرقا وغربا، وأحسن معاملتهم، وأدرّ عليهم الأرزاق. ثمّ فسدت علاقته مع الحفصيّين، فخرج إليه أبو عمر و عثمان سنة 866 هـ ، وخضعت له سويد وعامر[1]، لكنّ المتوكّل أظهر الطّاعة، وقام بإرسال الوُجهاء، فصفح عنه أبو عمر عثمان المتوكّل وتهاديا سنة 868هـ، ثمّ استقلّ عنه المتوكّل سنة 870هـ، فخرج إليه وأخضعه ثانيا سنة 871هـ[2]، ومات سنة سنة 890 هـ ، فخلفه ابنه تاشفين نحو أربعة أشهر أو أقل وخلفه أخوه أبو ثابت الثالث وعجز عن ضبط ممالكه الشرقيّة ومات سنة 902هـ[3]، وخلفه أكبر بنيه أبو عبد الله محمّد الثالث المعروف بالثابتي، ومات سنة 909هـ، ثمّ خلفه أبو زيان الثّالث المسعود، فخلعه عمّه أبو حمّو الثالث الملقب بأبي قلمون، وسجن المسعود[4] .

ب – **ضعف الدّولة الحفصيّة:**

عرفت الدّولة الحفصيّة أوج قوّتها في عهد مؤسّسها الحقيقي أبي زكريا الحفصي سنة 634 هـ[5]، ثمّ ثمّ و بعد وفاة المستنصر سنة 675هـ/1276م، رجعت أدراجها، وعرفت مرحلة من الرّكود[6].

كانت مدينة قسنطينة وعنابة وبجاية وغيرها من مدن الشّرق الجزائري تابعة للحفصيّين، و لعبت أدوارا هامّة في تاريخ الدّولة الحفصيّة. فقسنطينة كانت تعدّ القاعدة الحفصيّة الثّانية بعد مدينة تونس، وتعتبر العمق الاستراتيجي والاقتصادي للسّلطة المركزيّة، وإحدى قلاعها العسكريّة المنيعة، لذلك كان

---

[1] – الميلي، تاريخ الجزائر، ج2ص461.

[2] – أبو المكارم عبد الباسط بن خليل، رحلة عبد الباسط الظاهري في بلاد المغرب والأندلس 866-871هـ/1462-1467م، تحقيق عمر عبد السّلام تدمري، مجلّة التّاريخ العربي، عدد 17، شتاء2011، ص ص111-146؛ برنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ج1ص291.

[3] –الميلي، المرجع السّابق، ص 462؛ صالح عبّاد، الجزائر خلال العهد التّركي 1514-1830م، ط1، الجزائر:دار هومة، 2007، ص9.

[4] –الميلي، المرجع السّابق، ص461؛ رشيد بورويبة وآخرون، الجزائر في التّاريخ، ص ص425-434.

[5] –ابن خلدون، التّاريخ، ج6ص594.

[6] –المصدر نفسه، ج6 ص ص675-676.

يعيّن على إدارتها وال للعهد أو أمير حفصي مؤهّل يتميّز بخبرة سياسية وعسكريّة وإدارة عاليّة [1]، يقول عبد العزيز فيلالي: ((وليس غريبا أن تجتمع سنوات ازدهار هذه الدّولة واستتباب أمنها، في ظلّ أمراء وُلِدوا و نشأوا وترعرعوا في مدينة قسنطينة)) .[2] ومع نهاية القرن الثّامن وبداية القرن التّاسع الهجري شهدت المدن الغربيّة للسّلطنة الحفصيّة الكثير من مظاهر الفوضى، وعدم الاستقرار [3]. ولما توفي السّلطان أبو العبّاس الحفصي سنة 796 هـ تآمر أبناؤه على عمّهم أبي يحي زكريا فسجنوه، وتنازل أبو بكر عن ولاية العهد لصالح أبي فارس عزّوز، وأصبح أبو بكر واليا على قسنطينة [4]. وأمّا مدينة عنّابة فكان واليها هو محمّد ابن عمّ والي قسنطينة المسجون، والذي أجاز إليه إخوته [5]. فشرع أبو فارس في ترتّيب أحوال دولته، وإعطاء الأموال، متجهّزا لاسترجاع مدينة عنّابة، ثمّ إنّ أخاه أبا زكريا ثار عليه، رغم أنّه كان قد تنازل عن ولاية العهد، فشايعه أهالي قسنطينة [6].

استطاع أبو فارس أن يقضي على ابن عمّه محمّدا، وأن يخضع أخاه أبا بكر سنة 797هـ، ليلقي به في السّجن سنة 798هـ عندما حاول الثّورة من جديد [7]، وفي آخر عهد أبي فارس حاول رئيس قسنطينة الحاج محمّد الدهّان أن يستبدّ بالأمر، فبعث أبو فارس رئيس دولته محمّد بن عبد العزيز صحبة الأمير المنتصر برسم القبض عليه سنة 830 هـ/ 1427م[8].

---

[1]- ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية في مبادئ الدّولة الحفصيّة، تحقيق:محمّد الشّاذلي النّيفر وعبد المجيد التّركي، تونس:الدّار التونسيّة للنّشر، 1968، ص ص91-93.

[2]- عبد العزيز فيلالي، مدينة قسنطينة في العصر الوسيط، ص55.

[3]-على سبيل المثال نجد ثورة الذواودة بقيادة يعقوب بن علي، ثمّ ابنه محمّد على أمير قسنطينة إبراهيم بن أبي العباس الحفصي، وسبب الثّورة هو تماطل أمير قسنطينة في دفع عطاءات القبائل، وقد استجاب للثّورة أولاد سبّاع بن شبل، وأولاد سبّاع بن يحي، ومن انضمّ إليهم من الأحلاف، وأخذوا يغيرون على ضواحي قسنطينة وتلولها، وأطلقت أيديهم بالنّهب و انتساف الزّروع، ثمّ أغاروا على التّلول والهضاب محمّلين بالأسلاب والغنائم، إلى أن تمكّن إبراهيم بن أبي العبّاس الحفصي من بثّ الشّقاق بين القبائل. ينظر: ابن خلدون، المصدر السّابق ، ج6 ص 577؛ ابن قنفذ، المصدر السّابق، ص188.

[4]-الزركشي، تاريخ الدّولتين، ص114.

[5]-المطوي، السّلطنة الحفصيّة، ص ص 545-547.

[6]-ابن قنفذ، المصدر السّابق، ص189.

[7]-المصدر نفسه ، ص ص 198-190؛ المطوي، المرجع السّابق، ص554.

[8]-المصدر نفسه، ص ص190-194 .

كما شهدت بسكرة وبلاد الجنوب محاولة استقلال بني مزني الذين حكموا طيلة 140 سنة، فقضى أبو فارس على نفوذهم، وتحرّك إلى بسكرة وبلاد ريغ وورارقلا والزاب سنة 804[1].

أمّا مدينة الجزائر؛ والتي حاول عبد الواحد استرجاعها، فقد عجّلت بالتدخّل الحفصي في الدّولة الزيانيّة، فاستعادها أبو فارس سنة813هـ[2].

ولما تولّى أبو عمرو عثمان الحفصي ثار عليه عليّ بن أبي فارس صاحب بجاية مع شيخ الذواودة وحاصر قسنطينة[3]. كما قام بنو سيلين بالتّشغيب على أبي محمّد عبد المومن والي أبي عمرو عثمان على قسنطينة، وتمّ اغتياله فعقد أبو عمرو عثمان لأبي محمّد عبد الملك.

وعرفت بجاية ثورة أبي الحسن أخي أبي فارس الذي اعتصم بها من سنة 850 هـ إلى سنة 856هـ، حيث تمّ القضاء عليه [4]. وبعد أن توفي أبو عمرو عثمان سنة 893هـ، دخلت السّلطنة الحفصيّة في مرحلة الانهيار[5]. منذ تولّي يحي بن محمّد المسعود أمور السّلطنة من 893 هـ إلى 899هـ[6].
899هـ[6].

وهكذا عرفت أقاليم المغرب الأوسط عموما في القرن التّاسع الهجري عدّة صراعات بين أبناء الأسر الحاكمة فيما بينهم، وكذلك الصّراع بين دول المغرب الثّلاث، وكان انتشار الفوضى هو ضريبة هذا الصّراع المتأزّم، فتزايد استقلال الأقاليم؛ فتجمّعت واحات فيقيق، وكوّنت دولة مستقلّة، ودبّرت قبائل الونشريس أمرها كما أرادت، وخضعت أراضي زواوة لملك كوكو، وبسط شيخ قسنطينة الحفصي نفوذه على المنطقة الواقعة بين عنّابة والقل، وأصبح الزّاب والحضنة حصنا للذواودة، وتأسّست بتقرت مملكة بسطت سلطانها على وادي ريغ[7]، وقد عرفت بأسرة بني جلّاب[1].

---

[1] – الزّركشي، تاريخ الدولتين، ص120؛ الباجي المسعودي، الخلاصة النقيّة ، ص82.
[2] –برنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد االحفصي، ج1ص246.
[3] –الزّركشي، المصدر السابق ، ص ص137-138.
[4] – الزركشي، المصدر نفسه، ص ص142-146.
[5] –برنشفيك، المرجع السّابق، ج1ص276.
[6] –ابن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان، ج1ص ص189-190.
[7] –الميلي، تاريخ الجزائر، ج3ص42.

موقف الفقهاء من الصّراع في المغرب الأوسط

تباينت مواقف الفقهاء من ضعف السّلطة المركزيّة بالمغرب الأوسط، وما نجم عنه من تدهور الأوضاع السياسيّة، ويمكن إجمال هذه المواقف في النّقاط التاليّة :

4 - التردّد في إظهار الولاء والبيعة:

جعل ضعف السّلطة المركزيّة ببلاد المغرب الأوسط الفقهاءَ متردّدين في إظهار ولائهم، وصاروا يتحرّجون من مبايعة السّلاطين أيّام الفتنة، خوفا من نقمة المطالبين بالحكم إذا صار لهم سلطان، فقد ذكر ابن قنفذ[2] أنّ الخطبة بمساجد قسنطينة خلت من الدّعاء للسّلطان حوالي خمسة أشهر أيّام الفتنة بين أبي فارس وأبي بكر، ثمّ تمّ الدّعاء لأبي بكر[3]. ومع ذلك ظلّ فقهاء المغرب الأوسط ملتزمين بالبيعة للمتغلّب[4]، وهناك من الفقهاء من كان يُظهرُ مَيله إلى بعض السّلاطين، وتختلف خلفيّات هذا الميل؛ فابن قنفذ الذي أهدى الفارسيّة لأبي فارس عزّوز[5]، والتنسي الذي أهدى كتابه نظم الدرّ والعقيان إلى المتوكّل الزياني [6]، قد صرّحا في كتابيهما بأنّ نعم هاذين السّلطانين قد غمرتهما. وهو ما يشير إلى وجود دوافع شخصيّة للتّأليف. ومع ذلك يلاحظ أنّ ابن قنفذ قام بمدح سلطان شهدت فترته نوعا من

---

[1]-محمّد بن معمّر، علاقة بني جلّاب سلاطين تقرت بالسّلطة العثمانيّة في الجزائر، جامعة وهران:دار الغرب للنّشر والتّوزيع، مجلّة الحضارة الإسلامية، عدد12، جوان 2005، ص15-35.

[2]- أحمد بن حسين المشهور بابن قنفذ القسنطيني، أخذ عن أبي علي ابن باديس وأبي القاسم السّبتي، والشّريف أبي عبد الله التّلمساني والقباب وابن مرزوق الجدّ، برع في الفقه و علم الحديث والتّاريخ، وله شرح الرّسالة والفارسيّة وأنس الفقير وعزّ الحقير وغيرها من التّواليف البديعة، توفي سنة 810هـ. ينظر: محمّد أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السّلف، دراسة وتحقيق خير الدّين شترة، ط 1، الجزائر:دار كردادة للنّشر والتّوزيع،ط1، 2012، ج1ص ص524-529.

[3]- ابن قنفذ، الفارسية، ص192.

[4]- سليمان ولد خسال، جهود فقهاء المغرب العربي في بناء النظام السياسي الإسلامي بين سنة(633 - 922 هـ)، أطروحة دكتوراه، جامعة الجزائر، كلية العلوم الإسلامية، ص ص219-221.

[5]-عبد القادر قوبع، دور ابن قنفذ القسنطيني في تأريخ الحياة السياسيّة والثّقافيّة والدّينيّة للجزائر الحفصيّة، مجلّة عصور الجديدة، العدد3-4، السنة 2011-2012، ص ص40-60.

[6]- بوعنيني سهام، أبو عبد الله التنسي وكتابه نظم الدرّ والعقيان، ص ص 65-66؛ محمود بوعياد، محمّد التنسّي مؤرّخ بني زيان، مجلّة الثّقافة، السّنة الثّامنة، العدد 44 ، أبريل -مايو 1978، ص ص71-84.

استتباب الأمر[1]، فقد اعتُبر أبو فارس آخر عظماء سلاطين الدّولة الحفصيّة [2]، حتّى أنّ أحمد بن يحيى الونشريسي ذكر أنّ أبا فارس هو أحد المجدّدين الذين يجعلهم الله على رأس كلّ مائة سنة، ((وذلك أنّ الله قد قطع به أهل الزّيغ والفساد من أهل البادية والبلاد، كما قاتل الكفّار حين نزلوا بالمهديّة [3])). وأيضا كان أبو فارس معروفا بتوقيره للعلماء والصّالحين [4]، ورفع المظالم عن الخلق[5]. غير أنّ أبا القاسم القاسم سعد الله يرى أنّ أبا فارس والمتوكّل لم يكونا يستحقّان أن يؤرَّخ لهما، فقال:((كان ابن قنفذ مؤرّخ الدّولة الحفصّية، وكان التنسي مؤرّخ الدّولة الزيانيّة، وكلا الدّولتين لم تكن في أوج قوّة، ولم يكن أميرها أقوى سلطان، ولا حكمه أعدل حكم، ولا عهده أزهى عهد، ولكن المؤرّخين كانا كالشّعراء يمدحان للمصلحة الشّخصيّة، فكان دافعهما العاطفة وليس العقل، ولو كانا صاحبي حكمة وتبصّر لاستنكرا أعمال الحكّام، ولقاوما فساد المجتمع ولنبّها إلى الهاوية التي كانت تنحدر إليها الدّولتان)).[6]

5 – اعتزال الفتن:

دفعت الأوضاع السياسية المتدهورة ببعض الفقهاء إلى اعتزال الفتن، فعندما كان الصّراع على أوجه في قسنطينة بين أبي فارس وأخيه أبي بكر، اختار ابن قنفذ اعتزال الفتنة، فقال:((وكنت أنا في خاصّة نفسي بطّلت الحكومة في مجلسي، وعجزت إلّا عن الوفاء بالرّكون إلى الزّاوية والاختفاء [7]))، بل من الفقهاء من اعتزل السّلاطين حتّى في غير أيّام الفتن، كمحمّد بن يوسف السنوسي، فقد كان معروفا ببغضه لأبناء الدّنيا والأمراء، و كان يتعوّذ بالله عند رؤية ركب السّلطان، كما عرف عنه كراهيته الكتابة للأمراء والسّلاطين[8]. وكان فقهاء المغرب الأوسط يفتون بوجوب اعتزال الفتن، فنقل الونشريسي

---

[1]–أبو عبد الله محمّد ابن الشمّاع، الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدّولة الحفصيّة، تحقيق الطّاهر بن محمّد المعموري، تونس:الدّار العربيّة للكتاب، 1984، ص111.

[2]–برنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ج1ص241.

[3]–الونشريسي، المعيار، ج10، ص10.

[4]–ابن الشمّاع ، المصدر السابق، ص ص 108–109؛ برنشفيك، تاريخ إفريقيا في العهد الحفصي، ج1ص246.

[5]–ابن قنفذ، الفارسيّة، ص195.

[6]–سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافي، ج1ص73.

[7]–ابن قنفذ، المصدر السّابق، ص193.

[8]–ابن مريم، البستان، ص ص380–384.

الونشريسي في معياره تقرير أبي موسى بن الإمام بلزوم اعتزال الفتن، وبيعة المتغلّب فقال:((وما حرم القيام على المتغلّب من برّ وفاجر إلاّ لرجحان مصالح التّرك، ودعة الكافة وعافيتهم، الذي هو ثمرة ولايته، على مفسدة المنازعة والمقارعة والإهمال الذي تأتي فتنته على النّفس والأهل والمال والدّين)). [1]

6 – تزايد نفوذ بعض الفقهاء:

ساهم ضعف السّلطة المركزيّة في تزايد نفوذ بعض الفقهاء الذين اضطلعوا بعدّة مهام أثناء تأجّج الصّراعات. فهاهو الفقيه إبراهيم بن يوسف الأندلسي، بات هو المسيّر الحقيقي لشؤون قسنطينة، فصار الأمير أبو بكر الحفصي رهن إشارته وتوجيهاته أيّام الصّراع مع أبي فارس، فكان يحرّضه على الانتقاض ضدّ أخيه السّلطان، وقد وقع القبض على إبراهيم بن يوسف الأندلسي الذي حُمل مصفّدا إلى تونس ولقي حتفه مصلوبا [2]. أمّا منصور بن علي بن عثمان الزواوي المنجلاتي (ت 850هـ) مفتي بجاية فقد ساند أبا الحسن علي بن أبي فارس عمّ أبو عمرو عثمان ، وكانت له عصبة وقوّة بحيث استبدّ ببجاية ، ثمّ تراجع ودخل بينهما في الصّلح[3].

ونفس الشّيء حدث في دولة بني زيان، فقد تزايد نفوذ بعض الفقهاء، وبات السّلاطين يشاورونهم وينزلون عند رأيهم، فالتنسي أشار إلى أنّ أحمد العاقل الزياني كان يعظّم الحسن بن مخلوف، و يكثر من زيارته، ويقتبس من إشارته، ومدار أكثر أموره عليه[4]. وهكذا ارتقت أدوار الفقهاء السياسيّة السياسيّة بسبب ضعف السّلاطين، فأصبحوا يقومون بعقد الصّلح، ويحضرون مجالسه، ويفاوضون باسم السّلطان. وهو ما ظهر جليا أثناء حملة أبي فارس على تلمسان ودخول السّلطان الزياني تحت طاعته، فقد قُرئت بيعة أبي فارس بجامع تلمسان، وحضر لقراءتها علماء الوقت منهم ابن مرزوق [5]،

---

[1]–الونشريسي، المعيار، ج6 ص343.

[2]–الزّركشي، تاريخ الدّولتين، ص119؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ج1ص531.

[3]–السّخاوي، الضّوء، ج10ص171.

[4]–التنسي، نظم الدرّ والعقيان، ص248.

[5]– هو أبو عبد الله محمّد بن مرزوق العجيسي، قال عنه القلصادي: ((كان من رجال الدنيا والآخرة)) ، توفي سنة 842هـ، وقد حضر جنازته السّلطان فمن دونه. القلصادي، الرّحلة، ص96-98.

وأبو القاسم العقباني، وابن الإمام، وابن النجّار [1]، وجماعة من العلماء[2]، ونُقلت عن خطّ السيّد بركات الشّريف[3] .

ولما سار أبو عمرو عثمان إلى سلطان تلمسان سنة 862هـ، وحاصرها جاءه الشيخ القاضي محمّد العقباني وكبار البلد [4]. وقد كلّف القاضي محمّد بن أحمد العقباني سنة 867 هـ بحمل هدية صاحب تلمسان إلى سلطان تونس، وكان أبو عمرو عثمان في غيبوبة، فلمّا دخل محمّد بن أحمد العقباني عليه صادف ذلك إفاقة منه، فتزيّنت المدينة، وحظي العقباني باستقبال بهيج[5].

7 - مساعي الفقهاء في الإصلاح بين السلاطين في المغرب الأوسط:

سعى بعض الفقهاء إلى الإصلاح بين الأطراف المتصارعة، رغبة في استتباب الأمن، ووأد الفتن. فبادر محمّد العقباني في الصّلح بين أبي عمرو عثمان الحفصي ومحمّد المتوكّل سلطان تلمسان، كما سعى منصور بن علي الزواوي المنجلاتي(ت 850هـ) في الصّلح بين أبي الحسن علي بن أبي فارس و ابن أخيه السّلطان أبي عمرو عثمان[6].

وتكشف بعض أجوبة الفقهاء على النّوازل الفقهيّة مساعي الفقهاء لوأد الفتنة، فقد سئل أبو موسى بن الإمام عن:((سلطانين، وقعت بينهما موافقة ومصالحة، على شروط اقتضتها الآراء الرّاجحة، وأكّدتها العدول والأيمان، ومن جملة الشّروط أنّ كلّ من اختصّ بأحد الجانبين و انضاف إلى أحد السلطانين، لا يعرض له الآخر باستمالة، ولا يستدعيه إلى جانبه بكتب منه ولا رسالة، وأنّه لا يقبله ولا يخدمه إن وصل إليه، ولا يبيح له رسالة قبل الوصول إليه، والقدوم عليه)) . وجاء في تتمّة النّازلة أنّ أحد السّلطانين قد خالف شروط الصّلح [7]. وجاء جواب الشّيخ مصرّحا بأنّ السّلطان قد

---

[1]- هو محمّد بن النجّار الفقيه المتفنّن الإمام العلاّمة، توفي سنة846هـ/1442م. القلصادي، الرّحلة، ص102.

[2]- لم يذكر صاحب المؤنس أسماء هؤلاء العلماء.

[3]-ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ط1، تونس:مطبعة الدّولة التّونسيّة، 1286 هـ، ص ص 135-136.

- Bargès, Complément de l'histoire des Beni-Zeiyan, p280.

[4]-الزّركشي، تاريخ الدّولتين، ص ص155-156؛ المسعودي الباجي، الخلاصة النقيّة، ص82.

[5]-الزّركشي، المصدر السّابق، ص155.

[6]- السّخاوي، الضّوء، ج10ص171.

[7]-الونشريسي، المعيار ، ج6ص343.

نقض العهد، ومع ذلك دعا إلى العمل على استدامة العقد وجبره، وتجنّب نقض الصّلح لما سيترتّب على ذلك من المفاسد[1].

كما وردت نازلة أخرى سئل عنها ابن عرفة عمّا يجري من أحكام البيعة للملوك، فالذي يكتب لخليفة بالبيعة هو في قطر أمير آخر والخلافة شرعيّة [2]. ومن خلال النّازلة نلاحظ مدى الإستخفاف بعقد البيعة، وموقف الفقهاء الرّافض لهذا النّوع من التّهاون بأمر البيعة.

2 - **تفشّي مظاهر الظّلم** :

أدّى التّدهور السياسي في بلاد المغرب الأوسط إلى تفشّي مظاهر الظّلم والغصب، وتكشف نوازل المازوني **في الدّرر المكنونة** ونوازل أبي القاسم البرزلي، وفتاوى **المعيار المعرب** للونشريسي مدى تفاقم هذه الظاهر والتي يمكن تلخيصها كالآتي:

- **التّلاعب بأموال الزّكاة:**

تعتبر الزّكاة من العبادات الماليّة الواجبة على كلّ من بلغ ماله النّصاب وحال عليه الحول، ويجب أداؤها إلى مستحقّيها الشرعيّين [3]، إلى أنّ أموال الزّكاة في بلاد المغرب الأوسط خلال العهد الزياني قد عبثت بها أيادي السّلاطين والولاة وشيوخ القبائل. يوضّح ذلك سؤالٌ ورد إلى ابن عرفة :((عمّن يأخذ منه السّلطان زكاة ماله؛ وهو أقل من النّصاب، وعند الرّجل ما يكمل به النصاب)) [4]. وتكشف هذه النّازلة كيف أنّ السّلاطين باتوا يجتهدون في كنس أموال العامّة، بطرق غير شرعيّة، فحتّى الزكاة تؤخذ منهم رغم عدم بلوغها حدّ النّصاب. ومع أنّ السّلطان كان يأخذ أموال الزّكاة من الأغنياء فإنّها لم تكن تصل إلى الفقراء، وذوي الحقوق الشرعيّين. ولم يكن الاعتداء على أموال الزّكاة خاصا بالسّلاطين، بل تبعهم في ذلك كلّ من الولاة و أشياخ القبائل، و حتّى المرابطين. فقد سئل ابن عرفة

---

[1]-الونشريبس، المعيار، ج6ص343.

[2]-الونشريسي، المعيار، ج10ص5.

[3]-حول عبادة الزّكاة عند فقهاء المالكيّة ينظر:محمّد محمّد سعد، دليل السّالك لمذهب الإمام مالك، مصر:دار النّدوة، (د.ت)، ص42-50

[4]-المازوني، الدرر المكنونة، ج1ص269.

عن:((السّلطان الجائر الظّالم يأخذ العشر يأكلها – كذا– ويغرم النّاس بلاحق [1]))، فنستشفّ من خلال هذا النصّ أنّه يوجد بعض السّلاطين الذين يأكلون أموال الزّكاة . و هناك نازلة أخرى سئل عنها الوغليسي:((عن الزكاة ومن قبضها من الولاة جبرا، ولم يفرّقها في محلّها)) وتكشف هذه النّازلة عن وجود ولّاة لا يفرّقون أموال الزّكاة في محلّها، كما سُئل الوغليسي عن مرابطين يتوسّطون في الزكاة ولا يؤدوّنها إلى مستحقّها وقد أجاب الوغليسي:((أنّ المرابطين هم مثل أشياخ القبائل فيما يتولّون من ذلك))[2]، ويوضّح هذا النّص أنّ بعض المرابطين وشيوخ القبائل كانوا يساهمون في الاعتداء على أموال الزّكاة. دفع هذا الأمر بالسكّان إلى استفتاء الفقهاء حول إجزاء ما يأخذه الولّاة عنهم كما جاء في نصّ أحد نوازل الونشريسي:((عن أخذ الولاة للزكاة هل تجزئ أم لا)) [3]، ولا شكّ أنّ ما اشتهر به الولاة من عدم أداء الزكاة إلى مستحقّيها هو الذي دفع بالنّاس إلى طرح هذه النّوازل على الفقهاء .

- **الغصب:**

تناولت كتب النّوازل الكثير من قضايا الغصب، والتي وردت في مواضع متعدّدة، وتكشف هذه النّوازل ممارسة السّلاطين لأعمال الغصب بأنفسهم؛ فقد سئل عبد الله الشّريف عن رجل أخذ منه السّلطان أو بعض ولاّته كتابا بالغصب [4]. ومن صور الغصب ما تكشفه **نوازل البرزلي** من إجبار الولاّة وعمّال السّلاطين لبعض الرعيّة على بيع دورهم وأراضيهم، وبثمن زهيد سعيا منهم لاسترجاع أموالهم التي دفعوها مقابل حصولهم على المناصب [5]. و من أبشع صور الغصب، هو ما كان يطال الأحباس[6]، حيث تُظهر أحد النّوازل أنّ الاستيلاء على الأوقاف كان من دأب السّلاطين والأمراء؛

---

[1]–الونشريسي، المعيار، ج1ص387.
[2]– المصدر نفسه، ج1ص ص393–394.
[3]– المصدر نفسه، ج1ص378.
[4]–المازوني، الدّرر المكنونة، ج 3ص158.
[5]–البرزلي، النّوازل، ج3ص ص 43–50.
[6]–يعبر بعض الفقهاء بالحبس، وبعضهم يعبّر بالوقف، وهما تسميتان لمسمّى واحد، ومعناه: إعطاء منفعة شيئ مدّة وجوده لازما بقاؤه في في ملك معطيه ولو تقديرا، أو إعطاء منافع على سبيل التّأبيد، وحكمه أنّه مندوب، لقوله صلّى الله عليه وسلّم لعمر ابن الخطّاب في نصيبه من أرض خيبر : ((إن شئت حبست أصلها أو تصدّقت بها)). ينظر : البرزلي، المصدر السّابق ، ج5ص317؛ القاضي أبو محمّد

ففي نازلة سئل عنها الفقيه الحافظ أبو القاسم العبدوسي: ((عن رجل كان صاحب حبس في بعض بلد المغرب، وقدّمه سلطان البلد على النّظر في الحبس، وعادة أمراء تلك البلدة التسلّف من مال الحبس، والتوسّع فيه)) [1]، فقوله: وعادة أمراء تلك البلدة...إلخ، يدلّ بكلّ وضوح أنّ اعتداء الأمراء على الأحباس كان أشهر من نار على علم. كما تشير نازلة أخرى إلى أحد شيوخ القبائل الذي بادر إلى التّوبة، وهو يسأل عن حكم ما أخذه من أموال حبسها بعض الملوك والسّلاطين على المساجد وغيرها[2].

إنّ الاعتداء على مؤسّسة الوقف هو الذي جعل بعض الفقهاء ييتورّعون فلا ينتفعون بعوائده . فجاء في ترجمة محمّد بن يوسف السنوسي أنّ السّلطان بعث إليه في أخذ شيء من غلاّت مدرسة حسن أبركان فامتنع[3]. وقد نقل الونشريسي فتوى لعبد الله العبدوسي تحرّم الأخذ من أموال الوقف، وقد جاء فيها:((إن الملوك فقراء مدينون بسبب ما احتجزوه على المسلمين بتصرفاتهم في أموال بيت المال بالهوى في أبنية الدور الغالية المزخرفة، والمراكب النفيسة، والأطعمة الطيبة اللذيذة، وإعطاء الأصدقاء، والمزاح بالباطل من الأموال إلى غير ذلك من التّصرفات المنهي عنه، فهذه كلها ديون عليهم، ويكثر مع تطاول الأيام فلا تصح تبرعاتهم وتحسباتهم وهباتهم وصدقاتهم إلى غير ذلك لا على أولادهم ولا على غيرهم من قرابتهم أو غيرهم من أصدقائهم، فإن وقفوا على أحد مما ذكرنا لا ينعقد وقفهم وحرم على من وقف عليه تناوله لهذا الوقف[4]). كما امتنع فقهاء المغرب الأوسط عن تناول طعام السّلاطين، وأخذ صلاتهم، فقد أورد الونشريسي فتوى تتعلَّقُ بحكم أكل طعام السلطان وأخذ صلته فقال:((وسئل ابن مزين عن أكل طعام السلطان أو أحد من بطانته ومن هو ملتبس به، ومَن يأخذ

عبد الوهّاب علي بن نصر، المعونة على مذهب عالم المدينة، ط 1، بيروت:دار الكتب العلميّة، 1998، ج2ص484؛ محمّد الرصّاع، شرح حدود ابن عرفة، ص559.

[1]-الونشريسي، المعيار، ج7ص185؛ عمر بلبشير، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكريّة، ص 113؛ عبيد بودواد، الاعتداء على الأحباس نماذج من تاريخ المغرب الإسلامي، مجلّة الآداب والعلوم الإنسانية ، قسنطينة: جامعة الأمير عبد القادر ، عدد 11 ، 2010 ، ص ص 43-62.

[2]-المازوني، الدّرر المكنونة، ج3ص131.

[3]-التنبكتي، النيل، ص566.

[4]-الونشريسي، المصدر السّابق، ج7ص308.

صلته ومعروفه؟ فأجاب :لا يجوز لأحد أكل طعامهم ولا أخذ صلاتهم، ولا ملابسهم في شيء، ولا أكل طعام واحد من بطانتهم ولا مما يأخذ من صلاتهم، فمَن أخذ صلة فليتصدق بها على المساكين))[1].

- **المغارم السّلطانيّة والمكوس:**

دفعت الحروب والصّراعات الدّاخليّة في المغرب الأوسط خلال القرن 9هـ/15م، وما كان يصحبها من استنزاف للخزينة؛ السّلاطينَ إلى الالتفات نحو أموال الرعيّة، وإثقال كواهلهم بأنواع المغارم خصوصا في الأرياف التي كان سكّانها يتحمّلون أعباء إدارتها مع إلزامهم دفع المغارم [2]. وهكذا شهدت مدن وأرياف المغرب الأوسط أنواعا كثيرة من المكوس المفروضة على التجّار، وممّن أشار إلى شيئ من ذلك مارمول فذكر: ((أنّ ملوك تلمسان كانوا يعيشون بأبّهة كبيرة، وكانوا أقدم وأعظم الأمراء، وكانوا يقبضون مكوسا كبيرة من التجّار، وإتاوات ضخمة من السكّان، وهو محرّم في دينهم)). [3] وإذا كان هذا هو شأن سلاطين تلمسان مع المغارم، فإنّ شيوخ العرب المتغلّبين كانوا هم أيضا يثقلون كواهل السكّان بشتّى أنواع المغارم)). وتشير نازلة سئل عنها الشيخان أبو زيد وموسى ابنا الإمام عن:((سلطان ظالم وعامله أو شيخ على قبيلة يفرض فريضة على بلده أو على بعض رعيّته))[4].

كانت المكوس [5] والضّرائب شائعة، الأمر الذي جعل الونشريسي يصنّفها في خانة المحدثات بقوله: ((ومنها-أي البدع- المكوس ومحدثات المظالم))[6].

ومن الأمور التي ولّدت حزازة في صدور العامّة والفقهاء تولّي اليهود للوظائف المخزنيّة والجمركيّة، فتحكّموا في أسواق الدّولة الزيانيّة بالمناطق الشّماليّة، والواحات الصّحراويّة، وأصبحوا هم الذين

---

[1]- الونشريسي، المعيار، ج6ص177.

[2]-محمّد نجيب بوطالب، سوسيولوجية القبيلة، ط1، بيروت:مركز دراسات الوحدة العربيّة ،2002 ، ص ص116-117.

[3]- مارمول، إفريقيا، ج3ص301.

[4]-المازوني، الدرر المكنونة، ج3ص ص158-159.

[5]- قال الونشريسي في معياره :((صورة المكس على ما نقله الشيخ أبو محمّد المرجاني عن بعض العلماء أن يحتكر شخص واحد أو أكثر منه سلعة لا يبيعها أحد غيره أو غيرهم أو من يختاره أو يختارونه وإن كثروا بشرط ألّا يأخذوا السّلعة إلا من جهة...وقال الطيبي المكس الضريبة التي يأخذها العشّار))، المصدر السابق، ج2ص492.

[6]-المصدر نفسه، ج2ص492.

يحدّدون أسعار البيع والشّراء دون تدخّل الدّولة التي تخلّت عن دورها، كما قاموا بالإشراف على مكاتب الدّيوان[1]. و صاحب تولّي اليهود لوظائف الخراج تزايد ثرائهم، فذكر الحسن الوزّان أنّ اليهود بتلمسان كانوا قبل عام 923هـ أغنياء إلى أن انتهبت ديارهم بعد موت الملك أبي عبد الله عام 923 هـ، فأصبحوا اليوم يكادون يتكفّفون النّاس.[2]

موقف الفقهاء من تفشّي الظّلم والغصب

إنّ المتصفّح للتّراث الذي خلّفه فقهاء القرن التّاسع الهجري يلمس تصريح بعض الفقهاء بالضّجر من الواقع. فمن ذلك قول السنوسي حاكيا صعوبة العثور على عالم من أبناء القرن التّاسع الهجري يجمع بين علم الظّاهر والباطن حيث يقول: ((وما أقل وجوده في هذا الزّمان الكثير الشر))[3]. ويشير بيتين أنشدهما عبد الرّحمن الثّعالبي بعد أن استأذنه سكّان مدينة الجزائر للاستسقاء؛ إلى مدى تفاقم ظاهرة الظّلم والجور والذي شارك فيه حتّى القضاة ، حيث قال:

يطوف السّحاب بمزغنة ..... بعذب فرات وماء زلال

يريد النّزول فلم يستطع ..... لجور القضاة وظلم الولاة[4]

ولم يكتف فقهاء المغرب الأوسط بإظهار سخطهم من الظّلم، بل أظهروا مواقفا مُعارضة اختلفت أشكالها، وهي ما يمكن تلخيصها كالآتي:

- **اعتزال السّلاطين:**

---

[1]- مختار حساني، تاريخ الدّولة الزيانيّة، ج1ص37.

[2]-مارمول، إفريقيا، ج2ص20.

[3]-الملاّلي، المواهب القدّوسيّة، ص176.

[4]-المهدي البوعبدلي، الجوانب المجهولة من ترجمة حياة الإمام أحمد بن يحي الونشريسي، ص25.

بسبب أعمال الظّلم التي مُورست على سكّان المغرب الأوسط قام بعض الفقهاء باعتزال السّلاطين، و عدم قبول هداياهم وعطاءاتهم؛ كمحمّد بن يوسف السنوسي، الذي بعث إليه السّلطان في أخذ شيء من غلاّت مدرسة حسن أبركان فامتنع فألحّوا عليه فكتب في الاعتذار كتابة مطوّلة فقبل منه[1]. وقد ذكر الملالي بعض مواقف السنوسي في هذا الصّدد فقال: ((فمن ورعه ؛ بُعده عن الاجتماع مع أبناء الدّنيا ، وأقارب السّلطان من الوزراء والقوّاد ونحوهم، ولا شيء أبغض إليه من الاجتماع بهم، والنّظر إليهم، وقد خرجنا معه رضي الله عنه يوما إلى الصّحراء، فرأى على البعد أناسا راكبين على خيول وعليهم ثياب فاخرة فقال لنا: من هؤلاء ؟ فقلنا له هؤلاء خواص السّلطان، فقال رضي الله عنه: أعوذ بالله من الشّيطان الرّجيم، ورجع عن طريقه...وكان لا يقبل شيئا يأتيه من قبل السّلطان أو غيره من أقاربه أو خاصّته كالوزراء والقواد ونحوهم)).[2]

كما بات بعض الفقهاء يتورّعون عن قبض أجرة القضاء كالفقيه أبي زكريا المازوني الذي سأل أبا الفضل العقباني، عن حكم قبض أجرة القضاء وتوزيعها على الفقراء، مع إخباره أنّ هذه الأجرة تعطى له من أموال الغصب والمغارم[3].

وهكذا يجد الباحث في ثنايا كتب التّراجم ما يترجم ظاهرة اعتزال السّلاطين، بل وحتّى المجتمع، فابن زاغو كان يردّد هذه الأبيات التي تمثّل قمّة الفكر الانعزالي:

أنست بوحدتي ولزمت بيتي
فدام الأنس ونمى السّرور

وأدّبني الزّمان فما أبالي
هجرت فلا أزار ولا أزور

ولست بسائل ما دمت حيا

[1]-التنبكتي، النيل، ص570.

[2]-الملالي، المواهب القدّوسية، ص270.

[3]-المازوني، الدّرر المكنونة، ج3ص76.

أسار الجند أم ركب الأمير[1]

أمّا محمّد بن يوسف السنوسي، فبعد أن ذكر تبرّم العلماء المتقدّمين من أزمنتهم، قال: ((فكيف لو رأوا زماننا هذا أواخر القرن التّاسع...والواجب فيه قطعا لمن أراد النّجاة بعد تحصيل ما يلزم من العلم أن يعتزل النّاس جملة، ويكون جليس بيته، ويبكي على نفسه، ويدعو دعاء الغريق لعلّ الله سبحانه يخرق له العادة، ويحفظه بين هذه الفتن المتراكمة)).[2]

- **هجرة الفقهاء:**

أدّى تفشّي الظّلم وتسلّط اليهود في بلاد المغرب الأوسط إلى هجرة بعض الفقهاء والدّعوة إليها. فهاهو الوادي آشي [3]، يعبّر عن تبرّمه من سكنى تلمسان، بسبب كثرة الظّلم وتسلّط اليهود بقوله:

تلمسان أرض لا تليق بحالنا

ولكنّ لطف الله نسأل في القضا

وكيف يحبّ المرء أرضا يسوسها

يهود وفجّار ومن ليس يرتضى[4]

ومن الشّخصيات البارزة التي غادرت أرض المغرب الأوسط أحمد بن يحي الونشريسي الذي صرّح في عدّة مواضع من " **معياره**" بمخالفة هؤلاء السّلاطين لأحكام الشّرع، ومن ذلك قوله عن البدع

---

[1]- التنبكتي، كفاية المحتاج، ص ص60-61.

[2]-محمّد السنوسي، العقيدة الوسطى وشرحها، ص19.

[3]- محمّد بن الحدّاد، المشهور بالوادي آشي نسبة إلى إلى وادي آش، وهي مدينة بالأندلس قريبة من غرناطة، حلّ بتلمسان حين أخذت غرناطة. حول وادي آش ينظر: الحميري، الروض المعطار، ص ص 604-605؛ وحول محمّد بن الحدّاد ينظر: المقرّي، أزهار الرياض، ج3ص305.

[4]-المقرّي، أزهار الرياض، ج3ص307.

والمنكرات في زمانه:((ومنها المكوس ومحدثات المظالم وإقامة صور الأئمة وولاة الأمور والقضاة)) [1].
ونتيجة لما عرف به الونشريسي من قوّة الشّكيمة، انتهبت داره [2]، ففرّ إلى فاس و استقرّ هو و عائلته بها[3]، و اشتهر من بين عائلته ابنه عبد الواحد الونشريسي، الذي كان على نهج والده في مواجهة السّلاطين والإنكار عليهم، فقد اتّفق أنّه كان في يوم عيد ينتظر مع المصلّين خروج السّلطان أبي العبّاس المريني لصلاة العيد، فتأخّر خروج السّلطان حتّى حان وقت صلاة الظّهر، فحين خرج السّلطان رقى عبد الواحد الونشريسي المنبر، فخطب النّاس قائلا :((أيّها النّاس عظم الله أجركم في صلاة العيد)) [4]. ثمّ أمر المؤذّن لصلاة الظّهر، فصلّى بهم الظّهر وانصرف ولم يراع في ذلك سلطانا ولا غيره. وقد كان مصير عبد الواحد الونشريسي القتل، بعد أن عارض دخول أبي عبد الله محمّد المهدي السّعدي إلى فاس[5].

ولم يقتصر دور الفقهاء على الهجرة فحسب، بل راح الكثير منهم يدعوا إليها، كالقابسي حين سئل عن السّلطان الجائر الظّالم يأخذ العشر يأكلها – كذا– ويغرم النّاس بلاحق، وأودع عند رجل

---

[1]–الونشريسي، المعيار، ج2ص492.

[2]– لم تعرّج المصادر التي ترجمت لأحمد بن يحيى الونشريسي إلى سبب هجرته وانتهاب داره، لكنّ محقّق المعيار المعرّب، علّق على قول الونشريسي:((قلت من هنا تعلم أنّ ما وقعت به الفتوى بتلمسان سنة ستّ وسبعين من إباحة حفر القبور ونبشها لإنشاء سور أو برج مكانها مع عدم الضّرورة الملجئة لذلك خطأ صراح لا يحلّ ولا يباح)) بقوله:((قد يكون هذا الانتقاد سبب غضب ملوك تلمسان على الونشريسي)). ينظر: الونشريسي، المصدر السّابق، ج1ص329.

[3]– لم تغيّر هذه النّكبة من سلوك الونشريسي، فظلّ صادعا بما يرى أنّه الحقّ، ولم توقفه كثرة القائل بخلافه، ولا العامل على غير منواله، ومن ذلك ما صرّح به حول فساد ما جرى به عمل قضاة المغرب الأقصى والأوسط من استفسار شهود الاسترعاءات، حيث قال:((فاعلم أنّ عمل القضاة بالمغرب الأوسط والأقصى جرى منذ مائة سنة ونيف باستفسار شهود الاسترعاءات عند المبرزين عن شهادتهم بعد أدائها على فصول الوثيقة، ومضمنها عند القاضي قبوله إياهم. وسأذكر في هذا الفصل من أجوبة الشيوخ في المسألة ما يُستدلّ على أنّ الذي جرى به عملهم في هذه الفصول مخالف للقواعد والأصول)).ينظر: أحمد بن يحيى الونشريسي، المنهج الفائق والمنهل الرائق والمعنى اللائق بآداب الموثّق وأحكام الوثائق، تحقيق: عبدر الرحمن بن حمود الأطرم، الإمارات العربية المتحد: دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء الثرات، ط1، 2005، ج1 ص373

[4]–عبد الرّحمن الجيلالي، الشّهيد عبد الواحد الونشريسي 955هـ–1549م، مجلّة الأصالة، عدد 13، 1973، ص ص41–42 .

[5]– المرجع نفسه، ص ص41–42 .

ذلك المال فقبله منه مداراة. فأجاب : ((والمقام في بلد فيه مثل هذا غير طيّب))[1]. و أورد ابن مريم ضمن ترجمة أحمد الحاج المناوي نصا يظهر نوعا من أنواع معارضة بعض الفقهاء للواقع، وهي في مجملها معارضة سلبيّة، لا تعمل على تغيير الواقع بل مستسلمة لسلطة الظّلمة من الولاّة والسّلاطين، وهي معارضة داعية إلى الهجرة على القادر أو الاعتزال على العاجز، وصاحب هذه النّازلة هو فقيه آخر وهو أبو العبّاس أحمد البجائي.

ونصّ سؤال أحمد البجائي هو:((سيّدي رضي الله عنكم، وأدام بمنّه عافيتكم، ما جوابكم في موضع كثر فيه الظّلم والأشرار، وانتشر فيه الباطل والسّكر كلّ انتشار، وذلّ فيه المسلمون وعزّ الكفّار، وارتفع فيه الجور والظّلم، واتّضع فيه أهل المعرفة والعلم، تمكّس فيه جلّ المبيعات على المسلمين، وأشكل الأمر على المسترشدين، ولم يظهر من فضائله ناكر لمنكر، فلا أدري أخوفا على أنفسهم أم استهزاء بالأمر، ثمّ إنّ إنسانا اضطرّ إلى أخذ العلم من علماء الموضع المذكور، خشي على نفسه ممّا هو قبل مسطور، فهل أعزّكم الله يسوغ له المكث في ذلك الموضع مع عدم قدرته على تغيير المنكر إلاّ قليلا، ويكون بذلك ممتثلا لأمر ربّه...وهل يسوغ له أخذ العلم من علمائه مع عدم تغييرهم لما ذكر، وإقامتهم بالموضع المذكور))[2]. ونلاحظ أنّ السّائل قد أشار إلى أنّ كلّ فقهاء بلده قد تركوا مهمّة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، ولم يجعل السّائل لهم من عذر إلا الخوف على النّفس، أو الاستهانة بالأمر.

وقد أجاب المناوي قائلا:((الواجب على المؤمن المحقّق، النّاظر لنفسه نظر مشفق، أن يفرّ بدينه من الفتن، ولا يقيم إلا في موضع تقام فيه السّنن))[3]. ثمّ بيّن أنّه في حال :((تعذّر عليه ذلك وانسدّت عنه المسالك، ...فليقم هناك صابرا صبرا جميلا، ويكون مع المستضعفين من الرّجال والنّساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا، وليقل كما قالوا إن لم يجد معينا على الدّين ولا ظهيرا ربّنا أخرجنا من هذه القرية الظّالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليّا واجعل لنا من لدنك نصيرا))[4].

---

[1]-الونشريسي، المصدر السّابق، ج1ص387.

[2]-ابن مريم، البستان ، ص ص70-71.

[3]-المصدرنفسه، ص70.

[4]-ابن مريم، البستان، ص 71.

وظلّ الشّيخ رغم ذلك متمسّكا بطاعة ولاة الأمور ما لم يكفروا حيث ختم جوابه بإيراده قول الفقيه الكلاعي :

وطاعة من إليه الأمر فالزم ......

وإن جاروا وكانوا مسلمين ......

وإن كفروا ككفر بني عبيد ......

فلا تسكن ديار الكافرين ......

فربّما يقوم الحقّ يوما ......

فتهلك في غمار الهالكين ......

تج في الأرض متّسعا فهاجر ......

إلى دار الهداة الواصلين[1]

يُلاحَظ من خلال هذا النصّ مدى تفاقم ظاهرة الظّلم؛ الأمرُ الذي جعل الفقهاء يُفتون بوجوب الهجرة. وممّا يُسْتنتج من هذا النصّ أيضا هو ذلك التواصل بين فقهاء المغرب الأوسط فيما بينهم.

كما يبرز هذا النصُّ وجودَ طائفة من الفقهاء الذين لا يعملون على إصلاح الواقع، والمهملين للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[2].

أمّا استدلال المناوي بهذه الأبيات، والتي تدعوا إلى عدم الخروج على ولاة الأمور، رغم تصريحه بظلم السّلاطين، فيدلّ أنّ طاعة هؤلاء الفقهاء للسّلاطين، وعدم نقضهم للبيعة لم يكن إلاّ سلوكا أملاه

---

[1]-المصدر نفسه، ص 71.

[2]- جاء في مقدّمة جواب محمّد بن يوسف السنوسي على نازلة يهود توات في معرض ثنائه على عبد الكريم المغيلي ما يؤكّد تراجع ظاهرة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، حيث يقول:((إلى الأخ في الله الحبيب في ذات الله تعالى القائم بما اندرس في فاسد الزّمان من فريضة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ، التي القيام بها لا سيما في هذا الوقت علم على الاتّساع بالذّكورة العلميّة والغيرة الإسلاميّة)). الونشريسي، المعيار، ج2ص252.

عليهم الواقع ودعتهم إلى مراعاته المصلحة العامّة [1].ففقهاء تلك الفترة كانوا يسيرون على نهج محمد المقري الجد، والذي قال في كتابه **القواعد**: ((يجب ضبط المصالح العامة، ولا تنضبط إلا بتعظيم الأئمَّة في نفوس الرعية، ومتى اختلف عليهم أو أهينوا تعذرت المصلحة العامة))[2].

وهكذا شهد القرن التّاسع الهجري و الخامس عشر الميلادي مرحلة حاسمة في تاريخ حركة العلماء الجزائريّين نحو المشّرق الإسلامي، لا من حيث عددهم الهائل هنالك فحسب، بل من حيث تنوّعهم وتوزيعهم عبر أقطار المشرق، وقد لاحظ عمّار هلال أنّ تمركز أكبر عدد من فقهاء المغرب الأوسط كان في الحجاز وبالأخص بمكّة والمدينة ، ولعلّ مرجع ذلك إلى الاستقرار الذي عرفته بلاد الحجاز مقارنة ببقيّة البلاد الإسلاميّة، يضاف إليه تقلّص الهجرة إلى الأندلس، بسبب تدهور أوضاعها السياسيّة. و قدّر عمّار هلال نسبة الفقهاء المهاجرين إلى الحجاز ب 46.93% وفي مصر قدّر نسبتهم ب: 22.44 %، و10.28 % في القدس. كما أثبت أنّ الفقهاءَ المهاجرين كان أغلبهم من المناطق التي كانت تعيش على وقع الفتن كبسكرة وبجاية، وتلمسان، الجزائر، و بلاد زواوة، وقسنطينة[3]، وهو ما يؤكّد مدى تأثير الأوضاع السياسيّة في عمليّة الهجرة.

ورغم الجوّ العلمي المشحون في البلاد المشرقيّة والمغربيّة، وما كان يسفر عنه من تنافس حاد بين الفقهاء، فإنّ فقهاء المغرب الأوسط قد أوجدوا لأنفسهم مكانة مرموقة في أشهر المدارس الإسلاميّة، واستفاد منهم خلق كثير، وتقلّدوا مناصب مهمّة، وممّن برز منهم سالم بن عبد الله القسنطيني (ت820هـ)، وأحمد بن محمّد المغراوي ت 820هـ، وأبو الفضل محمّد المشذالي (ت 865هـ)، ويحيى العلمي (ت888هـ)، وأبو الطيّب محمّد النقاوسي (ت897هـ)[4].

3 - تسلّط شيوخ القبائل وانعدام الأمن:

---

[1]-سليمان ولد خسال، جهود فقهاء المغرب العربي في بناء النظام السياسي الإسلامي، ص196.

[2]- أبو عبد الله محمد بن محمد المقري، القواعد، تحقيق: أحمد بن عبد الله بن عبد الحميد، مكة المكرمة : مركز إحياء الثرات الإسلامي، ج2ص429.

[3]-عمّار هلال، العلماء الجزائريّون في البلدان العربيّة الإسلاميّة فيما بين القرنين التّاسع والعشرين الميلاديين، (3/14هـ)، ط 1، الجزائر:ديوان المطبوعات الجامعيّة، 1995، ص ص274-279.

[4]- عمّار هلال، العلماء الجزائريّون في البلدان العربيّة الإسلاميّة، ، ص ص279-291.

من المظاهر السياسيّة والاجتماعية التي كان لها أثر وخيم على بلاد المغرب الأوسط، تفاقم سلطة شيوخ القبائل[1]، لا سيما العربيّة منها[2]، وذلك أنّ هذه القبائل قد ساهمت في توطيد سلطان الدّولتين الحفصيّة والمرينيّة، ونظير ذلك أطلق السّلاطين أيدي شيوخ القبائل على ما تغلّبوا عليه من البلاد، مقابل تكفّل هذه القبائل المخزنيّة[3] بجمع المغارم[4]، وفرض المكوس، مع التزام الخضوع والولاء، والتكفّل بتمويل المخزن، وتوفّير المدد العسكري للدّولة[5].

كانت الدّولتان الحفصيّة والزيانيّة في أيّام قوّتها قادرة على طرد القبائل عن التّلول إلى الصّحاري والقفار. لكنّ هذه القبائل اغتنمت فرصة الاضطرابات المزمنة التي كانت تنتاب المغرب الأوسط لتنتشر في أرجاء التلّ وتستقلّ بأمر الكثير من البلاد[6]، وهكذا صارت هذه القبائل قبلة للأدعياء والطّامحين إلى السّلطة؛ فتعاونت معهم نظير الحصول على المكافآت[7]، بل وصل الأمر ببعض القبائل إلى تهديد

---

[1]-محمّد نجيب بوطالب، سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي، ط1، بيروت:مركز دراسات الوحدة العربيّة، ص56.
Mercier , Histoire de l'Afrique septentrionale,T2p381-381.

[2]-هي القبائل الهلاليّة المنحدرة من بني هلال وسليم وبعض القبائل المضريّة، والذين أرسلهم المستنصر الفاطمي إلى إفريقية بإشارة من وزيره اليازوري بعد أن قطع المعزّ بن باديس الدّعوة لبني عبيد سنة 437هـ، وقام بمبايعة بني العبّاس. وقد دخلوا بلاد المغرب كالجراد المنتشر سنة 443هـ، ودخلوا القيروان فخرّبوها سنة 449هـ، وقاموا باقتسام بلاد إفريقية، كما زحفوا على بلاد المغرب الأوسط، فاصطدموا بالنّاصر الحمّادي سنة 460هـ وهزموه، وغلبوا على بسائط المغرب الأوسط. وقد غلب عليهم اسم العرب الهلاليّة لأنّ الرياسة والعدد كانت لهلال.ينظر: ابن خلدون ، التّاريخ،ج6ص ص17-20؛ عبد الحميد بوسماحة، رحلة بني هلال إلى الغرب وخصائصها التّاريخيّة الاجتماعيّة والاقتصاديّة، الجزائر:دار السّيل، 2008، ج1ص ص63-78؛ عبد الحميد يونس، الهلاليّة في التّاريخ والأدب الشّعبي، موقع www. Kotobarabia.com ، ص ص 51-61، مصطفى أبو ضيف أحمد عمر، القبائل العربيّة في المغرب في عصري الموحّدين وبني مرين، الجزائر:ديوان المطبوعات الجامعيّة، 1982، ص ص 59-61؛ رابح بونار، المغرب العربي تاريخه وثقافته، ط2، الجزائر:الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، ص199.

[3]-قبائل المخزن :هي قبائل تضع على ذمّة الدّولة مجموعة من فرسانها مقابل بعض الامتيازات، فهي تمثّل مجموعات عسكرية ثانوية تساعد الجيش النّظامي خلال الجولات الخاصّة بجمع الضّرائب في فترة الانتفاضات، وتلعب دورا هاما في العمليات العسكرية الدّاخليّة دون العمليّات الخارجيّة التي تتطلّب جيشا نظاميا. ينظر: محمّد بوطالب، سوسيولوجيا القبيلة، ص113.

[4]-محمّد حسن، المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي، ط1 ،تونس:جامعة تونس، 1999 ، ج1ص98.

[5]-برنشفيك، تاريخ إفريقيا في العهد الحفصي، ج2ص104.

[6]-ش. أ. جوليان، تاريخ إفريقيا الشماليّة، ص207؛ محمّد حسن، المدينة والبادية، ج1 ص103.

[7]-رشيد بورويبة وآخرون، الجزائر في التّاريخ، ص ص467- 471.

تهديد حواضر الملك[1]. و كانت هذه القبائل تعيش غالبا على النّهب والغصب والإغارة، وفرض المغارم على البلاد التي كانت تحت أيديهم ، فهي قبائلٌ "أرزاقها في ظلال رماحها" ، وهكذا تحوّلت هذه القبائل إلى مِعول ساهم في انهيار الدّولتين الزيانيّة والحفصيّة وخراب العمران بهما[2].

وإذا كان نفوذ القبائل لم يقتصر على الأرياف، أين توجد القبائل الضّعيفة، بل امتدّ في أواخر عهد الدّولتين الحفصيّة والزيانيّة إلى حواضر الملك ؛ فإنّ شيوخ القبائل بدورهم لم يكتفوا بما كانوا يفرضونه على القبائل الضّعيفة من المغارم وأموال العشور؛ بل وصل بهم الحدّ إلى مطالبة السّلاطين بالعطايا مقابل كفّهم عن شنّ الغارة، وترويع السّابلة، فهاهو ابن خلدون يشير إلى أنّ :((العرب كانوا يزرعون الأراضي في بلادهم بالتلول ولا يحتسبون بمغارمها فيضيق الدخل، ويمنعهم السلطان العطاء من أجل ذلك، فتفسد طاعتهم، وتنطلق بالعيث والنهب أيديهم)).[3]

دفع تسلّط شيوخ القبائل بالسّلاطين إلى محاولة كبح نفوذهم، خصوصا أولئك الخارج ين عن طاعتهم[4]. فكانت الدّولة تدخل معهم في حروب مكلّفة، وتقوم بتقويّة نفوذ قبيلة على حساب أخرى، أخرى، وما تكاد تخُمِد نار قبيلة حتّى تَبرُز قبيلةٌ أخرى على السّاحة. ومن بين سلاطين القرن التّاسع الذين أظهروا حزما كبيرا قصد تقويض سلطة شيوخ القبائل؛ أحمد العاقل الزياني، الذي ذكر التنسي أنّه:((أظهر في أوّل أيّامه الحزم أمام اللّصوص والعربان)) [5]، وكذلك في عهد السّلطان الحفصي أبي

[1] – من ذلك ما فعله خالد بن عامر وبنو يعقوب والمعقل، حين قاربوا تلمسان، و عاثوا فسادا في ساحاتها، ونفس الشيئ بالنّسبة لحاضرة تونس حيث نزل الأعراب بها، وضيّقوا على سلطانها. ينظر: يحيى بن خلدون، بغية الرواد، ج 2ص506؛ البرزلي، النوازل، ج 6ص ص179-180.

[2] –محمّد العبدري البلنسي، الرّحلة المغربيّة، تقديم سعد بوفلاقة، ط 1، الجزائر:منشورات بونة للبحوث والدّراسات، 2007، ص25؛ محمّد الهادي الشّريف، ما يجب أن تعرف عن تاريخ تونس، تعريب:محمّد الشاوش–محمّد عجينة، ط 3، تونس:دار سرّاس للنّشر، 1993، ص ص 50-51، 57-58؛ مولاي بلحميسي، نهاية دولة بني زيان، ا لأصالة، عدد26، السنة الرّابعة، 1975، جويلية – أوت، عدد خاص عن تاريخ تلمسان وحاضرتها، ص33.

[3] –ابن خلدون، التّاريخ، ج6ص577.

[4] –مارمول، إفريقيا، ج2ص292.

[5] –التنسي، نظم الدرّ والعقيان، ص249.

فارس عزوز الذي ضرب بيد من حديد، حيث يقول أحمد بن يحي الونشريسي :((أنّ الله قطع به أهل الزّيغ والفساد من أهل البادية والبلاد))[1].

ومن الآثار السلبيّة لتزايد نفوذ سلطة شيوخ القبائل تفكّك بلاد المغرب الأوسط، و استقلال الكثير من الأقاليم[2]. وهو ما جعل السّلطة المركزيّة تفقد حقّ الإشراف على جباية الضّرائب من القبائل مثل ما كان عليه الحال في عصرها الذّهبي، بل أصبح ذلك من احتكار القبائل المستقلّة أو قبائل السّيبة[3]، والتي ساعدتها الأسباب الجيوسياسية في التحرّر من دفع الفروض المخزنيّة، فالمناطق الجبلية والمناطق المتاخمة للصّحراء لم تخضع إلى المخزن بشكل دائم، وتلك كانت حالة جبال القبائل والأوراس بالجزائر[4].

ومن أهمّ التحوّلات الاجتماعية التي عرفها المغرب الأوسط في هذه الفترة هو بداية هيمنة العائلات على حساب القبيلة فيما يشبه الأوليغارشية [5]، فأضحت بسائط المغرب الأوسط، وتلاله مقرّ إمارات قبليّة عديدة تشمل مشيخة مدينة الجزائر، وسلطنة كوكو التي يحكمها ابن القاضي بالقسم الغربي من جبال القبائل الكبرى، أمّا القسم الشّرقي من تلك الجبال فتحت إمرة الأمير عبد العزيز من أسرة بني العباس، وكانت المزاحمة على أشدّها بين كوكو وقلعة بني عبّاس، كما ظهرت عدّة إمارات واهية، صارت تقتسم الرّقعة الوُسطى، ولا تدين في الغالب بالولاء لأحد، أمّا الزّاب والحضنة وبعض جهات الصّحراء فتحت إمرة عائلة بوعكّاز [6]. يقول أبروديل واصفا هذا التفكّك السياسي:((كانت الفوضى السياسيّة والاضطرابات، وتداخل الممالك بعضها ببعض، قد بلغت في الشّمال الإفريقي

---

[1]-الونشريسي، المعيار، ج10ص10.

[2]-جون .ب. وولف، الجزائر وأوربا 1500-1830، ص24.

[3]-تستعمل كلمة سيبة بالمعنى الفضائي عند الإشارة إلى التمرّد الذي يمكن أن يبرز لدى ساكني الأطراف، والذين يساعدهم موقعهم الجغرافي على الانفلات من رقابة الدّولة، وهو اصطلاح مغربي في الأساس. ينظر : محمّد بوطالب، سوسيولوجية القبيلة، ص 115-116.

[4]-المرجع نفسه، ص115؛ صالح عبّاد، الجزائر خلال العهد التّركي، ص10.

[5]- الأوليغارشية: هي هيمنة فئة صغيرة على الحكم. ينظر:برنشفيك، تاريخ إفريقيا في العهد الحفصي، ج2ص101.

[6]-أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة، ص ص93- 94.

مبلغا لا يمكن أن نلخّصه في صفحات، وإنّ الإنسان ليصاب بنوع من الذّهول وهو يتلو قائمة الممالك والإمارات التي اقتسمت رقعة هذا الشّمال الإفريقي)).[1]

صراع القبائل فيما بينها وتشكّل الأحلاف:

أدّى عزوف القبائل عن تقديم مساعداتها للدّولة، وإغارة القبائل القويّة على القبائل الضّعيفة إلى تدهور الأوضاع الأمنيّة. وأصبح شيوخ القبائل الغارمة يقدّمون الأموال للقبائل الغالبة مقابل حفظ مضاربهم ، وعدم التعرّض لغاراتهم، وبهذا شكّلت القبائل القويّة شبه جيش ينوب عن الدّولة، فلوضاً نفسه على نطاقات واسعة [2]، وهو ما ساهم في تعطّل الكثير من المسالك البريّة، فخربت المدن والعمران، وتعطّلت التّجارة[3].

وكانت القبائل القويّة تعيش حالة من الصّراع فيما بينها؛ ذلك الصّراع الذي كان يتّخذ طابعا حادا وعنيفا، ويكون هذا الصّراع في الغالب لحيازة المجال [4]، وتنمية موارد القبيلة. وكانت الغلبة تصاحب القبيلة الأقوى عدّة والأكثر عددا حيث يكتب لها الهيمنة، تكريسا للمثل القائل، – عدّ رجالك وأورد الماء –. وهو الوضع الذي دفع بالقبائل الصّغيرة إلى التّحالف فيما بينها، أو محالفة قبيلة أخرى قادرة على حمايتها، وبذلك تشكّلت الأحلاف[5].

---

[1] – توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة، ص69.

Braudel, Les Espagnols et l'Afrique du nord ، p 212-213.

[2] –مختار حساني وآخرون، التّاريخ العسكري للجزائر من الفتح الإسلامي إلى القرن 16، الجزائر:منشورات المركز الوطني للدّراسات والبحث في الحركة الوطنيّة وثورة أوّل نوفمبر 1954، طبعة خاصّة بوزارة المجاهدين ،2007، ص ص151-152

[3] –ابن الشماع، الأدلة البينة النورانية، ص ص135-138.

[4] – الطّاهر بونابي، ظاهرة الاندماج الهلالي في المنظومة الصوفيّة بالمغرب الأوسط خلال القرن 8هـ/14م ، قسنطينة: مجلّة الآداب والعلوم الانسانيّة، جامعة الأمير عبد القادر، عدد12، 2011، ص146.

[5] –محمّد بوطالب، سوسيولوجية القبيلة، ص ص117-118.

موقف الفقهاء من تسلّط شيوخ القبائل:

تناولت كتب النّوازل **كالمعيار المعرب** و**الدّرر المكنونة** و**فتاوى البرزلي** أهمّ الظّواهر السلبيّة التي أفرزها تسلّط شيوخ القبائل في شتّى الميادين، فيظهر من خلال الكثير من النّوازل ما كان عليه السّلاطين من الإغداق في منح شيوخ القبائل الأراضي والإقطاعات ، ومن ذلك ما سئل عنه محمّد بن مرزوق :((عن رجل من أعيان القبائل يعطيه السّلطان أرضا ينتفع بها بحياته، فعمد لمن تحت ساحته في زمان الحرث فيأخذ لهم زرعا اغتصابا، ويأمرهم أن يحرثوا))[1].

و ترسم هذه النّازلة صورة حيّة عن مجتمع المغرب الأوسط في ظلّ سلطة شيوخ القبائل وما كان يعرفه من أعمال النّهب والغصب والظّلم والاستبداد وانعدام الأمن.

وتوضّح بعض النّوازل مدى جشع شيوخ القبائل، وتراجع الوازع الدّيني عندهم، ف لم يسلم من ظُلمهم حتّى المرابطين الذين كانوا محلّ تقديس في بلاد المغرب الأوسط، فقد سئل عبد الرّحمن الوغليسي عن أقوام مرابطين أغار عليهم أقوام من العرب فأخذوا ما في أيديهم من الماشيّة [2]، وهكذا نجد أنّ تسلّط شيوخ القبائل قد تجاوز كلّ الأعراف، وتعدّى كلّ الحدود.

الفقهاء وقتال شيوخ القبائل المفسدين:

رغم ما كان يقوم به شيوخ القبائل من أعمال لها حكم الحرابة من المنظور الشّرعي، فإنّ الفقهاء قد اختلف رأيهم حول شرعيّة محاربتهم، والإجهاز على جريحهم؛ فبين من يرى جواز ذلك، بل ويُشارك في القتال ويحثّ عليه، وبين من لا يرى ذلك ويُشنّع على فاعله. وهو ما نستشفّه من خلال نازلة سئل عنها ابن عرفة من قبل الفقيه أبي العبّاس أحمد المعروف بالمريض والذي أشار إلى أن بلاد المغرب شاغرة من العلماء، ولم يكن بها من يستفتى على هذه النازلة، ولعلّ في هذا الكلام من المبالغة الشّيء الكثير الأمر الذي جعل المازوني يعقّب بقوله :« والله أعلم بقصده »[3]. وقد يكون سبب هذا

---

[1]-المازوني، الدّرر المكنونة، ج3ص ص95-101، ص160.

- Jacques Berque ،L'Intérieur Du Maghreb,P49-47.

[2]-ا لمزوني، الدّرر المكنونة، ج3ص166.

[3]-المصدر نفسه ، ج1ص796.

الحكم من الفقيه أبي العبّاس هو تلك الحملة التي شنّها فقهاء المغرب الأوسط ضدّه، بسبب مشاركته في قتال المغيرين من شيوخ القبائل .

و هذا هو نصّ نازلته:

((جماعةٌ في مغربنا من العرب تبلغ بين فارسها وراجلها قدر عشرة ألاف أو تزيد ليس لهم إلا الغارات، وقطع الطرقات على المساكين، وسفك دمائهم، وانتهاب أموالهم بغير حق، ويأخذون حرم الإسلام أبكارا وثيبا قهرا وغلبة)) ولمّا ذكر السّائل حال هؤلاء المفسدين، أشار إلى ضعف السّلطان عن قتالهم حيث قال:((مع أن أحكام السّلطان أو نائبه لا تنالهم، بل ضعف عن مقاومتهم فضلا عن ردعهم؛ بل إنّما يداريهم بالأعطية والإنعام ببعض بلاد رعيته، ونصب عمّالهم فيها، وقطع نظر عمّال السّلطنة عن النّظر في حياتها، وفصل أحكامها)). ثمّ بيّن السّائلُ ما رآهُ من وجوب قتال هذه الطّائفة فقتال:((فأمرناهم بقتالهم، وصرحنا بأنّه جهاد فاجتمع الناس على قتالهم فهزمهم الله، وقتل منهم خلق كثير فأنكر ذلك علينا بعض المنتمين للعلم بهذه البلاد، بل كلّهم)) [1].. وتُظهر النّازلة صور التسلّط التي مارسها شيوخ القبائل، ومدى الضّعف الذي أصاب السّلاطين إلى الحدّ الذي جعلهم يشترون ودّ شيوخ القبائل بالعطايا والهبات، وكيف أنّ الأهالي تبرّموا من أعمالهم، ويئسوا من حماية السّلطان لهم، فقاموا بالدّفاع عن أنفسهم، بعد أن أفتاهم أبو العبّاس أحمد، وجعل قتالهم نوع من أنواع الجهاد، وما إن استجاب السكّان لفتوى أبي العبّاس حتّى هزم الله شيوخ القبائل المفسدين، وبدل أن يقوم الفقهاء بالثّناء على أبي العبّاس، راحوا ينكرون عليه. أمّا ابن عرفة فقد أجاب بجواز قتال هؤلاء المفسدين، والإجهاز على الجريح منهم، وتصويبه لفعل السّائل136. ويشبه جواب ابن عرفة جواب أبي سعيد بن لب حين سئل عن خطيب قرية اشترك مع أهلها في قتل محارب، فأجاب:((بأنّه لا حيف على الفقيه الذي شارك في قتله، ولا بأس بصلاة من ائتمّ به، وقد كان ما فعله من ذلك من جملة دينه وفقهه))[2].

الوظائف الدّينيّة في ظلّ سلطة شيوخ القبائل:

---

[1]- المازوني، الدّرر المكنونة، ج1ص ص309-311.

[2]- المصدر نفسه، ج1ص198.

كان الفقهاء في ظلّ سلطة شيوخ القبائل يمارسون بعض الوظائف الدّينيّة، كالإمامة والخطابة والقضاء وغيرها، تماشيا مع الواقع، وحتّى لا تتعطّل مصالح المسلمين، بيد أنّ شيوخ القبائل كانوا مشتهرين بعدم الانقياد التامّ لأحكام الفقهاء، والتّشويش عليهم، وهذا ما تُشير إليه نازلة سئل عنها أبو الفضل العقباني؛ فقد ذكر السّائل: ((حال بلاد المغرب الأوسط وكثرة فسادها، وعدم جريان الأحكام الشّرعية فيها)). وأضاف السّائل:((أنّ القاضي إذا حكم في مسألة بالتّحريم قولا يعتد بحكمه، ويمضي الحانث لصاحبه من الأمراء العرب، ويشتكي له فيأخذه صاحبه المذكور، ويساعده على عدم الانقياد لحكم القاضي))[1]. وقد تعرّض فقهاء آخرون لكثير من المضايقات؛ كمحمّد بن عمر الهواري الذي تحرّش بأحد أتباعه عثمان بن موسى بن المسعود العامري. وكان عثمان من طغاة العرب المفسدين ومن ظلمتهم المسرفين[2].

حكم الحجّ على سكّان المغرب في ظلّ فساد المسالك البريّة :

أثارت قضيّة انعدام الأمن في بلاد المغرب الأوسط مسألة طال حولها النّقاش، وهي مسألة "وجوب الحجّ" على سكّان المغرب والأندلس، وهل ما تعرفه أكثر الطّرقات من قطّاع الطّرق والمحاربين وغيرهم تُلحق سكّان المغرب والأندلس بالذين لا يستطيعون إلى الحجّ سبيلا. وممّن سُئل عن هذه المسألة القاضي أبو الحسن علي بن محسود، فقد سُئل عن حكم من حجّ في هذا الزّمان فأجاب :((غرّر بنفسه ، وإن تخلّف فمعذور))، كما قال أبو موسى عيسى بن مناس :((خروج الخارج اليوم إلى مكّة معصية، ولا يؤجر، وليؤخّر النّاس حتّى يفرّج الله)).[3]

و استشهد الشّيخ أثناء جوابه بكلام ابن طلحة في المدخل :((ولقد لقيت في بلاد المغرب وأنا قاصد الحجّ من المغرب ما اعتقدت معه أنّ الحجّ ساقط عن أهل المغرب بل حرام، لما يركبونه من المخاطرات، ونقل كلام الطرطوشي على أنّه حرام على أهل المغرب))[4] .

---

[1]- المصدر نفسه، ج1ص392.

[2]-ابن صعد، روضة النّسرين، ص121.

[3]-الونشريسي، المعيار، ج1ص432.

[4]- المصدر نفسه، ج1ص433.

وذكر أحمد بن يحي الونشريسي فتوى الفقيه أبي محمّد عبد النّور محمّد وهذا نصّها : ((والذي أعتقد أنّ فريضة الحجّ ساقطة عن أهل هذا الأفق منذ زمان، فكيف اليوم مع ما استفاض وشاع من غلبة خوف الطّريق من بلد رياح إلى أقصى إفريقية من استضعف من ركوبات الحجّ فنهب، مثل الذي كان وقع في دولة السلطان أبي عنان رحمه الله، ومن كثر عدده من الحاج، وقويت شوكتهم؛ مثل الذي كان في العام الفارط، فقد كانوا اجتمعوا على ما استفاض في آلاف كثيرة تزيد على العشرين ألفا من رجال وخيل، ومع ذلك فقد صاروا لا يسالمهم إلّا من ضعف عن قتالهم، ومن قوي من القبائل قاتلهم وقاتلوه وقتلهم وقتلوه، ولم يتخلّصوا بعد القتل والقتال إلاّ بغرم عظيم من الأموال، ووقع لهم ذلك في غير موضع، حتّى صعب على جمع منهم الانقلاب والمرجع)) [1]. وقد جعل الشّيخ أكثر من يحجّ في زمانه المتفرّدون؛ الذين لا يحملون زادا ولا راحلة، ليس لهم شيء من المال، وإنّما يتعيّشون بالسؤال [2]. و ذكر أحمد زرّوق أنّ الشّيخ أحمد بن الحسن الغماري قال له:((كلّ من حجّ في هذا الزّمان، ويعاود فهو عاص لله والرّسول، لأنّه يعرف آش تم [3])). كما أنّه قال:((ما يحجّ في هذا الزّمان إلا عارف بالله لا يبالي ما ناله في جناب الله)) [4]. أي أنّ غير العارف بالله لا يحجّ لما هو مخوف عليه من عدم التّسليم للقضاء و القدر، وهكذا عكست رؤى هؤلاء الفقهاء وفتاويهم مدى تدهور الوضع الأمني في بلاد المغرب.

توبة شيـوخ القبائـل:

شهد المغرب الأوسط لزوم الكثير من شيوخ القبائل طريق العبادة والتّوبة من الغصب والظّلم وغيرهما من المعاصي، ثمّ الانخراط في المنظومة الصّوفيّة [5]، ويُرجع جاك بيرك تبنّي شيوخ القبائل للتّعاليم

[1]- المصدر نفسه، ج1ص ص441-442.
[2]- الونشريسي، المعيار، ج1ص ص441-442.
[3]-آش تم : معناها أنّه يعرف ما الذي يوجد هناك.
[4]- أحمد زرّوق، الكنّاشة ، ص ص93-94.
[5]-برنشفيك، تاريخ إفريقيا في العهد الحفصي، ج2ص ص348-352.

الصوفيّة، إلى تحوّل هذه القبائل من التّرحال إلى الاستقرار، وهو الرّأي الذي أخذ به محمّد مفتاح، وعبد اللّطيف الشّاذلي[1].

ولعلّ سعادة السّني وطائفته السنيّة من أهمّ شيوخ القبائل الذين كان لتوبتهم أثر بارز في تنامي هذه الظّاهرة الاجتماعية. حيث اتّبع سعادة السّني أبناء مسلم إحدى شعوب رياح، و كثير من الذواودة، و أولاد سباع بن يحي، وأولاد إدريس، وأولاد عساكر، وأولاد يزيد بن زغبة وغيرهم [2]. وتشبه توبة سعادة السّني توبة قاسم بن مرا من الكعوب القائم بالسنّة في قبائل سليم والذي سمّى أتباعه بالجنّادة.[3]

وممّا ساهم في وجود هذه الظّاهرة ما عرفه المغرب الأوسط من فتحٍ لباب التصوّف الشّعبوي، وتبسيطٍ للخطاب الدّيني، وظهور الزّوايا والمرابط، وهو ما أدّى إلى توبة الكثير من شيوخ القبائل، وانتحالهم طريق العبادة. فكانت دروس الوعظ تمزّ كيان الحاضرين، مثل مواعظ محمّد بن عمر الهواري الذي يقول عنه ابن صعد: ((فتارة يخوّف النّاس والأغلال وأنواع العقوبات التي أعدّها الله للعصاة، فتكاد قلوب الحاضرين تنفطر، وتنشقّ من الخوف)) [4]. و جاء في ترجمة أحمد بن موسى الإدريسي (ت950هـ) أنّه قد تاب على يديه كثير من الناس[5].

هكذا بدأ شيوخ القبائل وأفرادها يساهمون في بناء المنظومة الصّوفيّة، و نقلت لنا كتب النّوازل ما يترجم لهذه الظّاهرة، كما أبرزت هذه النّوازل مدى تشجيع الفقهاء لشيوخ القبائل على التّوبة. فقد سئل أبو عبد الله الزواوي: ((عن مستول على قبيلة وغيرها، وطالت يده عليهم بغرم الأزواج ...ثمّ إنّ الرّجل المذكور أراد التخلّص ممّا حصل بيده، والرّجوع إلى الله والإنابة)). و جاء جواب الشّيخ كالآتي: ((الحمد لله إذا شرح الله صدر هذا الرجل استنار قلبه بنور الحقّ، وانجلت عنه ظلمات الجهل والغفلة،

---

[1]- الطّاهر بونابي ، ظاهرة الاندماج الهلالي في المنظومة الصوفيّة، ص ص142-143

[2]-ابن خلدون، التّاريخ، ج6 ص ص51-53.

- Jacques Berque ،L'Intérieur Du Maghreb,P56-57.

[3]-ابن خلدون، المصدر نفسه، ج6ص106.

[4]-ابن صعد، روضة النّسرين، ص55.

[5]-عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر، ص119؛ الحفناوي، تعريف الخلف، ج2ص101.

وأفاق منه سكر الهوى الذي كان يصرفه عن مراشده في سالف أيّامه)) [1]، ويعكس هذا الجواب مدى ابتهاج أبي عبد الله الزواوي بتوبة شيخ القبيلة. وأيضا سئل أبو الفضل العقباني عن رجل من جبابرة العرب، وأهل المخالفة منهم، ثمّ ألهمه الله رشده [2]. وفي نازلة مشابهة سئل أبو القاسم البرزلي:((عن رجل من العرب، ومن متغلبيهم، عُرفت جماعته بالبغي والعدوان في بلاد المغرب، والتّغلب على الرعيّة...ثمّ تاب هذا الرّجل، واعتزل جماعته، وقصد حاضرة من بلاد المغرب، فاستفتى من يقلّد بها من أهل العلم والدّين، فأمره بالخروج عمّا بيده من المال، وتفريقه لاستغراق ذمّته))[3].

رغم مباركة الفقهاء لظاهرة توبة شيوخ القبائل فإنّ محمّد حسن يرى أنّ هؤلاء الفقهاء كانوا عائقا أمام توبة شيوخ القبائل، فحلولهم المتشدّدة، وفتاويهم القاضية بوجوب تخلّص التّائب من أمواله، وضرورة حمله السّلاح أمام أبناء جنسه، كشرط من شروط التّوبة، إضافة إلى مشاركة بعض الفقهاء في قتال شيوخ القبائل، جعلت توبة الكثير من شيوخ القبائل تبدو صعبة[4].

ومن أسباب توبة الكثير من شيوخ القبائل؛ الرّواية الشّعبيّة، والفكر المناقبي والكرامي، فهاهو ابن صعد يحكي قصّة انتقام الله من عثمان أحد شيوخ القبائل الذي قام بردّ شفاعة الشّيخ محمّد بن عمر الهواري، واعتدى على خديمه، وقام بتقييده فاستعظم النّاس ذلك منه، وحذّروه من سطوه الشّيخ محمّد، فلم يقبل منهم واستمرّ في طغيانه، فلمّا وصل الخبر إلى مسامع الشّيخ محمّد الهواري، دعا على عثمان، فأجاب الله دعاءه فيه، وعثر به فرسه في ذلك اليوم الذي دعا عليه فيه، فأتوه فوجدوه ميّتا[5].

ميّتا[5].

وبمثل هذه القصص عن كرامات الأولياء، أضفت الرّواية الشعبيّة والفكر الكرامي على الزّاوية صفة الحرم الآمن، و جعلت من المرابط شخصا مقدّسا، ويلخّص كلام ابن صعد صورة الزّاوية وقداستها في المخيّلة الشّعبيّة حيث يقول عن زاوية سيدي الهواري:

---

[1]-المازوني، الدّرر المكنونة، ج3ص131.
[2]- المصدر نفسه،ج3ص138.
[3]- المصدر نفسه، ج3ص 142، 144-145.
[4]- محمّد حسن، المدينة والبادية ،ج2 ص663؛ الطّاهر بونابي، ظاهرة الاندماج الهلالي في المنظومة الصوفيّة، ص161.
[5]-ابن صعد، روضة النّسرين، ص121.

((وبهذا جرت عادة الله فيمن يتعرّض لهضم زاويته، وإضافة الجناة اللاّئذين بحرمه. فقد شاهدنا كثيرا من ولاة وهران، وعمّالها الذين سبقت لهم الشّقاوة، فحملتهم النّفس الأمّارة بالسّوء، على التّهاون بحرم الزّاوية، وإخراج من استجار بحرمها، فينتقم الله من فاعل ذلك في الوقت، ويأخذه من الجانب الذي يطمئنّ إليه، ويظهر عليه أثر غضب الله في نفسه، وماله وولده)) [1]. وهذا الإعتقاد في حرم الزاوية، هو الذي صيّر الكثير من شيوخ القبائل يبالغون في احترام المرابطين، فقد أشار إلى ذلك مامول عندما قال:((أنّ أحد المرابطين جاء إلى البطحاء [2] واستقرّ بها، وزرعها نظرا لخصوبتها وجودة مرعاها. وقد جاء النّاس ليستقرّوا في حماية هذا الرّجل الذي كان يحظى بتوقير ملوك فاس، واحترام الأعراب على السّواء))[3].

ومن صور تقديس شيوخ القبائل للمرابطين ما دأبت عليه قوافل القبائل التّجاريّة من اصطحاب رجل من المرابطين، حتّى يحميها من قطّاع الطّريق[4].

وهكذا مارس المتصوّفة سلطة تفوق سلطة الخليفة نفسه [5]، وهي سلطة تحصّلوا عليها من خلال الولاية و العصمة والكرامة و فاعلية الخطاب الصوفي[6]. ويمكن القول أنّ عقيدة المرابط قد استطاعت أن تقلّم أظافر شيوخ القبائل، ومكّنت من كسب احترامهم لها . وأيضا ساهم التصوّف في تخطّي رابطة النّسب والقبيلة، إلى رابطة الرّباط والطّريقة، واستطاع أن يحوّل الزّعامة من أيدي شيخ القبيلة إلى شيخ الطّريقة، فالسنيّة والجنّادة والشابيّة[7]، قد ضمّت إليها قبائل وعائلات مختلفة الأنساب[1]، وهو ما أفرز ما

---

[1]- المصدر نفسه، ص122.

[2]- البطحاء تبعد بثلاثة فراسخ عن وهران. ينظر:مارمول، إفريقيا، ج2ص326.

[3]-المصدر نفسه، ج2ص326.

[4]-حمدان خوجة، المرآة، ترجمة وتحقيق محمّد العربي الزبيري، الجزائر:منشورات ANEP، 2005، ص19.

[5]-محمّد حلمي، ولاة وأولياء، ص30.

[6]-المرجع نفسه، ص ص151-160

[7]- تكوّنت الشابيّة بعد تأثّر أحد أفراد الحنانشة بأفكار أحمد بن مخلوف من الشا بيّة، والذي سانده محمّد الرصّاع، وأثنى على طريقته، وتوفي أحمد ابن مخلوف سنة 887 هـ/ 1482 م، فخلفه ابنه محمّد، حاول الشابيّة الاستقلال السياسي عقب تفكّك الدّولة الحفصيّة ، ولعب الشابيّة دورا كبيرا في كثير من الأحداث السياسيّة بتونس، والأقاليم الشرقيّة للمغرب الأوسط. ينظر: محمّد بن محمّد العدواني، تاريخ العدواني، تحقيق أبو القاسم سعد الله، ط 1، بيروت:دار الغرب الإسلامي، 1996 ص 173؛ برنشفيك ، تاريخ إفريقيا في العهد الحفصي، ج2ص367

ما اصطلح عليه بالقبيلة الدّينيّة أو القبيلة الزّاوية[2]. ولعلّ ما ذكره المهدي البوعبدلي من خلال ما استقاه من وثيقة مؤرّخة بسنة 954هـ، بخطّ الشّيخ عبد الرّحمن اليعقوبي، صاحب المعهد الشّهير بندرومة [3]، يوضّح ذلك، حيث ذكر أنّ عبد الرّحمن اليعقوبي عقد مؤتمرا جمع فيه رؤساء قبائل أنقاد وبني سنوس وترارة ومطغرة وبعض أعيان تلمسان لإحياء الرّباطات، ويتعهّد سكّان القبائل المذكورة بإمداد الرّباط بالرّجال والعتاد والمؤونة[4].

4 - **سقوط المدن الأندلسيّة:**

بلغت دولة الإسلام في الأندلس مع نهاية القرن التّاسع قمّة ضعفها، فاشتدّت سطوة الممالك النّصرانيّة، وعقد ملوك اسبانيا النّصرانيّة اتّفاقيّة المرسى التي تمّ فيها اقتسام ما تبقّى من المدن الأندلسيّة بعد إسقاطها، وبذلك تساقطت كبريات مدن الأندلس الإسلاميّة تُباعا. فسقطت بياسة سنة623 هـ، وميورقة 627هـ وأبّدة 630 هـ ثمّ قرطبة 633 هـ؛ كما سقطت إشبيلية ومرسية وغيرها من عواصم خط الوادي الكبير [5]. وأيضا سقطت إستجّة 633 هـ، وبلنسية 636هـ، ودانية ، ولقنت 641هـ، وشاطبة 644 هـ، ومرسية 640 هـ، وجيان هـ، ثمّ إشبيلية 646 هـ، ومن الغرب سقطت شلب 640 هـ، وماردة وشنتمرية، ولم يأت منتصف القرن السّابع الهجري حتّى كانت ولايات الأندلس الشرقيّة والوسطى كلّها قد سقطت في يد إسبانيا النّصرانيّة [6]. وقد أدّى ضعف دول المغرب وخصوصا المغرب الأقصى إلى ترك الأندلس تواجه مصيرها بنفسها، حيث لم يحرّك سلاطين المغرب الإسلامي ساكنا بعد القطيعة بين المرينيين وملوك بني نصر، عدا بعض الإعانات المحتشمة من قبل بعض السّلاطين الحفصيين والزيانيّين، ولعلّ على رأس هؤلاء؛ السّلطان الحفصي أبو فارس الذي كان يُرسل

---

[1] - برنشفيك، المرجع نفسه، ج2ص367.

[2] -القبيلة الدّينيّة ويطلق عليها القبيلة الزّاوية، وعادة ما تتراوح نشاطاتها بين القيام بالشّعائر الدّينيّة في المنطقة، والقيام بأعمال الكتابة والتّعليم والعدالة. ينظر: محمّد بوطالب، سوسيولوجيا القبيلة، ص113.

[3] -قال في الرّوض المعطار عن ندرومة : مدينة في طرف جبل تاجرا بأرض المغرب، وهي مدينة حسنة كثيرة الزرع والفواكه رخيصة الأسعار...ولها مرسى مأمون مقصود وعليه رباط حسن يتبرّك به. الحميري، الرّوض المعطار، ص576.

[4] - المهدي بوعبدلي، أضواء على تاريخ الجزائر في العهد التّركي، ص ص 281 -282.

[5] - المقري، نفح الطّيب، ج4 ص ص445-483؛ ابن أبي دينار، المؤنس، ص ص440-441.

[6] -محمّد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ج4ص20.

عُشْرَ أحد أقاليم بلاده إلى مملكة غرناطة [1]، وابنه أبي عمرو عثمان الذي كان يعين أهل الأندلس على الجهاد[2].

موقف الفقهاء من سقوط المدن الأندلسية:

مع أنّ دولة الإسلام في الأندلس كانت في طريقها إلى السّقوط، فإنّ أكثر فقهاء المغرب والأندلس لم تكن مواقفهم وردود أفعالهم منسجمة مع ما يقتضيه الواقع، وما تحتّمه الظّروف، بل أنّ هؤلاء الفقهاء كانوا لا يزالون يكثرون الجدال والنّقاش في قضايا فرعيّة، لا تستحقّ الحيّز الذي أخذته، ولا الصّخب الذي أثارته، فأثيرت مسألة الكتابة على الكاغد الرّومي، والتي طال حولها الجدال، وأطال النّفس في تقريرها ابن مرزوق، وكتب فتواه الموسومة ب " **تقرير الدّليل الواضح المعلوم على جواز النّسخ في كاغد الرّوم**"[3] كما أثيرت في الأندلس مسألة حول طريق الصوفيّة هل يصحّ سلوكه بكتب الهداية الوافية **كالإحياء** و **الرّعاية**، أم لا بدّ من شيخ عارف يبيّن دلائل الطّريق، ويحذر غوائله، وهي المناظرة التي قال ابن خلدون أنه :((طال فيها الجدال، وجلب للاحتجاج العلماء و الأبدال، وذهبت النّصفة بينهم والاعتدال))، وهو وصف يرسم صورة حقيقيّة عن ضيق الأفق، وقلّة الإلمام بفقه الأولويات[4]. ومن المسائل التي أثيرت مسألة السلطان المريني أبي الحسن الذي سأل الفقهاء عن اتّخاذ الرّكاب من الذّهب، و بعث بسؤاله إلى فقهاء المغرب الأوسط والأقصى بتلمسان ومراكش وفاس [5]. لم يقتصر الخلاف حول المسائل الدينيّة، بل كان هناك صراع آخر يحرّكه طلب الرياسة، حيث قال المقرّي

---

[1]-برنشفيك، تاريخ إفريقيا في العهد الحفصي، ج1ص258.

[2]-ابن الشمّاع، الأدلة البينة النورانية، ص126.

[3]-بسط ابن مرزوق القول في جواز الكتابة على الكاغد الرّومي، وقوّى رأيه بأدلّة نقليّة وعقليّة، ومن بين أدلّته على الجواز، الضّرورة الماسّة إلى الكاغد الرّومي، بعد تراجع صناعة الكاغد في بلاد المغرب، وقد استهجن ابن مرزوق القول المخالف. ينظر:الونشريسي، المعيار، ج1ص75.

[4]-ممّن أدلى بدلوه في هذه المسألة أبو العبّاس القباب، ومحمّد بن إبراهيم المعروف بابن عبّاد الرّندي، وعبد الرّحمن بن خلدون.ينظر: عبد الرّحمن بن خلدون، شفاء السّائل وتهذيب المسائل، ص ص 33 -36.

[5]-المازوني، الدرر المكنونة،ج1ص253.

واصفا حال قضاة الأندلس في هذه الفترة العصيبة: ((...ولذلك من اختلاف رؤسائه وكبرائه، ومقدّميه وقضاته.))[1]

و يوجد في طيّات كتب نوازل القرن التّاسع الهجري الكمّ الهائل من أمثال هذه المسائل التي شغلت أصحاب المحابر وفرسان المنابر عن قضيّة الجهاد ضدّ نصارى الأندلس. في الوقت الذي كان أساقفة طليطلة وصقليّة وبابوات روما يقودون أباطرتهم إلى تحقيق نصر ساحق على الأمّة الإسلاميّة في بلاد المغرب والأندلس.

ولا يجد الباحث ما يخفّف من حدّة هذا الحكم عدا مواقف فقهاء آخرين، طرحوا بعض القضايا المتوافقة مع متطلّبات عصرهم، كمسألة الصّلح مع النّصارى، و مسألة أيّ العبادتين أفضل بالنّسبة لأهالي الأندلس هل هو الحجّ أم الجهاد؛ حيث قال عدد من الفقهاء بسقوط الحجّ، وأفضليّة الجهاد[2]. ومن المواقف التي تُحسب لفقهاء تلك الفترة مساعي البعض منهم لرأب الصّدع بين ولاة الأندلس، وتوحيد الجهود لمواجهة النّصارى، يقول المقري:((لم تقلّص الإسلامُ بالجزيرة واستردّ الكفار أكثر أمصارها وقراها على وجه العنوة والصّلح والاستسلام لم يزل العلماء والكتاب والوزراء يحركون حميات ذوي البصائر والأبصار، ويستنهضون عزماتهم في كل الأمصار))[3]، ومن هؤلاء الفقهاء نجدُ أبا يحي بن عاصم[4] الذي قال عنه أبو عبد الله الوادي آشي:((على أنّ الدّولة النّصريّة في زمانه وهت منها المباني، ومع ذلك فكان – رحمه الله– يجبر صدع الواقع، ثمّ اتّسع بعده الخرق على الرّاقع)) [5]، ومن ذلك؛ مساعيه في الصّلح بين السّلطان أبي الحجّاج والسّلطان الغالب باللّه، وهي المساعي التي جلبت

---

[1]-المقرّي، نفح الطّيب، ج4ص507.

[2]- البرزلي، النّوازل، ج1ص584؛ الونشريسي، المعيار، ج1ص432.

[3]-المقري، أزهار الرياض، ج3ص63.

[4]-هو أبويحيى محمّد بن محمّد ابن عاصم الغرناطي الأندلسي، قاضي الجماعة بها، ولي الوزارة وقضاء الجماعة والخطابة والتّدريس والفتوى والكتابة، له شرح على تحفة الحكّام، والرّوض الأريض في ذيل الإحاطة لابن الخطيب، وجنّة الرّضا في التّسليم لما قدّر الله وقضى، توفي ذبيحا من جهة السّلطان، سنة 858هـ. التّنبكتي، النّيل، ص537؛ إسماعيل باشا البغدادي، هديّة العارفين أسماء المؤلّفين وآثار المصنّفين من كشف الظّنون، القاهرة:دار الفكر، 1982م، ج2ص ص199-200.

[5]-المقري، أزهار الرياض، ج3ص322

له نقمة أرباب الدّولة الذين أغروا به العامّة، حتّى لحقه بسبب ذلك خوف كبير [1]. وقد ترك ابن عاصم كتابا يحمل عنوان" **جنّة الرّضا في التّسليم لما قدّر الله وقضى** "، يقول المقرّي عن سبب تأليفه:((عندما رأى اختلال أمر الجزيرة، وأخذ النّصارى لمعظمها، ولم يبق إذ ذاك بيد المسلمين إلّا غرناطة وما يقرب منها، مع وقوع فتن بين ملوك بني نصر حينئذ، ثمّ أفضى الملك إلى بعضهم بعد تمحيص وأمور يطول بيانها، ألّف كتابه جنّة الرّضا في التّسليم لما قدّر الله وقضى)) [2]. ورغم جهود ابن عاصم فإنّها لم تشفع له أمام قساوة السّياسة، ليذهب ضحيّة المؤامرات والدّسائس، فيقتل ذبيحا سنة858هـ، ويلقى نفس مصير ابن الخطيب[3].

- **هجرة الفقهاء الأندلسّيين إلى العدوة المغربيّة:**

دفع سقوط المدن الأندلسيّة بالأندلسيين إلى الهجرة نحو العُدوة المغربيّة، وقد استقرّ عدد منهم بتلمسان، وعلى رأسهم العلماء، و أشار إلى ذلك المقرّي، فذكر أنّه خرج من الأندلس جماعة من العلماء :((لما رأوا استطالة العدوّ عليها، وأنّه آخذها لا محالة، قوّضوا رحالهم عنها، فنزلوا بتلمسان، وأُخذت غرناطة بعد خروجهم بقليل، ومن هؤلاء العلماء أبو عبد الله بن الأزرق، وبنو داود)) [4]. كما هاجر السّلطان الزغل وهو أبو عبد الله محمد بن سعد ؛ عمُّ سلطان غرناطة إلى برّ العدوة سنة 895 هـ/ 1490 م؛ فجاز إلى وهران، ثم استقرّ بتلمسان[5]، ولا شكّ أنّه كان مصحوبا ببعض الأعيان من الفقهاء والعلماء. بينما فضّل أندلسيّون آخرون إمّا الاستقرار بغرناطة، آخر المعاقل الإسلاميّة، أو البقاء في مُدنهم المحتلّة، تحت ذمّة النّصارى والدّجن[6].

---

[1] – أبو يحيى محمّد بن عاصم الغرناطي، جنّة الرّضا في التّسليم لما قدّر الله وقضى، تحقيق :صلاح جرّار، عمان:دار البشير، 1989، ج1ص180.

[2] –المقرّي، نفح الطّيب، ج1ص50.

[3] –أبو يحيى بن عاصم، جنّة الرّضا، مقدّمة المحقّق، ج1ص60.

[4] –المقري، المصدر السّابق، ج1ص71.

[5] –المقري، نفح الطّيب، ج4ص524.

[6] –الدّجن هو استعمال دارج جرت به ألسنة المسلمين في تسميّة إخوانهم الذين بقوا في بلادهم بعد استيلاء النّصارى عليها، وهو مشتق من دجن أي أقام خاضعا. حسين مؤنس، مقدّمة تحقيق أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النّصارى ولم يهاجر، ص13.

و ساهم تدهور الأوضاع ببلاد المغرب في تنامي ظاهرة الدّجن، إذ ندم الأندلسيّون الذين هاجروا إلى بلاد المغرب على هجرتهم، وحنّوا إلى رباعهم وأراضيهم بالأندلس، وهو ما تكشفه نازلة أبي عبد الله بن قطية و التي تتلخّص في:((أنّ قوما من الأندلسيّين الذين هاجروا من الأندلس وتركوا هناك الدّور و الأرضين والجنّات والكرمات وغير ذلك من أنواع الأصول، وخرجوا من تحت حكم الملّة الكافرة، وزعموا أنّهم فرّوا إلى الله سبحانه بأديانهم وأنفسهم وأهليهم و ذريّاتهم، واستقرّوا بحمد الله سبحانه بدار الإسلام، ندموا على الهجرة بعد حصولهم بدار الإسلام، وسخطوا، وزعموا أنّهم وجدوا الحال عليهم ضيّقة، وأنّهم لم يجدوا بدار الإسلام التي هي دار المغرب إلى التسبّب في طلب أنواع المعاش على الجملة؛ رفقا ولا يسرا ولا مرتفقا، ولا إلى التصرّف في الأقطار أمنا لائقا، صرّحوا بذمّ دار الإسلام وشأنه، وشتم الذي كان السبب لهم في هذه الهجرة وسبّه، وبمدح دار الكفر وأهله والنّدم على مفارقته)).[1] و أجاب عن هذه النّازلة الفقيه أحمد بن يحيى الونشريسي في رسالته الموسومة بـ " **أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النّصارى ولم يهاجر وما يترتّب عليه من العقوبات والزّواجر**"[2]، و جاء جواب الونشريسي مؤكّدا كفر من رضي بالإقامة تحت حكم النّصارى، حيث قال : ((وأنّه لا يُعذر مهما توصّل إلى ذلك بمشقّة فادحة أو حيلة دقيقة، بل مهما وجد سبيلا إلى التخلّص من ربقة الكفر، وحيث لا يجد عشيرة تذبّ عنه، وحماة يحمون عليه، ورضي بالمقام بمكان فيه الضّيم على الدّين، والمنع من إظهار شعائر المسلمين، فهو مارق من الدّين منخرط في سلك الملحدين، والواجب الفرار من دار غلب عليها أهل الشّرك والخسران إلى دار الأمن والأمان))[3].

---

[1]-الونشريسي، أسنى المتاجر، ج2ص119.

[2]- كتب الونشريسي، هذه الفتوى سنة 890 للهجرة، أي قبل سقوط غرناطة بسبع سنين، وأعاد نشرها في كتاب المعيار المعرّب، والذي فرغ منه سنة 901هـ. ينظر:أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النّصارى ولم يهاجر، وما يترتّب عليه من العقوبات والزّواجر ضمن "المعيار معرب"، ج 2ص119؛ حسين مؤنس، مقدّمة تحقيق أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النّصارى ولم يهاجر، ص4.

[3]-الونشريسي، المعيار، ص ص45-46.

ويمكنُ القول بأنّ فقهاء المغرب الأوسط كانوا موافقين لأحمد بن يحي الونشريسي في فتواه هذه، إذ لم ترد عنهم أيّ فتاوى أخرى مُعارضة، كما أنّ الونشريسي لم يُشر في كلامه إلى ما يُنبئُ عن وجود اختلاف حول هذه المسألة.

5 - سقوط مملكة غرناطة:

غدت مدينة غرناطة في منتصف القرن السّابع للهجرة من بين أهمّ الممالك الإسلاميّة بالأندلس، ويرجع الفضل في تأسيسها إلى محمّد بن يوسف بن نصر سنة 635هـ، والذي دخل في طاعته مسلمو المدن التي سقطت في أيدي النّصارى؛ وذلك أنّه كان سكّان الأندلس كلّما سقطت قاعدة من قواعدها الشّهيرة هرعوا إلى قاعدة أخرى من القواعد المتبقيّة[1].

عمل محمّد بن يوسف بن نصر على تقويّة مملكته، وفضّل عقد هدنة مع فرناندو الثّالث، فاستطاعت غرناطة أن تصمد مدّة قرنين من الزّمن. إلى أن بدأت تعدّ أنفاسها الأخيرة لملاقاة مصيرها المحتوم، والذي عجّل به الصّراع بين بني نصر، وتزايد الفتن الدّاخليّة كانتقاض الأسر النّافذة على السّلطة الحاكمة لا سيما أسرتي بني سرّاج وبني أشقيلولة، وكثرة الثورات ضدّ بني نصر، وأشهرها ثورة أهل ربض البيّازين عام 891هـ[2]. ومن أسباب سقوط مملكة غرناطة تلك الحماسة الدّينيّة التي كان يتحلّى بها ملوك النّصارى، والتي تُرجمت إلى تحالف بين ملك أرغون فرناندو الرّابع والملكة إيزابيلا الثانيّة ملكة قشتالة سنة 884هـ/1479م. وهو الوقت الذي تخلّى فيه سلاطين بلاد المغرب عن ملوك بني نصر بسبب عدم ثقتهم فيهم، وانهماك سلاطين المغرب في مشكلاتهم الدّاخليّة.

أدّى سقوط قلعة جبل طارق سنة 867هـ/1462م إلى قطع طريق الإمدادات المغربيّة، وعزل مملكة غرناطة، التي باتت محاصرة من كلّ جانب، لتشهد دولة الإسلام في الأندلس أحلك أيّامها، فتمّ الاستيلاء على مدينة لوشة عام 891هـ، و مالقة سنة 892هـ[3]. ثمّ أخيرا غرناطة سنة 897هـ آخر

---

[1]-عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ج4ص17.

[2]-مؤلّف مجهول، نبذة العصر في أخبار ملوك بي نصر"تسليم غرناطة ونزوح الأندلسيّين إلى المغرب"، تحقيق الفريد البستاني، ط 1، بور سعيد :مكتبة الثّقافة الدّينيّة، 2002، ص25.

[3]-نبذة العصر، ص17وص25.

معاقل الإسلام بالأندلس، بعد أن دبّ الصّراع بين أبناء البيت النّصري [1]، وهكذا استسلم أمير غرناطة أبو عبد الله محمّد بن أبي الحسين مقابل أن يلتزم النّصارى بعدم الإساءة إلى المسلمين أو المساس بدينهم، وحماية ممتلكاتهم؛ و يذكر صاحب **نبذة العصر**:((أنّ عقود الصّلح والمواثيق قرئت على أهل غرناطة، فلمّا سمعوا ما فيها اطمأنّوا إليها، وانقادوا لطاعته، وكتبوا بيعتهم، وأرسلوها لصاحب قشتالة وسمحوا له في الدّخول إلى مدينة الحمراء وإلى غرناطة)) [2]، وبعد أن سقطت غرناطة، بقي أهل الأندلس أمام خيارين وهما إمّا الاطمئنان لعهود فرديناند وإليزابيث، أو بيع ممتلكاتهم بأقلّ ثمن، والجواز إلى أرض العدوة [3]. ويعطينا المقرّي صورة عن أهل الأندلس عند سقوط غرناطة حيث يقول: ((لما دخل النّصارى إلى الحمراء خرج أميرها أبو عبد الله محمّد بن أبي الحسن علي النّصري، واشترط المسلمون على العدوّ الكافر شروطا أظهر قبولها، وبسط لهم جناح العدل)) [4]. وحاول فرديناند تثبيط أهالي غرناطة عن الجواز؛ يقول صاحب **أزهار الرياض**:((وأظهر، –**فرديناند**–، للمسلمين العناية والاحترام حتّى كان النّصارى يحسدونهم في ذلك، ويقولون لهم أنتم عند ملكنا أعزّ وأكرم منّا، ووضع عنهم المغارم حيلة منه وكيدا، ليغرّهم بذلك، ويثبّطهم عن الجواز، فوقع الطّمع لكثير من النّاس، وظنّوا أنّ ذلك البرق ليس بمخلّب، فاشترى كثير من المقيمين الرّباع العظيمة، ممّن أراد الذّهاب للعدوة بأرخص الأثمان [5])). هكذا اطمأن كثيرٌ من الاندلسيين لوعود فرديناند؛ ((حتّى بلغت بزعمهم نفوسهم مأمولها)). غير أنّ فرديناند سُرعان ما بدأ في نقض عهوده، فأمر بانتقال سلطان غرناطة، –المخلوع– أبي عبد الله إلى قرية أندرش، من قرى البشرة، فارتحل أبو عبد الله بعياله وحشمه، وأقام بها ينتظر ما يؤمر به، ثمّ ظهر للط ملك قشتالة أن يجيزه إلى العدوة ، وقد أشار إلى ذلك المقرّ ي عند قوله: ((وأعدّ له المراكب العظيمة، وركب

[1] – من ذلك الصّراع بين الغالب بالله أبي الحسن علي وأخويه أبي الحجّاج يوسف وأبي عبد الله الزّغل، حيث استقلّ الزغل بمالقة وأحوازها، وكذلك الصّراع بين عائشة الحرّة زوجة الغالب بالله مع ابنيها ضدّ زوجها سلطان غرناطة بسبب إيثار الغالب بالله لولديه من حظيّته النّصرانيّة ثريّا، على حساب أبناء عائشة الحرّة. ينظر: عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ج4ص ص191-200.

[2] –مجهول، نبذة العصر، ص41.

[3] –المقرّي، أزهار الرياض، ج 1ص66؛ النّاصري، الاستقصا، ج 4ص173؛ أبو راس محمّد بن النّاصر النّاصري، الحلل السندسيّة في شأن وهران والجزيرة الأندلسيّة، تحقيق سليمة بنعمر، ط1، ليبيا:دار صنين للطّباعة والنّشر، 1370هـ-2002م،ص ص443-447.

[4] – المقرّي، المصدر نفسه، ج1ص66.

[5] - المصدر نفسه، ج1ص66.

معه كثير من المسلمين، ممّن أراد الجواز، حتّى نزلوا بمليلة من ريف المغرب، ثمّ ارتحل السّلطان أبو عبد الله إلى مدينة فاس))[1]. وقد تزامن نزول الأندلسيين بفاس مع حصول شدّة عظيمة، من الجوع والغلاء والطّاعون، ففرّ الكثير من الأندلسيّين منها بسبب ذلك، ((ورجع بعض أهل الأندلس إلى بلادهم، فأخبروا بتلك الشدّة، فتقاعس من أراد الجواز، وعزموا على الإقامة والدّجن)).[2] إلى أنّ النّصارى لم يفوا بعهودهم للمسلمين فيصرّح المؤرّخ الإسباني لويس دل المارمول الذي عاصر الأحداث:((أنّه منذ استولى فرناندو على غرناطة، كان الأحبار يطلبون إليه بإلحاح، أن يعمل على سحق طائفة محمّد من إسبانيا، وأن يطلب إلى المسلمين الذين يودّون البقاء، إمّا التّنصير، أو بيع أملاكهم والعبور إلى المغرب، وأنّه ليس في ذلك خرق للعهود المقطوعة لهم)). [3] ويتحدّث المقرّي عن مأساة مسلمي الأندلس فيقول: ((فلمّا رأى الطّاغية أنّ النّاس قد تركوا الجواز، وعزموا على الاستيطان، والمقام في الوطن، أخذ في نقض الشّروط التي اشترط عليه المسلمون أول مرّة، ولم يزل ينقضها فصلا فصلا، إلى أن نقض جميعها، وزالت حرمة المسلمين، وأدركهم الهوان والذلّة، واستطال عليهم النّصارى، وفرضت عليهم المغارم الثّقيلة، وقطع عنهم الأذان في الصّوامع، وأمرهم بالخروج من غرناطة إلى الأرباض...ثمّ بعد ذلك دعاهم إلى التنصّر، وأكرههم عليه، وذلك سنة 904هـ، فدخلوا فيه كرها، وصارت الأندلس كلّها دار كفر، ولم يبق من يجهر بكلمة التّوحيد والأذان، وجعلت في المساجد والمآذن النّواقيس والصّلبان، بعد ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون))[4].

وهكذا بدأت محاولات تنصير مسلمي الأندلس [5]، وأسندت هذه المهمّة لمحاكم التّفتيش Inquistion أو الدّيوان المقدّس[6].

---

[1]- المقري، أزهار الرياض، ج1ص67.

[2]-المصدر نفسه، ج1ص69.

[3]-عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ج4ص313.

[4]-المقرّي، المصدر السابق، ج1ص69.

[5]-أبو راس النّاصري، الحلل السندسيّة، ص448.

[6]-عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ج4ص313.

وتصوّر لنا هذه الأبيات من أحد المورسكيين إلى السّلطان العثماني، الواقعَ بمرارته حيث يقول:

فلمّا دخلنا تحت عقد ذمامهم ....

.... بدا غدرهم فينا بنقض العزيمة

وخان عهودا كان قد غرّنا بها ....

.... ونصّرنا كرها بعنف وسطوة

وكلّ كتاب كان في أمر ديننا ....

.... ففي النّار ألقوه بهزء وحرقة

ولم يتركوا فيها كتابا لمسلم و........

.... لا مصحفا يخلى به للقراءة

ومن صام أو صلّى ويعلم حاله ....

.... ففي النّار يلقوه على كلّ حالة[1]

الفقهاء وسقوط الأندلس:

شاءت الأقدار أن يكون فقهاء القرن التّاسع الهجري، شهودا على محنة الإسلام في الأندلس، وسيتمّ استعراض أبرز مواقفهم من هذا الحدث الهام.

- الفقهاء ومسألة هجرة الأندلسيّين :

[1]-المرجع نفسه ،ج4ص346.

كان فقهاء المغرب الأوسط متعاطفين مع الأندلسيين، ويعملون على تخليصهم، كما أفتى أحمد بن يحيى الونشريسي بحرمة الإقامة تحت ذمّة الكافر، ووجوب الانتقال إلى أرض العدوة. وقد شدّد الونشريسي حكم وجوب الهجرة، بعد سقوط غرناطة، وذلك في جوابه على نازلة أخرى لأبي عبد الله بن قطيّة، والتي تتكلّم عن رجل من أهل مربلّة معروف بالفضل و الدّين تخلّف عن الهجرة مع أهل بلده، ليبحث عن أخ له، ثمّ ظهر له الإقامة بالأندلس بغرض إعانة المسلمين، حيث أنّه إن تركهم يلحقهم بسبب ذلك ضرر كبير، لما له من الوجاهة وحسن التوسّط. فأجاب الونشريسي بوجوب الهجرة، وذكر أسباب ذلك، وجعل من بينها ما يتوقّع من نقض العهد من الملك، والتّسلّط على النّفس والأهل والولد والمال[1].وهو ما يكشف عن بعد نظر أحمد بن يحيى الونشريسي، ومدى إلمامه بما يتّصف به ملوك النّصارى من نقض للعهود، حيث لم يلبث فرديناند أن نقض عهوده وغدر بالمسلمين[2].

- **تواصل فقهاء المغرب الأوسط مع الأندلسيّين:**

واسى فقهاء المغرب الأوسط إخوانهم الأندلسيين، وحثّوا الأهالي على إعانتهم، كما شفعوا لفقهاء وعلماء الأندلس حتّى يتبوءوا مكانة محترمة في المجتمع. ومن ذلك مواساة ابن مرزوق لمحمّد بن الحدّاد الوادي آشي، وممّا جاء في أخباره أنّه لما حلّ بتلمسان بعد أخذ غرناطة، حصلت له مصاهرة مع ابن مرزوق، لكنّ الوادي آشي قد طلّق ابنة ابن مرزوق، و آلت مصاهرتهما إلى مقاطعة ممّا جعل النّاس يلومون الوادي آشي فأجابهم:

يلومني الأقوام من بعد ما سطا .....

.....علي ابن مرزوق ومن بإنفاق

---

[1]-الونشريسي، المعيار، ج2ص ص137-140.

[2]- في هذا الصّدد نجد حسين مؤنس يعترض على الونشريسي بكلام شديد اللّهجة، حيث يصفه بضعف النّظر والتعسّف في القياس، والجهل بالتّاريخ، وعدم وضع النّازلة في إطارها الزّماني وظروفها الخاصّة، كما يرى أنّ الونشريسي كان قاسيا على إخوانه. ولعلّ ما قام به النّصارى من نقض عهودهم، وإجبارهم للمسلمين على التنصّر ، يجعل الباحث يحترم بعد نظر الونشريسي، ويؤيّده في فتواه، لاعتبارات دينيّة وإنسانيّة حيث أنّ الونشريسي كان موقنا بأنّ ملك قشتالة لن يفي بعهوده، وسيجبر المسلمين على اعتناق المسيحيّة، ولهذا حكم = الونشريسي على من رضى بالمقام بأرض مثل هذه مع علمه بما ستؤول إليه الأمور بالكفر.ينظر: حسين مؤنّس، مقدّمة تحقيق أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النّصارى ولم يهاجر، ص ص7 -10.

قلت لهم كفّوا الملام فإنّني

تركت ابن مرزوق وأمّمت رزّاقي[1]

وكان فقهاء المغرب الأوسط يهتمون بأحوال إخوانهم في الأندلس ويقاسمونهم همومهم، ويجيبون على نوازلهم. وتكشف لنا **رسالة أحمد بن بوجمعة المغراوي الوهراني** ، والتي كتبها بتاريخ غرّة رجب سنة 910هـ، مدى ثقة مسلمي الأندلس في فقهاء المغرب الأوسط، و جاءت الرّسالة لترخّص لهم الإذعان للأعمال المخالفة للشريعة الإسلامية مع الإنكار بالقلب، حفاظا على النّفس وممّا جاء فيها :((فالصّلاة ولو بالإيماء، والزّكاة ولو كأنّها هديّة لفقيركم أو رياء ...وإن أجبروكم على شرب خمر، فاشربوه لا بنيّة استعماله، وإن كلفوا عليكم خنزيرا فكلوه ناكرين إيّاه بقلوبكم، ومعتقدين تحريمه ...وإن أكرهوكم على إنكاح بناتكم منهم، فاعتقدوا تحريمه لولا الإكراه، وأنّكم ناكرون لذلك بقلوبكم، ولو وجدتم قوّة لغيّرتموه... وإن قالوا اشتُموا محمّدا فإنّهم يقولون له مُمد، فاشتموا ممد، ناوين أنّه الشّيطان أو ممد اليهود فكثير بهم اسمه))[2]

- **دعوة أهالي المغرب الأوسط إلى الاستعداد لمواجهة النّصارى:**

عمل فقهاء المغرب الأوسط على دعوة الأهالي إلى الاستعداد لمواجهة النّصارى؛ إذ أنّهم كانوا على دراية تامّة بمدى استعداداتهم، وطموحاتهم لشنّ الغارة على بلاد المغرب، ونلحظ ذلك حتّى قبل سقوط غرناطة. ففي رسالة من عبد الرّحمن الثّعالبي إلى أحد تلامذته، وهو الفقيه محمّد بن أحمد بن يوسف الكفيف، نجد عبد الرّحمن الثّعالبي يحثّ فيها أهالي بجاية على الاستعداد لمواجهة الرّوم، ويعرّض

---

[1]-المقرّي، أزهار الرياض، ج3 ص ص305-306.

[2]-عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ج 4 ص ص342-344، نقلا عن وثيقة مؤرّخة بتاريخ : 28-11-1504، ضمن مخطوط بمكتبة الفاتيكان الرّسوليّة برومة.

ومن بين الدّراسات الفقهيّة حول هذه الرّسالة؛ ينظر: حسّوني أبو بكر، رسالة الإمام أبي العبّاس أحمد ابن أبي جمعة المغراوي مفتي الديار الوهرانيّة في القرن العاشر لأهل الأندلس زمان المحن دراسة وتعليق، المجلّة الجزائريّة للمخطوطات، جامعة وهران: مخبر مخطوطات الحضارة الإسلاميّة، عدد7، 2010، ص ص297-313.

الثّعالبي إلى مدى استعدادات الرّوم، وكثرة عددهم بقوله: ((واللّه لو لم يكونوا – كذا- بنوا الأصفر على وجه الأرض لخلتُ أن ينبعوا من تحت الأرض)).[1]

كما تنبّأ محمّد التواتي بما سيحلّ بوهران بعد سقوط غرناطة، لما كان يعلمه من أمر اجتماعهم، ونواياهم في الإغارة على سواحل بلاد المغرب، وجاء ذلك عند قوله:

أيا أهل وهران انظروا نظرة شفقة

لبلدتكم من قبل أن ترده

قبل مجيء المنشئات ببحرها

وأي قلوب عندها مستقرة

ثم قال: **فلا تهملوا أمر الأعادي فإنّهم**

بحال اجتماع واتّفاق وشدّة

إلى أن قال: **فإن ضاع مرساكم فإنّ ضياعه**

ضياع بلاد الله شرقا وقبلة[2]

[1]-سعد الله، رسالة عبد الرّحمان الثّعالبي في الجهاد، ضمن"**أبحاث وآراء**"، ج1ص211.

[2]-ابن زرفة، الرّحلة القمريّة، ص233.

أبرز هذا الفصل أهمّ الأحداث السياسيّة في القرن التّاسع الهجري؛ فمسألة ضعف السّلطة المركزيّة، وما نجم عنها من الصّراعات الدّاخليّة، وتفشي الظّلم بكلّ أنواعه، وتسلّط شيوخ القبائل، يضاف إليها قضيّة تهاوي المدن الأندلسيّة ثمّ سقوط غرناطة آخر معاقل الإسلام بالأندلس، هي أهمّ قضايا هذا القرن.

أمّا مواقف الفقهاء من هذه الأحداث السياسيّة فتمثّلت في أدوار سلبيّةّ كالهجرة، واعتزال السّلاطين والولّاة وحتّى المجتمع، وترديد عبارات التسخّط والضّجر، والانشغال بقضايا فرعيّة عن أهمّ قضايا العصر. و أدوار أخرى إيجابيّة كجهود الفقهاء في الإصلاح بين القوى المتصارعة، ودعوة الأهالي إلى الاستعداد لمحاربة النّصارى، وحثّ السّلاطين على نقض عقود الصّلح المبرمة مع النّصارى و المجانبة للمصلحة العامّة.

الفصل الرّابع

مشاركة الفقهاء في الحياة السياسيّة

خلال

(ق10هـ/16م).

يعتبر القرن العاشر الهجري(10هـ/16م) مرحلة حاسمة في تاريخ المغرب الأوسط، إذ شهدت سواحله هجمة شرسة من قبل الأساطيل الإسبانيّة، و تمّ ذلك بمساعدة الدّول المسيحيّة، وبدافع توسّعي، يحرّكه خطاب كنسي متعصّب. كما عرفت هذه الفترة دخول العثمانيين أرض المغرب الأوسط، والذين ساهموا بدورهم في بناء قوّة بحريّة جابهت أطماع إمبراطوريّة إسبانيا.

في هذا الفصل سيُتطرّق لهذه الوقائع، مع إبراز مواقف الفقهاء وردود أفعالهم، وأهمّ الأدوار التي مارسوها.

كان المغرب الأوسط خلال القرن العاشر الهجري (10هـ/15م) مسرحا لكثير من الأحداث، والتي يمكن إجمالها كالآتي:

أ - **الغزو الإسباني لسواحل المغرب الأوسط** :

تعرّض المغرب الإسلامي بعد سقوط الأندلس لهجوم كبير قادته القوى المسيحيّة، فقد نزل النّصارى مدينة جربة سنة 835هـ/1432م[1]. وقام البرتغال [2] باحتلال مدينة سبتة سنة (818هـ/1415م)، و ميناء القصر الصّغير سنة862هـ/ 1458م، ثمّ طنجة سنة 1451م[3].

و أدّى توحّد المملكتين نافار وأرغون سنة 883هـ/1478م[4] إلى تزايد الأطماع الاستعمارية لدى

إمبراطوريتي إسبانيا والبرتغال[5]، وهي أطماع سياسيّة واقتصاديّة[1]؛ غذّاها الصّراع الدّيني بين المسيحيّة

---

[1]-ابن الشمّاع، الأدلة البينة النورانية، ص116.

[2]-تقع البرتغال بالإقليم الغربي لشبه الجزيرة الإيبيريّة، كان معروفا باسم (Lusitanie)، واشتقّ اسم البرتغال من إحدى مدن هذا الإقليم السّاحليّة، وهي PORTO، حيث قام الأذفونش الأوّل بالاستقلال عن قشتالة سنة 1139م، وأسّس مملكة البرتغال، وفي سنة 818هـ /1415م نزلوا سبتة، ثمّ مدينة القصر الصّغير سنة862هـ /1457م ، فمدينة طنجة سنة 869هـ /1464م، وبعد ذلك أصيلا وآسفي سنة876هـ/1471م. ينظر: المطوي، الحروب الصّليبيّة في المشرق والمغرب، ص235.

[3]-كليل صالح، سياسة خير الدّين في مواجهة المشروع الاسباني لاحتلال المغرب الأوسط، رسالة ماجستير، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، جامعة العقيد الحاج لخضر، باتنة، 2006 -2007، ص ص 42-43 .

[4]-عبد الحميد بن أبي زيان بن آشنهو، دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر، الجزائر ، 1982، ص13.

[5]-أدّت الكشوف الجغرافيّة التي قامت بها كلّ من البرتغال وإسبانيا إلى ظهور صراع عنيف بين المملكتين، فحاولت كلّ من إسبانيا والبرتغال البحث عن مناطق نفوذ خارج أوربا، وقد تدخّل البابا ألكسندر السّادس، الذي جعل لإسبانيا كلّ الأراضي التي لا تدين بالمسيحيّة في الغرب، للبرتغال كلّ الأراضي التي لا تدين بالمسيحيّة في الشّرق، ويفصل بينهما خطّ وهمي يمرّ من الشّمال إلى الجنوب على بعد 270 ميلا غرب الأزور وجزر الرّأس الأخضر، غير أنّ رفض البرتغاليّين لهذا الإقرار كاد أن يُشعل فتيل الحرب بين المملكتين، لينعقد مؤتمر torديسياس بين يوحنا الثاني ملك البرتغال، وفرديناند الخامس ملك إسبانيا في 899هـ/ 07 جوان1494، على أن كلّ المناطق الواقعة إلى الغرب من جزر الرّأس الأخضر تخصّ التّاج القشتالي، وكلّ البلاد الممتدّة إلى الشّرق من هذه الجزر تكون من نصيب البرتغال، وهي الاتّفاقيّة التي عرفت باتّفاقيّة تقسيم العالم، وفي سنة 914هـ/ 1509م حدّدت اتّفاقيّة سينترا حجر باديس الواقع بالمغرب الأقصى حدا فاصلا؛ فأصبح نفوذ الأسبان على البلاد الواقعة شرق حجر باديس، ونفوذ البرتغال على البلاد الواقعة غرب حجر باديس. ينظر:عبد القادر فكاير، الغزو الإسباني للسّواحل الجزائريّة، ص ص38-39.

والإسلام[2]. ففي سنة 867هـ/1463م انتزع الأسبان جبل طارق من بني الأحمر ملوك غرناطة [3]، ثمّ كان استيلاء البرتغال على طنجة في سنة 869هـ/1465م، ثمّ سقطت غرناطة سنة 897 هـ/1492م.

وما إن سقطت غرناطة حتّى راح الكاردينال خمينيس[4] المشهور بتعصّبه الدّيني يدعوا إلى مواصلة الحرب ضدّ المسلمين المغاربة، و قد استجابت الملكة إليزابيث بسرعة إلى نصائح الكاردينال، وكلّفت حاكم القلعة الأندلسية لورا نزودي باديا بمهمّة التجسّس على مملكة تلمسان التي قرّرت أن تكون أوّل أهدافها[5].

وعندما بدأ خمينيس يخطّط لغزو بلاد المغرب، توفيت الملكة إليزابيلا في عام 910هـ/1504م، فتوقّف مؤقّتا مشروعها الاستعماري الذي كان أعزّ أحلامها.

L. Didier، Histoire d'Oran : période de 1501 à 1550، oran : imprimerie Jeanne d'aro, 1927. P6.

[1]-أدّت هجرات المسلمين واليهود من الأندلس، نتيجة الاضطهاد الدّيني الذي مارسه الأسبان ضدّهم، إلى تعرّض إسبانيا لانهيار اقتصادي كبير، فتعطّل الإنتاج، وتناقصت كميّات المواد التّموينيّة، وهو ما سعت إسبانيا إلى تعويضه من خلال غزو دول أخرى، لا سيما بلاد المغرب الأوسط. ينظر:عبد القادر فكاير، الغزو الإسباني للسّواحل الجزائريّة، ص ص31-32.

[2]-الخلفيّة الدّينيّة للصّراع الاسباني العثماني على الأيالات المغربيّة في القرن السّادس عشر، تونس: المجلّة التّاريخيّة المغربيّة، عدد 10، جانفي 1978، ، ص8.

[3]-النّاصري، الاستقصا، ج4ص98.

[4]-كاردينال إسباني مشهور بتعصّبه الدّيني، وحقده على المسلمين، ولد في قشتالة سنة 1436هـ، وتوفي في طليطلة سنة 1517هـ، حظي بمكانة مرموقة عند إيزابيلا، وفرديناند، حيث عيّن مشرفا عاما على محاكم التّفتيش سنة 1517م. ينظر: صالح حيمر، التّحالف الأوربي ضدّ الجزائر عام 1541م وتأثيراته الإقليميّة والدوليّة، 2006-2007، رسالة ماجستير، باتنة:جامعة الحاج لخضر، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، ص33.

[5]-الميلي، تاريخ الجزائر، ج3ص ص19-20.

- Grammont ,Histoire d 'Alger,p4.

- **الاستيلاء على المرسى الكبير 911هـ/1505م**[1]:

كان المرسى الكبير من أحسن مراسي البحر المتوسّط [2]، وكان قريبا من السّواحل الإسبانيّة، ويشرف على مدينة وهران[3]، ولهذا وقع اختيار خمينيس عليه عند تحريضه لفرديناند على غزو سواحل المغرب، وأسندت المهمّة للدّون" دييغو القرطبي" (Don Diego De Cordoba)، حيث عُيّن قائدا عاما للحملة، ووضع تحت قيادته جيشا ينيف على العشرة آلاف، تصحبه عمارة أو أسطول وُضع تحت قيادة دون " **رامون دي كاردونا** "، وكان يتركّب من سبع بواخر حربيّة، ومائة وأربعين زورقا مختلفة الأحجام[4]، وقد قام الكاردينال خيمينيس بتجهيز هذا الأسطول من أموال كنيسة طليطلة، وأمواله الخاص[5].

تمكّن الأسطول من الاستيلاء على المرسى الكبير في جمادى الأولى سنة 911 هـ (23 أكتوبر1505م) حيث لم يجد سوى مقاومة ضعيفة، قدّرت بأربعمائة فارس أغلبهم من القبائل المجاورة لوهران، بينما تكوّنت القوّة الإسبانيّة من خمس آلاف جندي [6]، ورغم قلّة عدد أفراد الحامية الإسلاميّة فإنّها حاولت منع الإسبان من التقدّم، وإعاقة تحرّكهم، إلى أن خضعت الحامية الإسلاميّة لمنطق القوّة، وعقدت هدنة مع الإسبانيين تمكّنت بموجبها من الإنسحاب بعد أن جرّدهم الإسبانيّون من أسلحتهم[7].

---

[1]-قال عنها حسن الوزّان:((مدينة صغيرة أسّسها في عصرنا ملوك تلمسان على ساحل البحر المتوسّط، بعيدة ببضعة أميال عن وهران، ومعناها الميناء الكبير، لأنّ هناك ميناء ما أظنّ أنّ في الدّنيا أكبر منه، يمكن أن ترسو فيه بسهولة مئات المراكب والسّفن الحربيّة، في مأمن من كلّ عاصفة وإعصار))، حسن الوزان، وصف إفريقيا، ج2ص31.

[2]-تعرّض المرسى الكبير في مطلع القرن التّاسع الهجري، لحملة برتغاليّة باءت بالفشل. ينظر:

L. Didier، Histoire d'Oran. P1.

[3]-عبد القادر فكاير، الغزو الإسباني للسّواحل الجزائريّة، ص52.

[4]-الميلي، تاريخ الجزائر، ج3ص ص22-23.

[5]-عبد القادر فكاير، المرجع السّابق، ص52.

[6]- الميلي، تاريخ الجزائر، ج3ص73.

[7]-عبد القادر فكاير، المرجع السّابق، ص53.

وفور احتلال المرسى الكبير قام دون دييغو بتحويل جامعه إلى كنيسة [1]، كما سعى الإسبانيّون إلى تغيير معالم المرسى الكبير الإسلاميّة، وبدؤوا في ترميم تحصيناتها.

- **احتلال وهـران915هـ/1509م:**

بعد أن احتلّ الإسبانيّون المرسى الكبير، تحرّكت أطماعهم نحو وهران، قصد تأمين وجودهم في المرسى الكبير، والحصول على مصادر تموينيّة، ومضايقة مملكة تلمسان، والعمل على تقويضها.

كانت أوضاع مدينة وهران أواخر القرن التّاسع الهجري ملائمة لشنّ هجوم عليها، حيث صارت تعيش شبه استقلال، رغم تبعيّتها نظريا لمملكة تلمسان. وكان حاكم تلمسان لهذا العهد هو محمّد الخامس بن محمّد الثّابتي الملقّب بأبي قلمون الزياني، والذي كان من الضّعف بمكان، حيث أنّه:((لم يهن له في الملك قرار، ولا استقرّت في المملكة عمارة ولا دار، وقد عجز عجزا كليّا عن الدّفاع، وصار غير نافذ الكلمة، ولا مطاع)) [2]. أمام هذه الظّروف كان الكردينال خيمينيس يتابع أخبار وهران، إذ كانت ترده التّقارير من جواسيسه، ومن بين تلك التّقارير، التّقرير الذي أرسله إليه أحد جواسيسه ويدعى "فيانيلي"، الذي اعتبر مدينة وهران أشهر مدن بلاد المغرب لغناها بالأسواق والتّجارة.

حاول دون دييغو سنة 913 هـ/1507م الاستيلاء على المدينة بعد أن طلب الإمداد من إسبانيا، غير أنّه مُني بهزيمة في مسرغين [3]. ثمّ عاود خمينيس الإعداد لهجوم آخر على وهران بعد أن صدر بيان ملكيّ في ديسمبر 914هـ/1508م، و استطاع أن يقود سنة 915هـ/1509م عمارة مكوّنة من ثلاثة وثلاثين باخرة حربيّة، وواحد وخمسين زورقا صغيرا، من قرطاجنة بالأندلس، وقد شارك في غزو وهران كبار القادة، مثل "بيدرو نافارو"(PEDRO NAVARO)،

---

[1] - الميلي، تاريخ الجزائر، ج3ص23.
Ernest Mercier ,Histoire de l'Afrique septentrionale, T2p421-422؛ Grammont ,Histoire d 'Alger, p5-9.

[2] -المزاري، طلوع سعد السّعود، ج1ص196.

[3] -الميلي، المرجع السّابق، ج3ص24.

Ernest Mercier ,Op cit, T2p422.

والكاردينال غونثالبو دي كوردوبا(GONZALVO DE CORDOVA)، والدّون"دييغو دي فييرا"(DON DIEGO DE VIERRA).

أقلع الأسطول الإسباني يوم 16 ماي 1509م، وتوقّف بالمرسى الكبير ثمّ قام بمهاجمة وهران[1]. ومع أنّ النّجدة الزيانيّة قد وصلت متأخّرة، فإنّ الاسبانيّين قد اصطدموا بمقاومة شعبيّة تحت قيادة عالم من علمائها عرف باسم ابن جاجوا [2]. بيد أنّ ضعف هذه المقاومة وقوّة الحملة الثّانيّة، وأخيرا خيانة ستورا اليهودي[3] الذي فتح بوابة وهران أمام الاسبانيّين، بعد أن عقد معهم اتّفاقا قد أدّى إلى سقوط المدينة سنة915هـ[4].

وما إن احتلّ الإسبانيّون مدينة وهران حتّى شرعوا في أعمال النّهب والقتل، فلم يسلم من أعمالهم حتّى الأطفال والنّساء، وقاموا بقتل أكثر من أربعة آلاف مسلم، وأسر أكثر من خمسة آلاف، وبلغت أسلابهم خمسة آلاف أوقية ذهبيّة، وقام خيمينيس بتحويل مساجد المدينة إلى كنائس، وأصبح الدّون دييغو دي كوردوبا حاكما على وهران[5].

- **إحتلال بجاية 915هـ/1510م:**

تعدّ مدينة بجاية من أعظم مدن المغرب الأوسط السّاحليّة، والتي ظهرت عليها في أواخر القرن التّاسع الهجري علامات الضّعف، نتيجة لضعف الحفصيّين. وقد أطلّ القرن العاشر

---

[1]-المرجع نفسه، ج3ص26؛ عبد الرّحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج2ص ص278-279.

1- مختار حساني، تاريخ الدّولة الزيانيّة، ج1 ص74.

- Ernest Mercier , Histoire de l'Afrique septentrionale, T2p422-423

[3]-أحد اليهود الذين هاجروا من الأندلس، وكان يعمل في ديوان الضّرائب، ووعده الإسبانيّون بتوليته على الخراج، غير أنّهم سرعان ما انقلبوا عليه.

[4]-عبد القادر المشرفي، بهجة النّاظر في أخبار الدّاخلين تحت ولاية الاسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر، تحقيق محمّد بن عبد الكريم، ص12؛ ج.ب.وولف، الجزائر وأوربا، ص26.

Grammont , Histoire d 'Alger, p9-14.

[5]-عبد القادر فكاير، الغزو الإسباني للسواحل الجزائريّة، ص54.

الهجري(10هـ/16م) ومدينة بجاية تعيش شبه استقلال عن السّلطنة الحفصيّة[1]، وذلك بسبب ضعف سلطان تونس أبي عبد الله الحفصي عمّ المتوكّل، كما أنّها كانت محلّ صراع بين الأمراء الحفصيّين[2].

ولم تكن أوضاع بجاية لتخفى على إسبانيا، فبذل خيمينيس جهده لاحتلال المدينة، منتهزا الفرصة، ولهذا صدر القرار باحتلال بجاية، وأسندت القيادة إلى بيدرو نافارو، فقام بمغادرة المرسى الكبير في أواخر شهر نوفمبر سنة 1509م، واتّجه نحو الشّمال حيث استقرّ بجزيرة إبيزا (Ibiza)، وبقي بها طوال شهر ديسمبر، لإعداد القوّات اللّازمة لتنفيذ الحملة . وفي أوّل جانفي915هـ/1510م غادر الأسطول الجزيرة، وكان على متنه أكثر من عشرة آلاف جندي، ووصل إلى المدينة يوم 05جانفي 1510م[3].

حاول أهالي بجاية الدّفاع عن مدينتهم، فقاموا بإعلان حالة استنفار، وجمعوا قوّاتهم وأسلحتهم، وتمركزوا ببعض الثّغور، وتمركزت حامية تتكوّن من عشرة آلاف رجل بمرتفع غورايا، غير أنّ الإسبانيين تمكّنوا من إنزال وحداتهم ، وتموقعوا بمكان قريب من ضريح سيدي عيسى السّبّوكي، وقام بيدرو نافارو بإنذار الأمير عبد الرّحمن بن عبد العزيز، فرفض هذا الأخير الإستسلام، وفضّل المقاومة و تمكّن من إعاقة تقدّم الإسبانيين، لكنّ المساعدات العسكريّة، والمؤن التي أرسلها حاكم وهران إلى الإسبانيّين رجّحت الكفّة لصالحهم، ليتمّ احتلال المدينة في 05جانفي1510م[4].

فور احتلال بجاية، تمّ تقتيل السكّان ونهب منازلهم، ولم يجد السّلطان أبو عبد الله عمّ المتوكّل بدّا من الرّضوخ للإسبانيّين، ليتعهّد بدفع ضريبة سنويّة لحاكم بجاية الإسباني[5].

أمّا سكّان مدينة بجاية فقد انتشروا نحو جبل بني جابر بالضفّة الشّرقيّة لوادي الصّومام،على بعد6 فراسخ[6] من مدينة بجاية، ومعهم عائلة السّلطان عبد العزيز، وتوجّهت دفعة أخرى من السكّان

1-المسعودي الباجي، الخلاصة النقيّة، ص84؛ عبد القادر فكاير، المرجع السّابق، ص ص54-55.

2-يوسف بنو جيت، قلعة بني عبّاس إبان القرن السادس عشر، ص ص34-41 .

3- L.CH.Fèraud, Conquète de Bougie، p337.

4-عبد القادر فكاير، الغزو الإسباني للسّواحل الجزائريّة، ص56-57.

5-النّاصري، الاستقصا، ج4ص 16؛ توفيق المدني، حرب الثّلاثمائة سنة، ص ص119-126.

Ernest Mercier , Histoire de l'Afrique septentrionale, T2p425-426.

6-الفرسخ يعادل ثلاثة أميال، وقيمة الميل حوالي1609م، وبذلك تكون 6 فراسخ تعادل حوالي29كلم.

السكّان نحو جيجل [1]، ولجأت إلى منطقة بالقرب من زيامة منصوريّة التي عرفت باسم بني ميعاد، نسبة إلى التّواجد الكثيف للفارّين، وقد تدفّق عدد آخر من السكّان إلى جبال جرجرة، وانكفأت جماعة أخرى إلى أولاد بني يعلى [2].

قام الإسبانيّون بتخريب بجاية، وقد استمرّ الخراب إلى أيّام التمغروطي حيث ذكر في رحلته حالة بجاية عند قوله :((وبجاية إلى الآن خراب هدمها النّصارى، دمّرهم الله لم يبق بها إلاّ ديار قلائل على طرف البحر، وقلعة صغيرة تسمّى باللّؤلؤة، ينزل بها متولّي تلك النّاحية من التّرك)) [3]. وبعد سقوط مدينة وهران وبجاية، بادر السّلطانين الحفصي والزيّاني إلى تقديم فروض الطّاعة للملك فرديناند [4].

- **احتلال جزيرة ألبنيون:**

كانت مدينة الجزائر تابعة لمشيخة بجاية، فلمّا احتلّ الإسبانيّون بجاية خضعت مدينة الجزائر لسلطة فرديناند، و انطلق وفد من أعيانها و على رأسهم سالم التّومي سنة 915هـ/1510هـ يسترضون الأسبان، وقد اتّفق سالم التّومي والأسبان على إطلاق سراح الأسرى المسيحيين، و أن لا يتصدّى الجزائريّون لسفن المسيحيّين، وأن يسافر وفد منهم لعقد اتّفاقيّة مع فرديناند، و يتعهّدون بدفع نفس المقدار الذي كانوا يدفعونه لحاكم بجاية.

بعد أن أذعن سكّان مدينة الجزائر لهذه الشّروط، لم يلبث الإسبانيّون أن استولوا على جزيرة ألبينيون والتي كانت تعرف باسم (اصطفلة)، ويذكر حسن الوزّان أنّ سبب احتلال الإسبانيّين لهذه الجزيرة هو قيام سكّان مدينة الجزائر بأعمال القرصنة وأشار إلى ذلك بقوله عن أهالي مدينة الجزائر:(تحوّلوا إلى قراصنة، فصاروا يغيرون على جزر يابسة وميورقة ومنورقة، وحتّى شواطئ إسبانيا،

---

[1] –جيجل مدينة تقع بالسّاحل الشّرقي للجزائر، قال عنها الإدريسي: ((جيجل مدينة على ضفّة البحر والبحر يحيط بها ، ولها ربض)). ينظر:الإدريسي، نزهة المشتاق، ص267.

[2] – يوسف بنو جيت، قلعة بني العبّاس إبّان القرن السّادس عشر، ص ص50-51.

L.CH.Fèraud, Op cit, p256.

[3] – التّمكروتي، النّفحة المسكيّة، ص32.

[4] –بورويبة وآخرون، كتاب الجزائر في التّاريخ، ص ص453-457.

لذلك أرسل الملك الكاثوليكي فردناند أسطولا عظيما لحصار الجزائر، فشيّدوا قلعة جميلة كبيرة في جزيرة صغيرة، مقابلة تماما للمدينة، وقريبة منها[1])).

عارض سالم التّومي محاولة الإسبانيّين لبناء قلعة على إحدى الجزر المواجهة لمدينة الجزائر، فسافر إلى الملك فرديناند رفقة مولاي عبد الله حاكم تنس الذي سبق وأن أعلن ولاءه للإسبانيّين، غير أنّ سالم التّومي اضطرّ أن يذعن للإسبانيّين، وتراجع عن معارضته[2]، وهكذا تمّ احتلال الجزيرة، وبادر الإسبانيّون بإقامة معقل أخذ اسم جزيرة ألبينيون[3] (Penon de Argel) على أنقاض منار إسلامي قديم[4].

- **احتلال مرسى هنين937هـ/1531م** [5]:

كانت هنين مدينة ساحليّة، نشطت فيها حركة التّجارة، حيث كان موقعها الهام ومرساها الممتاز يساهمان في استقطاب السّفن القادمة من الشّرق والغرب.

وبعد أن سقط المرسى الكبير في أيدي الإسبانيين، لم يبق للدّولة الزيّانيّة سوى هذا الميناء، فكتب أسقف طليطلة صاحب السّلطان المطلق باسبانيا إلى الإمبراطور الإسباني رسالة يصف فيها أهمّيّة ميناء هنين، فتمّ احتلاله سنة 1531م، وذلك بقيادة دون ألفارو دو بازان [6] Don Alvaro de Bazan؛ غير أنّ أهالي تلمسان سرعان ما قاموا بتنظيم مقاومة ضدّ الإسبان، والذين اضطرّهم الأمر إلى تخريب هنين ثمّ الارتحال عنها [7]. وهكذا تمّ احتلال ميناء المرسى الكبير

---

[1] –حسن الوزّان، وصف إفريقيا، ج2ص38

[2] –عبد االقادر فكاير، الغزو الإسباني للسّواحل الجزائريّة، ص59.

[3] –معناه صخرة الجزائر

[4] –توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة، ص127.

[5] – مرسى هنين هو المرسى الطّبيعي لمملكة تلمسان، يقع بين منتصف الطّريق بين بني صاف وجامع الغزوات وبينها وبين تلمسان على خط مستقيم 45كم. ينظر: توفيق المدني، كتاب الجزائر، ص236.

[6] – المرجع نفسه، ص236.

[7] – عبد القادر فكاير، الغزو الإسباني للسّواحل الجزائريّة، ص66.

وبجاية، وصخرة ألبينيون، وهنين. أمّا الموانئ التي لم يحتلّها الاسبان كشرشال وتنس [1] ومستغانم[2] ودلّس وميناء مدينة الجزائر فقد أعلنت خضوعها لسلطة صاحب قشتالة، والتزمت بأداء ضريبة للأسبان[3].

محاولات الإسبانيّين التوسّعيّة وظهور المغطّسين:

حاول الإسبانيّون التوسّع على حساب الحفصيّين والزيّانيين، فراحوا يعملون على إخضاع القبائل، و وجدوا قبائل حليفة؛ وهي التي أصبح يطلق عليها لقب المغطّسين [4] كقبائل حميان العربيّة، ومنها قبيلة غمرة [5]، وقبيلة كرشتل وأكثر قبائل بني عامر كأولاد علي القبيل؛ والذين يقول عنهم المشرفي أنّهم كانوا مشهورين بإذعانهم الشّديد للأسبانيّين، ومحبّتهم لليهود[6]، والونازرة وقيزة وأولاد عبد عبد الله وشافع وغيرهم من بني عامر [7]. وكانت هذه القبائل كما يقول المشرفي :((أهل نجدة وبأس شديد، وقتال عنيد، ورأي وتدبير، وحيلة وتشمير، فتقوّى بهم الاسبانيون بغاية التّمكين، واشتدّت شوكتهم على المسلمين، واعتدّوا بهم، وصاروا مشتدّين وأكثروا من شنّ الغارات على الأقربين

[1]–بعد وفاة السّلطان الزياني محمّد الثّابتي سنة 908هـ/ 1503م، آل الأمر إلى ابنه الأكبر عبد الله، فثار عليه شقيقاه أبو زيان ويحي، فألقى السّلطان عبد الله القبض على أبي زيان، بينما فرّ يحي، واستنجد بالأسبان، فقاموا بتنصيبه حاكما على تنس، مقابل التزامه بمحالفة الأسبان، وأداء ضريبة لحاكم وهران. الغزوات، ورقة 107ظ؛ عبد القادر فكاير، المرجع السّابق، ص58.

[2]– تعتبر مستغانم مدينة ساحليّة، تقع غرب وهران، وقد جعلها موقعها الجغرافي عرضة لتدخّل حاكم وهران الإسباني، والذي خضع له شيوخها وشيوخ مدينة مزغران، بعد أن فقدوا الثّقة في ملوك بني زيان، وذلك في 26ماي 1511م؛ فعقدوا اتّفاقيّة يتكفّلون بموجبها بمحالفة الأسبان، وأداء ضريبة ماليّة، وإطلاق الأسرى المسيحيّين. ينظر: المرجع نفسه، ص ص 60-61.

[3]–مبارك الميلي، تاريخ الجزائر، ج3ص43.

[4]–المغطّسون (Mogtezys) لقب أطلق عليهم، وقد ذكرهم أحمد الشّقراني الرّاشدي باسم "المفاطيس "، وهو خلاف ما جرى عليه من سبقه من المؤرّخين، لا سيما عبد القادر المشرفي في كتاب" **بهجة النّاظر**"، حيث أطلق عليهم لقب المغطّسين، ومعناه أنّهم صاروا مغطّسين في الكفر بسبب محالفتهم النّصارى . ينظر: أحمد بن عبد الرّحمن الشّقراني الرّاشدي، القول الأوسط في أخبار بعض من حلّ بالمغرب الأوسط، تحقيق وتقديم ناصر الدّين سعيدوني، ط 1، بيروت:دار الغرب الإسلامي، 1991، ص65؛ توفيق المدني، حرب الثّلاثمائة سنة، ص108.

[5]–الزياني، دليل الحيران وأنيس السّهران، ص146.

[6]–المشرفي، بهجة النّاظر، ص31.

[7]– المصدر نفسه، ص32.

والأبعدين، فكانوا عيونهم الباصرة، وجنودهم الهائلة المكاثرة وإخوتهم النّصحاء، وأحبّاؤهم النّجباء)) [1]، وصار المغطّسون يخدمون الإسبانيّين [2]، ودخلوا في جملة جيشهم، فصاروا لهم أعوانا، وشنّوا بهم الغارات، وانتفعوا بهم فيما يحتاجونه من الدّواب والأقوات، كما أنّهم عملوا على جلب الأخبار للأسبانيّين، وتغطيس النّاس [3]، وبثّ الدّعاية في وسط الأهالي، وهذا ما جعل المشرفي يقول أنّهم :((صارو شجى في حلق الدّين باحتكام، وقذى في عيون الإسلام، وحلاوة في قلوب الكفرة اللّئام)) [4]. اللّئام)) [4] .

ومع ذلك فإنّ كثيرا من القبائل لم تذعن للإسبانيّين كهبرة والبرجية ومجاهر وغيرها من القبائل؛ الذين لم يدخلوا تحت طاعة الاسبانيين أصلا، وكان لهبرة حروب عظيمة معهم حتّى فنيت أعداد كبيرة منهم[5]. بينما كانت بعض القبائل كزناتة وبني راشد يدخلون تحت ذمّة النّصارى إذا اضطرّتهم الظّروف، فإذا سنحت لهم الفرصة يفرّون بأنفسهم ويظهرون عداوتهم، إلى أن ينالهم عقاب الإسبانيّين بإعانة من المغطّسين [6]. وكان الإسبانيون يتعاملون مع القبائل بحسب الخدمات التي كانوا يقدّمونها لهم؛ فمثلا كانوا يقدّمون الونازرة على قيزة، وهم على حميان، ثمّ غمرة فشافع، فكرشتل، ويقدّمون كرشتل على أولاد علي، وأولاد علي على أولاد عبد الله، وهم على بني شقران، وهم على القلعيّة، وهم على الحشم.

الموقف المعادي للإسبانيّين:

إذا ما استثنينا المغطّسين بالإقليم الغربي، والذين حالفوا حاكم وهران الاسباني، فإنّ بقيّة السكّان كانوا يظهرون عداوتهم للإسبانيّين، فامتنعوا عن تقديم الميرة إليهم، وعملوا على حصارهم

---

[1] - المصدر نفسه، ص26.

[2] -أحمد الشّقراني، المصدر السابق، ص65-68.

[3] -المشرفي، المصدر السّابق، ص ص13 -16.

[4] - المصدر نفسه، ص26.

[5] - المشرفي، بهجة النّاظر، ص36.

[6] -الجامعي، فتح مدينة وهران"شرح الحلفاويّة"، تحقيق مختار حساني، الجزء الأوّل من كتاب "تاريخ تحرير وهران من الاحتلال الاسباني خلال القرن الثّامن عشر الميلادي من خلال مخطوطتين"، مخبر المخطوطات، جامعة الجزائر، 2003، ص38.

اقتصاديا، وهو ما جعل دي غرامون يقول في وصف حالة الجنود الإسبانيّين في المناطق السّاحليّة:((كان الجنود يموتون جوعا في وهران، وفي عنّابة لم يجد الجنود ما يشترون به سمكة سردين؛ في حين أنّ السّمك كان موجودا بكثرة، وفي بجاية لم يجدوا ما يأكلونه، وهو ما جعل الجنود يفرّون من الجنديّة ليلتحقوا بالهند)).[1]

و أدّت بعض القبائل العربيّة دورا بارزا في قطع الإمدادات عن الحامية الإسبانيّة بهنين حين حاصرت هذه الحامية، رفقة القوّات التي أرسلها حاكم تلمسان سنة 941هـ/ 1534م، الأمر الذي جعل الإسبانيّين يفرّون بأنفسهم من هنين، بعد أن قاموا بتدميرها [2]. وفي مستغانم تمكّنت القبائل العربيّة من إفشال حملة الكونت دالكوديت في 949هـ/1543 م[3].

[1]-الميلي، تاريخ الجزائر، ج3ص29.

[2] -E. Paimaudaie، Documents inédits sur l'histoire de l'occupation Espagnole En Afrique (1506-1574), R.A, T19, 1875, P277.

[3]-عبد القادر فكاير، الغزو الإسباني للسّواحل الجزائريّة، ص71.

محاولة تنصير أهالي المدن المحتلّة:

حاول الإسبانيّون أن يقوّوا نفوذهم، فعملوا على نشر المسيحيّة في بلاد المغرب الأوسط، وأرسلوا القسيسين والرّهبان العارفين باللّغة العربيّة وحتّى العبريّة قصد تنصير سكّان وهران من المسلمين واليهود[1]، إلى أنّ هذه السّياسة مُنيت بالفشل، الأمر الذي جعل مقتصد وهران يوجّه رسالة إلى إمبراطور إسبانيا يُظهر من خلالها مدى فشل هذه السياسة، ويكشف له النّسبة الجدّ ضئيلة لعدد المتنصّرين، حيث لم يتجاوز عددهم ثلاثون فردا في السّنة، وهم منحصرون في فئة الأطفال الصّغار الذين لم يتجاوزوا سنّ السّابعة، والمحصّل عليهم كغنيمة[2].

---

[1]-جهود التّنصير، والبحث عن قبائل حليفة، كلّها حقائق تردّ مزاعم المستشرقين، و التي تُرجع عدم إقدام إمبراطوريّة إسبانيا على التوسّع داخل المغرب الأوسط إلى الأزمة الاقتصادية التي شهدتها إسبانيا، وقلّة أهميّة مدن المغرب الأوسط مقارنة مع المستعمرات الأخرى كالمستعمرة الهنديّة، إضافة إلى ادّعاء أنّ الهدف من احتلال السّواحل المغربيّة هو القضاء على أعمال القرصنة؛ وهي كتابات في مجملها تتجاهل المقاومة التي لقيها الإسبانيّون من قبل سكّان المغرب الأوسط، والتي جعلت الجنود أنفسهم يفرّون من بجاية ووهران إلى المستعمرة الهنديّة، بل حاول الكثير منهم التملّص من الجنديّة، ومقاومة نقص المؤونة بسبب الحصار المفروض من السكّان باعتناق الإسلام.
ينظر: جون .ب.وولف، الجزائر وأوربا، ص26.
- Braudel , Les Espagnols et l'Afrique du nord, p226.

[2]-سيد أحمد بلبوري، الاحتلال الاسباني الأوّل لوهران وانعكاساته الاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة، رسالة ماجستير،جامعة وهران، 1985، ص ص107-109.

ب – الحكم العثـــــماني:

لم يستسغ سكّان المغرب الأوسط خضوعهم لسلطة ملك إسبانيا، كما أنّهم فقدوا الثّقة في الزّعامات المحليّة، والتي كان واضحا أنّها غير قادرة على الدّفاع عنهم، فضلا عن استرجاع المدن الضّائعة منهم، وبات من الطّبيعي أن يرحّب السكّان بأيّة قوّة إسلاميّة تقف في وجه الأطماع الأسبانيّة.

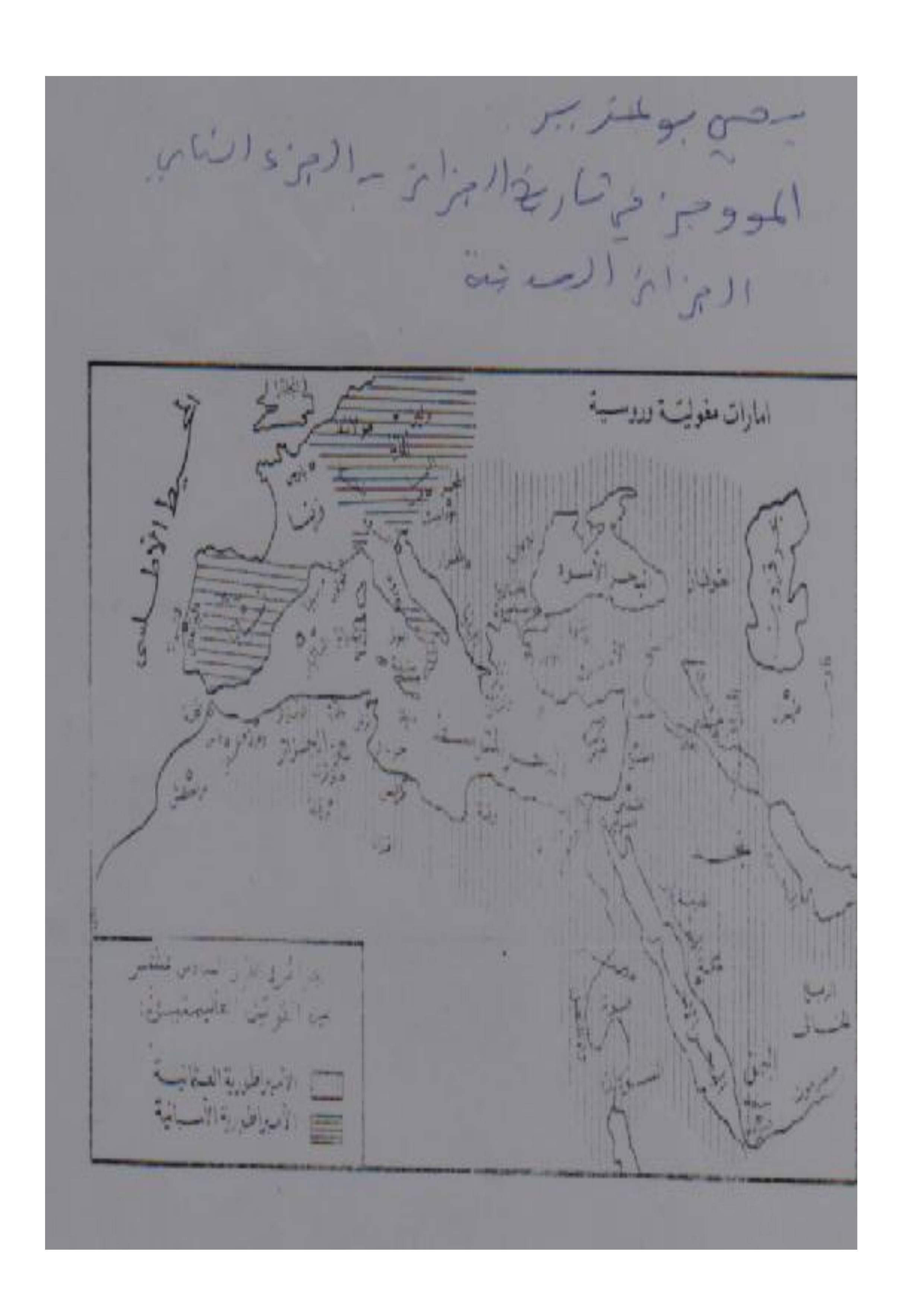
وفي هذا الوقت كانت الخلافة العثمانيّة قد لمع اسمها بعد فتح القسطنطينيّة [1]. وصار مسلمو الأندلس[2] والمغرب الأوسط يعوّلون عليهم كثيرا، وذلك في ظلّ ضعف زعاماتهم المحليّة. فهاهو عبد الباسط بن خليل، أحد الرّحالة المشارقة الذين وفدوا على بلاد المغرب الأوسط قبيل دخول العثمانيّين يصرّح أنّه عايش بتلمسان شائعة تناقلها النّاس، ومفادها أنّ ((ابن عثمان ملك الرّوم التّركي قد تهيّأ، وعزم على المشي على بلاد الفرنج من جهة المغرب لإبادتهم))، ويشير عبد الباسط أنّ هذه الشائعة :((دخل رعبها في قلوب الكثير من الفرنج النائيين عن بلاد ابن عثمان حتّى النائيّين ببعد كبير عن بلاد ابن عثمان)) [3] ، وهكذا زعزعت هذه الشّائعة قلوب الكثير من الفرنج، وتناقلها سكّان تلمسان بكلّ فرح وسرور، ما يوحي بتلهّفهم إلى أيّ نجدة إسلاميّة متوقّعة.

---

[1] – فتحت القسطنطينيّة في عهد محمّد الثّاني الفاتح، الذي ولد سنة 833هـ، وتولّى الخلافة سنة 855هـ، وكان فتحها سنة 857هـ/1453م، محمّد فريد بك، المرجع السّابق، ص ص 160-164؛ يلماز أوزتونا، تاريخ الدّولة العثمانيّة، ترجمة عدنان محمّد سلمان، استنبول:منشورات مؤسّسة فيصل للتّمويل، 1988م، ج1ص 131.

[2] –تكرّر استنجاد الأندلسيّين بالعثمانيّين، وقام الأندلسيّون بمحالفة العثمانيّين في صراعهم بالمغرب الأوسط، كما أنّ العثمانيّين حاولوا مدّ يد العون للأندلسيّين، فقاموا بنقلهم من الأندلس إلى السّواحل المغربيّة، وساهموا في ثورة المورسكيّين ضدّ الإمبراطوريّة الإسبانيّة.

[3] –عبد الباسط ابن خليل، مشاهدات وأخبار عبد الباسط الظّاهري من خلال مخطوطه الرّوض الباسم في حوادث العمر والتّراجم، تحقيق:عمر عبد السّلام تدمري، مجلّة التّاريخ العربي، عدد17، شتاء2011 ، ص ص111-146.


يحيى بوعزيز،
الموجز في تاريخ الجزائر، الجزء الثاني،
الجزائر الحديثة
امارات مغولية وروسية
المحيط الأطلسي
البحر الأسود
الامبراطورية العثمانية

-ظهور الإخوة أبناء يعقوب على مسرح الأحداث:

شهد المغرب الأوسط في مطلع القرن العاشر الهجري(10هـ/15م)تزايد أعمال الجهاد البحري ضدّ السّفن المسيحيّة، حيث توحّد سكّان المدن السّاحليّة مع الأندلسيّين، وبعض المرتدّين عن المسيحيّة، إضافة إلى المشارقة العثمانيّين. ومن العثمانيّين الذين بزغ نجمهم في تاريخ الجزائر الحديث، الإخوة أبناء يعقوب.

كان يعقوب أحد فرسان السباهيّة[1] الذين استوطنوا جزيرة ميديلي بعد أن فتحها محمّد الفاتح، وقد رُزق أربعة أولاد هم إسحاق، وعرّوج، وخضر الذي عرف بخير الدّين، ثمّ إلياس، وكان أبناء يعقوب متّصفين بشجاعة عاليّة، وحماس ديني منقطع النّظير [2]، الأمر الذي جعلهم رفقة العديد من العثمانيّين والمسيحيين الذين ارتدّوا عن النّصرانيّة يمارسون الجهاد البحري في حوض البحر الأبيض المتوسّط ضدّ السّفن النّصرانيّة، والتي كانت لها عليه اليد الطّولى. ولما سمع السّلطان الحفصي بانتصاراتهم سمح لهم بالرسوّ بحلق الوادي للقيام بعمليّة الجهاد البحري، وذلك مقابل الالتزام بأداء ضريبة. وقد كلّلت أعمال الأخوين بالنّجاح، فلمع اسمهما مع البحّارة العثمانيين، خصوصا بعد مساهماتهم في إنقاذ الأندلسيين [3]، وإغارتهم على جزيرة كورسيكا [4]، ومهاجمتهما لقلعة بجاية سنة918هـ/ 1512م، والتي فقد فيها عرّوج ذراعه[5].

-أهالي بجاية وجيجل يستنجدون بالعثمانيّين:

بعد أن فقد عرّوج ذراعه انسحب إلى جربة، ثمّ مكث بتونس، إلى أن جاءه وفد من مدينة بجاية، وقالوا للأخوين بربروسة: ((إن كان ثمّة مغيث فليكن منكم أيّها المجاهدون الأبطال؛ لقد صرنا لا نستطيع أداء الصّلاة أو تعليم أطفالنا القرآن الكريم لما نلقاه من ظلم الأسبان، فها نحن نضع

---

[1]-اصطلاح يطلق على الفرسان الذين كانت تجنّدهم الدّولة العثمانيّة مقابل استفادتهم من أراضي الإقطاع التي كانت تمنح لهم، لقاء دفع ضريبة الخراج للدّولة، مع التزامهم بتحمّل نفقات الحرب والاشتراك فيها.

[2]-خير الدّين بن يعقوب، مذكّرات خير الدّين، ص21.

[3]-المصدر نفسه، ص54.

[4]- المصدر نفسه، ص ص 53-54.

[5]-مؤلّف مجهول، الغزوات، ورقة100ظ.

أمرنا بين أيديكم، جعلكم الله سببا لخلاصنا بتسليمه إيّانا إليكم، فتفضّلوا بتشريف بلدنا، وعجّلوا بتخليصنا من هؤلاء الكفّار)).[1] ومع أنّ تجهيزات البحّارة العثمانيّين كانت جدّ متواضعة، فقد حاولوا تحرير بجاية سنة 1514م، لكنّ نفاذ البارود والذّخيرة، وتماطل سلطان تونس عن مدّ يد العون إليهما بسبب تغيّر خاطره عليهما [2]، دفع بعرّوج وخير الدّين إلى الانسحاب نحو جيجل [3]، والتي قاما بتحريرها سنة920هـ/1514م من الجنويّين الذين كانوا قد احتلّوها منذ سنة 658هـ/ 1260م، وفي جيجل التفّ السكّان حول خير الدّين وعرّوج [4]. وهرع إلى صفوفهما الأعراب والأندلسيّون مبايعين ومساندين. فاتّخذا منها قاعدة للعمليّات الجهاديّة، و نظير نجاحاتهم المتكرّرة، وتخاذل الزيانيّين والحفصيّين، هرعت الوفود من مدن المغرب الأوسط على عرّوج مستمدّين منه يد العون، وكان أهمّها وفد مدينة الجزائر التي كان سكّانها قد ضاقوا ذرعا من ظلم الأسبان[5].

-أهالي مدينة الجزائر يستنجدون:

دخل العثمانيّون إلى مدينة الجزائر سنة 922هـ/1516م، وذلك بطلب من أعيانها، وعلى رأسهم سالم التّومي، لكنّ هذا الأخير سُرعان ما انقلب على العثمانيّين، وبات يحيك المؤامرات ضدّهم، فقام عرّوج بالتخلّص منه [6]. وهكذا بدأ الأخوين خير الدّين وعرّوج يعملان على إرساء حكمهما، وبسط نفوذهما، إلى أنّهم وجدوا أنفسهم أمام قوّة إسبانيّة متمرّسة، وعدّة زعامات محليّة متجذّرة، فمن الشّمال كانت الأساطيل المسيحيّة تهدّد السّواحل الجزائريّة، والتي قامت بشنّ العديد

---

[1]-مجهول، الغزوات، ورقة 104و؛ خير الدّين بن يعقوب، المصدر السّابق، ص ص67-69.

[2]-الغزوات، 105ظ.

[3]-المصدر نفسه، ورقة105و.

[4]-مارمول، إفريقيا، ج2ص305؛ جون.ب.وولف، الجزائر وأوربا، ص30.

[5]-خير الدّين بن يعقوب، المصدر السابق، ص72؛ الغزوات، ورقة105و.

- Haedo,Histoire des rois d'Alger,P24-30.

[6] -كان سالم التّومي، شيخ مدينة الجزائر، وقد كان تابعا لحاكم بجاية، ثمّ بعد سقوط بجاية أذعن لملك إسبانيا، وصار يؤدّي إليه ضريبة سنويّة. وبعد أن قام الإسبانيّون ببناء قلعة بجزيرة ألبينيون قُبالة مدينة الجزائر، أيقن سالم التّومي بخطورة الوضع، فبادر إلى الإتّصال بعرّوج وخير الدّين، وطلب منهما تخليصه من الخطر الإسباني، فبادر الأخوين إلى تلبيّة نداءه، ولكّن سالم التّومي سرعان ما تغيّر موقفه من العثمانيّين، وصار يكيد لهما، فبادر عرّوج إلى القضاء عليه. ينظر: أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة، ص 127.

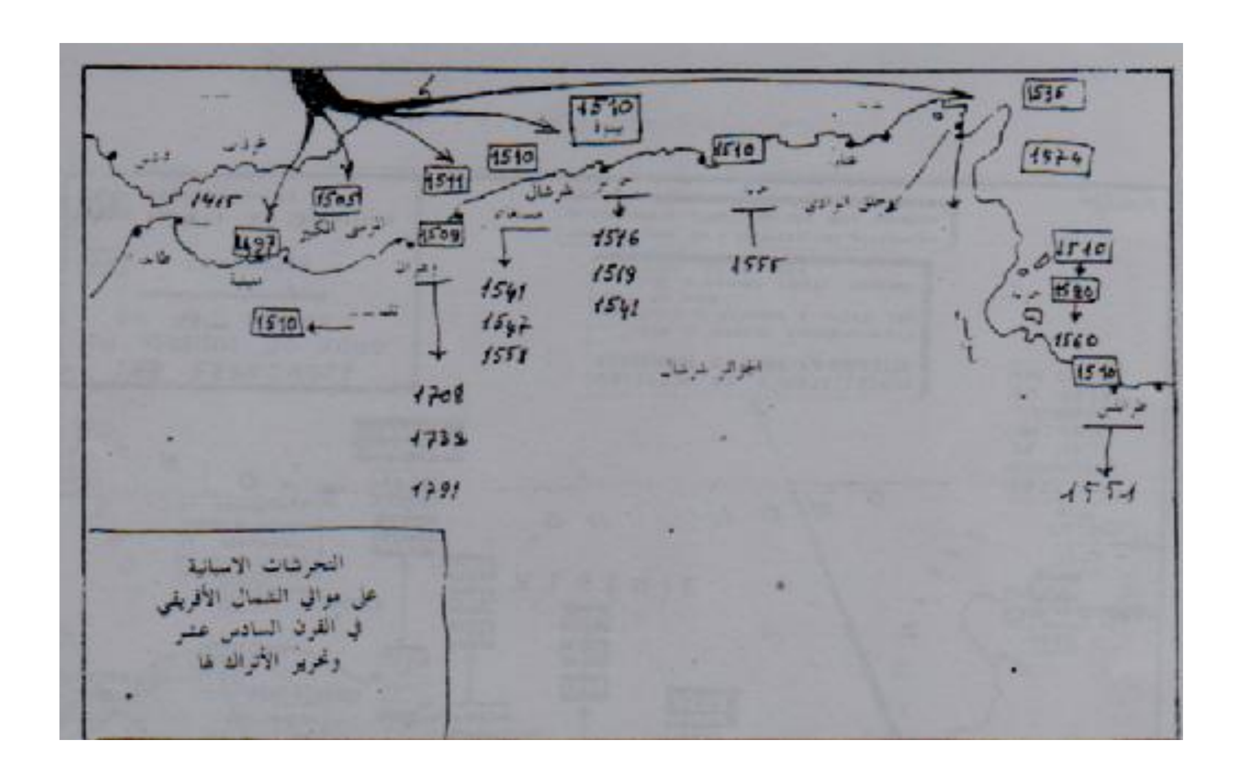
من الغارات على مدينة الجزائر، ومن الشّرق كان على العثمانيّين مواجهة الحفصيّين والأسبانيّين الذين احتلّوا بجاية، وصاحب إمارة كوكو، وزعيم قلعة بني العبّاس، أمّا من الغرب فكان خطر الزيانيّين وحاكم تنس وحاكم وهران الإسباني [1]، ثمّ ظهرت أطماع السّعديّين والذين دخلوا في صراع مع العثمانيّين، وقاموا بالإستيلاء على تلمسان، وساندهم الكثير من فقهائها، أمّا من الجنوب فكانت محاولات بسط النّفوذ والاستقلال من طرف حكّام تقرت وبسكرة وورقلة.

[1] - نقل شارل فيرو بعض المراسلات التي كانت تجري بين بعض شيوخ العرب، و حاكم تنس من جهة، إلى حاكم وهران وشارل ملك اسبانيا، وتظهر من خلال هذه المراسلات مدى تملّق حاكم تنس وشيوخ القبائل هؤلاء إلى الأسبان، كما تُظهر مدى عداوتهم للعثمانيين. ينظر:

-Ch. Fèraud, Les lettres Arabes de l'èpoque de l'occupation Espagnole en Algèrie, R.A, N°17, 1873, p313-321.

الحملات النّصرانيّة على مدينة الجزائر:

شهدت الجزائر منذ مجيئ العثمانيين عدّة حملات، كحملة كسيمانس سنة 922هـ/1516م قرب باب الوادي شرقي وادي المغاسل [1]، وحملة دوريا على شرشال سنة 937هـ/1531م[2]، و غزوة شارلكان الكبرى ضدّ مدينة الجزائر سنة 948هـ/1541م[3]. و كان مصير هذه الغارات الفشل الذّريع، حيث مُنيت بهزائم مدويّة، وكثيرا ما كانت الظّروف المناخيّة تزيد في حجم الهزيمة، لا سيما العواصف التي أدّت إلى تحطّم الأساطيل المسيحيّة، وهو ما جعل حكّام المغرب الأوسط يحسبون للعثمانيّين ألف حساب، كما غدت مدينة الجزائر تُعرفُ باسم "**المدينة المحروسة**".



---

[1]-ابن رقيّة، الزّهرة نائرة ؛ الميلي، تاريخ الجزائر، ج3ص45.

[2]-توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة، ص222.

[3]-المرجع نفسه، ص ص269-283؛ صالح حيمر، التّحالف الأوربي ضدّ الجزائر.

-استشهاد عرّوج:

كان صاحب تنس حميدة العبدي حليفا للإسبانيّين، وهو ما جعل عرّوج يستولي على مدينة تنس سنة923هـ/1517م[1]. وبعد استيلاء عرّوج على تنس وفد عليه أعيان تلمسان [2]، و طلبوا منه عزل أبي حمّو الثّالث بسبب قيامه بخلع ابن أخيه أبي زيان، والزجّ به في السّجن. سارع عرّوج إلى تلبيّة طلبهم، فترك ستّمائة جندي بقلعة بني راشد لتأمين خطّ رجعته، ودخل تلمسان، ونصّب عليها أبا زيّان[3]. لكنّ أهالي تلمسان سرعان ما انقلبوا على العثمانيين، وتحالف أبو حمو الثّالث مع الإسبانيّين، وفي ذلك يقول ابن رقيّة: ((فلمّا تمكنّ عروج من مملكة تلمسان منع أهل القلعة من إمداد النّصارى بما كانوا يمدّونهم به، فضاقت أحوال النّصارى بسبب ذلك. فعند ذلك بعث سلطان تلمسان المستوطن بمدينة فاس إلى النّصارى قائلا لهم " انظروا ما حلّ بكم حين انقطعت دولتنا، وتمكّنت منها الأتراك؛ كيف قطعوا عنكم الميرة من القلعة وغيرها، فلو كنتم أعنتموني على قتال عرّوج، وأمددتموني بالمال والرّجال ما صار أمركم إلى هذا، فانظروا الآن في هذا الأمر، وتداركوا الحال هذا، قبل أن يمتدّ طمع هذا الرّجل إلى أخذ المدينة من أيديكم)) [4]، لم يتوان الإسبانيّون عن مدّ يد العون إلى حليفهم أبي حمّو، و أدّى هذا التّحالف إلى استشهاد عرّوج وأخيه إسحاق بالقلعة [5]، وعودة أبي حمّو الثّالث إلى العرش الزياني[6].

-الأخطار التي واجها خير الدّين بعد استشهاد أخويه:

---

[1]-مجول، الغزوات، ورقة107و، 108ظ.

[2]-بن عتو بلبروات، سلاطين مملكة تلمسان الزيانيّة في مواجهة الإخوة بربروس 1517-1546م، وهران: عصور الجديدة، عدد2 ،2011م، ص ص21-231؛ أحمد توفيق المدني، تلمسان بين الزيانيين والعثمانيّين، 1530-1554م، الأصالة، عدد 26، السنة 4، جويلية -أوت، 1975م، ص ص37-46.

- Haedo, Histoire des rois d'Alger , P35.

[3]-الميلي، تاريخ الجزائر، ج3ص47.

[4]-ابن رقيّة، الزهرة النائرة، ص8.

[5]-الغزوات، ورقة109ظ.

[6]-خير الدّين بن يعقوب، المذكرات، ص ص85-86.

بعد استشهاد عرّوج وإسحاق بقي خير الدّين وحيدا، فاستغلّ الإسبانيّون هذا الظّرف، وحاولوا الإغارة على مدينة الجزائر. و أشار ابن رقيّة إلى ذلك فقال :((وتوجّه السّلطان الخبيث إلى ناحية الجزائر لطلب خير الدّين وعمارة النّصارى من البحر باتّفاق بين سلطان تلمسان والنّصارى، فبينما خير الدّين في انتظار سلطان تلمسان بأحواز الجزائر، ولم يباعد عنها إذ ظهرت لهم سفن النّصارى تسير سير السّحاب، قاصدة الجزائر، وقد كان وقت رأوهم وقت الزّوال، فما كان وقت العصرإلاّ وقد أرسوا على ساحل المدينة، فبعثوا إلى خير الدّين كتابا يهدّدونه فيه مضمونه "انظر ما حلّ بأخويك عرّوج واسحق، وما آل أمرهما إليه من الإهانة والقتل، فإن نجوت بنفسك فبها ونعمت، وإلا حلّ بك ما حلّ بهما، فقد دنت لنا الدّولة عليكم، وقد ذهب نحسنا، وأقبل سعدنا، والحرب كما علمت سجال))[1].

-إلحاق دولة الجزائر بالخلافة العثمانيّة:

علم خير الدّين أنّه أمام عدوّ خارجيّ متمرّس، والمتمثّل في التّحالف المسيحي الذي تقوده إمبراطوريّة إسبانيا، وتفكّك داخلي نتيجة ضعف الزّيانيّين والحفصيّين، فكان من تدبيره أن اتّفق مع السّكان على ضمّ الجزائر إلى الإمبراطوريّة العثمانيّة[2].

أيّد أعيان مدينة الجزائر هذا الرّأي، وأرسلوا عريضة إلى السّلطان سليم الأوّل سنة 925هـ/ 1519م، والذي أبدى موافقته، وبذلك أصبحت الجزائر إيالة عثمانيّة، وسرعان ما منح السّلطان العثماني لخير الديّن منصب بايلرباي، وسلّمه علما وصولجانا وسيفا كعلامة تشريفيّة[3].

استأنف العثمانيّون جهادهم في ظلّ تأييد إمبراطوريّة عظمى، وقد تُوّجَت أعمالهم بالقضاء على الدّولة الزيانيّة بتلمسان في عهد صالح رايس[1] عام961هـ/ 1554[2]، وإخضاع الأقاليم الشرقيّة؛

---

[1]-ابن رقيّة، الزّهرة النّائرة، ص10.

Haedo, Histoire des rois d'Alger ،P38-41.

[2]-مجهول، الغزوات، ورقة112و.

[3]-خير الدّين بن يعقوب، المذكّرات، ص ص 95-101؛ عبد الجليل التميمي، الدّولة العثمانيّة وقضيّة الموركسيّين، تونس: المجلّة التّاريخيّة المغاربيّة، عدد 23-24، نوفمبر،1981م، ص195.

- Haedo, OP cit , p43-44.

الشرقيّة؛ كعنّابة سنة 947 هـ/1540م[3]، وقسنطينة سنة 963هـ/1555م[4]، ليتمّ فيما بعد القضاء على السّلطنة الحفصيّة، كما تمّ تحرير ميناء بجاية على يد صالح رايس سنة 963هـ/1555م[5]، واستعادة برج الفنار من دون مارتان دي فارفاس سنة 935هـ/1529م[6]. وأيضا نجح العثمانيّون في إخضاع القبائل والزّعامات المحليّة كأمراء كوكو[7]، وأمراء قلعة بني العبّاس[8].

وبذلك استطاع العثمانيون أن ينهوا أيّام الحكم الحفصي من تونس وشرق الجزائر وطرابلس، كما أسدلوا السّتار عن حكم بني زيان من غرب الجزائر [9]، وسقطت إمارة الثّعالبة حول مدينة الجزائر[10]، وفقدت إمارة كوكو وإمارة المقرانيين وغمارة تنس-سويد- استقلالها [1]، و أصبحت السّيادة

---

[1]- صالح باشا؛ أحد رفقاء خير الدين ومن الذين أرسلهم السّلطان سليم إلى مصر لقتال المماليك، حيث التقى بخير الدين في الإسكندرية، صار حاكما سنة 1552 م، وقام بحملة الى تقرت وورقلة، وتمكّن من كسب ولاء أمير كوكو، وإخضاء أمراء بني العبّاس، كما استطاع أن يقضي على أطماع السّعديين في تلمسان، وأنهى حكم الزيانيّين.ينظر:

Haedo, Histoire des rois d'Alger , P91-94.

[2]-ابن رقيّة، الزّهرة النّائرة، ص9؛ يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، ج 1، ص ص 232-237؛ ناصر الدّين سعيدوني، ورقات جزائريّة، ص106؛ محمّد دادة، تلمسان في دوامة الصّراع الثّلاثي بين الأسبان والعثمانيين والمغاربة في القرن 16م، مجلّة عصور الجديدة، عدد2، سنة 2011، ص ص 193-202 .

Haedo, Op cit ,P97-98.

Jacques Berque ، L'Intérieur Du Maghreb، p78.

[3]-تمّ احتلال عنّابة سنة 1535م، من طرف قوات دون ألفار ودي بازان، وموندبخار، وقد لقي الإسبان يّون مقاومة شديدة من السكّان، الأمر الذي أعاق حركتهم التوسّعيّة، إلى أن حاصرتهم القوّات الجزائريّة، واستطاعت أن تُحرّر المدينة سنة 1540م.

[4]-سعيدوني، ورقات جزائريّة، ص ص 111-112.

[5]- يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجيّة مع دول وممالك أوربا- 1500-1830 م، ط 1، الجزائر:ديوان المطبوعات الجامعيّة، ص50.

Haedo, Op cit , P99-101.

[6]-الميلي، تاريخ الجزائر، ج3ص56.

[7]-توفيق المدني، حرب الثّلاثمائة سنة، ص ص299-301.

[8]-المرجع نفسه، ص340.

[9]-الميلي، المرجع السّابق، ج2ص488؛ مولاي بلحميسي، نهاية دولة بني زيان ، الأصالة ، عدد 26، السنة الرّابعة ، جويلية – أوت 1975، ص ص 30-37.

[10] - Diego de Haedo,Topographie et histoire générale d'Alger،p23-26.

العثمانيّة تمتدّ من جبال طرارة إلى شمال نهر صغير قرب القالة، ومنه باتّجاه الجنوب حتّى شطّ الجريد [2]، وهو ما يتطابق حاليا مع الحدود الجزائرية التونسيّة، وفي الغرب كانت تمتدّ الحدود الترابيّة من ميناء هنين باتّجاه الجنوب عبر طرارة إلى الصّحراء[3]، كما توسّعت سلطة العثمانيين في عهد حسن باشا من بسكرة وبلاد الزّيبان وما يحيط بها إلى تخوم الصّحراء الكبرى [4]، وتمّ إخضاع تقرت وورقلة سنة959هـ/1552م[5].

عرف القرن السّادس عشر، مرحلة البايلربايات منذ تعيين خير الدّين بايلربايا على الجزائر إلى سنة995هـ/1587م، ثمّ بدأ عهد الباشوات من 995هـ-1070هـ/ 1587 م-1659م، وهو العهد الذي عرف تنافسا بين الريّاس والانكشاريّة[6].

1-سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافي، ج1ص138.

2-يمتدّ الجريد من تخوم بسكرة إلى تخوم جزيرة جربة، ويتميّز بشدّة الحرّ وكثرة الجفاف. حسن الوزّان، وصف إفريقيا، ج2ص142.

3-سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، ص53.

4-توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة، ص299 .

5- المرجع نفسه، ص ص338-339؛ عبد الكريم غلاّب، قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي، ط 1، بيروت:دار الغرب الإسلامي، م2005، ج2ص ص338-346.

6-سعد الله، بحوث في التّاريخ العربي الإسلامي، ص486.

موقف الفقهاء من أحداث القرن العاشر الهجري

أ – موقف الفقهاء من الغزو الإسباني لسواحل المغرب الأوسط:

مثّل الغزو الإسباني لسواحل المغرب الأوسط هاجسا قويا في نفوس السكّان، لا سيما الفقهاء، فحاولوا التخلّص منه، فتعدّدت وسائلهم، و يمكن إجمالها فيما يلي:

- **الدّعوة إلى الجهاد**[1]:

ازداد نفوذ فقهاء المغرب الأوسط بعد أن فقدت السّلطة المركزيّة نفوذها الحقيقي على البلاد، ويشير عزيز سامح التر أنّ الفقهاء قد حصلوا على احترام الجميع، وخاصّة في المناطق الخاضعة للسيطرة الاسبانيّة، بسبب فقدان الحكومات القائمة، وفقدان المفسدين للدّعم، ولذلك التجأ السكّان إلى الرّباطات التي شكّلها العلماء ورجال الطّرق. هكذا استغلّ رجال الدّين سخط السكّان من ظلم الإسبانيّين، و اضطهادهم للأهالي المسلمين عامّة، ورجال الدّين المسلمين من شيوخ وعلماء، فراحوا يذكون مشاعرهم ويدعونهم إلى الجهاد[2].

شكّل الفقهاء مراكز دفاع أماميّة، ومراكز تموين للمجاهدين ، وذلك من خلال الرّباطات، وكذلك تصدّوا للغارات الاسبانيّة، فالتفّ حولهم غالبيّة السكّان المحليّين، وجموع القادمين من

---

[1]–يعتبر الجهاد من العبادات العظيمة، حيث نوّه الله بفضله فقال : لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٩٥﴾ (النّساء–الآية95)، وهو مأخوذ من الجهد الذي هو التّعب، وقد خصّ الفقهاء الجهاد بباب مستقلّ من أبواب الفقه، وجعله الإمام مالك وأصحابه مع العبادات، بخلاف الشّافعيّة الذين يجعلونه مع الجنايات، لأنّه عقوبة على الكفر، وهو من فروض الكفاية، ولا يجوز تركه إلّا لعذر. ينظر: شهاب الدّين أحمد القرافي ، الذخيرة، تحقيق: محمّد حجي، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1994م، ج3ص ص383–386.

[2]–عزيزسامح التر، الأتراك العثمانيّون في إفريقيا الشّماليّة، ص ص107–108.

الأطراف الغربيّة وخصوصا الأندلس [1]، ومن بين المقاومات التي قادها الفقهاء، تلك المقاومة الشعبيّة التي تزعّمها الفقيه ابن جاجوا، والتي كادت تعيق تقدّم الإسبان في مدينة وهران[2].

كما أعلن أهالي بجاية الجهاد بعد تردّي أوضاع السّلطنة الحفصيّة، فقاد أبو فارس وأخوه أبو عبد الله ابنا الأمير عبد العزيز الحفصي صاحب بجاية الجهاد ضدّ الأسبان رفقة أربعة من العلماء الرّسميّين، هم أبو أحمد بن إسماعيل الكتّاني، وأبو إسماعيل بن إبراهيم الحنتاتي، وأبو يوسف بن الحسين بن علي، وأبو علي بن محمّد [3]، وممّن شارك في الجهاد ضدّ النّصارى، أبو عبد الله بن عبد الجليل الذي يصفه البوني بالشّيخ الفقيه المزار، حيث أنّ النّصارى لما نزلوا بعنّابة قام يجاهدهم[4].

كان الفقهاء ينظرون إلى الحملات المسيحيّة على أنّها خناجر موجّهة نحو الإسلام، ولذلك باركوا الجهاد ضدّ العدوّ، وشاركوا فيه [5]، فكانوا يقودون جموع السكّان إلى الجهاد، ويحرّضونهم عليه [6]، ويحثّون حكّام وقتهم على استرجاع ما أخذه النّصارى، وهذا ما نلمسه من قول أحمد بن ميمون عند كلامه عن تحرير مدينة وهران :

((ولم تزل بأيدي الكفرة، وملوك الإسلام يطرقونها مرّة بعد مرّة، وأولياء الله وعلماء ملّته يدعون النّاس إليها، ويغزونها بأنفسهم؛ فلا يزيلون شجاها من حلقها، ولا يوفونها منتهى حقّها)) [7].

ومن أنواع الجهاد التي خاضها الفقهاء ضدّ الإسبانيّين، الجهاد عن طريق الشّعر الحماسي، حيث جادت قرائحهم بقصائد أذكت الحماسة، وشحذت الهمم، ومجّدت الانتصارات. وقد كثر هذا

---

[1] – عزيز سامح التر، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشّماليّة، ص105.

[2] –مختار حساني، تاريخ الدّولة الزيانيّة، ج1ص74.

[3] -L.CH.Fèraud, Conquète de Bougie, p253.

– عبد القادرفكاير، الغزو الإسباني للسّواحل الجزائريّة، ص384؛ عبد الحميد حاجيات، عنّابة في عهد الحفصيّين، مجلّة الأصالة، السّنة الخامسة، عدد34-35، جمادى الثّانية –رجب،1396 هـ، ص ص74-86، ص84.

[4] –أحمد البوني، الدرّة المصونة، ص147.

[5] – الخلفيّة الدّينيّة للصّراع الاسباني العثماني على الايالات المغربيّة في القرن السّادس عشر، المجلّة التّاريخيّة المغربيّة، عدد 10، جانفي 1978م، تونس، ص ص69-79، ص21.

[6] –ابن ميمون، التّحفة المرضيّة في الدّولة البكداشيّة في بلاد الجزائر المحميّة، تقديم وتحقيق محمّد بن عبد الكريم، ط 1، الجزائر:الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، 1972م، ص ص203-204.

[7] –أحمد بن سحنون، الثّغر الجماني، ص192.

النّوع من القصائد في القرن الحادي عشر والثّاني عشر الهجريين(17-18م)، لا سيما بعد فتح وهران الأوّل سنة 1708م على يد الباي مصطفى بوشلاغم، والثّاني سنة 1792م على يد الباي محمّد الكبير[1].

ومن فقهاء القرن العاشر الهجري (10هـ/ 16م) الذين ساهموا في الجهاد عن طريق الشّعر الحماسي؛ الفقيه عبد الرّحمن بن محمّد بن موسى، والذي توفي سنة 1011هـ/1603م، له قصيدة قالها بمناسبة هدم الباشا حسين حصن المرسى، وهروب الإسبانيّين للحصن الأسفل سنة 1007هـ/1598م، وممّا جاء فيها:

هنيئًا لك باشا الجزائر والغرب
بفتح أساس الكفر مرسى قرى الكلب

ستفتح وهرانا ومرساتها التي
أضرّت بذا الإقليم طرا بلا ريب[2]

وفي الوقت الذي كان الفقهاء يحثّون سكّان المغرب الأوسط على الجهاد الإسبانيّين، قاموا بتحذير النّاس من الرّضوخ لسلطة الكفّار، وشنّوا حملة شديدة اللّهجة ضدّ المغطّسين، ورموهم بالكفر، الأمر الذي جعل هؤلاء المغطّسين ينقمون على الفقهاء، بل وصل الأمر ببعض بني عامر يُدعى أبو نصايب إلى قتل الفقيه السيّد شعبان الزناتي عند باب وهران سنة 1098هـ، واجتزّ رأسه[3].

---

[1]– من ذلك قصيدة أبي عبد الله محمّد المشهور بابن آقوجيل ت 1080هـ/1669م، والثّاني سنة 1792م على يد الباي محمّد الكبير، وقصيدة محمّد بن عبد المومن التي مطلعها:

نادتك وهران فلبّ نداها وانزل بها لا تقصدنّ سواها

وقصيدة أحمد بن سحنون الرّاشدي التي قالها في فتح وهران الثّاني، ومن بين هذه القصائد التي اشتهرت؛ **الحلفاوية** للحلفاوي، وقد اعتنى بها العلماء وممّن قام بشرحها الجامعي.

[2]–ابن مريم، البستان، ص237.

رأسه[1]. ومن أشهر القصائد التي قيلت في المغطّسين، قصيدة لأبي العبّاس سيدي أحمد بن القاضي بن أبي محلى السّجلماسي، شيخ أبي عثمان سعيد قدّورة، والتي افتتحها بقوله:

فمن مبلغ عنّي بني عامر
ولا سيما من قد ثوى تحت كافر

وكلّ كميّ من صناديد راشد
بتيجانها مع رأسها عبد قادر

إلى أن قال: **أذلّكم الجبّار كيف رضيتم**
بسبي العذارى من بنات الأكابر

فصرتم من جور البغاة كأنّكم
يهود الجزا تعطونها في الأصاغر

ويضافُ إلى جهود الفقهاء التي بذلوها في الجهاد ضدّ الإسبانيّين بأرض المغرب الأوسط، جهودٌ أُخرى قدّموها بتونس والمغرب الأقصى. فقد استُشهِد يحي بن محمّد الفكّون والشّيخ الزلديوي في وقعة تونس الكائنة عام 941هـ/1534م، وكانا قد دخلا في خصومة مع سلطان تونس الحسن بسبب معارضتهما له[2]. كما شارك علي بن هارون المطغري سنة 818هـ/1415م مع جموع من المسلمين الذين جاؤوا لإنقاذ سبتة من كلّ أوب[3].

---

[1] -المشرفي، بهجة النّاظر، ص30.

[2] -الفكّون ، منشور الهداية، ص43.

[3] -المنجور، الفهرسة، ص ص40-41.

- **إضطهاد الإسبانيّين لفقهاء المغرب الأوسط:**

كانت إسبانيا توقن أنّ فقهاء المغرب الأوسط لن يرضوا باحتلال أراضيهم من قبل دولة كافرة، وأنّهم سيعملون على تأليب الأهالي ضدّهم، لذلك قاموا بالإعتداء عليهم.

ففي بجاية يقول المريني صاحب " **عنوان الأخبار فيما مرّ على بجاية** " أنّ النّصارى حين دخلوا المدينة قاموا بقتل أربعة آلاف وخمسمائة وخمسين مسلما؛ فيهم الكثير من العلماء والمرابطين [1]، وجاء في ترجمة عبد الله بن محمّد العنّابي نزيل درعة، أنّه قُتل وهو في طريقه إلى بلده [2]، كما تعرّض الكثير من الفقهاء للأسر، وفي ذلك يقول ابن ميمون عن الإسبانيّين : ((فكم من عالم أسروا، وكم من شريف نصّروا))[3].

دفعت هذه الأعمال فقهاء المغرب الأوسط إلى الهجرة نحو الأماكن التي لم تطأها أقدام العدوّ. فالفقيه محمّد بن يحيى المغراوي قام بتغيير زاويته التي كان يدرّس بها الفقه والتّوحيد، وذلك بعد أن احتلّ الإسبانيّون مدينة وهران [4]. و ارتحل فقهاء آخرون من بلاد المغرب الأوسط، و توجّه جلّهم إلى المغرب الأقصى [5]، في الوقت الذي تضاءل عدد فقهاء المغرب الأوسط ببلاد المشرق، حيث أحصى عمّار هلال في القرن العاشر فقط سبعة فقهاء استقرّوا بالبلاد المشرقيّة، وذكر أنّ هؤلاء السّبعة لم يكن فيهم عالم مبرّز [6].

- **الفقهاء والصّلح مع الإسبانيّين:**

---

[1]-المخطوط قام بنشره مترجما إلى الفرنسيّة فيرو في المجلّة الإفريقيّة. ينظر:

L.CH.Fèraud,Conquète de Bougie par les Espagnols,p256.

[2]-ذكر ذلك أحمد بابا وجعل وفاته بعد 892هـ، أمّا صاحب دوحة النّاشر فذكر أنّه توفي غريقا في طريقه إلى بلاد الأندلس لفداء الأسارى سنة 875هـ. ينظر التنبكتي، النيل، ص ص 235؛ محمّد بن عسكر، دوحة النّاشر، ص92.

[3]-ابن ميمون، التّحفة المرضيّة، ص ص 203-204.

[4]- عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف، ص382.

[5]-سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافي، ج1ص177.

[6]-عمّار هلال، العلماء الجزائريّون في البلدان العربيّة الإسلاميّة، ص293.

أدّى احتلال النّصارى لسواحل المغرب الأوسط، وضعف السّلطة المركزيّة، وتفرّق كلمة المسلمين إلى طرح مسألة الصّلح مع النّصارى، وهل يلزم أهل المصر المصالح أم يلزم كل المسلمين.

فقد سئل بعض الفقهاء عن الكفّار ينعقد بينهم وبين الأئمّة من المسلمين عهد وصلح، هل يلزم ذلك من لم يعاهدهم ويصالحهم من المسلمين؟ و كان الجواب بأنّه مع تفرّق الملوك والدول واختلاف الكلمة فلا، وإنّما يلزم الجوار أهل الإقليم الذين أجاروا، ولا يلزم أهل الأندلس جوار أهل الشّام ومصر[1].

وأيضا سئل بعض فقهاء تلمسان بما نصّه :((عمّا عمّت به البلوى في بلدنا وعظم من أجله الخطب، واتّسعت به المقالات، وذلك أنّ الخليفة أصلحه الله صالح هؤلاء النّصارى الذين أخذوا سواحلنا إلى أجل معلوم، والمسلمون يرون جهادهم من أعظم القربات، فصاروا يغيرون على أطراف بلدهم فيقتلون ويضيّقون بهم، هل ذلك طاعة أو معصيّة؟ والفرض أنّ الخليفة لا يوافق على ذلك ويعاقب عليه)). و افتتح الفقيه جوابه بالقول:((الحمد لله الذي أيّد الدّين المحمّدي بالجها د))، ثمّ قرّر أنّ الصّلح إمّا أن يكون حيث الجهاد فرض عين؛ وذلك عندما يكون المسلمون مطلوبين، أو فرض كفاية؛ عندما يكون المسلمون طالبين، وقال: ((أنّ الجهاد فرض عين في مسألة السّؤال، لأنّ الصّلح هو في مصلحة العدوّ، فالصّلح المذكور يجب نقضه لأنّه بمقتضى الشّرع غير منبرم، فحكمه غير لازم عند كلّ من حقّق أصول الشّريعة بنظر عالم))، ويضيف قائلا :((وقوع ذلك الصّلح عقب الدّاهية الدّهيا وهي انتهاز العدوّ دمّره الله الفرصة في بلاد المغرب مع توفّر الإسلام، والعدوّ أهلكه الله ليس له فيها مرد، والمسلمون لا يقصرون عن ضعف العدد فضلا أن يكون عدوّهم ضعفهم))[2].

كان كثير من الفقهاء يحكمون على الحاكم المتحالف مع الإسبانيّين بالكفر، فلمّا جاء علماء تلمسان يشفعون في أحد السّلاطين الزيّانيّين المتحالفين مع حاكم وهران الإسباني ضدّ العثمانيّين، كان ممّا ألزموا به هذا السّلطان؛ إعادة الشّهادة والعقد على زوجاته، بسبب ارتداده لإعانته الكفّار على المسلمين[3].

---

[1]-الونشريسي، المعيار، ج2ص115.

[2]- المصدر نفسه، ج2ص ص206-209.

[3]- خير الدّين بن يعقوب، المذكرات، ص157.

وفي المقابل نجد أنّ بعض الفقهاء قد وقفوا إلى صفّ السّلاطين مذعنين إلى الصّلح مع الإسبانيّين، وقد يكون ذلك تماشيا مع الواقع، ومراعاة للظّروف، كأبي يحيى العقباني الذي دخل مع النّصارى إلى تلمسان لأجل الصّلح سنة 917 هـ[1].

[1]–ابن القاضي، لقط الفرائد، ضمن"موسوعة أعلام المغرب"، ج1ص829.

ب – **موقف الفقهاء من حكم العثمانيين:**

كان دخول العثمانيّين إلى أرض المغرب الأوسط، نقطة تحوّل في تاريخ البلاد، وقد تنوّعت نظرة الفقهاء إلى العثمانيّين، فإذا كان قسم كبير من الفقهاء قد قاموا بتأييدهم، فإنّ فقهاء آخرين عارضوا حكمهم، وأظهروا تشبّثهم بالزّعامات المحليّة.

- **الفقهاء المؤيّدون للعثمانيّين:**

تعدّدت القواسم المشتركة التي ساهمت في توثيق الصّلة بين الفقهاء والعثمانيّين، وهي القواسم التي يلخّصها أبو القاسم سعد الله بقوله:((جعلت العوامل المشتركة والتي هي الدّين والجهاد والعدو الواحد العثمانيين يبحثون عن حلفائهم في الجزائر ضمن الفئات والأفراد الذين يؤمنون مثلهم بطريقة أكثر فلسفة، وأكثر تحمّسا، ولا شكّ أنّ أوّل من فعل ذلك أفرادا وطرقا هم رجال الدّين والعلماء، ومن ثمّة بدأت هذه العلاقة بين الطّرفين تنمو وترسخ)) [1]. ولأجل ذلك وقف معظم رجال الطّرق والكثير من الفقهاء في صفّ العثمانيين، ورأوا أنّهم صمّام الأمان أمام تهديدات النّصارى، ومعلوم أنّ العلماء كانوا محلّ تأثير كبير على أصحاب القرار خاصّة والسكّان عامّة[2].

ففي تلمسان استنجد فقهاؤها بالعثمانيّين بعد أن رفضوا حكم أبي حمّو الثّالث المتحالف مع الإسبانيّين[3]، ويذكر صاحب "**تتمّة بغية الروّاد**" أنّ دخول عرّوج إلى تلمسان كان بإغراء القاضي أبي يحي العقباني وأبي يوسف الزياني [4]، ومن بين الفقهاء المؤيّدين للعثمانيين الشّيخ أحمد بن يوسف الملياني وأتباع زاويته الذين قاتلوا مع العثمانيين بقلعة بني راشد [5]. أمّا في قسنطينة فقد أيّدت عائلة الفكّون العثمانيّين، ونفس الشّيء فعله فقهاء مدينة الجزائر وبجاية وجيجل وتنس.

---

[1]–سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافي، ج1ص191.

[2]–محمّد بوشنافي، موقف علماء تلمسان من التّواجد العثماني في الجزائر (ق10–13هـ)، ص203.

[3]–مارمول، إفريقيا، ج2ص306.

[4]–مؤلف مجهول، ملحق بغية الرواد، المكتبة الوطنيّة، رقم المخطوط: 2117 ، ورقة 89.

[5]–أبو راس النّاصري، عجائب الأسفار، ج1ص336.

مظاهر التّحالف بين العثمانيين والفقهاء

1 - المشاورة والاستفتاء:

أيقن العثمانيّون بما يحتلّه الفقهاء والمرابطون في المغرب الأوسط من مكانة سامية، فعملوا على احتوائهم، و كسب تأييدهم، وصاروا يشاورونهم ويستفتونهم [1]، وهو ما ولّد تحالفا بين الفقهاء والعثمانيين، فلمّا اجتمع الأعراب وأهالي تنس مع ابن أخ سلطان تلمسان، وخلعوا طاعة عرّوج ثارت ثائرة هذا الأخير، فقرّر أن يسير بنفسه إليه، وجمع علماء الجزائر وسألهم مستفتيا: ((أيّها السّادة ما حكم الشّرع فيمن تمالأ مع الكفّار الإسبان، وبايع ملك إسبانيا الذي سار لقتل إخواننا في الدّين، وقابل نصحنا بالكنود)). فكان جواب العلماء أنّ قتله واجب، ودمه هدر، وماله مباح؛ ثمّ كتبوا هذه الفتوى وسلّموها إلى عرّوج[2].

وكان استفتاء العثمانيين للفقهاء، والنّزول عند أحكامهم سلوكا متّبعا، فهاهو عرّوج لم يكن يتوجّه إلى منطقة ما إلاّ بعد استشارة العلماء والأخذ برأيهم [3]، وأمّا خير الدّين فقد نزل عند فتوى الفقهاء في الأسارى المسيحيّين الذين حاولوا الإغارة على مدينة الجزائر، حيث أفتى الفقهاء بقتلهم، وعدم قبول الفداء وقالوا له :((أيّها الأمير إنّ هؤلاء من أعيان النّصارى وزعمائهم، فإذا وصلوا إلى بلادهم حصلت للنّصارى بهم قوّة عظيمة، واستعانوا بهم على غزونا المرّة بعد المرّة، وكان صاحب إسبانيا قد بعث إلى أهل الحصن قائلا لهم "هاهي مائتان وأربعون ألف دينار بذلتها في فداء هؤلاء الأسارى، فأعلموا به باربروشة"، فلمّا وصل الخبر بذلك إلى خير الدّين، وسمع الفقهاء خافوا من غائلته، فأفتوا بقتل هؤلاء الرّؤساء في الحين. فعند ذلك أمر خير الدّين بإخراجهم من السّجن فقدّم

---

[1] - عزيز سامح ألتر، الأتراك العثمانيّون في إفريقيا الشّماليّة، ص102

[2] -خير الدّين بن يعقوب، المذكّرات، ص83؛ مجهول، الغزوات، ورقة 108ظ؛ محمّد بوشنافي ، موقف علماء تلمسان من التّواجد العثماني في الجزائر (ق10-13هـ)، ص205.

[3] - المرجع نفسه، ص204.

جنرالهم الأعظم، وأمر بضرب أعناقهم، فقتلوا عن آخرهم [1])). ويكشف لنا هذا النّص مدى التزام خير الدّين بفتوى الفقهاء حتّى أنّهم لم يلتفت إلى عروض ملك إسبانيا.

ولما حاول النّصارى شراء جثّة جنرالهم، أفتى الفقهاء بعدم جواز بيع جثّته للنّصارى، فبادر خير الدّين إلى العمل برأيهم[2].

2 - إشراك العثمانيين للفقهاء في الصّالح العام:

كان الحكّام العثمانيّون يدعون إلى الجهاد عن طريق الفقهاء والمرابطين، ومن ذلك طلب صالح رايس من الفقهاء دعوة النّاس إلى الجهاد ضدّ الإسبانيّين، فبادر الفقهاء المالكيين والحنفيّين على حدّ سواء إلى حشد أهالي المغرب الأوسط للجهاد [3]، كما استعمل العثمانيّون فقهاء المغرب الأوسط والوجهاء لفكّ المنازعات التي تحصل بينهم وبين خصومهم، كإشراك صالح رايس الفقهاء في فضّ النّزاع بينه وبين صاحب قلعة بني العبّاس[4].

3 - دعاية الفقهاء ضدّ خصوم العثمانيين:

كان الفقهاء والمرابطون في المغرب الأوسط يحثّون العامّة على وجوب طاعة العثمانيين باعتبارهم ولاة أمر لا يجوز الخروج عليهم[5]، و كانت هذه الفتاوى القاضية بحُرمة التّعامل مع الإسبانيّين تصبّ في مصلحة العثمانيّين، والذين كانوا يستغلّون هذه الفتاوى للدّعاية ضدّ السّلاطين الحفصيّين والزيانيّين وأصحاب الممالك المستقلّة، كحميدة العبدي صاحب تنس[6]، وسالم التّومي وغيرهم، ولهذا قال مارمول :((تخوّف ملوك إفريقيا من الالتجاء إلى الأمراء المسيحيّين ليمدّوهم في حروبهم ضدّ

---

[1]-ابن رقيّة، الزهرة النّائرة، ص 13.

[2]-المصدر نفسه، ص13.

[3]-صالح عبّاد، الجزائر خلال العهد التّركي، ص76.

[4]- المرجع نفسه، ص76.

[5]-الطيّب بن المختار الغريسي، القول الأعم في بيان أنساب قبائل الحشم، نشره بلهاشمي بن بكارة ضمن كتاب"مجموع النّسب والحسب والفضائل والتّاريخ والأدب، تلمسان:مطبعة ابن خلدون، 1961، ص346.

[6]-اختلف في سبب تسميّته بحميدة العبدي، فقيل لأنّ أمّه كانت سوداء، وقد صار لقب حميدة العبدي يحمله الكثير من الفرسان، ولا يزال هذا اللّقب إلى اليوم يدلّ على الشّجاعة والفروسيّة، حتّى أنّ المرأة إذا افتخرت بابنها، قال عنها النّسوة كأنّها ولدت حميدة العبدي. ينظر: محمّد حاج صادق، مليانة ووليّها سيدي أحمد بن يوسف، ص32.

المسلمين، لأنّهم يصيرون بذلك مكروهين من رعاياهم، ويتحيّنون الفرصة للمشوّشين في العمل على اغتيالهم، وقد اغتنم بربروس هذه الفرصة لينتزع مملكة تلمسان من أبي حمّو الذي كان يقدّم للملك الكاثوليكي شبه اعتراف وخضوع في مقابل مساعدة جنود إسبانيا إيّاه ضدّ ابن أخيه، فكان رعاياه يكرهونه لذلك؛ لا سيما الفقهاء الذين كانوا يتمنّون أن يعتلي العرش ابن أخيه)). [1]

4 – عناية العثمانيّين بفقهاء المغرب الأوسط:

تنوّعت مظاهر عناية العثمانيّين بالفقهاء، ومن ذلك إعفاؤهم لكثير من الأسر العلميّة من المغارم السّلطانيّة[2]، ووقفهم على مساجد وجوامع ورباطات الفقهاء، ومن أقدم الواقفين العثمانيين في الجزائر خير الدّين بربروس، وخادمه الذي أعتقه؛ وهو عبد الله صفر، فقد بنى الأخير الجامع المعروف بجامع سفير سنة 940 هـ- 1534م[3]، كما قاموا بتوليّة حلفائهم من الفقهاء في مناصب هامّة كالقضاء والسّفارة وإمامة الجوامع الكبرى...إلخ، فقد أرسل العثمانيّون محمّد بن علي الخروبي سفيرا إلى سلطان المغرب الأقصى[4]، و منحوا عائلة الفكّون منصب شيخ الإسلام [5]، وعيّنوه أميرا على ركب ركب الحجّ خلفا لعائلة عبد المومن [6]، وقاموا ببناء ضريح أحمد بن يوسف الملياني، وعيّنوا أحد أبنائه أميرا لركب الحجّ[7].

---

[1]-مارمول، إفريقيا، ج2ص306.

[2]-سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافي، ج1ص192.

[3]-المرجع نفسه، ج1ص235.

[4]-محمّد بن عسكر الشّفشاوني، دوحة النّاشر، ص ص124-125.

[5]-جميلة معاشي، الأسر المحليّة الحاكمة في بايلك الشّرق الجزائري، ص ص223-224.

[6]-ناصر الدّين سعيدوني، ورقات جزائريّة، ص 113.

[7]-المهدي بوعبدلي، أضواء على تاريخ الجزائر في العهد التّركي، ص278.

5 - تأييد الفقهاء لخير الدّين في إلحاقه دولة الجزائر بالخلافة العثمانيّة

يعتبر أبرز موقف اتّخذه الفقهاء، والذي كان له أثر بالغ في دولة الجزائر الحديثة، هو مسألة ضمّ الجزائر إلى الخلافة العثمانيّة، وهو الحدث الذي يعتبر نقطة تحوّل فاصلة في تاريخ دولة الجزائر.

وسبب إقدام خير الدّين على هذا الأمر، هو أنّه تأثّر كثيرا بعد مقتل أخويه عرّوج وإسحاق، ورأى أنّه بات مُحاطا بالعديد من المخاطر، والتي جعلته يفكّر في ترك الجزائر. فقام بجمع العلماء والصّلحاء وقال لهم: ((إنّي قد عزمت على السّفر إلى حضرة السّلطان، وأمّنت بلادكم من العدوّ بما تركت فيكم من المجاهدين، ومن وصل إليكم من أهل الأندلس، وما تركت عندكم من العدّة [1])). لقد كان وقع هذا الكلام شديدا على فقهاء وأعيان الجزائر فألحّوا عليه بالبقاء، وأفتوا بحرمة ترك بلاد الإسلام لقمة سائغة للكفّار [2]، وقالوا له :(أيّها الأمير لا تطيب أنفسنا بفراقك، ولا نسمح لك بذلك، فالله الله في أمّة سيّدنا محمّد فإنّ الله يسألك عنهم) [3]، ومن جملة ما خاطبه به العلماء أن قالوا له:(أيّها الأمير يتعيّن جلوسك في هذه المدينة لأجل حراستها، والذبّ عن ضعفاء أهلها، ولا رخصة لك في الذّهاب عنهم، وتركهم عرضة لعدوّ [4]). عند ذلك قال لهم خير الدّين "أنتم رأيتم ما وقع من الملاعين الكافرين، ولا يؤمن من عواملهم، وقد ظهر لي من الرّأي أن نصل يدنا بطاعة السّلطان الأعظم، مولانا السّلطان سليم، فيمدّنا بالمال والرّجال، وجميع ما نحتاج إليه من آلة الجهاد، ولا يكون ذلك إلّا بصرف الخطبة إليه، وضرب السكّة عليه، فرضي أهل المدينة بذلك، وصوّبوا رأيهم فيه، فأمرهم أن يكتبوا على لسانهم كتابا إليه يخبرونه بصرف طاعتهم إليه، وكتب هو أيضا كتابا يتضمّن مفهوم كتابهم)) [5].وهكذا تشكّل الوفد الذي تمّ تكليفه بالسّفارة إلى اسطنبول، وقد كشفت الرّسالة التي أرسلها أهالي مدينة الجزائر إلى السّلطان سليم الأوّل بتاريخ أوائل ذي القعدة

---

[1]-ابن رقيّة، الزّهرة النّائرة، ص ص13-14.

[2]-ج.ب.وولف، الجزائر وأوربا، ص32.

[3]-ابن رقيّة، المصدر السّابق، ص ص13-14.

[4]-المصدر نفسه، ص ص13-14.

[5]-المصدر نفسه، ص ص13-14.

925هـ/1519م، وكتبت باسم « القاضي والخطيب والفقهاء والأئمّة والتّجار والأمناء وكافّة سكّان مدينة الجزائر»، أنّه كان من بين الوفد الفقيه العالم المدرّس أبو العبّاس أحمد بن القاضي [1]، والذي يرى عبد الجليل التّميمي أنّه هو أبو العبّاس بن القاضي الذي ثار على خير الدّين فيما بعد، كما ضمّ الوفد رجلا صوفيا، وهو الذي نعتته الرّسالة بالمنزوي والمعتكف والجامع بالجامع الأعظم بمدينة الجزائر، وخادم فقراء أهل السنّة محمّد بن منصور بن علي الحلبي[2].

وممّا ذُكر في الرّسالة تلخيص أحوال المغرب الأوسط حيث جاء فيها:(...أن طائفة الطّاغيّة لما استولت على بلاد الأندلس، انتقلوا منها إلى قلعة وهران للاعتداء على سائر البلاد، غير أنّه بعد استيلائهم على بجاية وطرابلس بقيت الجزائر (بين الكفار) كالنقطة في وسط الدّ ائرة)[3]. وجاء فيها أيضا:(ومفاد ما يريد عبيدكم إعلامه لمقامكم العالي ، هو أنّ خير الدّين كان قد عزم قصد جنابكم العالي؛ إلّا أنّ عرفاء البلدة المذكورة رفعت أيديها متضرّعة إليه حتّى لا يرتحل خوفا من الكفّار إذ هدفهم هو النّيل منّا، ونحن على غاية الضعف والبلاء، ولهذا أرسلنا إلى بابكم العالي الفقيه العالم المدرّس أبو العبّاس أحمد بن علي أحمد. ونحن وأميرنا خدّام أعتابكم العاليّة، وأهالي إقليم بجاية والغرب والشّرق خدمة مقامكم العالي، وإنّ المذكور حاملا لمكتوب سوف يعرض لحضرتكم ما يجري في هذه الحوادث...وقد أرسل أيضا المنزوي والمعتكف بالجامع الأعظم بمدينة الجزائر عبيد الله وخادم فُقراءالسنّة محمّد بن منصور بن علي الحلبي، رسالة يذكر فيها بعف القوم في أرض غربته، إنّهم على وشك الهلاك عندما قدم خير الدّين، وقد وقعوا في المحن المرّة تلو الأخرى أيّام الاضطرابات، وإنّهم باقون على الدّعاء بدوام دولة السّلطان)[4]

[1]–ذكر صاحب الغزوات أنّ خير الدّين هو الذي أشار بإرسال أحمد بن القاضي ممثّلا على النّاحيّة الشرقيّة، ومحمّد بن علي ممثّلا عن النّاحيّة الغربيّة. ينظر: الغزوات، ورقة112و، 113ظ.

[2]– أوّل رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السّلطان سليم الأوّل سنة 1519 م، نقل وترجمة: عبدد الجليل التميمي، المجلّة التّاريخيّة المغاربيّة، عدد6، جويلية، 1976م، تونس، ص ص116-121، ص120.

[3]– المصدر نفسه، ص119.

[4]- المصدر نفسه، ص120.

يظهر من خلال الوفد الذي أرسله خير الدّين أنّه كان جامعا لشتّى أطياف المجتمع بضمّه للتجّار والفقهاء والقضاة، وشيوخ قبائل، وشيوخ طرق. ويتجلّى من خلال هذا الوفد دهاء خير الدّين السياسي، حيث أرسل زعيم الجهة الشرقيّة وهو أبو العبّاس بن القاضي، وأعيان مدينة الجزائر، وهو ما يفسّر بوضوح نظرة خير الدّين لدولة الجزائر التي تتعدّى في جغرافيّتها مدينة الجزائر.

ما إن وصل الوفد الجزائري إلى السّلطان العثماني سليم الأوّل، وقُرئ الكتاب على مسامع السّلطان، حتّى قام بإكرام الوفد، وأظهر قبوله لطلب أعيان الجزائر، ووجّه صحبة الوفد سنجقا وكتابا إلى أهل الجزائر يقول ما كتبوا إليه، وأنّهم ممّن تشملهم عنايته، وتحرسهم رعايته [1]، وجعل خير الدّين أميرا من قبله على بلاد الجزائر[2].

وبسبب انضمام الجزائر إلى الخلافة العثمانيّة، صارت مؤهّلة لمجابهة قوى النّصارى في حوض البحر المتوسّط، وبذلك ظهرت دولة الجزائر العثمانيّة، والتي عملت على تحرير سواحلها وسواحل تونس وليبيا، وعجّلت بالقضاء على السّلطنتين الزيانيّة والحفصيّة، و أضحت دولة الجزائر تمتلك أسطولا بحريا قويا، وغدت قوّة إقليميّة لا يُستهان بها.

لم تنس الخلافة العثمانيّة دور الفقهاء في توطيد أقدامها في بلاد المغرب الأوسط، وانفتاحها على البحر الأبيض المتوسّط، فأولتهم الكثير من العناية، وقبلت شفاعاتهم، وأصغت لتظلّماتهم، ففي أحد المراسيم الصّادرة عن الباب العالي بتاريخ 976هـ/1568م، نجد أنّ المرسوم قد أرسل إلى العلماء والصّلحاء والشّرفاء وسائر أهالي الجزائر [3]، وقد قضى المرسوم بردّ بعض المظالم التي أخذها محمّد باشا بن صالح باشا إلى أصحابها [4]، ونفس العناية بفئة الفقهاء نلمسها من خلال مرسوم آخر سلّم بتاريخ 29 شوال 979هـ[5].

---

[1]-ابن رقيّة، الزهرة النائرة، ص14.

[2]-مجهول، الغزوات، ورقة114ظ.

[3]- نقل المرسوم عبد الجليل التميمي ضمن "رسائل موجّهة من الباب العالي إلى القيادات بالايالات المغربيّة"، الوثيقة رقم 5، المجلّة التّاريخيّة المغاربيّة، عدد 10-11 ،تونس، جانفي 1978، ص 32.

[4]- يُنظر الملحق 5.

[5]-المصدر نفسه، ص34.

- **الفقهاء الرّافضون لسطة العثمانيين:**

إذا كان غالبيّة فقهاء ومرابطي المغرب الأوسط ينظرون إلى العثمانيين نظرة المنقذ من حملات الإسبانيّين، وينزلونهم منزلة حُماة البلاد والعباد، فإنّ فقهاء آخرين لم يكونوا مستعدّين لقبول حكم العثمانيين، خصوصا الفقهاء الرّسميين كعائلة عبد المومن بقسنطينة وأسرة العقباني بتلمسان. ويمكن تلخيص أسباب الرّفض فيما يلي:

1 - **علاقة بعض الفقهاء بالسّلاطين الحفصيّين والزيّانيّين:**

ساهمت العلاقة المتميّزة بين بعض الفقهاء و بين الأسر الحاكمة، في تبنّي الفقهاء لموقف داعم لهؤلاء السّلاطين، على حساب العثمانيّين. حيث كان السّلاطين الحفصيون والزيانيون يكرمون هؤلاء الفقهاء، ويشترون ودّهم، كأسرة العقباني، وأسرة العبّادي، وأسرة ابن عبد المومن، وآل باديس.

2 - **التشبّث بالزّعامة المحليّة واعتبار العثمانيّين أجانب:**

كان الكثير من الفقهاء يأنفون من التّسليم لحكّام غير محليّين، ففي تلمسان، وبسبب إرثها الحضاري وعلاقاتها التّاريخيّة بفاس، نجحت الحملة السعديّة في إخضاعها [1]، وقام كثير من الفقهاء بمناصرة السّعديّين، والذين زاد في شعبيّتهم النّسب الشّريف الذين انتسبوا إليه.

3 - **الدّعاية المغرضة ضدّ العثمانيّين:**

من الأسباب التي جعلت بعض الفقهاء يرفضون حكم العثمانيين، الدّعاية المغرضة التي مورست ضدّهم، وذلك بسبب بعض الأعمال التي قاموا بها ضدّ خصومهم، ومن هذا القبيل موقف ابن ملّوكة الذي دعا على عرّوج، بعد تخوّف أهالي تلمسان من هذا الأخير [2]، وإن كان خير الدّين لم يشر في مذكّراته إلى أعمال أخيه عرّوج ضدّ أهالي تلمسان، والتي كانت سببا في دعاء ابن ملّوكة عليه، فإنّ المصادر التّاريخيّة الجزائريّة التي تناولت الفترة العثمانيّة، وكذلك مارمول قد تعرّضوا لهذه الحوادث، فيقول مارمول :((أنّ بربروس بعد أن استولى على تلمسان ارتكب فيها الأعمال الوحشيّة، وأنّ ألكسندر الكورسيكي الذي كان أحد أتباعه قد عامل السكّان بطريقة جعلتهم يندمون على

---

[1]-إبراهيم شحاتة حسن، أطوار العلاقات المغربيّة العثمانيّة –قراءة في تاريخ المغرب عبر خمسة قرون (1510-1947م)، الإسكندريّة، منشأة المعارف، 1981م، ص299.

[2]- مجهول، ملحق بغية الروّاد، ورقة 91؛ ابن زرفة، الرّحلة القمريّة، ص255.

استقدامهم)).[1] وتشير الرّواية الإسلاميّة إلى أنّ سبب إقدام عرّوج على هذه الأعمال هو:((تعصّب المسعود من ملوك تلمسان عليه، حيث رغّب النّاس في ملك بني عبد الوادي، وهجم السكّان على عرّوج فأخرجوه عنهم، ثمّ زحف إليهم بمن معه، وكان شديد البأس فدخل تلمسان عنوة، وقتل سبعة من المترشّحين للملك من بني زيان، ونحو السّتّين من بني عمّهم أولاد عبد الواد، وأكثر من ألف من أهل البلد، وعاث في تلمسان ثمّ سكنت الفتنة [2])). ورغم وجود ما يفسّر سبب ردّة فعل عرّوج العنيفة، فإنّ هذه الأعمال لم تجد ما ي سوّغُها، بل أثارت موجة من السّخط، وجعلت السكّان يتوجّسون خيفة من العثمانيين، ولهذا حاول خير الدّين بعد أن استوعب الدّرس أن يعطي صورة أخرى عن العثمانيين، فراح يستميل علماء الجزائر، ومشائخها وأعيانها ويتودّد إليهم[3].

وفي شرق المغرب الأوسط نجد أنّ أبا العبّاس أحمد بن القاضي [4] الذي يصفه السلاّوي بالشّيخ الفقيه الصّالح، والذي كانت له شّهرة ووجاهة كبيرة في بسائط المغرب الأوسط وجباله، لما رأى أنّ العثمانيين في هذه المدّة قد زخر عبابهم، كاتب خير الدّين بربروس وقال :((إنّ بلادنا بقيت لك أو لأخيك أو للذّئب))، وقد استجاب له خير الدين، غير أنّ العلاقة سرعان ما تعكّرت، بعد أن تحالف ابن القاضي مع الحفصيّين وتمرّد على العثمانيّين، و أدّى تمرّده إلى انسحاب خير الدّين من مدينة الجزائر، واقتحام ابن القاضي لها حيث حكمها من سنة (927-933هـ/1521-1527 م)[5]، إلى أنّ سكّان مدينة الجزائر كانوا مدركين لعدم قدرة ابن القاضي عن الدّفاع عن مدينتهم، فتوالت الوفود من جانبهم إلى خير الديّن، حيث قاموا بدعوته إلى العودة لمدينة الجزائر، و طالبوا ابن القاضي بمعاودة الدّخول تحت حكم خير الدّين، إلى أنّ ابن القاضي قابل مساعيهم بالرّفض، بل

---

[1]-مارمول، إفريقيا، ج2ص308.

[2]-أبو راس، الاستقصا، ص334.

[3]-الميلي، تاريخ الجزائر، ج3ص52.

[4]-ذكر المهدي البوعبدلي أنّه يملك وثيقة تبيّن أنّ ابن القاضي ولي قضاء بجاية. ينظر: أضواء على تاريخ الجزائر في العهد التّركي ص ص273-293 ، ص279.

[5]-أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة، ص213.

قام بقتل أحد الفقهاء لما طلب منه ذلك. وهذا ما جعل سكّان مدينة الجزائر، يبادرون إلى قتل ابن القاضي سنة1527م[1]، واستدعاء خير الدّين [2].

إذا كانت هذه هي أسباب رفض حكم العثمانيّين على وجه العموم، فلا شكّ أنّه توجد دوافع أخرى تختلف من فقيه لآخر، كالوشاية ومن ذلك خروج يحي بن سليمان الأوراسي (توفي بعد 1009 م) الذي كان يعتقد فيه الأمراء الأتراك ومتلصصة الأعراب، إلى أن وُشي به فتحصّن بجبل الأوراس، وخلع بيعة العثمانيين فمات قتيلا[3].

مظاهر رفض سلطة العثمانيّين:

تعدّدت مظاهر رفض الفقهاء لحكم العثمانيّين، ويمكن تناولها في النّقاط التاليّة:

1 – الهجـــــرة:

حين تمكّن العثمانيّون من استعادة تلمسان، وقاموا بطرد السّعديّين، فضّل كثير من الفقهاء التوجّه إلى المغرب الأقصى كعائلة المقرّي والونشريسي [4]، ومن هؤلاء الفقهاء عبد الله بن عبد الرّحمن اليعقوبي النّدرومي، و أحمد بن أحمد العبادي التّلمساني الذي قدم على فاس عام ثمانية وستّين وتسعمئة في جملة فقهاء تلمسان حين وقعت الفتنة بينهم وبين التّرك[5].

---

[1] – ذكر النّاصري أنّ قتل ابن القاضي كان من تدبير خير الدّين. ينظر: الاستقصا، ج 4ص163. ملاحظة: ذكر صاحب الاستقصا، وكذا عبد الجليل التميمي أنّ الذي ثار على خير الدّين هو أحمد بن القاضي الذي كان أحد حلفائه، حيث تصدّر الوفد الذي وجّه رسالة أهالي المغرب الأوسط إلى السّلطان سليم الأوّل، وأنّه بعد أن حظي بتعيين خير الدّين له رئيسا للجهة الشرقيّة، طمحت نفسه إلى منازعة العثمانيين . أمّا صاحب الغزوات فذكر أنّ سلطان تونس الحفصي قد أوغر صدر ابن القاضي على خير الدّين. وفي المقابل هناك رواية خير الدّين في مذكّراته، حيث مدح هذا الأخير أحمد بن القاضي، وقال أنّه أحد عظماء العرب بالجزائر، وجعل الذي ثار عليهم هو ابنه المسمّى أيضا ابن القاضي، كما أنّه لم يذكر سبب ثورة ابنه على العثمانيين، واكتفى بالقول أنّ أحمد ابن القاضي الابن كان طائشا، ويكره الأتراك. ينظر:خير الدّين بن يعقوب، المذكّرات، ص ص110-121؛ مجهول، الغزوات، ورقة 117و، ظ.

[2] –خير الدّين بن يعقوب، المصدر السّابق، ص ص110-128.

[3] –الفكّون، منشور الهداية، ص ص54-55.

[4] –سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافي، ج1ص177.

[5] –السّملالي، الإعلام، ج2ص ص243-245.

ومنهم محمّد شقرون بن هبة الله الوجديدي التّلمساني نزيل فاس والذي كان شيخ الفتيا وإمامها الأكبر، ووصفه الكتاني بعالم الزّمان، وفارس المنابر، وعروس الكراسي، أوطن فاس بعد أن قدم إليها من تلمسان سنة 967 هـ، فعظّمه سلطان المغرب يومئذ، وولاّه الفتوى بحضرة مرّاكش، وسائر أقطار المغرب، وكان يحضر مجلسه أعيان الفقهاء، والسّلطان بنفسه[1] .

ومن الفقهاء الذين قصدوا فاس رغبة عن حكم العثمانيين، محمّد بن عبد الرّحمن بن جلال، الذي استوطن فاس وبها توفي سنة 981[2].ويُلاحظ أن هجرات الفقهاء تركّزت في هذه الفترة إلى المغرب الأقصى، حيث تقلّص عدد الرّحلات المشرقيّة، فلم يسجّل عمّار هلال طيلة القرن العاشر سوى سبعة شخصيات استقرّت بالمشرق[3]. ولعلّ ذلك راجع إلى ما كانت تشهده المناطق الشرقيّة من اختلال للأمن، يضاف إليه ما كان يلقاه فقهاء المغرب الأوسط، لاسيما فقهاء تلمسان من عناية حكّام فاس السّعديّين، فكانوا يُظهرون حفاوة بالغة بأمثال هؤلاء الفقهاء، وقد يكون ذلك قصد استعمالهم كورقة رابحة في صراعهم مع العثمانيين، فهاهو الغالب السّعدي يبعث الأجناد، وينقل الفقهاء إلى فاس، أثناء الفتنة مع العثمانيّين، حيث وصل الفقهاء كلّ منهم على قدر حاله، ووصل أحمد بن أحمد العبّادي بألف مثقال ذهبا، وأمر له بكساء وإقامة جليلة، وقال لا تسوّوه بأحد من الفقهاء وغيرهم، ولكنّ التّرحيب السّعدي لم يدم طويلا، إذ سرعان ما انتقل العبّادي إلى مرّاكش جبرا، ورجع منها إلى تلمسان واستقرّ آخرا بمليانة[4].

ومن فقهاء المغرب الأوسط الذين بشّ لهم السّلطان السّعدي، وفرش لهم بساط الودّ محمّد شقرون، الذي أوطن فاس بعد أن قدم إليها من تلمسان سنة 967 هـ، فعظّمه سلطان المغرب

---

[1]- السّملالي، الإعلام ، ج 5ص172؛ محمّد بوشنافي، موقف علماء تلمسان من التّواجد العثماني في الجزائر (ق 10-13هـ)، ص205-206؛ القادري، الإكليل والتّاج، ص519.

[2]-المنجور، الفهرسة، ص78.

[3]-عمّار هلال، العلماء الجزائريّون في البلدان العربيّة الإسلاميّة، ص293.

[4]-السّملالي، الإعلام، ج2ص ص243-245.

يومئذ، وولاّه الفتوى بحضرة مرّاكش، وسائر أقطار المغرب الأقصى، وكان يحضر مجلسه أعيان الفقهاء، والسّلطان بنفسه[1] .

2 – مساندة خصوم العثمانيين:

من مظاهر رفض بعض الفقهاء لحكم العثمانيّين مساندة الكثير منهم لخصوم العثمانيّين، فإذا كان كثير من فقهاء تلمسان قد أيّدوا السّعديّين وحالفوهم، فإنّ فقهاء قسنطينة قد انقسموا بين ثلاثة أسر متنفّذة، اشتهرت بالعلم والصّلاح، وتولّي الوظائف الدينيّة، والخدمات التّعليميّة؛ تزعّم آل عبد المومن الحزب الموالي للحفصيّين، وحالفهم أولاد صولة بأسفل المدينة، بحي باب الجابية، أمّا عائلة آل الفكون فقد انحازت إليهم زواوة، وناصروا الأتراك، وكانوا بأعلى المدينة، وعائلة آل باديس بالناحيّة الغربيّة من حيّ الطابيّة التي لم تتّخذ موقفا واضحا، وقد تجلّى هذا الموقف في شخصيّة الشّيخ عمر الوزّان (ت965هـ)[2]، ويشير بن العنتري إلى دخول العثمانيين قسنطينة وكيف وقع الخلاف بين أهلها، بقوله:((يقول بعضهم–أي أعيان قسنطينة– نسلموها ونستريحوا من العناد، وبعضهم يقول لا نسلموها بلادنا، في تسليمها أمر قبيح علينا، فلمّا كثر الكلام بينهم، وتفاقم الأمر لديهم، قابلهم سيدي الشّيخ بن الفكّون، واحتجّ عليهم بالدّليل القاطع، وأشار عليهم بالرّأي المصيب النّافع، قائلا "هؤلاء التّرك–العثمانيّين– قدموا من حضرة السّلطان العثماني، وهم من أبناء جنسه، وتحت حكمه، إذ لا يليق بنا مقابلتهم، ولا يسعنا منعهم، وربّما تلحقنا الضرورة من السّلطان المذكور من أجل مقاتلتنا لهم، ومنعنا من دخولهم، فعند ذلك أذعن له الصفّ الآخر وانقاد، واتّفقوا كلّ النّاس، وفتحوا أبواب البلاد، هذا الوقت دخلوا التّرك في قسنطينة، وتكلّموا مع ناسها قائلين نحن كنّا قدمنا من حضرة الدّولة العثمانيّة إلى الجزائر ففتحناها، ومهّدنا أوطانها، وحكمنا جار فيهم بالعدل والكمال، وما ناخذوا من وطنها إلاّ الشّيء الحلال، الذي هو مثل الزّكاة الواجب إخراجه من الأموال))[3].

وكان على فقهاء قسنطينة تحمّل عواقب مواقفهم، فلمّا كسرت جهود خير الدّين وحسن أغا شوكة أولاد صولة حكّام بسكرة والزّيبان، وتدعّم نفوذ المتعاونين مع العثمانيّين من آل بوعكّاز الذين

---

[1]– السّملالي، الإعلام، ج5ص172.

[2]–ناصر الدّين سعيدوني، ورقات جزائريّة، ص109 .

[3]–العنتري، فريدة منسيّة، ص ص44-45.

نالوا لقب شيخ العرب الذي أكّد نفوذهم على القبائل العربيّة بالجنوب و الزّيبان وكذلك من آل فكون الذين أسندت لهم مناصب الوظيف الدّيني [1]، تمّ القضاء على نفوذ عائلة عبد المومن، وقتل الشّيخ محمّد بن عبد المومن [2]

[1]-سعيدوني، ورقات جزائريّة، ص 112.

[2]-المرجع نفسه، ص113.

كشف هذا الفصل عن أهمّ القضايا السياسيّة التي ألمت ببلاد المغرب الأوسط في القرن العاشر الهجري، فالغزو الإسباني للسّواحل، ثمّ دخول العثمانيين، وأخيرا تحوّل الجزائر إلى إيالة عثمانيّة، وظهور الدّولة الجزائريّة الحديثة، هي أهمّ أحداث هذا الفترة. و تبيّن من خلال هذا الفصل مدى أهميّة هذه المرحلة، حيث اعتبرت من المراحل الحاسمة في تاريخ الجزائر.

و تعرّض الباحث إلى الأدوار الإيجابيّة التي أدّاها بعض الفقهاء، والتي تمثّلت في تشكيل مراكز دفاعيّة، وتولّي زمام الأمور، والإفتاء بوجوب الجهاد، والدّعوة إلى تحرير السّواحل والمدن المستعمرة، كما أظهر البحث مساندة طائفة من الفقهاء للعثمانيين، فأفتوا بوجوب الجهاد معهم، وحرمة تموين الإسبانيّين، كما قاموا بالتّشغيب على المتحالفين معهم من الزيانيين والحفصيّين وغيرهم . ومن جهتهم أظهر العثمانيّون حفاوة بالغة بهؤلاء الفقهاء، وأعفوهم من المغارم، وأغدقوا عليهم الألقاب، ومنحوهم المناصب.

أمّا الفقهاء الذين وقفوا ضدّ العثمانيّين، لعدّة اعتبارات، كعائلة عبد المومن بقسنطينة الذين ناصروا الحفصيين، وفقهاء تلمسان الذين ناصروا الزيانيّين ثمّ السّعديّين، فقد قام العثمانيّون بإقصائهم و استمالة البعض منهم، فيما فضّل الكثير من فقهاء تلمسان الهجرة إلى فاس.

وقد تعرّض الباحث إلى الموقف الهام الذي أظهره فقهاء المغرب الأوسط، وهو الموقف المساند لإلحاق الجزائر بالخلافة العثمانيّة، وذلك ما جعل الخلافة العثمانيّة تردّ لهم الجميل في عدّة مناسبات .

حاول الباحث الكشف عن موضوع الفقهاء والحياة السياسيّة في المغرب الأوسط في

القرنين(9-10هـ/15-16م)، وقد تم التوصّل إلى عدّة نتائج يمكن تلخيصها كالآتي:

لقد أثّرت الأوضاع السياسيّة المتدهورة، والإجتماعيّة المترديّة في شخصيّة الفقيه في المغرب الأوسط، حيث دفعت هذه الأوضاع بالبعض إلى الهجرة بينما اختار البعض الآخر إمّا مواجهة الواقع، أو اعتزال المجتمع.

و كان للمؤثّرات الدّينيّة والمتمثّلة في المذهب المالكي، و عقيدة أهل السنّة والجماعة المتشبعة بالمبادئ الأشعريّة، أثر عميق في شخصيّة الفقهاء، كما أنّ غلبة التيّار التصوّف، وتفشّي عقيدة المرابط وافتتاح عصر التصوّف العملي بطابعه الشّعبوي، قد انعكست على فكر وسلوك الفقهاء.

أمّا المؤثّرات السياسيّة والاجتماعية والدّينيّة والفكريّة، فقد أدّت إلى تراجع المستوى العلمي على الصّعيدين المشرقي والمغربي، حيث اعتبر القرن التّاسع الهجري خاتمة لمرحلة التّألّق العلمي، ليعيش المغرب الأوسط بعدها مرحلة من الرّكود في الحياة العلميّة والتي تأثّرت بتيّار التصوّف.

وكشف البحث عن مكانة الفقهاء في هذه الفترة، إذ تبوّؤوا في الغالب مكانة اجتماعية مرموقة في الغالب، و نالوا تقدير وعناية السّلاطين والعمّال وحتّى بعض شيوخ القبائل وشيوخ الطّرق، كما كان العامّة يحترمونهم؛ لا سيما الفقهاء المتصوّفة فإنّهم كانوا مقدّسين لدى كافّة أفراد المجتمع. بينما نجدُ أنّ فقهاء آخرين تمّت مضايقتهم، خصوصا الفقهاء الذين وقفوا في وجه الظّلم السياسي، والانحراف الدّيني والفكري، فعرّضوا أنفسهم لنقمة بعض أفراد المجتمع، وهو ما دفع بالكثير منهم إلى الارتحال.

واشار البحثُ إلى ملمرسة بعض فقهاء المغرب الأوسط للسّلطة، مستغلّين أهمّ المقوّمات التي أتيحت لهم، كمكانتهم الدينيّة والاجتماعية، وضعف سلاطين المغرب الأوسط، وبروز الفراغات السياسيّة، وتنامي سلطة الرّباط و ممارسة دور الشّفاعة للمظلومين عند الحكّام.

وقد تجلّت مظاهر سلطة الفقهاء في هذه الحقبة، في ظهور الأسر العلميّة؛ كأسرة العقباني بتلمسان، وأسرة الفكون وآل عبد المومن وآل باديس بقسنطينة، واحتكار هذه الأسر لأهمّ المناصب الدّينيّة، حيث انتقلت هذه المناصب بالوراثة. ومن المظاهر أيضا ممارسة السّلطة من خلال تولّي الوظائف السّلطانيّة، والتي من الفقهاء من اعتزلها، ودعا إلى اعتزالها.

إنّ ممارسة فقهاء المغرب الأوسط للسّلطة لم تكن وليدة عصر بعينه، بل هي ظاهرة لها امتداد تاريخي، لا سيما في مراحل قريبة من الفترة المدروسة، كفقهاء القرن الثّامن الذين مارسوا السّلطة ومن أولئك نجد: ابن مرزوق الخطيب، وسعادة السنّي، والمقرّي الجدّ، وعبد الرّحمن بن خلدون، ولا شكّ أنّ تجارب هؤلاء كانت حاضرة في أذهان الفقهاء الذين جاؤوا من بعدهم.

و من بين فقهاء المغرب الأوسط الذين مارسوا السّلطة بمفهومها الواسع، نجد محمّد بن عبد الكريم المغيلي وأحمد بن يوسف الملياني، حيث أدار المغيلي شؤون توات، وأجلى اليهود عنها، وقام بجولة سياسيّة في ممالك السّودان. أمّا أحمد بن يوسف الملياني، فكان شيخ صوفي على الطريقة الشّاذليّة، وقد كثُر أتباعه، وعمل على تغيير المنكر بالإقليم الغربي من المغرب الأوسط، ممّا جعله يتعرّض للسّجن والطّرد، ولما جاء العثمانيّون صار من بين المرحّبين بهم، والمناصرين لحكمهم .

لقد عرف القرن التّاسع الهجري ظاهرة ضعف السّلطة المركزيّة، وما نجم عنها من الصّراعات الدّاخليّة، وتفشي الظّلم بكلّ أنواعه، وتسلّط شيوخ القبائل، يضاف إليها قضيّة تهاوي المدن الأندلسيّة ثمّ سقوط غرناطة آخر معاقل الإسلام بالأندلس.

أدّت هذه الأحداث السياسيّة إلى ظهور مواقف سلبيّة للفقهاء كالهجرة، واعتزال السّلاطين والولّاة وحتّى المجتمع، وترديد عبارات التسخّط والضّجر، والانشغال بقضايا فرعيّة عن أهمّ قضايا العصر. كما برزت مواقف أخرى إيجابيّة كجهود الفقهاء في الإصلاح بين القوى المتصارعة، ودعوة الأهالي إلى الاستعداد لمحاربة النّصارى، وحثّ السّلاطين على نقض عقود الصّلح المبرمة مع النّصارى و المجانبة للمصلحة العامّة.

أمّا في القرن العاشر الهجري فـشهد فيه المغرب الأوسط مرحلة حاسمة، فتعرّضت سواحله للغزو الإسباني، ليتمّ بعدها دخول العثمانيين إلى المغرب الأوسط، ثمّ اتّخاذهم من مدينة الجزائر معقلا لجهاد الإسبانيّين والمتعاونين معهم، وهكذا بدأ ظهور دولة الجزائر، التي بسطت نفوذها على سائر إقليم المغرب الأوسط، وهي الدّولة التي تمّ ضمّها للخلافة العثمانيّة.

قام بعض الفقهاء في القرن العاشر الهجري بأدوار إيجابيّة، والتي تمثّلت في تشكيل مراكز دفاعيّة، وتولّي زمام الأمور، والإفتاء بوجوب الجهاد، والدّعوة إلى تحرير السّواحل، والمدن المستعمرة والمشاركة فيه، والتّنفير من الرّاضخين لسلطة الإسبانيّين والمتحالفين معهم.

ساندت طائفة من الفقهاء العثمانيين، فأفتوا بوجوب الجهاد معهم، وحرمة تموين الإسبانيّين، ومن جهتهم أظهر العثمانيّون حفاوة بالغة بهؤلاء الفقهاء، فأعفوهم من المغارم، وأغدقوا عليهم الألقاب، ومنحوهم المناصب.

وقف بعض الفقهاء ضدّ العثمانيّين، لعدّة اعتبارات، كعائلة عبد المومن بقسنطينة الذين ناصروا الحفصيّين، وفقهاء تلمسان الذين ناصروا الزيانيّين ثمّ السّعديّين، حيث هاجر كثير من فقهاء تلمسان إلى فاس. وبدورهم قام العثمانيّون بإقصاء هؤلاء الفقهاء عن المناصب الدّينيّة، وغيرها، كما سعوا إلى استمالة البعض منهم، وقد فضّل الكثير من فقهاء تلمسان الهجرة إلى فاس.

إنّ أبرز دور يُحسب لفقهاء المغرب الأوسط في القرن العاشر، هو مساندتهم لإلحاق الجزائر بالخلافة العثمانيّة، وهو الموقف الذي ساهم في حسم الصّراع في إقليم المغرب الأوسط، كما أدّى إلى ظهور دولة الجزائر العثمانيّة، و التي بسطت نفوذها على سائر أنحاء المغرب الأوسط.

أدّى ضمّ الجزائر إلى الخلافة العثمانيّة إلى القضاء على الهيمنة الإسبانيّة في حوض البحر المتوسّط، وتنامي القوّة العثمانيّة، وهو ما جعل الخلافة العثمانيّة تردّ لفقهاء المغرب الأوسط جميلهم في عدّة مناسبات.

هذه هي أهمّ النّتائج التي توّصل إليها الباحث، والتي من خلالها يمكن الإجابة عن الإشكاليّة الرّئيسة للبحث، وهي أنّ فقهاء المغرب الأوسط قد أثّروا في الحياة السياسيّة، فتنوّعت مواقفهم، وتباينت ردود أفعالهم، وهي المواقف التي يمكن تقسيمها إلى مواقف مشرّفة تُحسب لهم، وأخرى سلبيّة كانت وليدة التّأثيرات السياسيّة والاجتماعيّة والدّينيّة والفكريّة في شخصيّاتهم.

هذا وأرجو أن أكون قد وفّقت في هذا البحث، وساهمت في إثراء البحث العلمي، وأتمنّى أن تحظى بعض مباحثه بدراسات مستقلّة مُستقبلا.



الملحـق1: مؤلّفات فقهاء المغرب الأوسط في القرنين التّاسع والعاشر الهجرّيين الواردة في أهمّ كتب التّراجم.

الفقهاء	المؤلّفـــــات
إبراهيم بن فائد بن موسى الزواوي (ت857هـ)	تسهيل السّبيل لمقتطف روض أزهار خليل، فيض النّيل في مختصر خليل، تلخيص التّلخيص شرح على تلخيص المفتاح، تحفة المشتاق في شرح مختصر خليل، تفسير القرآن ، شرح حديث، شرح ألفية بن مالك، فلك، حساب وفرائض.
أحمد بن العباس المريض	عقيدة أحمد بن العبّاس المريض.
أحمد بن أبي يحى الشريف التلمساني (ت895هـ)	تقرير مسألة المتيمّم بدخل في الصّلاة.
أحمد بن يونس بن سعيد القسنطيني (ت878هـ)	رسالة في ترجيح ذكر السيادة في الصّلاة على النّبي صلّى الله عليه وسلّم، ردّ المغالطات الصّنعانيّة(ردّ على نوازل وردت إليه من صنعاء)، قصيدة في المديح .
أحمد بن عبد الله الزواوي (884هـ)	القصيد في علم التّوحيد، كفاية المريد في علم الكلام.
أحمد بن محمّد بن زكري المانوي التّلمساني (ت899هـ)	تأليف في مسائل القضاء والفتيا، فتاوى، شرح الورقات، بغية الطّالب في شرح عقيدة ابن الحاجب، المنظومة الكبرى في علم الكلام، محصّل المقاصد ممّا به تعتبر العقائد.
أحمد بن أحمد زروق (ت899هـ)	شرحان على الرّسالة، شرح إرشاد ابن عسكر، ش.م.خليل، شرح القطبيّة، شرح الغافقيّة، شرح العقيدة القدسيّة، شرح الأسماء الحسنى، شرح العقيدة القدسيّة، تعليق على صحيح البخاري، جزء في علم

	الحديث، نيف وعشرون شرحا على حكم ابن عطاء، شرحان على حزب الحر وشرح الحزب الكبير، شرح الحقائق والدّقائق للمقري، شرح قطع الششتري، شرح المراصد في التصوّف، النّصيحة الكافية لمن خصّه الله بالعافيّة، ومختصر النّصيحة الكافية، إعانة المتوجّه المسكين على طريقة الفتح والتّمكين، كتاب القواعد في التصوّف، النّصح الأنفع، الجنّة للمعتصم بالكتاب والسنّة، عدّة المريد الصّادق، ذكر حوادث الوقت.
أحمد بن يحى الونشريسي (ت914هـ)	المعيار المعرب، تعليق على ابن الحاجب الفرعي، غنية المعاصر والتالي على وثائق القشتالي، كتاب القواعد في الفقه، الفائق في أحكام الوثائق، الفروق في مسائل الفقه، اختصار أحكام البرزلي، الواجب في معرفة اصطلاح ابن الحاجب، الوفيات، الولايات، إضاءة الحلك في الردّ على من أفتى بتضمين الرّاعي المشترك، ترجمة المقرّي جد صاحب نفح الطّيب، أسنى المتاجر فيمن غلب على بلده الرّصارى ولم يهاجر
سليمان بن يوسف الحسناوي البجائي (ت887هـ)	شرح للمدوّنة، سير السّالكين وسراج الهالكين، كتاب في الفرائض، كتاب حول منطق والحساب
شقرون بن محمّد بن أحمدالمغراوي (ت927هـ)	الجيش والكمين في الكرّ على من يكفّر عوام المسلمين، تقييد على المورد الظّمآن
طاهر بن زيان الزواوي القسنطيني (ت940هـ)	نزهة المريد في معاني كلمة التّوحيد، رسالة القصد إلى الله
عبد الله بن أحمد بن يحي الزموري	إيضاح اللّبس والخفاء عن ألفاظ الشّفاء

(ت888هـ)	
عبد الرّحمن بن محمّد بن مخلوف الثّعالبي875هـ	شرح ابن الحاجب الفرعي، روضة الأنوار ونزهة الأخيار، جامع الفوائد وجامع الأمّهات في العبادات، الإرشاد في مصالح العباد، شرح على مختصر خليل، العلوم الفاخرة في أحوال الآخرة، مختصر تفسير ابن عطيّة، رياض الصّالحين، الأربعون حديثا، الذّهب الإبريز في غرائب القرآن العزيز، المختار من الجوامع في محاذاة الدّرر اللّوامع، الأنوار المضيئة الجامع بين الحقيقة، التقاط الدرر والدر الفائق في الأذكار والدّعوات، إرشاد السّالك، كتاب النّصائح وجامع الفوائد، رياض الأنس في الرّقائق، جامع الخيرات، نور الأنوار ومصباح الظّلام، قطب العارفين، تحفة الإخوان في إعراب بعض آي القرآن، تحفة الإخوان في إعراب بعض آي القرآن
عبد الواحد بن أحمد الونشريسي ت955هـ	نظم إيضاح السّالك لوالده، شرح على ابن الحاجب.
عمر بن محمّد الكمادي القسنطيني بعد 960هـ	فتاوى في الفقه، تعليق على قول خليل، الردّ على الشبوبيّة المرابط عرفة القيرواني، فتاوى في علم الكلام، حاشية على شرح الصّفري للسنوسي، مؤلّف عن التصوّف الصّحيح.
قاسم بن سعيد العقباني، (ت854هـ)	تعليق على ابن الحاجب الفرعي، أرجوزة عن الصوفيّة واجتماعهم في الذّكر.
محمّد بن أحمد بن محمّد بن مرزوق التّلمساني (ت842 هـ)	أرجوزة في تلخيص المفتاح، أرجوزة تلخيص ابن البناء، أرجوزة نظم جمل الخونجي، نهاية الأمل في شرح جمل الخونجي، اغتنام الفرصة في محادثة عالم قفصة، الدّليل المومي في ترجيح طهارة الكاغد الرّومي، مختصر الحاوي في الفتاوي، الرّوض البهيج في مسألة الخليج، المنزع النّبيل في شرح مختصر خليل، إسماع الصمّ في إثبات الشّرف من قبل الأمّ، شرح فرعي ابن الحاجب، شرح التّسهيل، الردّ الخالص في الردّ على مدّعي مرتبة الكامل للنّاقص، عقيدة أهل التّوحيد المخرجة من

	ظلمة التّقليد، الآيات الواضحات في وجه دلالة المعجزات، أرجوزة الحديقة في علم الحديث، أرجوزة الرّوضة في الحديث، أرجوزة في القراءات، أنوار الدّراري في مكرّرات البخاري، تفسير سورة الإخلاص، النتجر الرّبيح والسّعي الرّحب الرّبيح في شرح الجامع الصّحيح، روضة الأديب في شرح التّهذيب، التّحرير والاستيفاء والتّنزيل لألفاظ الكتاب، ثلاثة شروح على البردة، نور اليقين في شرح أولياء الله المتّقين، مناقب إبراهيم المصمودي، مفاتيح القرطاسيّة في شرح الشّقراطيسيّة، المفاتيح المرزوقيّة في استخراج رموز الخزرجيّة، أرجوزة في اختصار ألفيّة ابن مالك، المعراج إلى استمطارفوائد الأستاذ ابن سرّاج، أجوبة نحوية، إيضاح المسالك في ألفيّة ابن مالك، أرجوزة في علم الميقات، أجوبة منطقيّة
محمّد بن عمر الهواري (ت843هـ)	السّهو والتّنبيه، التّسهيل، تبصرة السّائل، التّبيان .
محمّد بن إبرهيم بن الإمام (ت845هـ)	أبحاث في التّنزيل .
محمّد أبو عبد الله الشّريف التّلمساني (ت846هـ)	اختصر شرح التّسهيل لأبي حيّان .
محمّد بن أبي القاسم المشذالي(بعد866هـ)	تكملة حاشية أبي عيسى الوانوغي على المدوّنة، مختصر البيان لابن رشد، اختصار أبحاث ابن عرفة
محمّد بن محمّد بن أبي القاسم المشذالي مات بحلب (865هـ)	شرح جمل الخونجي
محمّد بن الحسن بن	ثلاثة شروح على الشّفا، تعليق رجال ابن الحاجب.

مخلوف(868هـ).	
محمّد بن العبّاس بن محمّد العبّادي (ت871 هـ))بالطاعون	شرح جمل الخونجي، فتاوى في المعيار، العروة الوثقى في تنزيه الأنبيا عن فرية الإلقا، تحقيق المقال وتسهيل المنال في شرح لاميّة الأفعال، الاعتراف فيما في لفظ البخاري من الانصراف
محمّد بن محمّد الزواوي البجائي (ت882هـ)	شرح الحكم، جزء فيه مرائيه للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم.
محمّد بن قاسم الرصّاع (ت894هـ/1488م) :	شرح حدود ابن عرفة، شرح البخاري التّسهيل والتّقريب والتّصحيح لرواية الجامع الصّحيح، تذكرة المحبّين في أسماء سيّد المرسلين، فهرسة الرصّاع، تحفة الأخيار في الشّمائل المحمّديّة، أجوبة التونسيّة على الأسئلة الغرناطيّة، الكلام على آيات شواهد ابن هشام في المغني الجمع اللّبيب في ترتيب آي مغني اللّبيب، جزء في إعراب كلمة الشّهادة
أبو القاسم بن سلطان القسنطيني(بعد 995هـ)	الانتصار للسنّة والردّ على الطّائفة الأندلسيّة
محمّد بن يوسف السنوسي (ت895هـ)	شرح الحوفيّة، شرح مختصر ابن عرفة، شرح الوغليسيّة في الفقه، مختصر الرّوض الأنف للسّهيلي، مختصر بغية السّالك في أشرف المسالك، تعليق على فرعي ابن الحاجب، عقيدة الكبرى وشرحها، العقيدة الوسطى وشرحها، الصغرى وشرحها، عقيدة أصغر من الصّغرى وشرحها، القدّمات المبيّنة لعقيدته الصّغرى، شرح الأسماء الحسنى، عقيدة في الردّ على من أثبت تأثير الأسباب العاديّة، شرح المرشدة، شرح جواهر العلوم المعضد في علم الكلام، شرح على الجزيريّة، مختصر الأبي على مسلم، شرحه على البخاري، شرح مشكلات البخاري، مختصر الزركشي على البخاري، مختصر حاشية

التفتزاني على الكشّاف، مختصر في القراءات السبع، شرح الشاطبيّة الكبرى، تفسير بعض القرآن، تفسير سورة ص، شرح أبيات الإليري في التصوّف، شرح أبيات أخرى، اختصار رعاية المحاسب، الدرّ المنظوم في شرح الأجروميّة، شرح إيساغوجي في المنطق، شرح قصيدة الحبّاك، شرح مقدّمة الجبر والمقابلة لابن الياسمين، شرح جمل الخونجيفي المنطق، نظم في الفرائض، شرح رجز ابن سينا في الطبّ	
تعليق على فرعي ابن الحاجب، نظم الدّرر والعقيان في دولة آل زيان، راح الأرواح.	محمّد بن عبد الجليل التنسي (ت899هـ).
تاج الدّين فيما يجب على السّلاطين، أجوبة الأسقيا، شرح مختصر خليل، حاشية على مختصر خليل سمّاها إكليل المغني، شرح بيوع الآجال، تأليف في المنهيات، مختصر تلخيص المفتاح وشرحه، شرح خطبة مختصر خليل، أحكام أهل الذمّة، مقدّمة في العربيّة، تنبيه الغفلين عن مكر الملبّسين بدعوى مقامات العارفين، البدر المنير ف علوم التّفسير، مفتاح النّظر في علم الحديث، فهرسة مروياته، قصائد في مدح النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، مصباح الأرواح في أصول الفلاح، قصيدة ميميّة على وزن البردة، الفتح المبين، لبّ اللّباب في ردّ الفكر إلى الصّواب ، مقدّمة في العربيّة، شرح الجمل في المنطق، مقدّمة في المنطق، منظومة فيه، ثلاثة شروح عليها.	محمّد بن عبد الكريم المغيلي (ت909هـ) بتوات
نظم في العقائد	محمّد بن عبد الرّحمن الحوضي (ت910هـ).
فتاوى في المعيار، كتاب في أصول الفقه، تأليف في الأسماء الحسنى، تفسير القرآن	محمّد بن أبي العيش الخزرجي التّلمساني (ت911هـ)
له مجاميع ومرويات	محمّد بن محمّد بن العبّاس التّلمساني

(ت بعد920هـ)	
محمّد بن علي التّلمساني (ت921هـ)	تعليق على شفاء عياض المنهل الأصفى في شرح ما تمسّ الحاجة إليه من ألفاظ الشّفا
محمّد بن يحى الإغريسي (ق9هـ/15م)	شرح أرجوزة الرّقعي في الفقه
مصطفى بن عبدالرّحمن باشترزي (ت980هـ)-	تحرير المقال في جواز الانتقال، رسالة في الوقف على المذهب الحنفي، شرح منظومة الثّعالبي في الحساب
عبد الرّحمن بن علي الغبريني البجائي (ت بعد 889هـ)	مسارح الأنظار ومتنزّه الأفكار في حدائق الأزهار اختصر صدق المودّة
أحمد بن سعيد بن عثمان التّلمساني (ت874هـ) ولي قضاء الاسكندريّة ودمشق مات بدمشق	الحسام في الردّ على عالمي الشّام
أحمد بن محمّد بن الحاج التّلمساني (بعد920هـ)	أنيس الجليس في جلوّ الحناديس عن سينيّة ابن باديس، نظم عقيدة السنوسي الصّغرى، شرح البردة ، كلام محقّق على الرّسالة
عبد الرّحمن بن محمّد الحسني التّلمساني (ت826هـ)	تفسير سورة الفتح .
محمّد بن محمّد بن	شرح المسائل المشكلات في المورد الظّمآن

العبّاس التّلمساني (بعد 920هـ)	
محمّد بن علي الخرّوبي (ت963هـ) دخل سفيرا إلى فاس	تفسير القرآن، رسالة ذوي الإفلاس إلى خواص أهل فاس، شرح صلاة ابن مشيش، الانس في التّنبيه عن عيوب النّفس، مزيل اللّبس عن آداب وأسرار القواعد الخمس، كفاية المريد وحلية العبيد
عمر بن علي الرّاشدي (ت868هـ)	إبتسام العروس ووشي الطّروس في مناقب قطب الأقطاب سيدي أحمد بن عروس
أحمد بن محمد بن عبد الرّحمن بن زاغو التّلمساني ت 845هـ	تفسير الفاتحة ، مقدّمة في التّفسير، أجوبة فقهيّة، شرح التّلمسانيّة في الفرائض+ منتهى التّوضيح في عمل الفرائض.
بلقاسم محمّد الزواوي (ت922 هـ)	شرح على رجز الضّرير
علي بن أحمد الزواوي (ت828هـ)	حلّ عقود الدّرر في علوم الأثر –حديث-
عيسى بن أحمد الهنديسي البجائي (بعد890هـ)	له تعليق على صحيح مسلم
محمّد بن أبي الفضل بن سعيد بن صعد (ت901هـ) بمصر	مفاخر الإسلام في فضل الصّلاة على النبيّ صلّى الله عليه وسلم، النّجم الثّاقب فيما لأولياء الله من المناقب، روضة النّسرين في مناقب الأربعة المتأخّرين.
خليل بن هارون الصّنهاجي (ت826هـ) دفن بالمدينة	تذكرة الإعداد ليوم المعاد كتاب في الأذكار والدّعوات، مختصر التّذكرة

محمّد بن أحمد بن قاسم العقباني (ت871هـ)	تحفة النّاظر وغنية الذّاكر في حفظ الشّعائر وتغيير المناكر
محمّدالقسنطيني 1015هـ	إدريسيّة النّسب في القرى والأمصار وبلاد العرب
موسى بن عيسى بن يحيى المازوني من القضاة	الرّائق في تدريب النّاشئ من القضاة وأهل الوثائق، ديباجة الافتخار في مناقب أولياء الله الأخيار، حلية المسافر وآدابه وشروط المسافر في ذهابه وإيابه
محمّد بن محمّد بن مريم (بعد 1025هـ)	التّعليقة السنيّة على الأرجوزة القرطبيّة، شرح على مختصر الصّغرى، تعليق على رسالة خليل، كشف اللّبس والتّعقيد عن عقيدة أهل التّوحيد، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، غنية المريد لشرح مسائل أبي الوليد، تحفة الأبرار وشعار الأخيار في الوظائف والأذكار المستحبّة في اللّيل والنّهار، فتح الجليل في أدوية العليل، فتح العلاّم لشرح النّصح التّام للخاص والعام، شرح المراديّة، تفسير لبعض ألفاظ الحكم، تفسير الحسام، كتاب الحديث النبوي وحكايات الصّالحين.
محمّد بن أبي القاسم المشدالي ت865هـ بعين تاب	شرح على جمل الخونجي
يحيى بن أحمد العلمي (ت875هـ) بمصر	شرح على الرّسالة، كتب على المدوّنة، البخاري
يحيى بن أبي عمران موسى بن عيسى المازوني (ت883هـ)	الدّرر المكنونة في نوازل مازونة

علي بن ثابت بن سعيد التّلمساني (ت829هـ)	شرح على تنقيح الفصول، شرح عقيدة الضّرير، شروح على البردة
يحيى بن عبد الرّحمن صالح بن علي العجيسي (ت826هـ)	عدّة شروح على ألفيّة ابن مالك، شرح صحيح البخاري لم يكمله، التّذكرة .
عبد اللّطيف المسبّح (ت980هـ)	شرح على مختصر الأخضري، شرح على الدرّة البيضاء في علمي الفرائض والحساب
أحمد بن أبي جمعة شقرون الوهراني (ت بعد 920هـ)	جامع جوامع الاختصاص والتّبيان فيما يعرض بين المعلّمين وآباء الصّبيان، أجوبة على أسئلة من بقي من مسلمي الأندلس.
عبد الرّحمن الأخضري (ت953هـ)	مختصر الأخضري في العبادات، المنظومة القدسيّة في طريق السنّة، التّحذير من البدع، الجوهر المكنون في صدق الثّلاثة فنون في البلاغة والبيان، السّلم المنورق في المنطق، الدرّة البيضاء في الحساب والفرائض، شرح الدرّة، شرح السّراج في الفلك.
علي بن موسى البجائي (ت816هـ)	شرح تلخيص ابن البناء، قيد على رفع الحجابلة، تقييدات على رفع الحساب لابن البناء
محمّد بن يحمد التّلمساني شهر بالحبّاك (ت867هـ	بغية الطلّاب في علم الاسطرلاب، شرح تلخيص ابن البنّاء، نظم رسالة الصفّار في الاسطرلاب، تحفة الحسّاب في عدد السّنين والحساب
محمّد شقرون بن هيبة الوجديجي التّلمساني-(983هـ)	شرح على التّلمسانيّة
أحمد بن محمّد بن علي	حدق المقلتين في شرح بيتي الرّقمتين

البجائي ت841هـ	
أحمد بن محمّد الشّهاب البجائي ت860هـ مات بالقاهرة	شرح إيساغوجي في المنطق
عبد الرّحمن الوجديجي ت1011هـ	قصيدة في فتح وهران
علي بن والي بن حمزة الجزائري حيا سنة 999هـ	تحفة الأعداد لذوي الرّشد والسّداد
أحمد بن عبد الرّحمن بن محمّد الخلوف ت بتونس899هـ	ديوان الشّعر، تحرير الميزان لتصحيح الأوزان، مواهب البديع ميميّة في علم البديع، نظم التّلخيص في المعاني والبيان، جامع الأقوال في صيغ الأفعال، نظم المغني، شرح مواهب البديع، عمدة الفارض أرجوزة في علم الفرائض.
عبد الرّحمن بن يحي المغيلي حيا بعد 816هـ	شرح على التّلمسانيّة
أحمد بن محمّد المقرّي بعد 847هـ	التّحفة المكيّة شرح ألفيّة ابن مالك
أحمد بن أحمد بن عبد الرّحمن النّدرومي بعد 830هـ	كفاية العمل اختصر فيه شرح شيخه على جمل الخونجي في المنطق حيا بعد 830هـ
سحنون بن عثمان الونشريسي (ق10هـ)	شرح على السّراج في الفلك

أحمد أبو عصيدة البجائي حوالي865هـ	رسالة الغريب إلى الحبيب، أنس الغريب وروض الأديب-رحلة-تعليقة سنيّة في حلّ ألفاظ الجروميّة
أحمد بن يونس القسنطيني ت 878هـ	رسالة في ترجيح ذكر السيادة في الصّلاة على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم -ردالمغالطات الصّنعانيّة، قصيدة مدح للنبيّ
أحمد بن يوسف الملياني ت927هـ	رسالة في الرّقص والّصفيق والذّكر في الأسواق

الملحق2: جدول يبيّن أماكن هجرات فقهاء المغرب الأوسط في القرنين 9-10هـ/15-16م).

مصر	عثمان بن سليمان الصّنهاجي الجزائري ت 825هـ بالقاهرة محمّد بن أبي الفضل بن سعيد بن صعد ت901هـ أبو عثمان سعيد بن علي الحسني الجزائري ت872هـ القاهرة محمّد بن يحيى بن عبد الرّحمن العجيسي ت871هـ سالم بن محمّد العفيف القسنطيني ت889هـ بالإسكندريّة حمزة بن محمّد بن حسن البجائي المغربي ت902هـ بالقاهرة سرور بن عبد الله بن سرور ت845هـ قتيلا الإسكندريّة يحيى بن عبد الرّحمن صالح بن علي العجيسي ت826هـ كاد أن يستأسره النّصارى. أحمد بن محمّد الشّهاب البجائي ت860هـ بالقاهرة.
الحجاز	عثمان بن يوسف الصّنهاجي ت863هـ بمكّة محمّد بن محمّد بن علي الزواوي البجائي شهر بالفراوصني ت882هـ بمكّة طاهر بن زيان الزواوي القسنطيني ت 940هـ المدينة محمّد بن إبراهيمم الصّدقاوي الزواوي البجائي ت895هـ بمكّة خليل بن هارون الصّنهاجي ت826هـ بالمدينة أمّ الحياء البسكريّة ق9هـ بالمدينة

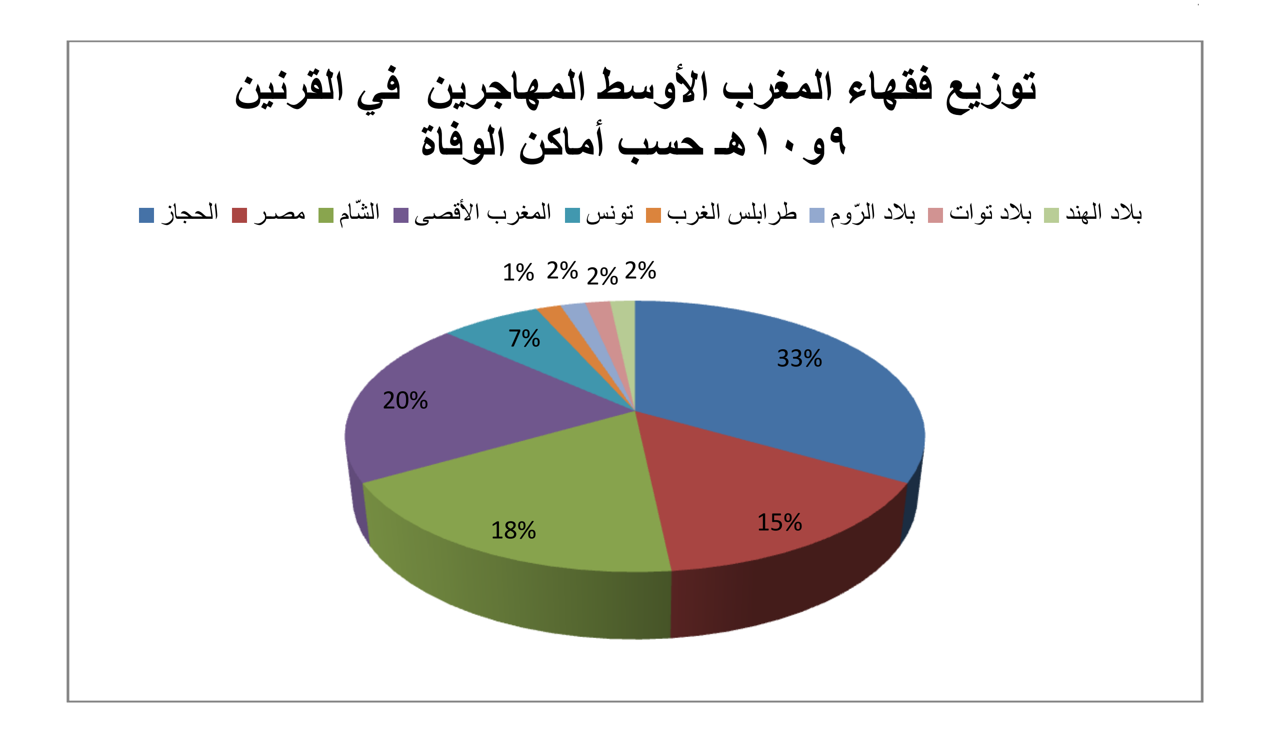
	محمّد بن خطّاب البجائي ت بعد 890هـ المدينة محمّد بن محمّد البسكري ابن ثابت القرن 9هـ بالمدينة عبد الرّحمن بن محمّد بن فاضل ت881هـ. بمكّة محمّد بن علي بن مسعود الجزائري ت891هـ بالمدينة أحمد بن صالح بن خلاصة الزواوي ت855هـ بالمدينة عبد القوي بن محمّد بن عبد القوي ت816هـ بمكّة سليمان بن صالح العجيسي البجائي ت884هـ بمكّة أحمد بن يحي القسنطيني العوكلي ت860هـ بمكّة محمّد بن محمّد النقاوسي ت بعد 897هـ يحي بن أحمد بن عبد السّلام العلمي ت875هـ بمكة عبد الله بن منصور الوجدي التّلمساني ت855هـ بمكّة عيسى بن عبّاس التّلمساني ت822هـ بمكّة أحمد بن يونس القسنطيني ت 878هـ بالمدينة
بلاد الشام	محمّد بن إبراهيم بن الإمام ت845هـ ببيت المقدس أحمد بن سعيد بن عثمان التّلمساني ت874هـ بدمشق أحمد بن سعيد السنوسي ت قرن 9هـ بدمشق سالم بن ابراهيم الصنهاجي ت873هـ بدمشق محمّد بن عبد الرّحمن أبو القاسم القسنطيني ت859هـ بيت المقدس محمّد بن محمّد بن أبي القاسم المشدالي ت865هـ بعين تابين حلب ودمشق عبد الله بن إبراهيم البسكري ت829هـ ببيت المقدس ابراهيم بن منصورالتّلمساني ت858هـ بيت المقدس نصر الزواوي ت826هـ بيت المقدس محمّد بن يحي الطّولقي ت920هـ بدمشق أبو العباس أحمد بن شبوان ت 881هـ بغزّة

بلاد الروم	محمّد بن عيسى التبسي ت 840هـ بورصة
المغرب الأقصى	أحمد بن يحى الونشريسي ت914هـ بفاس عبد الواحد بن أحمد بن يحيى الونشريسي ت955هـ قتيلا بفاس أحمد بن محمّد بن جيدة الوهراني ت951هـ بفاس أحمد بن أحمد العبّادي التّلمساني ت980هـ بمرّاكش أحمد بن محمّد بن قاسم العقباني ت980هـ بفاس أحمد بن أبي جمعة شقرون الوهراني ت بعد 920هـ بفاس محمّد شقرون بن هيبة الوجديجي التّلمساني-ت983هـ بفاس محمّد بن أحمد بن محمّد الوقّاد ت1001هـ بتارودانت يونس بن عطيّة التّجيني ت816هـ ولي القضاء، بمكناسة محمّد بن عمر بن الفتوح التّلمساني- بمكناسة علي بن عيسى الرّاشدي التّلمساني نحو980هـ بفاس أحمد بن أحمد العبّادي التّلمساني ت 986هـ بمرّاكش
المغرب الأدنى	أحمد بن أحمد زروق ت899هـ بطرابلس الغرب محمّد بن أبي القاسم المشذالي ت بعد866هـ بتونس محمّد بن قاسم الرصّاع بتونس إبراهيم بن محمّد الأخضري الطّولقي ت899هـ بتونس عيسى بن أحمد بن محمّد البجائي حيا 890هـ بتونس
الهند	أحمد بن علي بن أحمد البسكري ت 1009هـ بحيدر آباد

باستقراء كتب التّراجم تمّ إحصاء ستّين فقيها استقرّوا خارج المغرب الأوسط، منهم عشرين بالحجاز، وتسعة بمصر، وإحدى عشر بالشّام، وإثني عشر بالمغرب الأقصى، وأربعة بتونس، وفقيه بطرابلس الغرب، وواحد ببلاد الرّوم، وواحد ببلاد توات، وآخر ببلاد الهند، وهو ما يعكس ارتفاع نسبة الهجرة إلى المشرق لا سيما ببلاد الحجاز.

الملاحــــق

الملحق 3: دائرة نسبيّة تبيّن توزيع فقهاء المغرب الأوسط الهاجرين حسب أماكن الوفاة



توضّح هذه الدّائرة النّسبيّة ارتفاع نسبة فقهاء المغرب الأوسط الذين وافتهم المنيّة ببلاد الحجاز ومصر والشّام، و قد يكون سبب ذلك هو توفّر الأمن بهذه البلدان في هذه الفترة، ومن الأسباب أيضا سقوط الأندلس الذي حصر وجهة الفقهاء إلى المشرق، يضاف إلى ذلك غلبة تيار التصوّف الذي دفع بالفقهاء إلى زيارة المشاهد وقبور الأنبياء بالحجاز وبلاد الشّام ومصر، وتتبّع أسانيد الطّرق والعكوف على مُجاورة الحرمين.

وتوضّح الدّائرة النّسبيّة ارتفاع نسبة الفقهاء بالمغرب الأقصى، وذلك راجع إلى قُربها من غرب المغرب الأوسط واتّصالها به في مناسبات متكرّرة، وأيضا بسبب سياسة السّعديّين القائمة على كسب ولاء فقهاء تلمسان.

المُلحق رقم4: عريضة من أهالي قسنطينة إلى السّلطان العثماني للإشادة بأعمال صالح رأيس[1]

عامل الزمن، ومع ذلك فإن الرسالة التي جاءت في شكل عريضة تظل في نظرنا من حيث ما ورد فيها من معلومات وإن كانت قليلة وما تميزت به من أسلوب ولغة وما حملته من إمضاءات، وثيقة من الأهمية بمكان، فهي مساهمة في تجديد نظرتنا للحكم العثماني بقسنطينة وتوضيح رؤيتنا لطبيعة السلطة العثمانية بالجزائر، وهذا ما يسمح لنا بالقول بأن نص الرسالة (العريضة) الذي نضعه اليوم بين أيدي القراء هو بحق إغناء لرصيدنا التاريخي الأصيل وتدعيم لثروتنا من الوثائق الأساسية.

116

ورقات جزائرية
ناصر الدين سعيدوني

نص العريضة

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى اله وصحبه وسلم تسليماً

إن بإسم محمد ينتظم بنيان البيان وأزهر زهر ينتشر في أردان الأذهان، وا
لله الذي أنزل على عبده الفرقان وأمر فيه بالعدل والإحسان، والحمد لله الذي الخلافة في يد حماة الدين وكمات [كذا] الأبطال وأبطال الكمات [كذا] من المؤ أوكلهم للذب عن شريعة سيد المرسلين مهتدين بهدي الخلفاء الراشدين، وال والسلام على سيدنا وملانا محمد المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وأص الهادين المهتدين، صلاة دائمة مثبتة الأركان مشيدة البنيان.

وبعد فهذا كتاب شريف من يتوجب إليه، وخطاب علامي منيف بمن يلقي ا مشفوعاً بتحية كريمة عرفها من طيب ذكي، وشرفها من باهر فخره وخلوصها خالص بره، وبسلام سلامة مستعارة من صدره ونفحاته مستفادة من قدره، مع الر الشاملة العميمة، والبركة الكاملة الطيبة الكريمة، تبتسم في وجه رجائه المطالب، بلوغه تلقاء مدين المشارب، السدة السنية الخاقانية التي هي كعبة الأماني والآ ومناخ مطايا السعد والإقبال، واشتهرت مآثركم الكريمة في الآفاق وأشغلت مفا الجسيمة ألسنة الرفاق وظهرت دلائل عدلها، فلا تفتقر إلى إيضاح وأشرقت و همما بلا شمس ولا مصباح.

حضرة من حاز الكمال بشطريه والمجد من طرفيه وأقام الأنام في كنف الأ وفاض عليهم بجلال العدل والإحسان، وخط بسياسته القرار إلى الأجفان، وسد ب دون تأجج الفتنة وطرق العدوان، وهو السلطان الأفخم والخاقان الأعظم مالك ر

117

[1] - ينظر: ناصر الدّين سعيدوني، ورقات جزائريّة، ص ص 117-119.

الأمم سلطان العرب والعجم من دخل في طاعته الداني والقاصي وسعد بمتابعته المطيع والعاصي، مآثره العالية لا تحصى ومكارمه المتوالية غمرت الأدنى والأقصى، وبرك سعده لا تخاف بفضل الله أفولاً ولا نقصاً، المجاهد في سبيل الله، الصارف همته في إعلاء كلمة الله، ملك البرين وخادم الحرمين الشريفين، ذو القدر المنيف والعلم الذي لا يحتاج في اشتهاره إلى تعريف ما شورك في صفت [كذا]، فحسبنا الوصف إيضاحاً وتبييناً، لسنا نسميه إجلالاً وتكرمة وقدره المعتلي عن ذلك يغنينا، مالك زمام العلم بذكره كملت، فكان تصريحه علينا حقاً يقيناً، فهو الواقف مع نص قوله إن الله يأمر بالعدل والإحسان، مولانا أبو الفتوح سليمان لا زالت أقطار الأرض مشرقة بأنوار هدايته وأغصان الخيرات مورقة بسحائب رأفته، من مماليكم المتمسكين بلواء عقدكم العاكفين على مبايعتكم وعهدكم، الوافين بما عاهدوا الله عليه في ذلك، ولن يبغوا عنها تحويلاً، الصادقين في ذلك وما بدلوا تبديلاً، يقرن [كذا] مضمونه الميمون، ومفهومه المنظوم كالدر المكنون بأن جميع بلادنا ثابتون [كذا] لكم بالسمع والطاعة عاملون بما كان عليه الصحابة وأهل السنة والجماعة، شاكرون نعمكم التي ظهرت آثارها علينا وذاكرون من فواضلكم ما تطرقت أنوارها بين أيدينا، وما هي إلا توليتكم على قطرنا الغربي مملوككم الأصغر وناشر عدلكم الأكبر المنتخب من أبوابكم العالية الخاقانية، الباشا المعظم الشهير الأفخم ممتثل أمركم برد المحاسن وجلب المصالح أبو التقا صالح أدام الله إقباله وبلغه من رضاكم عنه مرغوبه وآماله، فجاء من حضرتكم العالية لا زالت عالية بسير بسير العدل والإنصاف وهدم أساس الجور والإعتساف، وقطع الأمكاس والمظالم وجلب المصالح التي بها دوام العالم وقبول [كذا] الشكاوي من محلها ورد المظالم إلى أهلها لم يجدد بدعة.. ابتدعها، ولا جدد ثمة أمر [كذا] اخترعها لشأنه، وسيرته الإقبال والقبول وبلوغ القادم عليه ما هو مأمول، فيه رحمة الصغير وتوقير الكبير، والتسوية بين المشروفة والشريف والأخذ من القوي للضعيف، ممتثل للشريعة المحمدية متمسك بهمة أبوابكم العلية، آخذ من مجامع القلوب بما يعلم علام الغيوب، وكانت عنايته مع ذلك في عامه الأول تمهيد البلاد على وفق المراد، صلح [كذا] من الرعايا ما ضعف عقده، وقوي ما اختل عهده، وفي عامه الثاني، قهر من أعداء الملة من زعم بعده وعدده لا يحصى إلى أن أجلاهم إلى

المغرب الأقصى، وفي العالم الثالث صرف همته وشغلها بقتال عدو الدين إلى أن فتح من أيديهم مدينة بجاية، حصناً عظيماً كان للمسلمين وله في أيدي الكافرين بما يزيد على الأربعين من السنين، عجز عن فتحها الأولون وألقى السلاح دون ما حولها الآخرون واتفق فتحه للمسلمين وخنقه الكافرين... في نصف شهر أو أقل من ذلك، كما بلغكم حقيقة ما هنالك، وكان ذلك الفتح المبين من أعظم فتوحاتكم على المسلمين وأشد نكاياتكم على أعداء الدين، واتفاقه كرامة من الله لأوليائه ومعجزة خاتم أنبيائه، لا زال ذكركم يزين المنابر وفخركم يعجز الأقلام والمحابر حائزين قصب المكارم الأول والأخر، مصحوبين بصالح الرجاء من الأصاغر والأكابر، والحمد لله مبدأ هذا [كذا] السطور المبارك [كذا] وبه اختتامه وصلواته التامة على سيدنا وسلامه، حرر في شهر الله محرم الحرام فاتح شهور سنة 963.

من المماليك أهل قسنطينة (ثلاثون إمضاء).

الحمد لله وكفى وسلام على عباده اللذين اصطفى،
أعلم بثبوته المرسوم أعلاه عبد الله (إمضاء)...
والسلام على من يقف عليه ورحمة الله وبركاته.

الملحق3: رسالة عبد الرّحمن الثعالبي في الجهاد[1]

ولهذه الأسباب اعتبرنا هذه الرسالة هامة وجديرة بالدرس ، لا لأنها فقط تضيف الجديد عن شخصية الثعالبي ودوره العلمي والسياسي ، ولكن لأنها أيضا تسلط بعض الأضواء على عصره من الوجهة السياسية والاجتماعية فالعلماء والفقهاء كانوا يتنبأون بأمور ستحدث ، وكانوا يعتمدون التصوف والزهد والرؤى النبوية ، وكانوا أحيانا يدعون الولاية ويتصنعون الورع ، ولكنهم كانوا ، ولا سيما عند انعدام السلطة السياسية الوطنية ودهامة الخطر الخارجي ، يصبحون قوة دافعة نحو الصلاح والخير ، ونحو جمع الكلمة ووحدة البلاد ، ونحو التسلح والجهاد . ومن هؤلاء كان الثعالبي . ومن هنا جاءت أهمية رسالته التي نحن بصددها .

نص رسالة الثعالبي ف الجهاد

من عبد الرحمن بن محمد الثعالبي ، لطف الله به ، الى مقام الولد الفقيه الخير أبي عبد الله محمد بن أخينا ف الله سبحانه سيدي أحمد ابن سيدي يوسف الكفيف ، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد فقد وفقني الله واياكم لمرضاته ، وأنعم علينا وعليكم بجزيل فضله وعميم خيراته . فقد وقفت على كتابكم وأنتم تستشيروني (كذا) ف نقل كتبكم الى زواوة خوفا من عدو الدين أن ينزل بساحة المسلمين ، فاعلم رحمك الله أن نقلها من الحزم ولكن الى ما قرب منكم من الأماكن لأن العدو ، دمرهم الله ، انما مقصدهم المدن .

وفرحت بحمد الله باشتغالكم بدرق العود فما يوجد أنفع للنشاب ولا لدفع مضرته من درق العود ، فمن كانت بيده درقة عند لقاء العدو يشفي ويستشفي ويبلغ غرضه بحول الله تعالى وقوته . وأما درق الجلد من لمط أو غيره فلا يقتربها لأن السهام تنفذها (كذا) وتتجاوزها الى

— 208 —

[1] -سعد الله، أبحاث وآراء، ج1، ص ص208-211.

ممسكها . هذا مع القرب جربناه مرارا . ودرق العود لا تنفد (كذا) فيها مع القرب فأحرى مع البعد فاختبروا ما ذكرناه لكم يبين لكـم الصواب .

ولست أخاف على بلدكم لأن والدكم ، رحمنا الله واياه ، أخبرني انكم ان رأيتم ما لا تطيقون من كثرة العدو تخلون من أجله ولا يبقى فى البلد الا المقاتلة ، ونصر الله تعالى معكم مأمول ، ولأن العدو اذا علم أن الذرية والحريم وما عز من المال قد فاته فت ذلك فى عضده ولم يقتحم كل الاقتحام لفوات غرضه .

وأهل بلدنا وما قرب منها بل وما بعد عنهم لما أن حرضتهم على درق العود اجتهدوا فى ذلك حاضرة وبادية ففرحت بحمد الله تعالى بامتثالهم ما أمروا به . وقد قدمت إلى فضلائهم أن النبي صلى الله عليه وسلم أكد وأكد كثيرا فحرضت الناس جهدي ، ورأيت اثر ذلك فى الناس بحمد الله تعالى فانهم سارعوا وصدقوا وامتثلوا وقد وعدنا النصر ، بحمد الله تعالى ، وقد تكرر علي التحريض نحو سبع مرات وفى بعضها شد روحك يعني فى التحريض ، وفى بعضها وأنتم منصورين ، (هكذا بالياء) . والذي آمركم به ، وفقكم الله تعالى ، ان تكثروا من درق العود كثرة تعمكم وتعم من يصرخكم .

وقد جاءني بعض اخواني من أهل الفضل فقال رأيت كأن فارسا وبيده درقة وهو يقول واعدوا لهم ما استطعتم من قوة الدرق والرماح . وفى رؤيا عنه ، صلى الله عليه وسلم ، قال من عمل درقة يعني للجهاد فانها تحول بينه وبين النار . لما اخبرتهم بهذه الرؤيا زادهم ذلك رغبة حتى أن جماعة من النساء اشترين الدرق لأجل وعده الصادق صلى الله عليه وسلـم .

وأعلم يا أخي أن قلبي متألم من أهل بجاية وخفت عليهم كثيرا من جهة آمسيوين . وقد بعثت الى بعض الفقهاء ، منهم بالتحريض من غير كتب فما رأيت لكلامي عندهم تاثيرا كما أثر هنا ، واذا أراد الله بأمر فلا محيد عنه ، وان هم قبلوا نصحي كانوا ممتثلين لتحريض النبي صلى الله عليه وسلم فان كلامه حق يقظة ومناما ورؤيته حق فان الشيطان لا يتمثل بصورته أي مطلقا .

والذي أحبه منهم أن ينهضوا ويسرعوا ف عمل الدرق من الصفصاف وتكون كاسية ولا يتكلوا على الطوارق ولا على درق اللمط كما اخبرتك فاكتب اليهم بالتحريض ف عمل الدرق ويكثروا كثرة تعمهم وتعم من يصرخهم وأهل بواديهم أعلمهم قديما عراة لا درق معهم الا نادرا . وقد انتهى حال أهل جبالنا الى أن اتخذوا الدرق من الفرنان ، وكذلك أنتم فافعلوا بمن أعوزه درق العود فليصنعه من الفرنان الغليظ طبقين طبقين فان كل عاقل يستشعر قتال بني الاصفر فانهم قد أصيبوا ف القسطنطينة (كذا) وغيرها . وقد علمتم أن أخذها من الأشراط . وان لبني الأصفر حمية ف النصرة لصليبهم .

فاكتب رحمك الله لاخواننا ببجاية وحذرهم ليتيقظوا ويعملوا ما أشرنا اليه من الدرق على الوجه الذي أشرنا اليه فهي أقرب مراما وأقل كلفة من بناء الأصوار (كذا) التي لا يرقها (أو يرفعها) الا المال الكثير ف الزمان الطويل ، ويخاف أن الأمر أعجل . اللهم اني قد بلغت ! اللهم اني قد بلغت ! اللهم اني قد بلغت ! اللهم أشهد ! اللهم اشهد : اللهم أشهد ! واذا وصل اليك هذا الكتاب فاقرأه على جميع أصحابنا ثم ابعث به الى بجاية لمن يعلن به ويشيعه .

ولو أطلعتم على ما أطلعت عليه من التحريض لما وسعكم أن تشتغلوا شيء من أمور مهماتكم بعد الصلاة الا بآلة الجهاد . والله والله لو لم

يكونوا (كذا) بنوا الأصفر على وجه الارض لخلت أن ينبعوا من تحت الارض لما رأيت من التحريض والتحذير منهم من قبل النبي صلى اللــه عليه وسلم ، ومن يحب تصديقه ولا يمكنني التصريح به لضعيف الايمان. وقد سئل بعض الأولياء عن مسألة فسكت وقال للسائل أن ايمانك لا يحتمل هذا وبالجملة الحذر الحذرِ مما حذرتم .

وأما تعيين وقتهم فذالك الى الله ، هو أعلم . نعم قراين الحال وماشوهد من تحريض النبي صلى الله عليه وسلم يؤذن بالقرب . ومما ينبغي أن تكثروا منه المكاحل كثرة تعسكم وتعم من يريد صرختكم .

كمنت من خط الشيخ سيدي عبد الرحمن الثعالبي . وكتب سيدي يخلف ابن محمد أصلحه الله » .

الملاحـــق

الملحق4: رسالة أهالي الجزائر إلى السّلطان العثماني سليم الأوّل وطلب إلحاق الجزائر بالخلافة العثمانيّة[1]

العالي وربط البلاد بالامبراطورية العثمانية ، وليس ذلك رغبة شخصية من خير الدين . ونتيجة لهذه السفارة سارع السلطان سليم الاول بارسال رتبة البيلرباي الى خير الدين، واعتبر ابتداء من هذا الظرف الجزائر جزءا من الامبراطورية العثمانية . وبذلك فان الهدف الذي خططه خير الدين قد تحقق تماما ، ونتيجة لنجاح سفارة أبي العباس بن احمد قاضي كلفه خير الدين بادارة كامل شرق البلاد (18) .

ان وثيقتنا هذه تقدم لنا شخصية جديدة هي محمد بن منصور بن علي الحلبي وقد ارسل هو الآخر رسالة الى السلطان يحيطه فيها علما بوضعية المغرب المحزنة ويستنهضه لمساعدته .

نامل أن تساهم وثائق أخرى من هذا القبيل في القاء اضواء جديدة على احداث القرن السادس عشر الميلادي في المغرب العربي .

عبد الجليل التميمي
الجامعة التونسية
كلية الآداب والعلوم الانسانية

نص الوثيقة المعربة :

ترجمة رسالة القاضي والخطيب والفقهاء والائمة والتجار والامناء وكافة سكان مدينة الجزائر العامرة (19) .

اننا ندعو بالسعادة والنصر لمقام السلطنة العلية ، دعاء يبلغها اقصى الاماني . فان عبيدها بالجزائر يكتبون الى مقامها العالي معبرين ومعترفين لمقامكم العالي بالاجلال والتعظيم ابدا ، وان رسالتنا هذه لا تستطيع ان تستعرض كل الاسرار . ان سعادة ايامكم هي فرحتنا ونحن لزمام اموركم وطاعتكم مستبشرون وعليكم لا محالة اعتمادنا . فظاهرنا كباطننا مخلص لكم اولا وآخرا . فقد اطعنا امركم وعبيدكم ليس لهم غير جنابكم يرفعون اليه غاية الاجلال والتقدير وليس لهم من قصد غير شريف مقامكم العالي .

لقد جرت حوادث جليلة ولها اخبار طويلة في نصر المؤمنين وهزيمة اعداء الله . ومفادها ان طائفة الطاغية لما استولت على بلاد الاندلس ، انتقلوا منها الى قلعة وهران للاعتداء على سائر البلاد . غير انه بعد استلائهم على بجاية وطرابلس بقيت الجزائر (بين الكفار) كالنقطة في وسط الدائرة ،

(18) ان ثقة خير الدين التي وضعها في ابي العباس هذا ، كانت لها نتائج وخيمة . الا تحالف ابو العباس مع اعداء خير الدين وهجم على الجزائر التي احتلها وحكمها خلال خمس سنتين . وقد اضطر خير الدين اثرها الى الالتجاء الى جيجل ولم يتمكن من استرجاع الجزائر الا بعد خمس سنوات وقد تم له القبض على « ابو » العباس ثم اعدمه .

(19) دار الوثائق بطوب كوبي رقم 6456 .
لا شك ان هذه الرسالة وجهت باللغة العربية الى الباب العالي ، كما توضحه

وبقينا لذلك حيارى متأسفين يحفنا الكفار من كل جانب ولكن تمسكنا بحبل الله المتين واتكلنا عليه . غير ان طائفة الطاغية شددت علينا الطلب هادفة ادخالنا تحت ذمته (سلطته) . وقد نظرنا في الامر ورأينا ان المحن والشدائد تشتد وان الضرورة تقضي بحقن دماء انفسنا وخوفا على حريمنا واموالنا واولادنا من السبي والتفريق ، تصالحنا مع اهل التثليث وانا لله وانا اليه راجعون .

وبعد هذه المضايقة والحصار دخل الكفار الى وهران وبجاية وطرابلس وكان قصدهم ان يأتوا بسفنهم ويستولون علينا ويأسروننا ويشتتون شملنا فجأة . آنذاك قدم ناصر الدين وحامي المسلمين المجاهد في سبيل الله اوروج باي مع ثلة من الغزاة . فقابلناه بالعز والاكرام واستقبلناه ، لاننا كنا في خوف (من عدونا) فخلصنا بفضل الله . واوروج باي المشار اليه جاءنا من تونس لانقاذ بجاية من يد الكفار وتأهيلها بالمسلمين . فلما وصل الى القلعة وحاصرها مع المجاهد الفقيه الصالح أبو العباس احمد بن قاضي زلزلوا أركانها وهدموا بنيانها ، وشاهد الكفار عندما دخل القلعة المسلمون وهاجموهم واستولوا عنوة على برج منها ، اختلال بنيانهم وقرب حتفهم هرب بعض الكفار الموجودين بالقلعة وقتل الباقون منهم .

لقد حارب المسلمون الكفار اناء الليل واطراف النهار من طلوع الشمس الى غروبها . وعلى الرغم من ترك بعض من جماعة اوروج القتال ، بقي المشار اليه يقاتل الكفار مع جماعة قليلة ، وكان قد عزم على لقائنا غير انه وقع شهيدا في حرب تلمسان رحمه الله . وقد حل مكانه أخوه المجاهد في سبيل الله أبو التقى خير الدين وكان له خير خلف ، فقد دافع عنا ولم نعرف منه الا العدل والانصاف واتباع الشرع النبوي الشريف ، وهو ينظر الى مقامكم العالي بالتعظيم والاجلال ويكرس نفسه وماله للجهاد لرضاء رب العباد واعلاء كلمة الله ومناط آماله سلطنتكم العالية مظهرا اجلالها وتعظيمها . على ان محبتنا له خالصة ونحن معه بائتسون . وكيف لا نحبه وهو المشمر عن ساعد الجد والاقدام ، ويقود الجهاد معنا في سبيل الله بنية خالصة وقلب صادق متفق الكلمة معنا في الشدة والرخاء لاعلاء كلمة الله . فالعقيدة الايمانية كوكب وهاج ودليل واضح المنهاج . ومفاد ما يريد عبيدكم اعلامه لمقامكم العالي هو ان خير الدين كان قد عزم قصد جنابكم العالي الا ان عرفاء البلدة المذكورة رفعت ايديها متضرعة اليه حتى لا يرتحل خوفا من الكفار اذ هدفهم هو « النيل منا » ونحن على غاية الضعف والبلاء . ولهذا ارسلنا الى بابكم العالي الفقيه العالم المدرس سي أبو العباس احمد بن علي بن احمد ونحن واميرنا خدام اعتابكم العالية واهالي اقليم بجاية والغرب والشرق خدمة مقامكم العالي وان المذكور حامل المكتوب سوف يعرض لحضرتكم ما يجري في هذه البلاد من الحوادث والسلام . اوائل ذي القعدة 925 (20) .

وقد أرسل ايضا المنزوي والمعتكف بالجامع الاعظم بمدينة الجزائر عبيد الله وخادم فقراء اهل السنة محمد بن منصور بن علي الحلبي (21) ، رسالة يذكر فيها بضعف القوم في ارض غربته ، انهم على وشك الهلاك عندما قدم خير الدين وقد وقعوا في المحن المرة تلو الاخرى ايام الاضطرابات وانهم باقون على الدعاء بدوام أيام دولة السلطان .

---

[1] – المجلّة التّاريخيّة المغاربيّة، عدد6، جويلية، 1976م، تونس، ص ص116-121، ص120.

رسائل موجّهة من الباب العالي إلى الإيالات المغربيّة[1]

المبين وترفيه قلوب المؤمنين ودفع فساد المفسدين ورفع مضرة أعداء الدين المتين ويعاشر مع العشاير حسن المعاشرة ويعامل مع العساكر ويظاهر أقوى المظاهرة ويعين بالعساكر وبالزواد (كذا) والذخاير ان استعان هو منك بحيث يتحقق عند الداني والقاصي ولدى كل مطيع وعاصي كأنكم نفس واحدة عارية من سوء الشقاق والاختلاف والولاية محروسة الجوانب والاطراف بكمال الوفاق والائتلاف اذ ذلك ذريعة لاصلاح أحوال الخواص والعوام ووسيلة لاعلاء كلمة الاسلام والسلام والحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده .

حرر في 4 شوال 979 (15)

وسلم 25 شوال 979

نسخة من هذا الامر الى سليمان قائد الجيش .

الوثيقة رقم 8

هذا مرسومنا (16) الشريف العالي السلطاني وأمرنا السامي الخاقاني لا زال نافذا في المشارق والمغارب ارسلناه الى العلماء والشرفا والصلحا (كذا) والمشايخ وأعيان الناس عبر تيه الجزاير وجميع الرعايا وكافة البرايا ثمة ، بتضمن اعلامهم ان مدينة الجزاير وما تابعها من جملة ممالكنا المحروسة وخلاصة بلادنا المحمية نظرنا السعيد السلطاني والتفاتنا الوريف أبدا دايما الى انتظامها وصون اهاليها وأقصى مراد حضرتنا الجليلة وغاية ارادتنا السنية ان يكون رعايانا هنالك في أيام دولتنا العادلة امنين مطمئنين منشرحين فرحين آمنين على أنفسهم مضبوطين في جميع أحوالهم ثغورهم مسدودة بسد سديد وقلاعهم مصونة بالامن والامان وأفيدتهم وألسنتهم رطبة بالدعاء الصالح لدوام دولتنا الفايقة مدا (كذا) الدهور والازمان ومن ذلك الشأن قلدنا امور تلك الممالك المحمية اولئك الاقاليم المحروسة ، قلدنا أمور تلك الممالك المحروسة مملوك حضرتنا العلية أمير الامراء الكرام أحمد دام اقباله لمفرط شهامته وصلابته وكمال عزمه وشجاعته وحسن تدبيره وكياسته فوضنا اليه ضبط تلك الاقاليم وصونها والاهتمام بها وحفظ البلاد وصون العباد ودفع المحن والرزايا عن جميع الرعايا واحياء شرايع الدين المتين واجراء قوانين سيد المرسلين ليكون أهالي الاسلام وامت (كذا) خير الانام في تلك الاراضي المباركة في ظل ظليل وعدل جميل تحت كنف حماية سلطنتنا السنية وفي زمن خلافتنا الفايقة عن ايمانهم ومن شمايلهم محفوفين بأكمل الراحة مرفهين وأجمل الاستراحة متنعمين آمنين مطمئنين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

29 شوال 979 (17)

---

(15) 17 فيفري 1572 .

(16) أ. ر. و. ا ، مهمة دفتري رقم 10 ، ص 179 ـ 180 ، حكم رقم 266 .

الوثيقة رقم 9

هـذا مرسومنا (18) الشريف العالي السلطاني ومثالنا المنيف السامي الخاقاني لا زال نافذا مطاعا له بالعون الرباني قد أرسلناه الى افتخار الاماثل والاعيان رمضان زيد مجده القايد تونس القايم مقام أمير الامراء الكرام قبودان علي باشا دام اقباله والى كل من يكن قايدا بعده ثمة ينهي اليه أنه قد صدرت مراحمنا الجليلة السلطانية وظهرت عواطفنا الجميلة الخاقانية في مفاخر الصلحاء الساكنين مراجع الفضلاء الصالحين الشيخ امور بن عبد القدير الصوصوى والشيخ محمد الغرياني والشيخ محمد القاسي المتوطنين ثمة فامرنا بأن لا يدخل أحد من الولاة والحكام والقوايد والامراء الكرام وغيرهم ممن في يده حكومة على الانام ، في الزوايا المكائنة بأيديهم وتحت تصرفهم المنتقلة اليهم من ابائهم واجدادهم ممن يتصرفون فيها كما تصرفوا من قبل ولم يتعرض لهم احد في ذلك الباب ويكون كل منهم في ايام سلطنتنا السنية محميا مصونا مرفها مطمئنا تحت حكومتنا وظل عدالتنا البهية فيدعونا بالخير في ابرك الامكنة والاقطار واشرف الأزمنة والاعصار بالعشي والابكار والليالي والاسحار والسلام والحمد لله وحده والسلام على من لا نبي بعده .

نسخة من هذا الامر وجهت الى :

- الشيخ سيدي احمد البروري ، قائد القيروان
- القائد رمضان
- بيلر باي الجزائر
- الشيخ سعيدي محمد الغرياني المستوطن مدينة القيروان
- الشيخ محمد القاسي المستوطن مدينة القيروان
- الاشراف والسادات العلية المستوطنين بلدة ربغة المحمية من اعمال ولاية جزاير الغرب صانها الله عن افات ..... فامنها ان يكون كل منهم معافا (كذا) مسلما التكاليف الشاقة (؟)

سلم هذا الفرمان الى جعفر جاوش من الديوان ليرسل الى الباشا في غرة ذي القعدة 979 (19) .

الوثيقة رقم 10

هـذا مرسومنا (20) الشريف العالي السلطاني وأمرنا المنيف السامي الخاقاني لا زال نافذا بالعون الرباني قد أرسلناه الى الميرى الكبير الاكرمي

---

(18) أ. ر. و. ا ، مهمة دفتري رقم 10 ، ص 180 ـ 181 .

(19) 16 مارس 1572 .

الملاحــــق

الملحق6:[1]

الوثيقــة رقــم 5

هذا مرسومنا (10) الشريف العالي السلطاني وخطابنا المنيف السامي الخاقاني ارسلناه الى العلماء والصلحاء والشرفاء وساير أهالي الجزاير دام توفيقهم يعرف مضمونه الميمون أنه ورد من جانبكم لحضرتي قيد مما صدر من الامراء الكرام امير بولايت (كذا) جزاير سابقا محمد باشا ابن صالح باشا ومن كتخدايه من الحروف (كذا) والظلم وأخفوا في يد رعايانا هناك من المال وغير ذلك جميع ما حصل منهم لأهالي الجزاير ثمة عرض لدى حضرتنا السنية مفصلا وجعل هنا محمد باشا المشار اليه جـزاؤه وأما كتخـدا وما وجد عنده من المـال وغيـره ارسلناه الى الجزاير جملة ليؤخذ بحسب الشرع الشريف منهم حقوق العباد في أيام عدالتنا الفايقة وكذلك ارسلناه في ذلك الشأن حكما اخر موجـه (كذا) الى امير الامراء الكرام كبير الكبراء الفخام ذي القدر والمجد والاحترام المختص بمزيد عناية الملك الاعلى امير الامـراء بولايت (كذا) الجزايـر علي باشـا دام اقباله لان يرد لأهالي الجزاير المزبورون منهم بالظلم والعدوان حتى يأخذ منهم كل ذي حق حقه وأقصى مراد حضرتنا الجليل أن يكون الرعايا والبرايا الذين هم ودايع الله تعالى في أيام دولتنا الفايقة في غايـة الأمن والأمان والرفاهيـة والاطميناني فرحيـن مستريحين في أوطانهـم مواظبين على الادعيـة المقبولـة والاثنية المباركة في أناء الليل وأطراف النهار والله تعالى هو الموفق والمعين بمنه ويمنه ان شاء الله تعالى جرى ذلك وحرر في أواخر جماد الاول 976 (11) .

الوثيقــة رقــم 6

هـذا مرسومنا (12) الشريف العـالي السلطاني وأمرنـا المنيف السامي الخاقاني قد أرسلناه الى مفاخر الاماجد والاعيـان اولاد سعدية وتوابعكـم دام مجدكم ينهي اليكم أنه لما وردت على اعتابنا العلية المكاتيب من أعيـان ولايـة تونس المشتملة على عرض خلوصكم لعتبتنا العالية وشكرانهم عن فخر الأماثل والاقران رمضان زيد مجده الذي أقيم مقام أمير الامراء الكـرام قبـودان على باشا دام اقباله لجزائر الغرب سابقا والتماسهم تقليد الولايـة اليه وتفـويض جميع الامور اليه وتحميلها عليـه . قبلنا التماسهم لكن ما قلدنـاه بل الحقنـا الولاية المذكورة بلواء على باشا المشار اليه وقررنا رمضان المـومى اليـه في وكالته قائما مقام ايالته وفوضنا محافظة تلك البلاد وضبط العساكر وترفيه قلوب العباد وغيرها مما يتعلق بصيانة عرض الدولـة والدين واجراء أحكـام الشرع المبين . فالمأمول منكم ان تكونوا مع الوكيل المشار اليه على امجد اتفاق

(10) أ. د. و. ا . مهمة دفتري رقم 2/7 . ص 907 ـ 908 ، حكم رقم 2483 .

(11) ما بين 20 و 30 اكتوبر 1568 .

واكمل اتحاد لسانكم واحد وجهتكم واحدة مجدا وسعيا فيما يتعلـق بالديـن والدولة وقيام ناموس سلطنتنا المتين مع مزيد الاعتبار وتمـام الجد والاهتمـام بحيث يظهر من جدكم المشهور وسعيكم المشكور اطمينان البـلاد وحراستهـا وحفظ الولاية والعباد . على ان نظرنا الشريف العالي دايما ابدا الى تلك الارض المباركة والى اعاليها وسد امور اسافلها واعاليها وأقصى مراد حضرتنا العلية ان يكون الرعايا والبرايا خصوصا سكان تلك الارض بالطول والعرض ألسنتهم رطبة وأكفهم مبسـوطة مبتهلين بأنواع الادعيـة الصالحة والاثنية المقبولـة والله تعالى هو الموفق والمعين بمنه ويمنه ، 23 شوال 979 (13) .

وقد ارسلت نسخة من هذا الامر الشريف الى كل من :

ـ سيد ابو الطيب بتونس ..... ـ علمـاء وصلحاء والمرابطين والقيـاد والشيوخ بالقيروان وسوسة ومنستير والحمامات وبلد الجريد ونفطة وتـوزر وسوسة والجزائر ـ كذلك الى ولد سفيدليه ؟ ولد بليار ؟ والى كوكو والكتخدا عرب أحمد ، بتاريخ 25 شوال 979 .

الوثيقــة رقــم 7

هذا مرسومنا (14) الشريف العـالي السلطاني وامرنا المنيف الخاقـاني لا زال نافذا بالعون الرباني ومطاعا له بالمـن السبحاني قد أرسلنـاه الى فخـر الاعيان ذخر الاقران قايد جيش الجيوش سليمان زيد مجده ينهي اليه ان أمير الامراء الكرام بولاية جزاير الغرب سابقا قبودان علي باشا دام اقباله قد عرض منك خلوص الطويـة لسدتنا السنية وحسن معـاشرتك مع جيوش الاسـلام ومثابرتك على اتمام الامور المهام وبذل السعي والاجتهاد بخلوص الفواد في امر الجهاد ، وورد أيضا الى عتبتنا العلية من أعيان ولاية تونس المحمية فلا يخفـى عليك ان تلك الديار كساير ممالكنا الجليلة الاعتبار والعسـاكر المنصورة فيها كجندنا الملازمين لسدتنا السنية بل هم أعز عندنا من هؤلاء قدرا وشرفا مـن حيث أنهـم يواظبـون الجهـــاد ويحرسون البـــلاد عـن فســـاد المفسديـــن واضـــرار اعـــداء الديـــن لان أقصـــى مـــراد حضرتنا منها ومن كان فيها من رعاياها وعلمائها وصلحائها وفقرائها وضعفايها ان يكونوا مصونين مأمونين بأنفسهم وأموالهم وأهلهم وعيالهـم ومساكنهـم ومواطنهم من مضرة العدو وفساد المفسدين في أيام عدالتنا مرفهين مطمئنيـن مواظبين على الدعاء بالخير لدولتنا الباهرة ودوام سلطنتنا الزاهرة ولأجل هـذا الحقنا تلك الولاية بلواء المومى اليه وقررنا الوكيل المزبور على وكالته قايما مقام ايالته فعليك أن تتخذ وتتفق معه أكمل الاتفاق وتكون معـه دايمـا على أجمل الوفاق فيما يتعلق بصيانة عرض الدولة والدين واجراء أحكـام الشرع

(13) 12 مـارس 1572 .

---

[1]- المجلّة التّاريخيّة المغاربيّة، عدد 10-11 ،تونس، جانفي 1978، ص 32، ص34.

قائمة المصادر والمراجع

أ – المخطوطات

ابن زكري، أبو العباس أحمد: محصّل المقاصد ممّا به تُختبر العقائد. **موقع مكتبة المصطفى.**

الصباغ، محمّد بن محمّد: بستان الأزهار في مناقب زمزم الأبرار ومعدن الأنوار، الصبّاغ، مخطوط، الجزائر، المكتبة الوطنيّة، رقم1708.

موسى بن عيسى المازوني : مخطوط في صلحاء وادي شلف لموسى بن عيسى المازوني، الخزانة العامّة، الرّباط، ك2343.

مجهول:

1 – غزوات عرّوج وخير الدّين، الجزائر: المكتبة الوطنيّة، رقم2603.

2 – ملحق بغية الرواد، الجزائر: المكتبة الوطنيّة، رقم 2117.

3 – مناقب الملياني، الرّباط، الخزانة العامّة، رقم 1457.

أ – المــصــادر العربيّة

القرآن الكريم برواية حفص.

ابن أبي دينار، محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني: المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ط1، تونس:مطبعة الدّولة التّونسيّة،1286 هـ.

ابن أبي الضياف، أحمد: إتحاف أهل الزّمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تونس:الدّار العربيّة للكتاب، 1999.

أبو داود: سليمان بن الأشعث السجستاني(ت):سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني، سنن أبي داود، تحقيق محمّد محي الدّين عبد الحميد، دمشق:دار الفكر.

ابن الأثير، عزّ الدّين أبي الحسن عليّ بن أبي المكارم الشّيباني(ت630هـ/1232م): الكامل في التّاريخ ، راجعه محمّد يوسف الدقاق، ط4، بيروت:دار الكتب العلميّة،2003 م.

ابن الأحمر، أبو الوليد إسماعيل بن يوسف الغرناطي (807هـ/1405م):

– بيوتات فاس الكبرى، الرّباط: دار المنصورة للطباعة والوراقة، م1972 .

- روضة النّسرين في دولة بني مرين"تاريخ الدّولة الزيانيّة بتلمسان"، تحقيق هاني سلامة، ط 1، بور سعيد:مكتبة الثّقافة الدّينيّة للنّشر والتّوزيع،1421هـ/ 2001.

الأخضري، أبو زيد عبد الرحمن(ق **10هـ/16م**): منظومة الأخضري في التصوّف، مجموعة الرّسائل المنيريّة، ط1، إدارة المطبعة المنيريّة، 1343هـ.

الإدريسي، أبو عبد الله الشّريف محمّ د بن محمّد الحمودي، ت بعد 560هـ/1164م): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، بور سعيد:مكتبة الثّقافة الدينيّة(د.ت).

ابن الأزرق، محمّد بن علي الغرناطي، ت896هـ: بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق:علي سامي النشار، العراق:وزارة الإعلام، ط1.

الإسماعيلي، أبو بكر أحمد بن إبراهيم (**ت 371هـ**): إعتقاد أهل السنّة، تحقيق: جمال عزّون، ط1، الرياض:مكتبة دار ابن حزم، 1420هـ-1999م.

البكري، أبو عبيد الله بن عبد العزيز الأندلسي (**ت 487هـ/1094م**): المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ،دار الكتاب الإسلامي،القاهرة،(د.ت).

البخاري، محمد بن إسماعيل(**ت 256هـ**): الجامع المسند الصّحيح، تحقيق محمّد بن ناصر النّاصر، ط1، دار طوق النّجاة، 1422هـ.

البرزلي، أبو القاسم بن أحمد (**ت841هـ/1437م**): نوازل البرزلي"جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكّام"، تحقيق محمّد الحبيب هيلة، ط 1، بيروت:دار الغرب الاسلامي،2002 م.

البغدادي، أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب(**ت462هـ/1070م**):الفقيه والمتفقّه، تحقيق: عادل بن يوسف العزّازي، ط 1، المملكة العربيّة السعوديّة: ابن الجوزي للنّشر والتّوزيع،1417هـ-1996م.

البوني، أحمد بن قاسم: الدرّة المصونة في علماء وصلحاء بونة، تحقيق سعد بوفلاقة، ط 1، عنّابة:منشورات بونة للبحوث والدّراسات، 2007م.

البيذق، أبو بكر بن علي الصّنهاجي(**ق 6هـ/12م**): أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحّدين، الرّباط:دار المنصور للطّباعة والوراقة،1971م.

التادلي، أبو يعقوب يوسف بن يحيى : التشوّف إلى رجال التصوّف وأخبار أبي العبّاس السّبتي، تحقيق أحمد التّوفيق، ط 2، منشورات كليّة الآداب بالرّباط، مطبعة النّجاح الجديدة، الدّار البيضاء،1997م.

ابن تغري، أبو المحاسن يوسف جمال الدين(ت 874هـ/1470م):المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، تحقيق:محمّد محمّد أمين، القاهرة:مطبعة دار الكتب والوثائق القوميّة- مركز تحقيق التّراث-، 1999م.

التّمبكتي،أحمد بابا السّوداني (ت 1036هـ/1626م):نيل الإبتهاج بتطريز الدّيباج، تحقيق بإشراف عبد الحميد عبد الله الهرامة،ط1، طرابلس:منشورات كليّة الدّعوة الإسلاميّة، 1989م.

التّمكروتي، علي بن محمد(ت 988هـ/1580م): النّفحة المسكيّة في السّفارة التّركيّة، تقديم وتحقيق: عبد اللّطيف الشّاذلي، الرّباط:المطبعة الملكيّة، 1423هـ-2002 م.

التنسي، محمّد بن عبد الله بن عبد الجليل التلمساني (ت 899هـ/1493م) : تاريخ بني زيان ملوك تلمسان" نظم الدرّ والعقيان في بيان شرف بني زيان"، تحقيق محمود بوعياد، مؤسسة الوطنيّة للكتاب.

التّوجيني، عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد: عقد الجمان النفيس في ذكر الأعيان من أشراف غريس، ط1، المسيلة-الجزائر- :دار الخليل القاسمي، 2005 م.

ابن تيمية، أبو العباس تقيّ الدّين أحمد بن عبد الحليم(ت728هـ/1328م):

- مجموع الفتاوى:- ط1، تحقيق ابن القاسم، ط1 ، الرياض، 1381 هـ .

- ط 3، تحقيق:عامر الجزار وأنور الباز، المنصورة- مصر:دار الوفاء للطّباعة والنّشر والتّوزيع، 2005م.

- الفرقان بين أولياء الرّحمن وأولياء الشّيطان، تحقيق: عبد الرّحمن بن عبد الكريم اليحي، دار الفضيلة.

الجامعي: أبو زيد عبد الرحمن : فتح مدينة وهران"شرح الحلفاويّة"، تحقيق مختار حساني، الجزء الأوّل من كتاب "تاريخ تحرير وهران من الاحتلال الاسباني خلال القرن الثّامن عشر الميلادي من خلال مخطوطتين"، مخبر المخطوطات، جامعة الجزائر، 2003م.

قائمة المصادر والمراجع

ابن الحاج، محمد بن محمد المالكي(ت 737هـ/1337م): المدخل، القاهرة:مكتبة دار التّراث، (د.ت).

ابن حجر، شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني (ت852هـ):

- الدّرر الكامنة في أعيان المائة الثّامنة، بيروت:دار الجيل، 1993م.

- إنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق حسن حبشي، القاهرة:لجنة إحياء التّراث الإسلامي، 1969م.

- غبطة النّاظر في ترجمة الشّيخ عبد القادر ضمن السّفينة القادريّة، ط 1، بيروت–لبنان–:دار الكتب العلميّة، 2002م.

أبو الحسن النّباهي الأندلسي: تاريخ قضاة الأندلس، تحقيق: مريم قاسم طويل، ط 1، بيروت:دار الكتب العلميّة، 1415هـ/ 1995م.

الحضيكي، محمّد بن أحمد(ت 1189هـ/1775م): طبقات الحظيكي، تحقيق :أحمد بومزكو، ط1، الدّار البيضاء:مطبعة النّجاح الجديدة، 2006 م.

الحميري: محمّد بن عبد المنعم الصنهاجي(قرن8هـ/14م): الرّوض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عبّاس، ط2، مكتبة لبنان، 1984م.

ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الحضرمي الإشبيلي(ت808هـ/1406م):

- تاريخ ابن خلدون"ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشّأن الأكبر"، تحقيق خليل شحادة وسهيل زكار، بيروت:دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، 2001م.

- رحلة ابن خلدون "التّعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا" تحقيق محمّد بن تاويت الطّنجي، ط1، بيروت:دار الكتب العلميّة، 2004م.

- شفاء السّائل وتهذيب المسائل، تحقيق: محمّد مطيع الحافظ، ط 1، دمشق–لبنان:دار الفكر– دار الفكر المعاصر، 1996م.

ابن خلدون، أبو زكرياء يحي بن محمد الحضرمي الإشبيلي (ت870هـ/1378م): بغية الرّوّاد في ذكر الملوك من بني عبد الواد:

- ج1، تحقيق: عبد الحميد حاجيات، الجزائر: المكتبة الوطنيّة، 1980،

– ج2 تحقيق :بوزياني الدراجي، الجزائر:دار الأمل للدراسات والنّشر والتّوزيع ،2007.

خير الدّين، بن يعقوب بربروس: مذكّرات خير الدّين، ترجمة محمّد درّاج، ط 1، الجزائر:شركة الأصالة للنّشر والتّوزيع،2010م.

خوجة، حمدان بن عثمان(ت 1842م): المرآة، ترجمة وتحقيق محمّد العربي الزبيري، الجزائر:منشورات ANEP، 2005م.

الراشدي، أحمد بن محمد بن سحنون: الثّغر الجماني في ابتسام الثّغر الوهراني، تحقيق وتقديم المهدي البوعبدلي، منشورات وزارة التّعليم الأهلي والشّؤون الدّينيّة، سلسلة التّراث.

ابن رشد الجد، أبو الوليد محمّد بن أحمد بن أحمد القرطبي (ت 520هـ–1126م): فتاوى ابن رشد، تحقيق: المختار بن الطّاهر التّليلي، ط1، بيروت:دار الغرب الإسلامي،1987م.

الرصاع، محمد الأنصاري التلمساني(ت894هـ/1488م):

– الأجوبة التونسيّة على الأسئلة الغرناطيّة (886هـ/1481) طبع بعنوان نصّ جديد حول الأندلس وإفريقية قبيل سقوط غرناطة، تحقيق ودراسة محمّد حسن، ط 1، بيروت: دار المدار الإسلامي،2007م،

– الهداية الشافية الكافية لبيان حقائق الإمام ابن عرفة الوافية، تحقيق: محمود أبو الأجفان والطّاهر المعموري ط1، بيروت:دار الغرب الإسلامي، 1993.

ابن رقيّة ، محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن الجيلاني التلمساني(ق 12هـ/18م): الزّهرة النّائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، نشره سليم بابا عمر، مجلّة تاريخ وحضارة المغرب ،كليّة الآداب، عدد3، يوليو،1967م.

ابن زرفة(ق12هـ/18م): الرّحلة القمريّة، تحقيق مختار حساني، ضمن " تاريخ تحرير وهران من الاحتلال الاسباني خلال القرن الثّامن عشر الميلادي من خلال مخطوطتين"، جامعة الجزائر:مخبر المخطوطات، 2003م.

الزّركشي، محمد بن إبراهيم (ق 9هـ/15م): تاريخ الدّولتين الموحديّة والحفصيّة،تحقيق: محمّد ماضور، ط2، تونس:المكتبة العتيقة، 1966م.

زرّوق، أحمد بن أحمد البرنسي الفاسي (ت899هـ/1494م):

- الإعانة، تحقيق علي خشيم، ليبيا-تونس:الدّار العربيّ للكتاب، 1399 هـ-1979م.

- كنّاشة زرّوق " فوائد من كنّاش العارف بالله الشّيخ أحمد زرّوق "، تحقيق: محمّد إدريس طيّب، ط1، بيروت:دار الكتب العلميّة، 2011.

- عدّة المريد الصّادق، تحقيق: الصّادق بن عبد الرّحمن الغرياني، ط 1، بيروت:دار ابن حزم، 2006.

السّخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن(ت 902هـ/1514م): الضوء اللّامع لأهل القرن التّاسع، ط1، بيروت:دار الجيل ، 1992م.

ابن سعيد ،أبو الحسن علي بن موسى الأندلسي (تت 685هـ/1286م) : الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، ط2، الجزائر: ديوان المطبوعات الجزائريّة، 1982م .

ابن سماك، أبي القاسم محمد بن أبي العلاء الغرناطي العاملي(ق8هـ/14م): الحلل الموشيّة في ذكر الأخبار المرّاكشيّة، تحقيق:عبد القادر بوباية، ط1، بيروت:دار الكتب العلميّة، 2010م.

السّملالي:العبّاس بن إبراهيم : الإعلام بمن حلّ مرّاكش وأغمات من الأعلام، راجعه عبد الوهاب ابن منصور، ط2، الرّباط:المطبعة الملكيّة، 1993م.

السنوسي، محمّد بن يوسف بن عمر بن شعيب (ت 895هـ/1489م): العقيدة الوسطى وشرحها، تحقيق السيّد يوسف أحمد، بيروت:دار الكتب العلميّة، (د.ت).

الذّهبي، شمس الدين محمد بن أحمد(ت 748هـ): سير أعلام النّبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمّد نعيم العرقسوسي، ط1، بيروت: مؤسّسة الرّسالة، 1985م.

الشّفشاوني، محمد بن عسكر الحسيني (ق 10هـ/16م): دوحة النّاشر، تحقيق: محمّد حجي، الرّباط:مطبوعات دار المغرب للتّأليف والتّرجمة والنّشر،1397هـ/ 1977م.

الشّقراني: أحمد بن عبد الرّحمن الرّاشدي(ق 13هـ/19م):القول الأوسط في أخبار بعض من حلّ بالمغرب الأوسط، تحقيق وتقديم ناصر الدّين سعيدوني، ط 1، بيروت:دار الغرب الإسلامي،1991.

شقرون، أبو عبد الله محمد المغراوي الوهراني(ت929هـ/1523م): الجيش والكمين لقتال من كفّر عامّة المسلمين، ط1، طنطا:دار الصّحابة للتّراث، 1992م.

الشماع، محمّد بن أحمد التونسي(**ق 9هـ/15م**): الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدّولة الحفصيّة، تحقيق الطّاهر بن محمّد المعموري، تونس:الدّار العربيّة للكتاب، 1984.

ابن **صعد، محمد بن سعيد الأندلسي التلمساني**(**ت901هـ/1495م**):

- النّجم الثّاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب، محمّد أحمد الدّيباجي، ط 1، بيروت:دار صادر،2011.
- روضة النّسرين في التّعريف بالأشياخ الأربعة المتأخّرين، تحقيق: يحي بوعزيز، ط 1، الجزائر:منشورات ANEP.

ابن طولون، شمس الدين محمد بن علي الصالحي(**ت 953هـ/1546م**): مفاكهة الخلّان في حوادث الزّمان،وضع حواشيه خليل المنصور، ط1، بيروت:دار الكتب العلميّة، 1998م.

الطيّب، بن المختار الغريسي: القول الأعم في بيان أنساب قبائل الحشم، نشره بلهاشمي بن بكارة ضمن كتاب"مجموع النّسب والحسب والفضائل والتّاريخ والأدب، تلمسان:مطبعة ابن خلدون،1961م.

ابن عاصم: **أبو يحي بن محمد الغرناطي**(**ت 857هـ**): جنّة الرّضا في التّسليم لما قدّر الله وقضى، تحقيق:صلاح جرّار، عمان:دار البشير، 1989م.

ابن عبد البر: **أبو عمر يوسف** (**ت 463هـ**/): كتاب جامع بيان العلم وفضله، تحقيق :أبي الأشبال الزهيري، ط1، الذمّام-السعوديّة- :دار ابن الجوزي،1994 م.

عبد الكريم بن المجدوب: تذكرة المحسنين بوفاة الأعيان وحوادث السّنين، تحقيق: محمّد حجي، مطبوع ضمن موسوعة أعلام المغرب.

العدواني، محمد بن محمد: تاريخ العدواني، تحقيق أبو القاسم سعد الله، ط 1، بيروت:دار الغرب الإسلامي، 1996م.

ابن عذارى، المرّاكشي:البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب:

- ج3، تحقيق ، ج.س.كولان وليفي بروفنسال، بيروت:دار الثّقافة، 1929.
- ج4، تحقيق: إحسان عباس، بيروت:دار الثّقافة،1967 م.

قائمة المصادر والمراجع

علي بن ميمون المغربي (ت917 هـ/ 1512م): بيان غربة الإسلام بواسطة صنفين من المتفقّهة والمتفقّرة من أهل مصر والشّام وما يليها من بلاد الأعاجم، تحقيق حكيمة شامي، ط 1، بيروت:دار الكتب العلميّة، 1428 هـ/2007م.

ابن عبد الملك المرّاكشي: أبو عبد الله محمد الأوسي(703هـ/1303م): الذيل والتكملة، السفر الثامن، تحقيق محمّد بن شريفة، مطبوعات أكاديميّة المملكة المغربيّة، 1984م.

العنتري: محمّد الصّالح: تاريخ قسنطينة"فريدة منسيّة في حال دخول التّرك بلد قسنطينة واستيلائهم عليها تاريخ قسنطينة"، تحقيق: يحي بوعزيز، حسين داي-الجزائر-:دار البصائر للنّشر والتّوزيع، 2009.

ابن غازي، أبو عبد الله محمّد بن أحمد: الفهرس، تحقيق: محمّد الزّاهري، تونس:دار بوسلامة للطّباعة والنّشر والتّوزيع.

الغبريني:أبو العباس أحمد بن أحمد البجائي(ت 704هـ/1304م): عنوان الدّراية فيمن عرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية، تحقيق عادل نويهض، ط 2، بيروت: منشورات دار الآفاق الجديدة، 1979م.

الغريسي، محمد بن أحمد: شرح منظومة بغية الطّالب، نشره بلهاشمي بن بكارة ضمن كتاب"مجموع النّسب والحسب والفضائل والتّاريخ والأدب، تلمسان:مطبعة ابن خلدون،1961م.

الغزالي: أبو حامد محمد بن محمد(ت 505هـ/1112م): إحياء علوم الدّين، القاهرة:دار الشّعب، (د.ت).

الفاسي، عبد الكبير:تذكرة المحسنين بوفاة الأعيان وحوادث السّنين، تحقيق محمّد حجي، مطبوع ضمن موسوعة أعلام المغرب .

ابن فضل الله، أحمد بن يحي العمري (ت 749هـ/1348م): مسالك الأبصار وممالك الأمصار، منشورات معهد تاريخ العلوم العربيّة الإسلامية جامعة فرانكفورت :ألمانيا،1988م.

الفكون، عبد الكريم بن محمد التميمي القسنطيني (ت 1073هـ/1662م): منشور الهداية في كشف حال من ادّعى العلم والولاية، تحقيق: أبو القاسم سعد الله، ط 1، بيروت:دار الغرب الإسلامي،1987م.

القادري، محمّد بن الطيّب(1187هـ/1773م): الإكليل والتّاج في تذييل كفاية المحتاج، دراسة وتحقيق مارية دادي، الرّباط: الجمعيّة المغربيّة للتّأليف والتّرجمة والنّشر، 2009م.

ابن القاضي، أبو العباس أحمد بن أبي العافية المكناسي(ت1025هـ/1616م):

- درّة الحجال في غرة أسماء الرّجال، تحقيق محمّد الأحمدي أبو النّور، القاهرة:مكتبة دار الثّرات.

- لقط الفرائد من لفاظة حُقَقِ الفوائد، ضمن "موسوعة أعلام المغرب"، تحقيق: محمّد حجي، ط1،ب يروت:دار الغرب الإسلامي.

القاضي، أبو محمّد عبد الوهّاب علي بن نصر(ت 422هـ/): المعونة على مذهب عالم المدينة، تحقيق: محمد حسن الشافعي، ط1، بيروت:دار الكتب العلميّة، 1998م.

القرافي، بدر الدين محمّد بن يحيى (ت 1008هـ/1599م): توشيح الدّيباج وحلية الابتهاج، تحقيق: علي عمر، ط1، القاهرة:مكتبة الثّقافة الدّينيّة، 2004.

القرافي، شهاب الدّين أحمد بن إدريس (684هـ/1285م): الذخيرة، تحقيق: محمّد حجي، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1994م.

القلصادي، أبو الحسن علي القرشي البسطي(ت 891هـ/1486م): رحلة القلصادي "تمهيد الطّالب ومنتهى الرّاغب إلى أعلى المنازل والمناقب"، تحقيق: محمّد أبو الأجفان، تونس:الشّركة التّونسيّة للتّوزيع، 1978م.

ابن القطان، أبو محمد حسن بن علي بن محمد الكتامي المراكشي(قرن 7هـ/13م):نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزّمان، تحقيق محمود علي مكّي، ط 2 ،بيروت: دار الغرب الإسلامي،1990 م.

ابن قنفذ، أحمد بن الحسن القسنطيني(ت810هـ/1408م) :

- الفارسية في مبادئ الدّولة الحفصيّة، تحقيق:محمّد الشّاذلي النّيفر وعبد المجيد التّركي، تونس:الدّار التونسيّة للنّشر، 1968م.

- أنس الفقير وعزّ الحقير، نشره محمّد الفاسي وأدولف فور، الرّباط:منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، 1965م.

قائمة المصادر والمراجع

ابن قيم الجوزية: شمس الدين أبي عبد الله(ت 751هـ/1350م): إعلام الموقّعين عن ربّ العالمين، تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان، ط 1، المملكة العربيّة السّعوديّة :دار ابن الجوزي للنّشر والتّوزيع، 1423هـ.

الكتاني، محمّد بن جعفر : سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصّلحاء بفاس، تحقيق محمّد حمزة الكتاني، الموسوعة الكتانيّة لتاريخ فاس.

مؤلّف مجهول :زهرة البستان في دولة بني زيان، ط 1، الجزائر:عالم المعرفة للنّشر والتّوزيع، 2011م.

مؤلّف مجهول : نبذة العصر في أخبار ملوك بي نصر"تسليم غرناطة ونزوح الأندلسيّين إلى المغرب"، تحقيق الفريد البستاني، ط1، بور سعيد :مكتبة الثّقافة الدّينيّة، 2002.

مارمول كربخال (ق 10هـ/16م): إفريقيا، ترجمة محمّد حجي وآخرون ، منشورات الجمعيّة المغربيّة للتّأليف والتّرجمة والنّشر المغرب، الرّباط: مكتبة المعارف، 1984م.

المازوني، أبو زكريا يحي المغيلي التلمساني (ت 883هـ/1479م): الدّرر المكنونة في نوازل مازونة، تحقيق حساني مختار، جامعة الجزائر:مخبر المخطوطات، 2004م.

مجير الدّين، الحنبلي أبو اليمن القاضي : الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، طبعة حجريّة، مصر .

المرّاكشي، عبد الواحد(ت 647هـ/1347م): المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمّد سعيد العريان، الجمهوريّة العربيّة المتّحدة: المجلس الأعلى للشّؤون الإسلاميّة.

ابن مرزوق، أبو عبد الله محمد التلمساني الخطيب(ت781هـ/1379م):

– المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق، ماريا خيسوس بيغيرا، الجزائر:الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع،1981م.

– المناقب المرزوقية، تحقيق سلوى الزّاهري، ط 1، منشورات وزارة الأوقاف والشّؤون الدّينيّة – المملكة المغربيّة، الدّار البيضاء: مطبعة النّجاح الجديدة، 2008م.

ابن مريم، محمد بن محمد المليتي التلمساني(ق 11هـ/17م): البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، تحقيق:عبد القادر بوباية، ط 1، الجزائر:مكتبة الرّشاد للطّباعة والنّشر والتّوزيع، 2011.

المزاري، الأغا بن عودة: طلوع سعد السّعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا، تحقيق :يحي بوعزيز، ط1، بيروت:دار الغرب الإسلامي، 1990م.

المسعودي، أبو عبد الله الشيخ محمد الباجي: الخلاصة النقيّة في أمراء إفريقية، ط2، تونس، 1323 هـ.

مسلم، أبو الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت 261هـ):صحيح مسلم، تحقيق محمّد فؤاد عبد الباقي، بيروت:دار إحياء التّراث.

المشرفي، عبد القادر: بهجة النّاظر في أخبار الدّاخلين تحت ولاية الاسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر، تحقيق :محمّد بن عبد الكريم، بيروت: دار الحياة، 1972م.

ابن المفتي: حسين بن رجب شاوش(ت بعد 1166هـ/1753م):تقييدات ابن المفتي في تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها، جمع: فارس كعوان، ط1، العلمة–الجزائر: بيت الحكمة، 2009م.

المقري، أبو العباس أحمد القرشي التلمساني(ت1041هـ/1631م):

- أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق :مصطفى السقّا وآخر ون، القاهرة:مطبعة لجنة التّأليف والطّباعة والنّشر، 1939.
- نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب، تحقيق إحسان عبّاس، بيروت:دار صادر،1408 - 1988م.

المقري، أبو عبد الله محمد بن محمد(ت758هـ):

القواعد، تحقيق: أحمد بن عبد الله بن عبد الحميد، مكة المكرمة، مركز إحياء الثرات الإسلامي.

المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر البعلبكي (ت 845هـ/1442م): درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، تحقيق محمود الجليلي، ط 1، بيروت:دار الغرب الإسلامي، 1423هـ -2002م.

المغيلي، محمد بن عبد الكريم(ت909هـ) :

– أجوبة الأسقيا، تحقيق: عبد القادر زباديّة، الحضارة العربيّة والتّأثير الأوربي في إفريقيا الغربيّة جنوب الصّحراء، دراسات ونصوص، الجزائر:المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، 1989م.

– لبّ اللّباب في ردّ الفكر إلى الصّواب ، تحقيق: أبي بكر ضيف الجزائري، ط 1، بيروت:دار ابن حزم، 2006م.

– تاج الدّين فيما يجب على الملوك والسّلاطين، تحقيق: محمّد خير رمضان يوسف، ط 1، بيروت:دار ابن حزم، 1994م.

الملالي، أبو عبد الله محمّد بن عمر التلمساني (ت بعد 897هـ/1492م): المواهب القدّوسيّة في المناقب السنوسيّة، تحقيق علاّل بوربيق، الجزائر:دار كردادة للنّشر والتّوزيع،2011 م.

الملطي، عبد الباسط بن خليل الشيخي الحنفي (ت 920هـ/1514م): مشاهدات وأخبار عبد الباسط الظّاهري من خلال مخطوطه الرّوض الباسم في حوادث العمر والتّراجم، تحقيق:عمر عبد السّلام تدمري، مجلّة التّاريخ العربي، عدد17، شتاء2011م، ص ص111-146.

المنجور، أحمد بن علي بن عبد الرحمن: فهرسة المنجور، تحقيق :محمّد حجّي، الرّباط:دار الغرب للتّأليف والتّرجمة والنّشر، 1976م.

ابن منظور، محمد بن مكرم الإفريقي (ت 711هـ/1311م): لسان العرب، القاهرة: دار المعارف، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون،1119م.

ابن ميمون، محمد الجزائري: التّحفة المرضيّة في الدّولة البكداشيّة في بلاد الجزائر المحميّة، تقديم وتحقيق محمّد بن عبد الكريم، ط1، الجزائر:الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، 1972م.

النّاصري، أبي راس المعسكري(ت1238هـ/1823م):

– عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، دراسة وتحقيق:محمّد بوركبة، رسالة دكتوراه، وهران:كليّة العلوم الإنسانيّة والحضارة الإسلاميّة، 2007-2008م.

– الحلل السندسيّة في شأن وهران والجزيرة الأندلسيّة، تحقيق سليمة بنعمر، ط 1، ليبيا:دار صنين للطّباعة والنّشر، 1370هـ-2002م.

النّاصري، أبو العباس أحمد بن خالد: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق: أحمد النّاصري وجعفر النّاصري، الدّار البيضاء: دار الكتاب، 1954م.

محمد بن عبد الغني بن نقطة الحنبلي البغدادي (المتوفى: 629هـ): إكمال الإكمال، تحقيق: د. عبد القيوم عبد رب النبي، مكّة :جامعة أم القرى، ط1، 1410هـ.

النّويري، أحمد بن عبد الوهاب بن محمد(ت 733هـ/1333م): نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق عبد المجيد ترحيني، ط1، بيروت: دار الكتب العلميّة، 2004م.

الوادي آشي، أبو جعفر أحمد بن علي (938هـ/1532م): ثبت أبي جعفر أحمد بن علي البلوي الوادي آشي، تحقيق: عبد الله العمراني، منشورات الجمعيّة المغربيّة للتّأليف والتّرجمة والنّشر، 1983م.

الورتيلاني، الحسين بن محمد (ت 1193هـ/1779م): نزهة الأنظار في فضل علم التّاريخ والأخبار، تحقيق :محمّد بن أبي شنب، الجزائر:مطبعة فونتانا، 1908م.

الوزان، الحسن بن محمد المعروف بليون الأفريقي(توفي بعد 957هـ/1559م): وصف إفريقيا، ترجمة محمّد حجي ومحمّد الأخضر، ط2، منشورات الجمعيّة المغربيّة للتّأليف والتّرجمة والنّشر ، بيروت: دار الغرب الاسلامي، 1983م.

الونشريسي، أحمد بن يحيى التلمساني(ت914هـ/1508م):

- المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، طبع بإشراف محمّد حجي، بيروت:دار الغرب الإسلامي، 1981م.

- المنهج الفائق والمنهل الرائق والمعنى الـلائق بآداب الموثّق وأحكام الوثائق، تحقيق: عبدر الرحمن بن حمود الأطرم، الإمارات العربية المتحد: دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء الثرات، ط 1، 2005،

- وفيات الونشريسي، تحقيق :محمّد حجي ، مطبوع ضمن موسوعة أعلام المغرب.

- الولايات ومناصب الحكومة الإسلاميّة والخطط الشرعيّة، نشر وتعليق محمّد الأمين بلغيث، مطبعة لافوميك ، الجزائر، (د.ت).

- أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النّصارى ولم يهاجر"، تحقيق: حسين مؤنس بور سعيد:مكتبة الثّقافة الدّينيّة، 1996م.

قائمة المصادر والمراجع

أبو يعلى، محمد بن الحسين الفراء (ت 458هـ):إبطال التّأويلات لأخبار الصّفات، تحقيق أبي عبد الله محمّد بن حمد الحمود النّجدي، الكويت:دار إيلاف الدوليّة للنّشر والتّوزيع.

ب – المصادر باللّغة الأجنبيّة

-**Diego de Haedo**: Histoire des rois d'Alger ,Traduirt de Grammon, Alger:Grand-Alger-livres, 2004،.

-**Diego de Haedo** :Topographie et histoire générale d'Alger ،"la vie à Alger au seizième siècle,Traduir par Berbrugger et Monnereau , Alger: Grand-Alger -livres , 2004.

- **Mantran Robert**: La description des côtes de l'Algérie dans le Kitab-i Bahriye de Pirî Reis, Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, N°15-16, 1973 ,P163-164.

ت – المراجـــــــــع باللّغة العربيّة:

إبراهيم التهامي : الأشعرية في المغرب "دخولها رجالها تطوّرها ومقف النّاس منها"، ط 1، الجزائر:دار قرطبة للنّشر والتّوزيع، 2006م.

إبراهيم شحاتة حسن : أطوار العلاقات المغربيّة العثمانيّة –قراءة في تاريخ المغرب عبر خمسة قرون(1510-1947م)، الإسكندريّة، منشأة المعارف،1981م.

إبراهيم القادري بوتشيش: المغرب والأندلس في عصر المرابطين" المجتمع-الذهنيّات –الأولياء،" ط1، بيروت:دار الطّليعة للطّباعة والنّشر، 1993.

أحمد بكير محمود: المدرسة الظّاهريّة بالمشرق والمغرب، ط 1، بيروت:دار قتيبة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، 1990.

أحمد توفيق المدني:

– كتاب الجزائر، الجزائر: المكتبة الوطنيّة للكتاب،1984.

– أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792 م، ط 1، الجزائر:الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع.

قائمة المصادر والمراجع

أحمد الحمدي : الفقيه المصلح محمّد بن عبد الكريم المغيلي –الإطار المعرفي والتّعامل مع المكانيّة–، ط1، مكتبة الرّشاد للطّباعة والنّشر والتّوزيع، الجزائر، 2012م.

أسعد حومد : محنة العرب في الأندلس، ط 2، بيروت:المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، 1988، ص348.

إسماعيل باشا البغدادي : هديّة العارفين أسماء المؤلّفين وآثار المصنّفين من كشف الظّنون، القاهرة:دار الفكر، 1982م.

بوزياني الدّراجي : عبد الرّحمن الأخضري العالم الصّوفي الذي تفوّق في عصره،ط 2،الجزائر: BLED EDITION،2009م.

بوعمود أحمد : ملامح الفكر السياسي عند أحمد بن يحيى الونشريسي، رسالة ماجستير، جامعة وهران: قسم التّاريخ، 2009-2010م.

جمال الدّين بوقلي حسن : ابن يوسف السنوسي في الذّاكرة الشعبيّة وفي الواقع، الجزائر:منشورات ANEP، 2003م.

جمال قنان : نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث 1500-1830 ،الجزائر: المؤسّسة الجزائريّة للطّباعة ،1987م.

جون.ب.وولف: الجزائر وأوربا 1500-1830، ترجمة وتعليق أبو القاسم سعد الله، ط 1 ، الجزائر:عالم المعرفة، 2009م.

حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين "صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى"، القاهرة:دار الفكر العربي، (د.ت).

حسين مؤنس : سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيّامهم في الأندلس، ط 1، بور سعيد:مكتبة الثّقافة الدّينيّة للنّشر والتّوزيع،1420 هـ/2000م

خالد كبير علال : الأزمة العقيديّة بين الأشاعرة وأهل الحديث خلال القرنين (5-6هـ)، ط1، البليدة:دار الإمام مالك، 2005م.

خليل إينالجيك: تاريخ الدّولة العثمانيّة من النّشوء إلى الانحدار، ترجمة محمّد الأرناؤوط، ط 1، بيروت:دار المدار الإسلامي، 2002 م.

قائمة المصادر والمراجع

خير الدّين الزّركلي: الأعلام، بيروت:دار العلم للملايين، ط15، ماي 2002م.

الجمعيّة المغربيّة للبحث التّاريخي : تاريخ وأدب النّوازل"، ط 1، الرّباط: منشورات كليّة الآداب والعلوم الإنسانية بالرّباط، 1995م.

رابح بونار: المغرب العربي تاريخه وثقافته، ط2، الجزائر:الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع.

رشيد بورويبة وآخرون : الجزائر في التّاريخ –العهد الإسلامي من الفتح إلى بداية الحكم العثماني–، الجزائر:المؤسّسة الوطنيّة للكتاب،1984م.

روبار برنشفيك: تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ترجمة حمّادي السّاحلي، ط 1، بيروت:دار الغرب الإسلامي،1988م.

سبنسر ترمنجهام : الفرق الصّوفيّة في الإسلام، ترجمة وتحقيق وتعليق: عبد القادر البحراوي، ط1، دار النّهضة العربيّة للطّباعة والنّشر،1997 م.

سعيد بن مسفر : الشّيخ عبد القادر الجيلاني وآراؤه الاعتقاديّة والصّوفيّة، ط 1، الرياض:مكتبة الملك فهد الوطنيّة،1418هـ/1997م.

شارل أندري جوليان : تاريخ إفريقيا الشّمالية، تعريب محمّد مزّالي والبشير بن سلامة، ط 2، تونس:الدّار التّونسيّة للنّشر، 1983م.

صابر طعيمة: الصوفيّة معتقدا ومسلكا، ط2، الرياض:دار عالم الكتب للنّشر والتّوزيع، 1985 م.

صالح عبّاد: الجزائر خلال العهد التّركي 1514–1830م، ط1، الجزائر:دار هومة، 2007.

الطاهر بونابي : التصوف في الجزائر خلال القرنين 6و7الهجريين /12–13 الميلاديين، عين مليلة: دار الهدى، الجزائر، 2004.

عادل نويهض : معجم أعلام الجزائر، ط 2، بيروت:مؤسّسة نويهض للطّباعة والتّرجمة والنّشر،1980م.

عبد الحليم محمود: أبو مدين الغوث، القاهرة:دار المعارف، 1985م

عبد الحميد بن أبي زيان بن آشنهو: دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر، الجزائر ، 1982م.

عبد الحميد بوسماحة : رحلة بني هلال إلى الغرب وخصائصها التّاريخيّة الاجتماعيّة والاقتصاديّة، الجزائر:دار السّيل،2008م.

عبد الحميد يونس : الهلاليّة في التّاريخ والأدب الشّعبي، موقع Kotobarabia.com . www.

عبد الرّحمن بن عبد الله الشّعلان : أصول فقه الإمام مالك – أدلّته النّقليّة–، ط 1، جامعة الإمام محمّد بن سعود، 2002م.

عبد الرّحمن الجيلالي:

- تاريخ المدن الثّلاث"الجزائر–المديّة–مليانة"، ط 1، الجزائر:دار الأمّة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، 2007م.

- عبد الرّحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، الجزائر :دار الأمّة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، 2010م.

عبد الرّحمن علي الحجي : التّاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتّى سقوط غرناطة(92-897هـ)، ط2، بيروت–دمشق:دار القلم، 1981 م.

عبد الله عنان: دولة الإسلام في لأندلس، ط2، القاهرة:مكتبة الخانجي، 1990م.

عبد السلام غرميني: المدارس الصوفيّة المغربيّة والأندلسيّة في القرن السّادس هجري، ط 1، الدّار البيضاء–المغرب–:دار الرّشيد الحديثة، 2000م.

عبد الصّمد كنّون : مورد الشّارعين في قراءة المرشد المعين، ط 1، مصر:مطبعة الكمال، 1347هـ.

عبد العزيز صغير دخان : محمّد بن يوسف السنوسي وجهوده في خدمة الحديث، ط 1، الجزائر:دار كردادة للنّشر والتّوزيع.

عبد العزيز فيلالي : مدينة قسنطينة في العصر الوسيط، دراسة سياسيّة عمرانيّة ثقافيّة، قسنطينة:طبع دار البعث.

عبد القادر زباديّة: الحضارة العربيّة والتّأثير الأوربي في إفريقيا الغربيّة جنوب الصّحراء، دراسات ونصوص، الجزائر:المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، 1989م.

قائمة المصادر والمراجع

عبد القادر فكاير : الغزو الإسباني للسّواحل الجزائريّة وآثاره (910-1206هـ/1505-1792م)، الجزائر:دار هومة، 2012 م.

عبد الكريم غلاّب: قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي، ط 1، بيروت:دار الغرب الإسلامي، 2005م.

عبد المنعم القاسمي : أعلام التصوّف في الجزائر، ط 1، الميسلة-الجزائر-:دار الخليل القاسمي،1427 هـ.

عبد الهادي البياض:الكوارث الطّبيعيّة وأثرها في سلوك وذهنيّات الإنسان في المغرب والأندلس (ق6-8هـ/12-14م)، ط1، بيروت-لبنان-:دار الطّليعة،2008م.

عزيز سامح التر :الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشماليّة، ترجمة محمود علي عامر، ط 1، بيروت:دار النّهضة العربيّة للطّباعة والنّشر، 1989م.

علي عبد الفتّاح المغربي : الفرق الكلاميّة الإسلامي- مدخل ودراسة -، ط 2، القاهرة:مكتبة وهبة، القاهرة، 1995م.

علي أومليل: السّلطة الثّقافيّة والسّلطة السياسيّة، ط 2، بيروت:مركز دراسات الوحدة العربيّة، 1998م.

عمّار هلال: العلماء الجزائريّون في البلدان العربيّة الإسلاميّة فيما بين القرنين التّاسع والعشرين الميلاديين، (3/14هـ)، ط1، الجزائر:ديوان المطبوعات الجامعيّة، 1995م.

عمر بنميرة : الثّقافة والفقه والجتمع نماذج من المغرب الوسيط، ط، الرّباط: جذور للنّشر، 2006م.

عمر رضا كحالة: معجم المؤلّفين، ط1، بيروت:مؤسّسة الرّسالة، 1993م.

عمورة عمار: موجز في تاريخ الجزائر، ط1، الجزائر:دار ريحانة، 2002م.

فهمي خشيم: أحمد زروق والزرّوقيّة، ط3، بيروت:دار المدار الاسلامي، 2002 م.

أبو القاسم سعد الله:

- أبحاث وآراء، ط3، عالم المعرفة، 2009م.
- بحوث في التّاريخ العربي الإسلامي، بيروت:دار الغرب الإسلامي، 2003م.

- تاريخ الجزائر الثّقافي، ط1، بيروت:دار الغرب الإسلامي، 1998م.

- شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعيّة السلفيّة،ط 1 بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1986م.

كمال السيّد أبو مصطفى : جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدّينيّة والعلميّة في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للونشريسي، الإسكندرية، 1996م.

لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامي، نقله إلى العربيّة عجّاج نويهض، ط 2، لبنان:دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، 1933م.

مبارك الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، بيروت:دار الغرب الاسلامي.

محمّد أبو زهرة: محاضرات في تاريخ المذاهب الفقهيّة، مصر:مطبعة المدني، (د.ت).

محمّد أبو القاسم الحفناوي : تعريف الخلف برجال السّلف، دراسة وتحقيق خير الدّين شترة، ط1، الجزائر:دار كردادة للنّشر والتّوزيع،ط1، 2012م.

محمّد بن محمّد مخلوف : شجرة النّور الزكيّة في طبقات المالكيّة، القاهرة:المطبعة السلفيّة- ومكتبتها، 1349هـ.

محمّد حاج صادق: مليانة ووليّها سيدي أحمد بن يوسف، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، 1964م.

محمّد حجي : نظرات في النّوازل الفقهية، ط 1، الرّباط:منشورات الجمعيّة المغربيّة للتّأليف والتّرجمة والنّشر،1420 -1999م.

محمّد حسن : المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي، ط 1 ،تونس:جامعة تونس، 1999م.

محمّد حلمي عبد الوهّاب : ولاة وأولياء "السّلطة والمتصوّفة في إسلام العصر الوسيط"، ط 1، بيروت:الشّركة العربيّة للأبحاث والنّشر، 2009م.

محمّد جلال شرف : دراسات في التصوّف الإسلامي- شخصيّات ومذاهب- ، بيروت:دار النّهضة العربيّة 1984م.

مصطفى أبو ضيف أحمد عمر : القبائل العربيّة في المغرب في عصري الموحّدين وبني مرين، الجزائر:ديوان المطبوعات الجامعيّة، 1982م.

محمّد الطمّار : تلمسان عبر العصور (دورها في سياسة وحضارة الجزائر) ، الجزائر:ديوان المطبوعات الجامعيّة ، ط1، 2003م.

محمّد العروسي المطوي : السّلطنة الحفصيّة تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1986م.

محمّد فريد بك : تاريخ الدّولة العليّة العثمانيّة، تحقيق إحسان حقي، ط 1، بيروت:دار النّفائس، 1981م.

محمّد القبلي : مراجعات حول المجتمع والثقافة بالعصر الوسيط بالمغرب، ط 1، الدّار البيضاء:دار توبقال للنّشر، 1987م.

محمّد محمّد سعد: دليل السّالك لمذهب الإمام مالك، مصر:دار النّدوة، (د.ت).

محمّد المختار محمّد المامي: المذهب المالكي- مدارسه ومؤلّفاتهخصائصه وسماته- ؛، ط 1، العين-الإمارات العربيّة المتّحدة-:مركز زايد للتّراث والتّاريخ، 2002م.

محمّد المنوني: حضارة الموحّدين، ط1، الدّار البيضاء: دار توبقال للنّشر، 1989م.

محمّد الهادي الشّريف: ما يجب أن تعرف عن تاريخ تونس، تعريب:محمّد الشاوش-محمّد عجينة، ط3، تونس:دار سرّاس للنّشر، 1993م.

محمّد نجيب بوطالب : سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي، ط 1، بيروت:مركز دراسات الوحدة العربيّة.

محمود بو عياد: جوانب من الحياة في المغرب الأوسط، في القرن التّاسع الهجري (9هـ/15م)، الجزائر:الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، 1982م.

مختار حساني: تاريخ الدّولة الزيانيّة، منشورات الحضارة، الجزائر:بئر توتة، 2009م.

مختار حساني وآخرون : التّاريخ العسكري للجزائر من الفتح الإسلامي إلى القرن 16، الجزائر:منشورات المركز الوطني للدّراسات والبحث في الحركة الوطنيّة وثورة أوّل نوفمبر 1954، طبعة خاصّة بوزارة المجاهدين ،2007م.

مكتب الدّراسات العربيّة وتحقيق الثّرات لصاحبه أبي عيسى محمّد بن حسين المصري : الموسوعة المفضّلة في الفرق والأديان والملل والمذاهب والحركات القديمة والمعاصرة،، ط 1، القاهرة: دار ابن الجوزي، 2011م.

ناصر الدّين سعيدوني والمهدي بوعبدلي : الجزائر في التّاريخ العهد العثماني، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب.

ناصر الدّين سعيدوني:

- دراسات أندلسيّة-مظاهر التّأثير الإيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر-، ط 1، بيروت:دار الغرب الإسلامي، 2003م.
- ورقات جزائريّة-دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني-، ط 1، بيروت:دار الغرب الإسلامي، 2000م.
- من التّراث التّاريخي والجغرافي للمغرب الإسلامي —تراجم مؤرّخين ورحّالة وجغرافيّين-، ط1، بيروت:دار الغرب الإسلامي ، 1999م.

نللي سلامة : الولاية والمجتمع، ط2، بيروت-لبنان-:دار الفرابي، 2006م.

وليم سبنسر : الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب عبد القادر زباديّة، ط 1، الجزائر:المكتبة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، 1980م.

يحي بوعزيز:

- أعلام الفكر والثّقافة في الجزائر المحروسة، ط 1، بيروت:دار الغرب الإسلامي، 1995م.
- علاقات الجزائر الخارجيّة مع دول وممالك أوربا- 1500-1830 م، ط 1، الجزائر:ديوان المطبوعات الجامعيّة.

يحي هويدي :تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الإفريقية، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1965م.

يلماز أوزتونا : تاريخ الدّولة العثمانيّة، ترجمة عدنان محمّد سلمان، استنبول:منشورات مؤسّسة فيصل للتّمويل، 1988م.

يوسف بنو جيت: قلعة بني عبّاس إبّان القرن السّادس عشر للميلاد، ترجمة سامية سعيد عمّار، الجزائر:دار دحلب للنّشر،2009 م.

ث – المراجع باللّغة الأجنبيّة

- **Mercier** :Histoire de l'Afrique septentrionale(berèrie)depuis les temps les plus reculés jusqu'a la conquête Française ,paris: Ernest Leroux èditeur, 1868,
- **J.-J.-L. Bargès**: Complément de l'histoire des Beni-Zeiyan rois deTlemcen : ouvrage du cheikh Mohammed Abd'al-Djalil al-Tenessy, paris: Ernest leroux , Libraire-éditeur, 1887.
- **Jacques Berque**:L'Intérieur Du Maghreb-XV-XIX siécle، paris: Gallimard، 1978.
- **Grammont**: Histoire d'Alger sous la domination Turque(1515-1830), Ernest leroux, 1887.
- **L. Didier** :Histoire d'Oran : période de 1501 à 1550، oran : imprimerie Jeanne d'aro, 1927.

ج – الرّسائل الجامعيّة

آمال لدرع : الحركة الصوفيّة في بلاد المغرب الأوسط خلال العصر الزياني 633- 962هـ /1236- 1555 م، ماجستير، 2005-2006م.

بريكة مسعود: النّخبة والسّلطة في بجاية الحفصيّة، رسالة ماجستير، قسنطينة: جامعة الأمير عبد القادر، 2008-2009م.

بوداود عبيد: ظاهرة التصوّف في المغرب الأوسط ما بين القرنين السّابع والتّاسع الهجريين، 13-15م، ماجستير،جامعة وهران:كليّة العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، السّنة الجامعيّة، 1999-2000م.

بوشنافي محمّد: القضاء والقضاة في الجزائر خلال العهد العثماني(10-13ه/16-19م)، أطروحة دكتوراه، جامعة وهران: قسم التّاريخ وعلوم الآثار، 2007-2008م.

بوطبّة لخضر: أسرة أولاد مقران خلال العهد العثماني (1518-1837)، رسالة ماجستير، قسم التّاريخ، قسنطينة: جامعة الأمير عبد القادر،2005-2006م.

بوعنيني سهام: أبو عبد الله التنسّي وكتابه-نظم الدرّ والعقيان في بيان شرف بني زيان وذكر ملوكهم الأعيان ومن ملك من أسلافهم فيما مضى من الزّمان، رسالة ماجستير، جامعة وهران:قسم الحضارة الإسلاميّة، 2008-2009م.

بومدين أولاجي : قراءة تحليليّة في الواقع الاجتماعي للطّرق الصوفيّة ودورها في حركة التّواصل(الجزائر العثمانيّة) ، رسالة ماستر ،جامعة سيدي بلعبّاس:كليّة الآداب والعلوم الإنسانية،2011 -2012م.

حاج أحمد نور الدّين : المنهج الدّعوي للإمام المغيلي من خلال الرّسائل التي بعثها للملوك والأمراء والعلماء، ماجستير، جامعة الحاج لخضر- باتنة- :كليّة العلوم الإجتماعيّة والعلوم الإسلاميّة، 2010-2011م.

جميلة معاشي : الأسر المحليّة الحاكمة في بايلك الشّرق الجزائري من القرن 10ه-16م إلى 13ه19م، دراسة اجتماعيّة –سياسيّة، ماجستير، قسنطينة: جامعة الأمير عبد القادر، قسم التّاريخ 1990-1991م.

رفيق خليفي : البيوتات الأندلسيّة في المغرب الأوسط من نهاية القرن 3ه إلى نهاية ق 9ه ،2007- 2008م، ماجستير، قسنطينة: جامعة الأمير عبد القادر.

سليمان ولد خسال : جهود فقهاء المغرب العربي في بناء النظام السياسي الإسلامي بين سنة(633 - 922 ه)، أطروحة دكتوراه، جامعة الجزائر، كلية العلوم الإسلامية.

قائمة المصادر والمراجع

سيد أحمد بلبوري : الاحتلال الاسباني الأوّل لوهران وانعكاساته الاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة، رسالة ماجستير، جامعة وهران، 1985م.

صالح حيمر: التّحالف الأوربي ضدّ الجزائر عام 1541م وتأثيراته الإقليميّة والدوليّة، 2006-2007، رسالة ماجستير، باتنة: جامعة الحاج لخضر، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة.

عبد الجليل قربان : السياسية التّعليميّة للدّولة الزيانيّة (633-962هـ/1236-1554 م)، ماجستير، جامعة منتوري، قسنطينة، 2003-2004م.

عبد العزيز الفلالي: تلمسان في العهد الزياني – دراسة سياسية ، عمرانيّة ، اجتماعيّة، ثقافيّة – ، أطروحة دكتوراه، قسنطينة: جامعة الأمير عبد القادر، 1995-1996م.

عبد المجيد قدّور : هجرة الأندلسيين إلى المغرب الأوسط (الجزائر) ونتائجها الحضاريةخلال القرنين السّادس عشر والسّابع عشر الميلاديين ، شهادة ماجستير، قسنطينة: جامعة الأمير عبد القادر.

عبيد بوداود : انتشار ظاهرة الأوقاف في المغرب الإسلامي ما بين القرنين السّابع والتّاسع الهجريّين (ق13-15م) ودورها في الحياة الاقتصاديّ هـ و الاجتماعية، أطروحة دكتوراه في التّاريخ الوسيط، جامعة وهران: كليّة العلوم الإنسانية والحضارة الإسلاميّة،2005-2006م.

علال بن عمر : الحركة العلميّة وبيوتات العلماء في مدينة قسنطينة من القرن 7هـ-10هـ، ماجستير، قسنطينة: جامعة الأمير عبد القادر، 2010-2011م.

عمر بلبشير:

- مرجعيّة الإحياء وإشكاليّة الحكم في تاريخ المغرب الإسلامي من بداية ق 6هـ إلى نهاية ق8هـ/12-14م، رسالة ماجستير، جامعة وهران: كليّة العلوم الإنسانيّة والحضارة الإسلاميّة ،قسم التّاريخ والآثار،2001-2002م.
- جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكريّة في المغربين الأوسط والأقصى من القرن 6 إلى 9هـ/12-15م من خلال كتاب المعيار للونشريسي، أطروحة دكتوراه، جامعة وهران: كليّة العلوم الإنسانيّة والحضارة الإسلاميّة، قسم التّاريخ والآثار،2009 -2010م.

فاطمة الزّهرة جدو : السّلطة والمتصوّفة في الأندلس عهد المرابطين والموحّدين (479-635هـ/1086-1238م)، رسالة ماجستير، قسنطينة: جامعة منتوري،2007 -2008 م.

كليل صالح: سياسة خير الدّين في مواجهة المشروع الاسباني لاحتلال المغرب الأوسط، رسالة ماجستير، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، جامعة العقيد الحاج لخضر، باتنة، 2006 -2007م .

محمّد بوشقيف : العلوم الدينيّة في بلاد المغرب الأوسط خلال القرن التّاسع الهجري الخامس عشر ميلادي، رسالة ماجستير، جامعة تلمسان: كليّة الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعيّة، 2003-2004م.

مزدور سمية: المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط، 588-927هـ/1192-1520م ، ماجستير، جامعة منتوري، قسنطينة، 2008-2009 م.

نجوى طوبال: طائفة اليهود بمجتمع مدينة الجزائر (1700م-1830م) من خلال سجلات المحاكم الشرعيّة، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر: كليّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعية، 2004-2005م.

ياسين شبايبي : الفكر السياسي عند الشّيخ المغيلي ودعوته الإصلاحيّة بتوات والسّودان الغربي(870-909هـ/1465-1503م)، رسالة ماجستير، جامعة وهران: كليّة العلوم الإنسانيّة والحضارة الإسلاميّة، 2007م.

ح - المقالات

أحمد توفيق المدني: تلمسان بين الزيانيين والعثمانيّين، 1530-1554م، الأصالة، الجزائر، ع: 26، السنة 4، جويلية –أوت، 1975م.

بوداود عبيد:

- تقديم مخطوط كتاب في صلحاء وادي شلف لموسى بن عيسى المازوني، المجلّة الجزائريّة للمخطوطات ،مخبر مخطوطات الحضارة الاسلاميّة ،جامعة وهران ، ع:5، 2008م.

- قراءة في العلاقة بين صوفيّة وفقهاء المغرب الأوسط ما بين القرنين السّابع والتّاسع الهجريين (ق13-15م)، عصور الجديدة، وهران: مختبرالبحث التّاريخي، ع1، سنة2011 م، ص57-62.

- الاعتداء على الأحباس نماذج من تاريخ المغرب الإسلامي، مجلّة الآداب والعلوم الإنسانية ، قسنطينة: جامعة الأمير عبد القادر ، عدد11 ، 2010م

حمدادو بن عمر: محمّد أبو عبد الله المغوفل (828-923هـ) دفين وادي شلف والتّعريف بتأليفه فلك الكواكب وسلّم الرّقيا إلى المراتب، المجلّة الجزائريّة للمخطوطات ، جامعة وهران: مخبر مخطوطات الحضارة الإسلاميّة في شمال إفريقيا، ع:5 ، 2008م.

حسّوني أبو بكر: رسالة الإمام أبي العبّاس أحمد بن أبي جمعة المغراوي مفتي الديار الوهرانيّة في القرن العاشر لأهل الأندلس زمان المحن دراسة وتعليق، المجلّة الجزائريّة للمخطوطات، جامعة وهران: مخبر مخطوطات الحضارة الإسلاميّة، عدد7، 2010.

خالد بلعربي: الصّراع العسكري الزياني المريني- أسبابه ونتائجه- مجلّة الحضارة الإسلامية، جامعة وهران:دار الغرب للنّشر والتّوزيع، ع:14، شعبان ،2010/1431م.

رابح بونار: مدينة الجزائر تاريخها وحياتها الثّقافيّة ، الأصالة، ع:8، السّنة الثّانية ، ماي جوان 1972.

سناء عطابي: واقع اليهود في المغرب الأوسط من خلال النّصوص الفقهيّة المالكيّة، مجلّة الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر، ع:12، 2011م.

سلطاني الجيلالي: مشاهير فقهاء مشذالة تراجمهم ومكانتهم العلميّة، وهران: مجلّة الحضارة الإسلامية، ع:13، 9ديسمبر2007م.

الطّاهر بونابي:

- طريقة أحمد بن يوسف الملياني الرّاشدي بين ثنائيّة التصوّف العرفاني السنّي والطّريقة الصوفيّة الإصلاحيّة ق9-10هـ،/15-16م، المواقف، مجلّة الدّراسات والبحوث في المجتمع والتّاريخ، العدد 6، جامعة معسكر، 06 ديسمبر 2011.

- ظاهرة الاندماج الهلالي في المنظومة الصوفيّة بالمغرب الأوسط خلال القرن 8هـ/14م ، قسنطينة: مجلّة الآداب والعلوم الانسانيّة، جامعة الأمير عبد القادر، ع:12، 2011.

عبد القادر بوباية:

- إسهام العلماء الأندلسيين في الحركة العلميّة بتلمسان خلال القرن السّابع الهجري، مجلّة عصور الجديدة ، مختبر البحث التّاريخي، جامعة وهران ، ع: 2، 2011م، عدد خاص بتلمسان عاصمة الثّقافة الاسلاميّة.

- الشّيخ محمّد بن عمر الهواري من خلال كتاب روضة النّسرين لابن صعد التّلمسانى، جامعة وهران: مجلّة الحضارة الإسلامية، ع:14، شعبان ،2010/1431م.

عبد القادر الخلادي: أبو مدين الغوث دفين تلمسان(520 هـ -594هـ)، الأصالة، ع:26، السنة 4، جويلية - أوت،1975 ، عدد خاص عن تلمسان وحاضرتها.

عبد الرزّاق قسّوم: عبد الرّحمن الثّعالبي والتصوّف، مجلّة الثّقافة ، السّنة 2، ع: 8-9 ماي - جويلية، 1972م.

علي سامي النشّار: أبو الحسن الششتري الصّوفي الأندلسي الزجّال وأثره في العالم الإسلامي، مجلّة المعهد المصري للدّراسات الإسلاميّة، ع:1 ، سنة1 ،1953، مدريد.

عبد القادر قوبع: دور ابن قنفذ القسنطيني في تأريخ الحياة السياسيّة والثّقافيّة والدّينيّة للجزائر الحفصيّة، مجلّة عصور الجديدة، ع:3-4، السنة 2011-2012م.

عبد الرّحمن الجيلالي: الشّهيد عبد الواحد الونشريسي 955هـ-1549م، مجلّة الأصالة، ع: 13، 1973.

عبد الجليل التميمي:

- الخلفيّة الدّينيّة للصّراع الاسباني العثماني على الأيالات المغربيّة في القرن السّادس عشر، تونس، المجلّة التّاريخيّة المغربيّة، ع: 10، جانفي 1978م.

- الدّولة العثمانيّة وقضيّة الموريسكيّين، تونس: المجلّة التّاريخيّة المغاربيّة، تونس، ع: 23-24، نوفمبر،1981م.

- الخلفيّة الدّينيّة للصّراع الاسباني العثماني على الايالات المغربيّة في القرن السّادس عشر، المجلّة التّاريخيّة المغربيّة، تونس، ع: 10، جانفي 1978م.

- أوّل رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السّلطان سليم الأوّل سنة 1519 م، المجلّة التّاريخيّة المغاربيّة، تونس، ع:6، جويلية، 1976م.

- رسائل موجّهة من الباب العالي إلى القيادات بالايالات المغربيّة، الوثيقة رقم 5، المجلّة التّاريخيّة المغاربيّة، تونس، ع: 10-11، جانفي 1978.

عبد الحميد حاجيات: عنّابة في عهد الحفصيّين، مجلّة الأصالة، السّنة الخامسة، ع: 34-35، جمادى الثّانية –رجب، 1396 هـ.

بن عتو بلبروات: سلاطين مملكة تلمسان الزيانيّة في مواجهة الإخوة بربروس 1517-1546م، وهران: عصور الجديدة، ع:2 ،2011م.

محمّد بوشقيف: محمّد بن عبد الله التنسي الفقيه التّاريخي، مجلّة عصور الجديدة ، جامعة وهران ، الجزائر ، ع:3-4، السنة2011-2012 م.

محمّد بوشنافي: موقف علماء تلمسان من التّواجد العثماني في الجزائر (ق10-13هـ)، مجلّة عصور الجديدة، ع: 2.

محمّد بن معمّر: علاقة بني جلّاب سلاطين تقرت بالسّلطة العثمانيّة في الجزائر، جامعة وهران:دار الغرب للنّشر والتّوزيع، مجلّة الحضارة الإسلامية، ع:12، جوان 2005م.

محمود بوعياد: محمّد التنسّي مؤرّخ بني زيان، مجلّة الثّقافة، السّنة الثّامنة، ع: 44 ، أبريل – مايو 1978م.

محمّد دادة: تلمسان في دوامة الصّراع الثّلاثي بين الأسبان والعثمانيين والمغاربة في القرن 16م، مجلّة عصور الجديدة، ع:2، سنة 2011.

المهدي بوعبدلّي:

- الرّباط والفداء في وهران والقبائل، الأصالة ، ع: 13، السنة الثّالثة، مارس- أفريل، 1973م.

- عبد الرّحمن الأخضري وأطوار السلفيّة في الجزائر ، مجلّة الأصالة ،ع:53،السّنة السّابعة ،1978 جانفي.

- الجوانب المجهولة من ترجمة حياة الإمام أحمد بن يحي الونشريسي، مجلّة الأصالة ، وزارة الشّؤون الدّينيّ، ع: 13 ،1973.

- أضواء على تاريخ الجزائر في العهد التّركي من خلال مخطوط الثّغر الجماني في ابتسام الثّغر الوهراني، الأصالة، ع: 8، سنة 2، ماي-جوان، 1972.

مولاي بلحميسي: نهاية دولة بني زيان، الأصالة، ع:26، السنة الرّابعة، 1975، جويلية – أوت، عدد خاص عن تاريخ تلمسان وحاضرتها.

– المقالات باللّغة الأجنبية

C.Fèraud, Conquète de Bougie par les Espagnols, R. A, N°12 , 1868 ,OPU ، Alger ،1986.

Diego Suarez De Montanes Traduction، A.Berbrugger, Mers el –Kebir, R. A, T9,1865 .

-Braudel, Les Espagnols et l'Afrique du nord de 1492 à1577, R.A, N°69, 1928.

-Chare Fèraud, Les lettres Arabes de l'èpoque del'occupation Espagnole en Algèrie, R.A, N°17, 1873.

- E. Paimaudaie، Documents inédits sur l'histoire de l'occupation Espagnole En Afrique (1506-1574), R.A

الملخص

هذا البحثُ يُعالجُ قضيّة الفقهاء والحياة السياسيّة في المغرب الأوسط خلال القرنين التّاسع والعاشر الهجريّين(9-10هـ/15-16م.

كما يُحاول البحثُ الكشفَ عن كيفيّة مشاركة فقهاء المغرب الأوسط في القرنين التّاسع والعاشر الهجريّين في الحياة السياسيّة؟ و ما هي أهمّ مواقفهم, وأبرز ردود أفعالهم؟ وهل كانت هذه الرّدود والمواقف مشرّفة و متوافقة مع المطلوب؟.

و تتطرّق هذه الرّسالة إلى مدى تأثّر فقهاء المغرب الأوسط بالمؤثّرات السياسيّة والدّينيّة والاجتماعيّة, وبيّن أنواع مشاركة الفقهاء في في الحياة السياسيّة, حيثُ أنّ بعض الفقهاء قد اضطلع بمسؤوليّات هامّة, ومنهم من أدلى برأيه وتعرّض للنّوازل السياسية, مُحاولا تبيين موقف الشّريعة منها, وعَمِل على إصلاح الواقع. وصنف آخر فضّل حياة العزلة, فقام باعتزال السّلاطين وحتّى المجتمع, وصنفٌ رأى ضرورة الهجرة خارج بلاد المغرب الأوسط لاعتبارات شرعيّة, أو لأمور شخصيّة.

وأشار البحثُ إلى الأدوار الإيجابيّة التي أدّاها بعض الفقهاء, والتي تمثّلت في تشجيع شيوخ القبائل على التّوبة وترك الظّلم, و تشكيل بعض الفقهاء لمراكز دفاعيّة, وتولّي زمام الأمور, والإفتاء بوجوب الجهاد, والدّعوة إلى تحرير السّواحل والمدن المستعمرة. كما تناولت هذه الرّسالة قضيّة مساندة طائفة من الفقهاء للعثمانيين, ومظاهر هذه المساندة. وكيف قابل العثمانيّون هذه المساندة.

وأمّا الفقهاء الذين وقفوا ضدّ العثمانيّين, فيتناولُ البحثُ ردّة فعل العثمانيّين تُجاههم.

الكلمات المفتاحيّة:

الفقهاء؛ الحياة السياسية؛ المغرب الأوسط؛ العلماء؛ الجزائر؛ القرن 9-10هـ؛ العثمانيّون؛ التصوّف؛ المتصوّفة؛ السّلطة.

نوقشت يوم 12 أبريل 2014